الشهيد

مروان حديد

ومنهجه في الدعوة والجهاد

ذكريات ومذكرات

دراسة توثيقية تحليلية



د. الشريف عداب الحمش

مُلاحظة مُهمّة جدًّا

تمّ رفعُ هذه النُّسخة من الكتاب

بإذن الشّيخ ومعرفته

حفظهُ اللهُ تعالى

مع التّنبيه إلى الاختلاف في ترتيب الكتاب وعدد الصّفحات

بين النُّسخة المطبوعة عام 2015م وبين هذه النُّسخة الرّقميّة

ممّا اقتضى التّنويه!

ولا نرجو سوى الدُّعاء للشّيخ بالعافية وحُسن الختام

بعيدًا عن أراجيف ومهاترات الكذبة في ادّعاءاتهم والله الموعد!

ومن أراد المزيد فعليه بصفحة الشّيخ في مواقع التّواصل الاجتماعيّ

احترامي

الشهيد مروان حديد

ومنهجه في الدعوة والجهاد

ذِكْرَياتٌ ومُذكِّراتٌ

دراسةٌ توثيقيّةٌ تَحليليّةٌ

عداب بن محمود الحمش

١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

الإهـداء

إلى مجمع الخصالِ الحميدة، والصفات الإسلامية المجيدة.

إلى السابق في وعيه، وفكره، ودعوته، وجهاده.

إلى صاحب القرآن، والقيام، والذِكر، والمَبرّات.

إلى الشريف، العفيف، الكريم، الشجاع، الأبيّ!

إلى سيّدي، وأكبر شيوخي في نفسي ...

السيّد الشهيد مروان بن خالد حديد الحُسينيّ الحمويّ.

عربونَ وفاءٍ طالَ احتباسُه، وسِجلَّ مواقفَ وذكرياتٍ قدّم في سبيل تحقيقها روحَه ونفسَه.

راجياً من الله تعالى أن يرفع مقامه في الشهداء الخالدين، وأن يجمعني به على حوض جدّه المصطفى الأمين.

يوم يكون ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾

عداب

بين يدي الكتاب

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا.. مَن يهده الله؛ فلا مُضلّ له، ومَن يُضلِلْ؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهد أنّ مُحَمّداً عبدُالله ورسوله، بلّغ رسالةَ ربّه، ونصح لأمّته، وتركها على المحجّة البيضاءِ، ليلُها كنهارها، لا يزيع عنها إلا هالك، ولا يتنكّبها إلا جاهل فاسدٌ، أوجاحدٌ معاندٌ.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[التوبة : ١٢٣].

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ١١].

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾[النساء : ٨٤]

وقال رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ:

(لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ)[١].

(ما تَرَكَ قومٌ الجهادَ إلاّ عمّهم الله بالعذاب)[٢].

---

(١) من حديث ثوبانَ رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٢٠) والترمذي في الفتن (٢٢٢٩) وقال: حديث حسن صحيح. ونحو هذا الحديث مرويّ من طريق جابر بن عبدالله الأنصاريّ؛ أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٦) ومتنه مرويّ عن غيرهما أيضاً.

(إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ؛ فَلا خَيْرَ فِيكُمْ) [٣].

أمّا بعد:

ففي رحلة الحياة الإنسانيةِ؛ تصطرعُ حوافزُ الخير، ونوازعُ الشّر، وقد تتطامى نوازعُ الشّر وتشرئِبُّ، وقد تغمرُ حوافزَ الخير في الإنسان، وتتباهى بتغلّبها الموقوت!

إن انتصار حوافزِ الخير في الحياة الإنسانية؛ رَهنٌ بإيمان أهل الخير بخيرهم، واعتصامِهم به، واستبسالهم في الذود عنه، بعد معرفته الصحيحةَ، التي تجعلهم عن صراطه لا يحيدون، وعن سبيله لا ينحرفون.

وفي «عصر الصَّحْوة الإسلاميّة» التي نستروح إلى ذِكرها، ونخدّر أعصابَنا بتردادها، ونعقد المجالس المتكاثرة للمناظرة حول مظاهرها وظواهرها، ونشرب على شرفها المضيَّع أنخابَ الوهم والخيال، ونتجرّع غُصَص الحسرة والحرقة، التي نباعد بينها وبين عقولنا وأحاسيسنا ما استطعنا.

أعتقد أن عصر «الصحوة الإسلامية» هذا؛ هو من أعنف عصورِ الصراع بين الحقّ والباطل، وأخطرها على العقيدة الإسلاميّة، والصحوة الإسلامية بآن!

ذلك أن شراسة الباطل وقوّته، وتعدد أشكال الكيد وأدواته؛ كانت متساوقةً مع التطوّر الصناعي، وتقدّمِ الآلة، وبلوغِ الإنسان مراتبَ سامِقةً في مجال التقنين والاختراع.

---

(٢) من حديث أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه؛ أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٣٩) وأشار إلى تفرّد عقبة بن قبيصة به، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥: ٥١٧) وأعلّه بشيخ الطبرانيّ عليّ بن سعيد الرازيّ.

قال عداب: عُقبة بن قَبيصة؛ صدوقٌ كما قال ابن حجر في التقريب (٤٦٤٨) وشيخ الطبراني حافظ وإن تكلّم فيه، فالحديث حسن في بابه، إن شاء الله تعالى.

(٣) من حديث قُرّةَ بن إياسٍ المزنيّ رضي الله عنه؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٣٠٢) والترمذي في الفتن (٢١٩٢) وقال: في باب فضل الشام أحاديثُ عن عبدالله بن حوالة، وعبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو، وحديث قرّة؛ حديث حسن صحيح.

كما كانت قدرةُ خصوم الإسلام هائلةً في جوانبِ التنظيم والتخطيط، والدعاية والإعلان والإعلام!

أما نحن أبناءَ الصحوة الإسلاميّة؛ فإننا قد سَكِرْنا من كثرة ترداد هذا القول فقط!

واقتنعنا، أو كدنا؛ أن عزّ الإسلام منّا؛ قابَ قوسين أو أدنى، ولم يعد بيننا وبين العيش في ظلّ الإسلام، وتحت رايته؛ إلا أن يقوم المتنفّذون في ديار الإسلام بإعلان «تطبيق الشريعة الإسلامية!» يعقبه إعلان آخر يعيش في خيال السكارى، يتحسّسونه على جدران عقولهم المغفّلة «الوحدة الإسلامية الكبرى».

إنّ ما بين «مليار ونصف المليار» مسلم يعيشون في عصر الصحوة، وبين حقيقة الصحوة؛ مفاوزُ تُقطع دونها الأعناق! ولكنهم يعيشون عصر «الغربة الإسلاميّة!» في نظري.

إن الإسلام بخير، وفي المسلمين خيرٌ كبير، وسيظلّ فيهم هذا الخير؛ ما بقي الدهر!

(إذا قال الرجل: هلك الناس؛ فهو أهلكَهم)[٤].

بيد أن الخيرَ مُتباينُ المظاهر، شتيتُ المناحي، مبعثرُ الطاقات، لا يستطيع أهله أن ينتفعوا به، ولا يقدروا على تنميته وتثميره.

ولو ذهب امرؤ ينظر في أحوال أولي الحَول والطول في العالم الإسلامي؛ لوجدهم منازعَ شتّى، وهياكلَ تستثيرُ الشكوى، وتجلبُ الأسى، وتبعثُ على القنوطِ، إلا من رَوح الله تعالى.

بين لاهٍ، وأبلَهٍ، وظلومٍ وتَبيعٍ، أما لهذا انتهاء!؟

ولو التفَتَ إلى رُموزِ الصحوة الإسلاميّة، من علماء ومفكّرين وأدباء؛ لَهالَه ما يجد بينهم من فساد ذات البين (الحالقة!) ولَذَهُل لما يسمعه ويراه من خصوماتٍ، لا تخدم إلا الشيطانَ وأعوانَه من الكبار والصغار!

---

(٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٣).

فهل هذه هي الصحوةُ الإسلامية، وما أبعادها المعرفية والسياسيّة؟

إذا كان المقصودُ بالصحوة الإسلامية كثرةَ عدد المصلّين والصائمين، والحجاج والمزكيّن، والممتنعين عن الزنا، وعن معاقرة الخمرة، وعن أكل مال الربّا؛ فهذا صحيح!

ففي المسلمين، اليومَ؛ مئاتُ الملايين ممن ينطبق عليهم مصطلح «الصحوة الإسلاميّة» بهذا المعيار! ولكنّهم (غثاء كغثاء السّيل) تأثيراً في وجهة الحياة الإسلامية.

وإن عُني بالصحّوة الإسلاميةِ؛ أنّ المسلمين اليومَ أقربُ إلى تحكيم شرع الله في مجتمعاتهم، وأنهم ينطلقون في قوانينهم ونظمهم وأحكامهم من شرع الله وأحكامه، وبالتالي، فنحن على مقربةٍ من الحياةِ الكريمةِ في ظلّ الإسلام؛ فغيرُ صحيحٍ أبداً!

إنْ على مُستوى الحكوماتِ، وغيرُ صحيح على مستوى الجماعات، وغير صحيح على مستوى المفكرين والعلماء والأدباء، وغيرِهم من شرائحِ الأمّة، المفتَرضِ أنها الواعية!

إنّ توصيفَ خروجِ الأمّة ممّا هي فيه، على المستوى البعيد؛ يحتاج إلى كتابة أربعة مؤلّفاتٍ، كلّ واحدٍ منها في حجم هذا الكتاب، أو يَزيد:

الأول: «إعادة صياغة العقل المسلمِ.. في المرجعيات، والمصطلحات، والمصادر، والتاريخ»

فالعقلُ المسلمُ اليومَ موزّع مشتّتٌ، تائهٌ بين دوّامة حاجات العصر، وقداسة الماضي.

والكتاب الثاني: «ظاهرةُ الانحراف السياسيّ في القرن الهجريّ الأوّل، وأثرها على الحياة السياسية والفكرية عند المسلمين».

والكتاب الثالث: «مراتب الأدلة النقلية وأثرها في بلايا الاختلاف».

والكتاب الرابع: «ظاهرة العنف في السلوك الإسلاميّ المعاصرِ.. رصدها والعلاج».

وفي كلّ واحدٍ من هذه الكتب الأربعة قد كتبتُ بحثاً، أو أكثر، وأنتظر عافيةَ الله تعالى وعونَه على إنجازها، وإن أنجزها غيري؛ فحيّهلا به!

أمّا على المستوى القريب؛ فقد كنتُ ولا أزال مقيماً على أنّ العنفَ يقود إلى العنف والتغلّب يقود إلى التغلّب، ولا بدّ من صيغة تعايشٍ بين المواطنين في الوطن الواحد؛ ليتمكّن العلماءُ الدعاة من الدعوة إلى الحقّ، ويتمكّن الساسة المؤمنون من ابتكارِ برنامجٍ سياسيّ، يحفظ للأكثرية المسلمة مكانتها وحقوقها، ويحفظ للمواطنين من غير المسلمين أمنهم واستقرارهم، وممارسة شعائرهم في معابدهم، من دون وكْسٍ ولا شَطط!

أمام هذا الواقع الأليم الذي تنوء بحَمْله الحياةُ الإسلاميّة المعاصرة...

وفي ضوء نتائج المغامرات التي خاضتها بعضُ الجماعات الإسلامية الغَريرة...

وإحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، ووفاءً للتعليم والرعاية والتربية ...

وإحياء لذكرى تصلحُ أن تكون أسوةً في جلّ مواقفها، ومعظم أعمالها...

وتحقيقاً لمبدأ النقد الذاتي للحركات الإسلامية المعاصرة...

فقد كُنتُ كتبتُ منذ العام (١٩٨١م) مُسوّدةَ ترجمةٍ وافيةٍ لمجاهدٍ من أكابر المجاهدين في هذا العصر، وداعيةٍ من أصدق الدعاة، وأكثرهم استبسالاً في الدفاع عن دعوته، وحرصه على نجاحها.

رسمتُ فيها طرفاً من سيرته الذاتية، وعُنيتُ عنايةً خاصة بمنهجه في الدعوة والجهاد.

ولأسبابٍ كثيرةٍ؛ صُرفتُ عن طباعتِه منذ ذلك التاريخ، ولا زلتُ حتى الآن أجدُ صدوداً من جهاتٍ عديدةٍ تجاهَ طباعته.

بيد أنّ الحربَ التي زُجّ بالشعبِ السوريّ في أتونها، أمامَ تجاوُزِ الطغاةِ الحاكمين في دمشق، والذين أهانوا هذا الشعبَ وأذلّوه وذبحوه؛ قادتني إلى اتّخاذ قرارِ طباعته، كائنةً ما كانت منزلةُ المخالفين لي في طباعته.

وقد تبيّن لي أنّ موافقةَ (الحمائم) و(الحذرين) و(المتخاذلين) تقودُ دائماً إلى خسارة محتّمة؛ لأنّ الجبنَ المغلّفِ بالحكمةِ؛ هو شرّ من الخوفِ المعترَف به من صاحبه بكثير.

ولو أنني طبعتُ هذا الكتاب منذ عشر سنواتٍ فقط؛ فربما كان أسهم في توعية الشعب السوريّ، وتوجيه ثورته، وترشيدها؛ لأنّ الكتاب يرصد حياةَ مجاهدٍ كبيرٍ، لا تنقصه الفكرةُ، ولا تُرجئه الخِبْرَةُ، ولا يثنيه عن قناعتِه وأهدافه عدوٌّ ولا صديق!

يقول فضيلة العَلّامة الشيخ سعيد حَوّى الحمويّ:

«أتراه حَديداً فقط..؟ أم إنّه أشدُّ أنواعِ الفولاذِ صلابةً..؟

لقد كان شيخنا مُحَمّدٌ الحامدُ، رحمه الله، يَوَدُّ في الظاهر لو أن الشهيد مروان خَفّفَ من شِدّته، لكنّه، رحمه الله، قال لي مَرّةً: أتمنى لو كان عِندكُم ألفُ رَجلٍ مِن مِثْلِ هذا الرَجلِ الحَديديّ، مروان حديد!».

ويقول في الشهادة ذاتها:

«لقد كان الشهيد مروان، رحمه الله، ولا زال، وسيبقَى أُسطورةً، يَفتخِرُ بالنسبة إليه مُحبّوه، ويَدّعي النسبةَ إليه شانئوه ومبغضوه ومنتقدوه!

ومتى رأيتَ إنساناً هذا حالُه؛ فاعْلَم أنه قَد تَجاوَزَ حَدّ الرجلِ العاديّ!

كان، رحمه الله، أُمّةً وحدَه، لا يُبالي إذا استبان له الطريقُ مَن وافقَه، أو خالفه!».

أجلْ هو كما قال زميلُه الشيخ سعيد حَوّى العالم الشجاعُ القويّ، هو الآخر!

لكنّ الفكرةَ التي اقتنع الشهيد مروان حديد بصلاحيتها وحدها لإزاحة الظلم والفساد عن صدر سوريّا الحبيبة؛ تحتاجُ إلى حوارٍ جادٍّ، وتجسيدُها لا يقوى عليه إلا دولةٌ قويّة غنيّة، تمتلك إرادَتَها، وتنطلق من مبادئها، ومصالح شعبها وأمّتها!

كان الشهيد مروان حديد يَعُدّ نفسَه من أوعى الناس لفكر الشهيد البنّا، وأكثر الناس تعشّقاً لفكر الشهيد سيد قطب، ويعلن في كل مجلسٍ، وفي كلّ مناسبة بأنه عنصرٌ من عناصر دعوة الإخوان المسلمين، التي جعلت الجهادَ سبيلَها، ويصرّح بأن كل من يزعم أنه من الإخوان المسلمين، ويُعفي نفسه من الإعداد للجهاد؛ فهو دخيلٌ على دعوة الإخوان، وليس من الإخوان، وأنّه حين ينهج منهجنا؛ يصبح منا، سواءِ أعلن انضمامه إلينا، أم لا!

إنّ الشهيد مروان حديد شيخي، لكنّ هذا لا يمنعني من مناقشةِ فلسفته التي استيقَنها طريقاً للوصول إلى إحقاق الحق، وإزهاق الباطل؛ معتمداً في كلّ ما أقوله على تجربتي الذاتية مع الشهيد، رحمه الله تعالى، وعلى أقاويل الثقات الأقربين من إخوانه.

ومعاذ الله أن أدّعيَ الإحاطةَ بجميع جوانبِ حياته ومنهجه، فربما جهلت عنه أموراً يعلمها كثيرون غيري.

ومن التجنّي أن أعتقد بأن أقوالي ومشاهداتي وتحليلاتي؛ صوابٌ كلّها، لا تقبل الخطأ، أو هي حقّ لا يَرِد عليه وَهَل، أو وَهَم، أو غفلة!

كما لا أدّعي بأنني أقربُ الناس إلى الشهيد رحمه الله تعالى، وأحبُّهم إلى قلبه، فقد كان عديدون من إخوانه وتلامذته يشاركونني القربَ من قلبه وشخصه، بيد أنّ أحداً منهم لم يكتب له ترجمةً علميّةً، توضح تجربته في (الدعوة والجهاد) وتقوّمها، حتى اليوم.

وكما أنني أعتقد أنّ لدى غيري ما انفرد به مع شيخنا الشهيد؛ فربما كان عندي عنه؛ ما لا يعلمه سواي أيضاً.

والشهيد مروان حديد رحمه الله تعالى؛ قد أفضى إلى ما قدّم، ولقي جوار ربّه تعالى قبل قُرابة أربعينَ سنة هجريّة (١٣٩٦هـ) فلن ينفعَه اليومَ مدحُ المادحين، ولن يضيره ذمّ الذاميّن، وحسدُ الحاسدين، وطموح الطامحين.

بيد أنّ الشهيد رحمه الله كان رجلَ دعوةٍ، وصاحب رؤية في الحركة والجهاد، ولم يُقدَّر له أن ينفّذ برنامجه تنفيذاً صحيحاً!

فوقعتْ في حياته أخطاءٌ، وحدثَتْ بعده أخطاء، وارتكب بعضُ من زعم وِراثَتَه حماقاتٍ وتطاولَ متنطعون، وكلٌّ منهم يدّعي أنه كان على صلة به، وأنه ثقةٌ عنده، وأنه كان مقرّباً لديه.

ولا والله ما مروانُ بمعصومٍ، ولا أنا بوالِهٍ به، ولا متعصّبٍ له.

ولكنه الرجلُ الذي قلّ من تحقّقت فيه صفاتُ المؤمنِ الربانيّ الحقّ من نظرائه، ومِمّن جاء بعدَه، مثلما تحققت فيه.

وصاحبُ العقيدة الذي قضى نحبَه في سبيلها، ولم تلِن له قناةٌ، ولم يُكسر له رمحٌ، ولم يُغمدْ له سيف!

وصاحبُ الأخلاق السامية التي لم نشاهِدْ بَعضَها إلا لديه وحده من خَلق الله!

فلهذا وذاك وذلّيّاك؛ رأيت أنه يجب عليّ أن أنشرَ أطرافاً من بُرُد أخلاقه الكريمة، وراياتٍ من سلوكه السامي، وأن أُطِلّ إطلالاتٍ سريعةً على فكره ومنهجه في الدعوة والجهاد، بما له، وما عليه؛ رجاءَ أن يُفيدَ منها العاملون في حقول الدعوة الإسلامية، ويتجنبوا ما يمكن أن يكون خَطأً في المنهج، أو البرنامج، أو الحسابات السياسية، التي قد يكون رحمه الله تعالى غفل عن بعضها، أو بعُدت عنه.

ومما لا أشك فيه أن عدداً من الناس سيقابل كتابي هذا بالسرور والرضا، وبعضهم سيقابله بالسخط والإنكار، وبعضهم سيعتِب، وبعضهم سيشمت، بل وبعضهم قد يسبّ!

وذاك كلّه لا يعنيني، والمدح في هذا، أو القدح في ذاك؛ سواء عندي، ما دام ضميري راضياً بما قدّمت، وما دمت غيرَ متناقض مع ما اعتقدتُ، وصرّحت.

وإنني أدعو كلَّ غيورٍ على دينه، معجبٍ بالشهيد، أو ساخطٍ عليهِ؛ إلى قراءة ما كتبتُ بعينِ الناقدِ المنصفِ؛ بعيداً عن مسألة الحبّ، أو البغض، أو نظرة الإعجاب، أو الإزراء!

إنّ حركةً تتبنى «الجهاد الإسلامي» وتناهضُ نظاماً من أعنف الأنظمة العربيّة، وأكثرها دمويّةً وطائفيّة حاقدةً؛ خليقةٌ بدراسة مستفيضة عن مؤسسها، وعن منهجه في العمل الجهادي الذي تَزعُم هذه الحركة أنها سارت، ولا تزال تسير على منواله.

أمام هذا؛ فقد أدرتُ هذا الكتاب على مقدمة وثلاثة أبواب، وملحقين، وخاتمة:

أما الباب الأول: فتناولت فيه ترجمة الشهيد مروان حديد الشخصية باختصار، وعرّفت بنسبه الكريم، وأبرز أخلاقه السامية، وذكرت أبرز شيوخه في العلم والفكر، وأبرز تلامذته وألمحت إلى تنوّع ثقافته، وطريقته في تحصيل العلم الشرعيّ وغيره.

وعُنيتُ بتفصيل القول في قصة اعتقاله الأخير.

وختمت هذا الباب بتسجيل أبرز النصائح والوصايا التي خصّني بها على انفراد، بعضها كان كتابيّاً، وأكثرها شفويّ.

والباب الثاني: تناولت فيه منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، وموقفه من الحركات الإسلامية والطرق الصوفيّة المعاصرة.

وتناول الباب الثالث: معالم منهجه في الجهاد الإسلاميّ.

وكنت خصصتُ «كتائبَ الطليعة المقاتلة» بفصل خاصّ؛ لأنها تمثّل التطبيق العمليّ لمنهج الشهيد مروان حديد الجهاديّ، لكنني آثرتُ قصرَ هذا الكتابِ على حياةِ شيخنا الشهيد مروان وحده؛ لأنّ الطليعة المقاتلة؛ تستحقّ كتاباً مستقلّاً في مثل حجمِ هذا الكتاب.

وأسأل الله تعالى أن يقوّيني؛ لإكمال ذلك الكتاب الذي لم أكتب إلا الفصلَ الأوّل منه.

وقد فَرضَتْ طبيعةُ هذا البحث؛ أن يكون له ملحقان اثنان:

– أما الملحق الأول: أودعتُ فيه مختصراً عن أبرز الأمراض الحركية في الجماعات الإسلامية السياسية.

– وأما الملحق الثاني: فقد أودعتُ (١٦) شهادةً لرجالاتٍ من معاصري الشهيدِ به.

وسجّلت في الخاتمة أهمّ ما أسفر عنه البحث من نتائج، وأبرزَ التوصيات.

وقياماً بواجب الشورى العلمية، الذي أتبنّاه في جميع ما أنشره للناس؛ فقد اخترتُ ستّةً من تلامذة الشهيد مروان وأحبابه؛ ليقرؤوا الكتاب، ويقدموا إليّ ملحوظاتهم؛ لأفيد منها في تصويب ما وَهَلتُ به، أو ذهَلتُ عنه، أو أخطأتُ في تحليله وفهمه.

وهم السادة الأفاضل:

الدكتور رشيد خالد العيسى.

الأستاذ السيّد حمدو مُحَمّدِ حمشو.

الأستاذ السيّد أمير سليم زَكيّة رحمه الله تعالى.

الدكتور عمر خير الدين الأيوبيّ

الدكتور أكرم عبدالقادر الريّس.

الأستاذ عبدالرحمن مُحَمّد نوح.

وقد قدّم إليّ الإخوةُ الأربعةُ الأوّلون ملحوظاتهم وتصويباتهم، التي ذكّرتْ من نسيانٍ وقوّمت من اعوجاجٍ، وأضافت من معرفةٍ نافعة!

بينما وعد الأخوان الآخران بنقد الكتاب وتقويمه، وتقديم ملحوظاتهم عليه، وقد مضى أكثرُ من عامين، من دون أن أتلقى منهما أيُّ شيء، وللأسف!

كما أشكر السادة الكرام الذين أدلوا بشهاداتهم في الشهيد مروان حديد، والتي أودعتها في ملحق الكتاب.

جزى الله تعالى الجميعَ عن شيخنا الشهيدِ مروان، وعَنّي، وعن الحقيقة التاريخية جزاءَ المحسنين الصادقين، والأوفياء الناصحين.

واللهَ الرحيمَ العظيمَ الكريمَ أسألُ أن ينفع بهذا الكتابِ، وأن يجعلَ ثوابَ ما فيه من خيرٍ في صحيفة شيخنا الشهيد مروان؛ زيادةً في حسناته، ورفعةً لمقامه، غير مزكّين، ولا متألّين.

وما كان فيه من خطأٍ أو غلطٍ؛ أن يتجاوزه الرحمنُ عني، ويشملني برحمته الواسعة؛ إنه هو حسبي ونعم الوكيل.

تمّت قراءتي الأخيرةُ لهذا الكتاب في استانبول — تركيّا، عند أذان فجر يوم الاثنين الخامسَ عشرَ من شهر ربيعٍ الأنور، من شهور سنة (١٤٣٦ هـ) الموافق (٢٠١٥/١/٥م) وأنا الفقيرُ الضعيف: عداب بن محمود بن إبراهيم بن مُحَمّد «الحَمْش» آل كنعان الحسيني الرضويّ نسباً، النعيميّ قبيلةً، الحمويّ.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الباب الأوّل
حياة الشهيد مروان خالد حديد
رحمه الله تعالى

الفصل الأول
حياة الشهيد مروان الشخصية

توطئة: لقد اعتاد أصحاب الأقلام أن يجعلوا لأفذاذِ الرجال مزايا خاصةً، وصفاتٍ منفردةً ترافقهم في مسيرة حياتهم كلها، بل ربما غالى البعض، فجعل ولاداتِهم متميزةً غير معتادة، وربما جعل وفياتِهم غيرَ مُعتادٍ مثلُها أيضاً!

إلا أن منهجنا في كل ما سنكتبه عن الشهيد مروان رحمه الله؛ هو تحرّي الحقائق والنقلُ الأمين، ومعرفتُنا الشخصية بالشهيد مروان رحمه الله تعالى طيلة اثنتي عشرة سنةً، بدأت في خريف سنةِ ثلاث وستين وتسعمائة وألف (١٩٦٣م) وانقطعت صلةُ الأجساد في الثلاثين من حزيران من شهور عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف (١٩٧٥م) قُبَيلَ لحظاتِ اعتقاله الأخير، الذي انتقل في نهايته إلى الدار الآخرة؛ محفوفاً برضوان الله تعالى ورحمته ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر : ٥٥] إن شاء الله العظيم.

تلك المعرفة الشخصية التي تعدّت حدودَ الصداقةِ، والزياراتِ المتبادلة، إلى الملازمة الطويلةِ، والعمل المشترك، والمقام البعيد في غرفةٍ واحدةٍ أياماً وأياماً.

وعسى أن تكون هذه الصلةُ المباركةُ مصدرَ خير، نستمدُّ منه جُلّ معلوماتنا فيما نسجّله على هذه الصفحات، يسعفنا في سدّ بعض الثغراتِ إخوةُ صدق، نثقُ بأماناتهم وضبطهم، وتجرّدهم لله تعالى.

ولا أكتب عَمّن أتّهمُ بالتعصُّبِ، سلباً أو إيجاباً؛ كلمةً واحدة!

وسيرى القارئ الكريم، وخاصة ممن يعرف الأشخاص والأحداث أنني تركت النقلَ عن كثيرٍ من الرجال؛ لمثل هذه الأسباب، اللهم إلا إذا كان الأمر مشتهراً عن الشيخ ومعروفاً لدى الكثيرين، فيكون نقلي من باب الاستئناسِ، لا الاحتجاج، والله المستعان.

١ – ولادة الشهيد مروان:

لقد تعددت الروايات حول ولادة الشهيد مروان:

والذي جزم به الأخ الدكتور أكرم الريّس ابنُ أخت الشهيد مروان؛ أنها كانت سنةَ أربعٍ وثلاثين. قال: ولا عبرة بما هو مكتوبٌ في البطاقة الشخصية.

ووافقه على ذلك أكثرُ مَن أودعنا شهادتَهم في ملحق هذا الكتاب، فانظرها.

وقيل: وُلدَ عام خمسة وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٥م) وهو ما قاله لي الشيخ سعيد حَوّى، والشيخ حمدو حمشو أيضاً، وغيرهما.

وكأنني سألت الشهيد مروان عن تاريخ مولده، فأجابني: عام (١٩٣٦م) والله أعلم.

وُلِد الشهيد مروان، كما يولد أيُّ طفل من الأطفال، بعد حملٍ دام تسعةَ أشهرٍ قمرية!

ولم يحدّثنا عن أيّ شيء متميّز، أو خارق سبق ولادته، أو لحقها!

فلا وُلد مختوناً، ولا على وجهه برقع، ولا كانت أمّه عقيماً، فصنع لها أحدُ مشايخ الصوفية حجاباً، فولدت ذلك الشبل المتميّز! [٥].

كان أبوه الحاج «خالد حديد» من كرام رجال أسرته، وكان له دكّان يتاجر فيه في سوقٍ من أسواق منطقة الحاضر، كما عَمِلَ وبعضَ أولاده مزارعاً في الجزيرة السورية.

---

(٥) من السائد لدى المترجمين أنهم يتلمّسون سبباً غيبيّاً لمراحل حياةِ كلّ متميّز، فرغبتُ أن أكتب هذا لأبيّن أنّ عنايةَ الله شاملةٌ جميعَ خلقه، وأنه لا يُشترط أن يكون في ولادة الإنسان خصوصيةٌ؛ ليكون متميّزاً!

وكانت والدةُ الشهيد مروان امرأةً صالحة، من آل البارودي الأسرة الكبيرة المعروفة في حماة، كما كان يحدثنا عنها الشهيد عن فضلها ورعايتها له أحياناً، رحمهما الله تعالى.

وكان الشهيدُ محبوباً من أهله جميعاً، فكان والداه وإخوتُه؛ لا يدخرون وسعاً في بذل كلّ ما من شأنه أن يريحه ويسعده، ونحن لمسنا ذلك على مدى سنوات معرفتنا به.

٢- نسب الشهيد مروان حديد:

لم تكن أسرة آل «حديد» في حماة من العائلات المغمورة، بل كانت عائلة كبيرةً معروفة طيبة، إلا أن الشهيد؛ لم يكن يهتم بمسألة الأنسابِ؛ لأنه يرى أُخوةَ الإسلام أوثقَ العرى.

فكم من أسرة عريقةٍ في نسبها الظاهر، لكنّ واقع حال أبنائها يُدنيها، ويُسِفّ بمكانتها وينأى نسبُها أن تلتصق به، أو يقرب منها، كما يقول الشهيد رحمه الله تعالى!

إلا أنني بحُكم نشأتي على حبِّ الاطّلاع على أنساب عائلات بلدنا حماة؛ سألت الشهيد في إحدى المرات عن أصل أسرته؟

فقال لي: والله لا أدري؟ وما يَضرّني أن لا أدري؟ لكنني كنت أسمع أنهم يقولون بأن جدّنا هو الشيخ حديد، وقبر هذا الشيخ في قرية تدعى «الشيخ حديد» على طريق مصياف، أو قال على طريق الغاب، عذابٌ الشاكّ.

قال: والشيخ حديد هذا؛ يعظمه أهل السنة والنصيرية والإسماعيلية، وضحك!

ومرّة أخرى جرى مثلُ هذا الحديث، فذكر مثلَ ما سبق، وأردف يقول: ويقولون بأننا من قبيلة «الحديديين» المشهورة.

وأضاف: على كل حال؛ أنا لا يُهِمّني ثبوتُ هذا النسبِ، ولا ذاك، وإنما أقول كما قال سلمان الفارسيّ رضي الله عنه:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

وسألته مرّةً ثالثة عن نسبه، فقال: وما يعنيك هذا الأمر؟ هب أنّ أصلي كان يهودياً أو نصرانيّاً؟ فانقبضتُ من كلامه ذاك!

فقال: لماذا انقبض وجهُك هكذا، ألم تعلم ما قاله الله تعالى في مؤمني أهل الكتاب؟

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص: ٥٢- ٥٤].

ألم تقرأ ما قاله الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ لهرقل في خطابه إليه:

(أسلِمْ؛ تَسلَمْ، يُؤْتِك الله أجرك مرتين)[٦].

وحين أَقمتُ في العراق، واطّلعت على مشجّرات أنسابِ قبائل وحمائلَ كثيرةٍ من آل البيت؛ وجدت في مشجّرات السادة الرفاعية في مدينة «راوة» ومدينة «حديثة» اسم الشيخ حديدٍ الأكبر، والشيخ حديدٍ الأوسط، والشيخ حديدٍ الأصغر، فالشهيد مروان رحمه الله تعالى من ذرية واحدٍ من هؤلاء الثلاثة، رحمهم الله تعالى.

وليس كما قال «باتريك سل»: «كان أفراد عائلة حديدٍ تجّاراً من أصل ألبانيّ وكان مروان أحدَ أبنائها من الإخوان المسلمين»[٧].

موجز صفات الشهيد الخَلْقيّة:

من أصول التربية الإسلامية؛ عدمُ تقديس الأشخاص، ونحن حين نترجم شخصيةً كبيرةً؛ لا نبالغ في إنجازاتها، وإنما نشير إشاراتٍ فقط إلى ما يفيدُ في الأُسوة والقدوة والتحفيز.

---

(٦) طرفٌ من حديث عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما أخرجه البخاري في كتاب بَدْء الوحي (٧) ومسلم في الجهاد والسير أيضاً (١٧٧٣).

(٧) انظر كتابه «الأسد والصراع على الشرق الأوسط» (ص: ٥٢٥).

وخلاصة شخصية الشهيد مروان تتجلى فيما يأتي:

قال الله تعالى في استحقاق القيادة: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة : ٢٤٧].

وقال تعالى حاكياً كلامَ ابنة شعيب فيمن يستحق العمل في أسرة فيها نساء!

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦].

فالشهيد مروان لم يُؤت سعةً من المال، ولكن أهله الكرام؛ واسَوْه بمالهم وكرمهم.

وقد تميزّ عن أبناء جيله، بقوة شخصيته، وتكريس حياته للدعوة إلى الله تعالى، وتفانيه في سبيل نصرة دينه، وزاده الله بسطة في العلم التطبيقيّ، والقدرة على الإقناعِ، وإقامة الحجة على أي محاورٍ كان.

وزاده بسطةً في الجسم، فهو قوي البنية، طويل القامة، يصل طوله إلى (١٨٥ سم) عريض المنكبين، طويل اليدين، وصل وزنه قبيل اعتقاله إلى (٩٠ كغ).

وهو القويّ البنية، القويّ العقيدة، القويّ الفكر، القويّ الحجة والبرهان.

وهو الأمين على أعراض المسلمات، وهو الأمين على المال، وهو الأمين على الأخلاق، وهو الأمين على رسالة التوحيد، هو الأمين على كل ما تشمله هذه الكلمة من استغراقٍ، رحمه الله تعالى.

كان صبيحَ الوجه، من أجمل الرجال، أبيضَ الوجه، أشقرَ شعرِ اللحية إلى الحمرة متناسقَ ملامح الوجه، يعلو محياه نور التقوى، وضياءُ قيام الليل.

هيئته ولباسه:

لم يكن الشهيد رحمه الله يُعنى كثيراً بمسألة لباسه، ولم أسمع منه مرّةً واحدةً في حياتي أنه يريد شراءَ ثيابٍ، أو أنّ ثيابه غدت قديمة!

كما لم أكن أرى عليه ثياباً متعددة الألوان والأشكال، بل كان معظم ثيابه من جنسٍ واحدٍ، وزِيٍّ واحدٍ أيضاً: عمامةٌ بيضاءُ، وفوقها حطّةٌ بيضاء، ويلبس دشداشة بيضاء، وفوقها عباءة بيضاء.

وقد يلبس أحياناً عباءةً حلبيّة، أو سكنيّة فاتحة، ولبس أحياناً قليلةٍ عباءَة مشمشية اللون.

وحين كان يدرس في مصر؛ كان يرتدي «بنطالاً» فضفاضاً مع «بانطو» طويل إلى الركبة، ويضع على رأسه «طاقيّةً» باكستانية.

كان رحمه الله أنيقاً في مظهره من غير تكلّفٍ، وكان يحرصُ أشدّ الحرص على أن تكون ريحُه طيّبةً، لكن من دون مغالاة وأن يكون شعره مصففاً من غير تكلّفٍ، ولا طولِ نظرٍ في المرآة، وغالباً ما تكون مرآته زجاجَ نافذة غرفته!

حين كان يمشي في الشارع؛ كنتُ أُحسّ أن الأرض التي يمشي عليها فرحةٌ بِمِشْيَته.

وكنت أحسّ أنّ السماء مسرورةٌ بطلعته، مثلما كنت أرى جميع من في الشارع مبتهجين برؤيته، منتظرين مرورَه بهم لسماع تحية «السلام عليكم» من فمه، ورؤية حركة يده اليمنى مؤكّدةً تلك التحية!

لا أذكر أنني رأيت رجلاً أبهى طلعةً منه، ولا أندى هيبةً، ولا أكثر شعبية في بلدنا مدينة حماة.

كان شيخنا مُحَمّدٌ الحامد ذا هيبةٍ جلاليّة، فكان إذا مرّ في شارعٍ؛ وجمَ الناس إجلالاً له، وخضوعاً لهيبته.

كنت جارَه في مَنْزله، وكان قرب مَنْزله محلٌّ بقالةٍ صغيرٌ لابن عمي، فربما كنت أشتري شيئاً ومرّ الشيخ الحامد، فكنتُ أرى الجميعَ في صمتٍ حذرٍ، وترقّب وجلٍ لمروره الكريم.

ومن المحال أن ينطقَ أحدٌ بكلمة، وربما كنت أحسّ أنهم لا يجرؤون على التنفّس من هيبته الآسرة، ووقاره الصارم، وصوته الفخيم.

أما الشهيدُ مروان فكانت هيبته جمالية، وكان صوته رخيماً، وكانت بسمته لا تفارق محيّاه، ولله في خلقه شؤون!

أبرز صفات الشهيد الخُلقيّة:

ذكرت في طليعة الكتاب أن ترجمتنا للشهيد مروان تختلف عن السائد في عالم ترجمات الشخصيّات الكبيرة، الذي يعتمد منهج الترجمة المعرفية، ومنهج الترجمة المنقبية.

بينما نحن نعتمد منهج الترجمة العلمية النقدية، إلى جانب هذين المنهجين.

ومنهج الترجمة العلمية؛ يعني في أيسر ما يعنيه ذكرَ مكارم المترجَم، وذكرَ مثالبه؛ لنقدّم للأجيال الحقيقة كما هي؛ باعتبار أنّ جميعَ المترجمين بشرٌ، تَعْرِض لهم النوازعُ البشريةُ، فهم يصيبون، فيُمدَحون، ويخطئون، فيُذَمّون، أو يُعذَرون!

بيد أنني لم أستطع تطبيق منهج الترجمة العلمية الناقدة بتمامه على ترجمة شيخنا الشهيد مروان؛ لأنّ النقد الموضوعيّ؛ إنما يفهمه على وجهه النقدةُ من أهل العلم والفكر والأدب!

وهو مرفوضٌ رفضاً قاطعاً في مثل بيئتنا الحموية العاطفيّة، التي لا تقبلُ إلا تعظيمَ من تعظّمهم، وتحقيرَ من تحقّرهم، بمعزلٍ عن الحقيقة والواقعية والعلم!

ففضلت أن أقتصر من النقدِ على ما يمكنُ أن تحتمله قلوب أهلنا الحمويين، وأمثالهم من المسلمين العاطفيين، الذين يرفضون إلا أن تكون صورة البطل مثلَ صوَر الرسل.

فنحن إذا ترجمنا أيّ عالم من علمائنا؛ يجب أن لا نبقي فاصلاً زمانياً ومكانياً بينه وبين الرسول إلا درجة النبوّة!

وحتى هذه، لا بدّ أن نسرد له من الكرامات (بحقٍّ وبباطلٍ) ما يجعله يشارك الرسول صلوات الله وسلامه عليه في كثير من معجزاته!

وأمامنا قاعِدَّة طويلةٌ عريضةٌ نطبقها متى ما أردنا: (ما جاز أن يكون معجزةً لنَبِيّ؛ جاز أن يكون كرامةً لوليّ).

وما دام في كنانتي الكثيرَ مما لم أكتبه عن الشهيد مروان ومعاصريه؛ خوفاً من قالة السوء، فنحتفظ به كله حتى يأتي يومٌ، ربما نفهمُ فيه الموضوعيةَ والنقد الذاتيّ!

والشهيدُ مروانُ حديد رحمه الله تعالى، عرفتُه منذ قدم من مِصر في أواخر عام (١٩٦٣م) ودامت صلتنا إلى أن اعتقلتُ أنا على باب منزله في دمشق، واعتقل في داخله هو وزوجته وزوجتي وابنتي، وبعض من كان معه في المنزل.

ويعرف الذين ينتسبون إلى الشهيد بالتلمذة والمعرفة؛ أني كنت من أقربِ تلامذته إليه وأكثرهم لزوماً له، وقراءةً عليه، وأنا من أعرفهم بعقيدته وسلوكه.

إلا أنّ أخانا وزميلنا الدكتور أكرم الريّس، بحكم كونه ابنَ شقيقة الشهيد مروان، فهو أعرف منّا جميعاً بسلوكه المنْزليّ، وبتعامله مع والديه، وأهل بيته الكرام.

كان الشهيد مروان أصدقَ من عرفتُ من الناس، وأكرمَ من عرفت، وأكثر الرجال حياءً ورقةً، وأعفّ من عرفتُ لساناً، وأعبدَ من عرفت صياماً وصلاةً وتلاوة للقرآن!

وكان أجرأَ من عرفتُ من الرجال في المواقف التي تتطلّب جرأة، وأوفى الناس لعهدٍ وألزمهم لموعدٍ.

كان مؤدباً غايةَ الأدب، في مأكله ومشربه، وملبسه وجلسته، فلقد عشتُ معه، ونمت معه، وحاورته مئاتِ المرات، بل ألوفَها، ولا أذكر أنه وضع رجلاً على رجل، ولو مَرّةً واحدة في مدّة صحبتي له كلّها، ولا أذكر أنني سمعتُ صوت الماء يقرقر في حلقه، أو صوتَ مضغه، وهو يأكل.

كان أبرز صفاته الحياء، فكان يحمرّ وجهه لأدنى المواقفِ المحرجة، بل التي لا يُحْرج منها غيرُه.

كان يستحيي أن يمضغَ الطعامَ، إذا أحسّ بأن أحداً ينظر إليه، فيحمّر وجهُه، ويتوقف عن المضغ حتى يصرف ذاك الواحدُ وجهَه عنه.

كان كريماً كرماً طبيعياً، من غير تكلّفٍ، ولا تأفف.

كان يرفض أن يعمل له واحد من الناس عملاً، من دون مقابل، كما كان يرفض رفضاً قاطعاً هديةَ أي أحد، سوى خُلّص تلامذته، خشيةَ أن تكون تلك الهدية صدقةً قُدمت بثوب هديةٍ، على مذهب من يجوّز إخراجَ الزكاة أو الصدقة للفقير باسم الهدية.

وبهذه المناسبة أقول: لقد سمعته مرّاتٍ كثيرةً يقول: قال رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ: (ليس أحدٌ أمنّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر)[٨] وأنا أقول: «ما أحدٌ من الناس أمنّ عليّ في ماله، بعد أهلي، من أخي صفي توفيق عديّ» رحمهما الله تعالى.

كان يُغيث الملهوف، ويسدّ حاجةَ ذي الحاجة، وخاصة النساءَ الضعيفات.

ولقد شهدنا من ذلك ما يتعذّر على الحصر!

وأذكرُ في هذا السياق حادثتين معروفتين لدى كثيرين من أحبابه.

---

(٨) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً؛ أخرجه البخاري في كتاب الصلاة (٤٦٧).

كنا حوله مرّةً، بمسجده في حيّ البارودية، وإذا بالباب يُقرع، فإذا امرأةٌ تَطلبُ مقابلته على الحال.

فلما خرج لمقابلتها؛ إذا بها تحلف له بالله العظيم أنها أرملة، وأن صاحب البيت يطالبها بأجرته، وحلفت له أيضاً أنها لم تطرق باب أحد سواه، حياءً وتعفّفاً!

لم يكن مع الشيخ المبلغ الذي طلبته، ولم يخبرنا بشيء، بل ذهب إلى بيت أهله، وأحضر ما لديهم في تلك الساعة من مال، لكنه لم يَفِ بمطلوبها، فطلب منّا نحن تلامذَته أن نُقرضه ما يكمل به المبلغ، فقال أحدهم: يكفي هذا، وما يدريك أنها صادقة؟ ورفع صوته قليلاً، فكاد الشهيد أن يضربه؛ خشية أن تكون المرأة سمعت، فجُرح خاطرها!

فلمّا أكملنا نحن المبلغ؛ قام أحدنا، وزاده عشرين ليرة سورية، فلما سأله الشهيد: لم هذه الزيادة؟ قال: تلك أجرة البيت، ألا تحتاج لنفسها وأولادها شيئاً تعيش به؟

فأُعجب الشهيد بكلام تلميذه هذا، وقال له: مادمت بهذه الأريحية؛ فلن نردّ إليك شيئاً ممّا اقترضناه منك، فأنت تستحق ذلك!

وفي إحدى الحوادث؛ أصيب أحد شباب جامع السلطان بما يُدعى «الماء الأزرق» على عينيه كلتيهما، فحملناه إلى طبيب العيون الأشهر، ولم يكن بعيداً عن جامع السلطان، فقرر أنه يحتاج إلى عمليّة عاجلة، تكلفتها (٢٥٠ ل.س) نظراً لحالة الشاب المادية، وإلا فكلفتها أكثر من ذلك بكثير!

فقلتُ للطبيب: توكّل على الله! اعملْ له العملية، وأنا أتعهّد لك بالمبلغ!

فحدّد له موعدَ العملية بعد يومين، وقال: هذه مدة كافية لتحضير المبلغ، وأنا والله ساهمتُ معكم، فلا تُحرجوني!

كانت هذه الحادثة في صيف عام (١٩٦٨م) وكان بعضُ مشايخنا يرفعون أمامنا من أقدار أناسٍ من التجّار الأغنياء، كانوا يستضيفونه في بيوتهم أحياناً، فكانوا يظنونهم من الكرام أهل المعروف، كما كنا نحن نظُنّهم كذلك!

وكان ولد ذلك الشيخ صديقي، فأخبرته بالقصة، فتحمّس، وذهبَ معه إلى واحدٍ من أولئك التجّار، فرحّب بابنِ الشيخ، ووعده خيراً، لكنه أصرّ على رؤية الشاب!

وبشقّ الأنفس استطعتُ أن أُقنع الشابَّ بالحضور إلى مكتب ذلك التاجر القريب من قلبِ شيخنا ذاك، والذي كان أولاده زملاؤنا؛ يعبثون عبثاً ذريعاً في أمواله!

وحين أحضرتُه، وكشف عن عينيه؛ قال له: إن شاء الله بسيطة، تعال اعمل عندي ثلاثة شهور، فتستطيع أن توفّر قيمة العملية، فهذا خير لك من إجراء عملية من أموال الصدقات!

كاد الشابّ أن يقع على الأرض، من هذه الكلمات المفعمة بالورع والتقوى!

فأوصلته إلى بيته، ثم رجعت إلى زميلي ابن الشيخ، فأخبرته بما حصل، فحزن، لكنه أعلمني أنه لا يستطيع فعلَ شيء!

ذهبتُ إلى والديّ، وكانا في المزرعة القريبة من المدينة، فأخبرتهما بالقصة، فأعطتني والدتي خمسين ليرةً، رحمة الله عليها.

ثم طِرتُ إلى مسجد الشهيد مروان، وقصصت عليه موجزَ القصة، فأطرق قليلاً، ثمّ مدّ يده، فأخذ قلمي من جيبي، وكتب على ورقة بقربه أشياء لم أنظرها، ثم قال لي: اذهب إلى الشيخ فارس السالم، فهذا رجلٌ صاحب مروءة، وقل له: مروان يسلّم ويقول: فرضنا عليك خمسين ليرةً لله تعالى!

فذهبتُ إليه، وأحضرتها فعلاً، ثم رجعتُ، فوجدتُ الشهيدَ مروان قد أحضر أقلّ من مائتي ليرة بقليلٍ، وقال لي: هذا المبلغ من والدتي وبعضِ أخواتي، فتَدفعُ منها تكاليفَ العملية، وأجرة السيارةِ، وتعطي الباقي للأخ المريض، بطريقتك الخاصة!

حزن الشهيد مروان أن يكون مشايخنا يُخدَعون بمن يكرمهم للوجاهة، كما حزن ألا يكون لديه من المال، ما يُنقذ هذا الأخ من غير مهانة!

كان جريئاً إلى الدرجة القصوى، ومن وصفه بالتهور من أقرانه؛ تراجع وقال: هو الشجاعة ذاتها، هو ليس بالمتهوّر، ولكننا نحن الجبناء، أحباب الدنيا.

كان فصيحاً بليغاً من غير تقعّرٍ، ولا تكلّف.

كان الشهيد مروان صوّاماً، قوّاماً، كثيرَ الدعوة، والحركة، وتلاوة القرآن، وطلب العلم لا يترك نفسَه أبداً لما يسميه الناسُ بالفراغ.

وحين تيسّر له الحجّ؛ حجَّ إلى بيت الله الحرام، في عام (١٩٦٥م) بعد خروجه من السجن، وهناك التقى بالشيخين الفاضلين: الشيخ عليّ الطنطاوي، وأخيه الشيخ سعيد.

وفي إحدى زياراتِ شيخنا عليّ الطنطاوي، رحمه الله تعالى؛ قال له الشهيد بلال الخطيب، وهو ابن أخت زوجته: شيخنُا هذا؛ من تلاميذ الشهيد مروان حديد!

فقال الشيخ عليّ: أوه! أين مثلُ الشيخ مروان، كان مروان عديمَ النظير، رحمه الله!

وباختصارٍ أقول: لا أعلم صفةً من صفات الخير، إلا كان للشهيد مروان نصيب وافٍ منها، والصفات المباركة التي اجتمعت فيه؛ يصعب أن تجتمع في مجموعة من الرجال الأخيار، وبذلك استحقّ الشهادة في سبيل الله تعالى، فاتّخذه الله شهيداً!

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران : ١٤٠].

لو كان الشهيد مروان حديد عالماً شرعياً، وكانت لديه هذه الصفاتُ الرائدةُ، الشاملةُ جميعَ سلوكه الديني والدنيوي؛ لكان هو رجلَ هذا العصر الأوّل كمالاً في الصفات.

أما وقد كان مثقفاً كبيراً، ليس بفقيهٍ مجتهدٍ؛ فإن الإخلاصَ الذي كانت آثارُه باديةً عليه، واتصافَه بجميع هذه الصفات السامية مع الثبات عليها، حتى نهاية حياته؛ فأرجو أن تكون شافعةً له عند الله تعالى، ليبلغه منازل الشهداء والربانيين.

ولعلّ أبرز صفتين عند الشهيد مروان رحمه الله تعالى؛ هما الثبات والإيثار!

ثبات الشهيد مروان رحمه الله على محجّته:

جاء في الحديث؛ أنّ النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ كان يقول في صلاته: (اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمرِ، والعزيمةَ على الرشدِ، وأسألك شكرَ نعمتك، وحسنَ عبادتك وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم؛ إنك أنت علام الغيوب)[٩].

ففي هذا الحديث دلالةٌ على أن الثبات وعدم التقلّب؛ صفة إيمانية مهمة في سائر أمور المسلم، ومنها معرفته طريق الرشاد، وطريق الإرشاد.

ومن الواقع المشاهد نجد أناساً جاؤوا إلى التديّن بحماسٍ، وانغمسوا فيه بشدّة وتفانٍ!

ثم طال عليهم الأمر، فتراجع بعضهم في التزامه، وفتر بعضهم في طاعاته، وبعضهم انسلخ من تدينه، وهؤلاء جميعاً؛ لا يتصفون بصفة الثبات في الأمر!

---

(٩) من حديث شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩٣٥) وأحمد في مسنده (١٦٦٦٥) والنسائيّ في كتاب السهو من المجتبى (١٣٠٤) والترمذيّ الدعوات (٣٤٠٧) وقال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قلت: وفي إسناده ضعف، لكن معناه جميل.

ومن الناس من تُسند إليه إحدى مهامّ الدعوة إلى الله تعالى، فيقوم بها على أتمّ وجهٍ، ثم يطول عليه زمنُ الوصول إلى الهدف؛ فيضعف، ويصيبه لونٌ من ألوان اليأس.

لم يكن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى أفقهَ أهل عصره، ولا أحفظهم، ولا أعلمهم بالحلال والحرام، ولا أعلمهم بتاريخ رجال الحديث، ولا أغوصهم على علله.

بل كان عددٌ من علماء الإسلام في عصره مثلَه، وعدد آخرون يزيدونه في كل جانب من جوانب العلم والسلوك والزهد والتربية في نظري.

لكنّ ثَباتَ الإمام أحمد على مذهبه؛ أكسَبَه ثقةَ الناس، وجعله إمامَ أهل السنة والجماعة، بل غالى فيه بعضهم حتى قال: إن موقف أحمد من هذا؛ يقدّم على موقف أبي بكر الصديق يوم الردّة!

وهكذا، فإن مسألة الثبات على المبدأ وعدم التقلّب؛ من الصفات الدينية العالية التي يُكبرها المسلمون، ويعتزون بها، ويزكّون أنفسهم، ويربونها على اكتسابِها، والمحافظة عليها.

بيد أنّ هذه الصفة ذاتها؛ قد يخطئ الناس في تقويم بعض الشخصيات حيالها.

ذلك أنّ في الدين أموراً أساسية، وأموراً فرعية، وفيه أمور توقيفية، وأمور اجتهادية.

وثمة أمور إجماعية، أو تواضعية، وأمور خلافية، وثمة أمور طائفية، وأمور حزبية وأمور ذوقية سلوكية.

وعدم التمييز بين هذه الأمور؛ يوقع في خلط كبير، ويوقع المجتهد نفسه في مساءة الظن به، إذا تغيرت نظرتُه إلى تلك الأمور.

إذن مسألة الثباتِ؛ تحتاج إلى نظر علمي فاحص من جهة، وتحتاج إلى ربطها بدلائل النوايا من جهةٍ أخرى.

فماذا نريد أن نقول في ثبات الشهيد مروان؟

لقد اقتنعَ الشهيد مروان قناعة تامّة أن الغرب العلمانيّ الاستعماريّ؛ هو الذي يتحكّم بأمتنا العربية الإسلامية، وأنّ أكثر حكّامِ العربِ؛ أتباعٌ أذلاء لسياسات الغرب وتطبيق قوانينه العلمانية، فأكثر هؤلاء ينطبق عليهم ما ينطبق على ساداتهم ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤].

واقتنع الشيخ بأن كلّ الأحزاب غير الإسلامية من علمانية، واشتراكية، وقوميّة؛ كلها أحزاب كافرة، فليس إلا «حزبُ الله» الذي ينتمي إليه المسلمون الملتزمون و«حزب الشيطانِ» الذي ينتمي إليه جميع الخلق سواهم.

واقتنع بأن كل من يوالي الغرب، وينفذ مخططاته في بلادنا؛ فهو كافر!

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وكان يرى أن حكام سوريا؛ كفرةٌ، يجب جهادهم وقتالهم بجميع السبل الممكنة حتى انتزاع الحكم منهم؛ لأن إبقاء الحكم في أيدهم؛ محادّة واضحة لمراد الله تعالى:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

لأنّ المؤمنين الحقيقيين؛ من المحال أن يسلط الله عليهم الكفار، والكفار إنما يسلطون على مثلهم، أو على العصاة المذنَبيّن؛ ليؤدبهم الله بأيدي الكافرين.

وكان يرى أن البعثيين ممّن ينتسب إلى أهل السنة؛ كفرة مرتدّون، أما المتعاونون معهم؛ فيجوز قتلُهم في حال اصطفافهم معهم، لا لأنهم كفرة؛ وإنما لأنهم في خندق الكفرة (يقتلون ويبعثون على نياتهم)[١٠].

---

(١٠) طرفٌ من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، أخرجه البخاري في كتاب البيوع (٢١١٨) ومسلم في أشراط الساعة (٢٨٨٤).

هذه المبادئ وأمثالها كثير، آمن بها الشهيد مروان واعتقدها، وربّى تلامذته عليها، وثبت عليها إلى آخر حياته، ولم يتلوّن، ولم يداهن، ولم يجامل أقربَ الناس إليه عليها!

هذا الثباتُ؛ هو أهم ما يعني الدعاةَ والشباب الحزبيين من الإخوان المسلمين وغيرهم.

أما أنا فيعنيني من الثبات هذا، ومما هو أبعد منه، وهو الثبات في السلوك الديني.

الثباتُ المطلق على العقيدة والفكر والمبادئ.

الثباتُ على العبادات، والطاعات، والثبات على الأخلاق الفاضلةِ، من أوّل يوم عرفته فيه إلى ما قبل لحظة اعتقاله بنصف ساعةٍ، على أعلى تقدير.

إن الثبات على الكرم، والثبات على الإنفاق، والثبات على الوقار والأدب والحياء واللطفِ، والثبات على السلوك الدعوي، والسلوك الشخصي.

ذاك الثبات الذي كان عليه الشهيد مروان رحمه الله؛ ما رأيته عند أحد سواه، ولا تكامل في شخصٍ آخر ممّن عرفت، ولا هو متكاملٌ عندي أيضاً!

وأما الصفة الثانية؛ فهي صفة الإيثار:

وإذا أردنا أن نذكر ألف شاهدٍ على إيثار الشهيد؛ لما عجزنا، ولكننا نذكر مثالين هما في غاية القسوة.

أمّا الأول؛ فهو أنه تحت ضغط والدته؛ عقد على فتاةٍ اختارها له أخوه وزميلُه الشيخ عبدالحميد الأحدب؛ قُبيل ملاحقته، في أواخر عام (١٩٧٢م) ثم إنها رغبت أن تكون معه في مخبئه؛ وبقيت معه مدة طويلةً من الزمن، تؤنسه وتسهر على رعايته، وتبيت معه، ثم لا يدخلُ بها، ويقول لها: سأتركك بكراً لغيري، من أجل مستقبلك؟

قال الشيخ عبدالحميد الأحدب: هذا إيثارٌ عجيب، لا أستطيعه أنا، ولا أراه صواباً! كما سيأتي في شهادته التي أودعتُها في ملحق الشهادات!

وأما المثال الثاني؛ فقد كان يقول لنا: أنا آخذ عليكم العهدَ أن لا يُسلّم أحدكم نفسه لأولئك الطغاة إلا شهيداً، لكن على فَرَض أنّ أحدكم جُرح جُرحاً بليغاً، أو دوهم على غفلةٍ، واعتقل؛ فليس بكم حاجة إلى أن تصبروا على التعذيب والمهانات، قولوا: مروانُ هو من أمر، مروان هو من فعل، مروان هو من قال!

ولقد سجن مرّات عديدة، بعضها أكثرُ من سنة، وبعضها أيام، وفي جميعها؛ لم ينقل إلينا أنه وشى بأخ، أو كشف سرّ أحد، أو تلفّظ بأسماء من يعملون معه، لا تحت التعذيب والترهيب، ولا بأسلوب الأماني والترغيب، فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وجزاه عنا خير الجزاء.

****

الفصل الثاني

حياة الشهيد مروان العلمية والثقافية

– نشأة الشهيد الفكرية الأولى:

لقد مرت حياة الشهيد الأولى متأثرة بالبيئة التي نشأ في أحضانها، وترعرع على شطآنها، ولا يخفى أن سنواتِ الأربعيناتِ؛ رافقت الحربَ العالمية الثانية، وحركةَ الاستقلالِ من الاحتلال الفرنسي، وحينها نبتت الاشتراكيةُ والاشتراكيون، متأثرين بالثقافة الفرنسية من جهة، ومناهضين للاستعمار الفرنسيّ من جهةٍ أخرى.

وكان للشهيد مروان أخوان يعتبران من كبار الاشتراكيين آنئذ، حتى إن أخاه الضابط «كنعان» شاركَ في الانقلاب على أديب الشِيشكلي! ولقد حدثنا الشهيد مروان عن هذه الفترة بالذات فكان مما قال:

«لقد مرت سنوات طويلة من حياتنا، ونحن نسير على غير هدى! حتى إذا كنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية؛ كنتُ وللأسف من أكثر الناس حماساً للاشتراكية ودفاعاً عنها، ومعارضةً لخصومها».

أقول: إنني لا أرى ثقافة رجل ما، إنما تقاس بمقدار ما يحصل عليه من شهادات جامعية؛ لأن كثيرين قد يحصلون على مثل ذلك، ولكن بعض أولئك هم الذين يتوسعون في دراساتهم، وينطلقون خارج إطار تخصصهم، ثم يبدعون في غير تخصصهم، وترى منهم ما لا تراه ممن تخصص في هذا الفن، أو ذاك.

والشهيد مروان رحمه الله تعالى، كان من أذكياء الرجال، ونبهائهم، ولقد قرّرت سابقاً، وأيدني في ذلك الأخ المصري سعدالدين الدسوقيّ، وكما يعرف كثيرون؛ أن الشهيدَ؛ لم يكن

يُلقي للدراسة الرسميّة بالاً، وكان يرى أن الدراسات الجامعيّة في تخصصات علميّة، مثل الطب والهندسة ونحو ذلك؛ هي من النوافل!

أما أصحابُ الدعواتِ؛ فيجب أن يكرسوا جهودهم، ويستغلّوا وقتهم كله لفهم دعوة الله، والعمل على نشرها، وجعلها واقعاً ملموساً على الأرض.

ورغم أن الشهيد قد حصل على شهادة «بكالوريس» الهندسة الزراعية، ثم سجل في جامعة دمشق في كلية الآداب قسم الفلسفة، عام (١٩٦٥م) وحصل على الشهادة منها أيضاً، عام (١٩٧٠) إلا أنه لم يعمل بهذه أو تلك، يوماً واحداً في وظيفة.

ولقد سأله أحد الإخوة، وقد نسيتُ اسمَه، عن سبب تسجيله بهذا الفرع؟ دون تسجيله في كلية الشريعة، مع أنها ألصق بدعوته، وأجدى لفكرته فكان مما قال:

إن الطالب الذي يلزم نفسه أن يسجل في كلية الشريعة؛ يجب أن يكرس كل وقته وجهده لطلب العلم والتفوق، ونحن في هذه المرحلة يلزمنا من العلم ما هو مفترض على كل مسلم، وهذا يمكننا أن نحصله بأنفسنا، وعلى أيدي العلماء في المساجد.

ولا يليق بدارس الشريعة؛ أن يأتي في آخر العام، فيقرأ عِدَّة ساعات لكل مادة من مواد الشريعة؛ ليحصّل بها درجة النجاح، كما نفعل نحن؛ إذ ليس عندنا من الوقت ما يسمح بالتفرغ المطلوب.

هذا ما أذكره حيال هذه المسألة، وقد ذكر الدكتور رشيد العيسى في شهادته أنه سعى للتسجيل بكلية الشريعة، فلم يتيسّر له.

يضاف إلى هذا وذاك أنّ تسجيل الشريعة عندنا يكون عن طريق المفاضلةِ، التي يتنافسُ فيها من كان حصل على الشهادة الثانوية في العام نفسه.

أما من حصل على الثانوية في عام (١٩٥٦م) فكيف يسجل في العام (١٩٦٥م) أو بعد هذا العام؟

وقد حدثني عددٌ من الإخوة عن الشهيد مروان أنه قال: إنه درس الفلسفة ليطّلع على مباحثها الفلسفيّة، ويردّ على دعاة الإلحاد والاشتراكية والشيوعية والقومية، كمشيل عفلق وغيره، بنحو ما يفهمون.

قال: ولكنني لما اطلعت عليها؛ وجدتُ أفكارَهم أتْفَهُ من أن يُشتغَلَ بها، فضلاً عن أن يُرَدَّ عليها!

هذا ما حصله الشهيد رحمه الله من شهادات جامعية.

أما عن ثقافته العامة؛ فلعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت بأنه يقلّ كثيراً بين الدعاة المعاصرين من اطّلع وقرأ ، كما اطّلع الشهيد مروان، وقرأ.

وقد عشتُ معه، وكنت أجد بين يديه مزيجاً غير متناسق من الكتب أحياناً، فبينما تجد كتاباً في الفقه، إذا بك ترى كتاباً في العقيدة السلفية، وكتاباً في عقيدة الأشاعرة، وآخر في الفكر الإسلامي، وكتاباً يتحدث عن الحرب النفسيّة، أو حرب العصابات، أو كتاباً عن الاشتراكية، أو الديمقراطية، أو كتاباً عن الاقتصاد المقارن.

وقد قرأ كثيراً من كتب مذكّرات الرجال، وقرأ عن زرادشت، ونهرو، وغاندي، ومُحَمّد إقبال، وأبو الأعلى المودودي، وتشي غيفارا، وهوشي منه، وهتلر، وتشرشل، وخالد العظم، وفوزي القاوقجي، وغيرهم كثيرين.

على أن أكثر مطالعاته وقراءاته كانت في كتاب الله تعالى وسيرة رسوله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وكتب الفكر الإسلاميّ.

سألته مرّة: كيف يكوّن الإنسان ثقافةً مركّزةً، فقد قرأتُ آلافَ الكتب المتنوّعة، ولا أشعر أنني متخصّص في شيءٍ يُذكر، سوى اللغة العربية التي أتقنتها بسبب تدريسي لها!

فقال لي: اكتب برنامجاً مهمّاً جدّاً، إذا أتقنته إلى جانب ثقافتك المتنوعة؛ تصبح عالماً كبيراً!
وضحك رحمه الله تعالى، فأملى عليّ:

- اقرأ واحفظ كتاب الله عزّ وجلّ، واحفظ كلمات القرآن لحسنين مخلوف المصري، وتفسير الجلالين السيوطي والمحلي.

فإذا أردت التوسّع؛ فعليك بتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وتفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب، فلا يكاد طالب العلم يحتاج إلى سواهما.

- واقرأ واحفظ «رياض الصالحين» و«الأذكار» للنوويّ، فهما كتابان مباركان ويكفيان المسلم في دعوته وسيره إلى الله تعالى.

- واقرأ في العقيدة المتوارثة، وافهم: شرح ابن أبي العزّ على العقيدة الطحاوية، واقرأ براءة الأشعريين من عقائد المخالفين، واقرأ «الجواهر الكلامية» للجزائري، فهذا كافٍ.

- واقرأ في العقائد المعاصرة «كبرى اليقينيات الكونية» لشيخك الدكتور مُحَمّد سعيد البوطي، و«خصائص التصور الإسلاميّ» للشهيد سيد قطب.

- واقرأ واحفظ في الفقه «متن أبي شجاع» واقرأ من شروحه خصوصاً كفايةَ الأخيار للحصني، فقد كان الرجل محدّثاً، فهو أعرف من غيره بالأدلة المنقولة.

- واقرأ واحفظ «معالم في الطريق» للشهيد سيد قطب، ورسائل الشهيد حسن البنا، ثم طالع بعد ذلك ما شئت.

قال: واعتن بمذكرات الرجال الكبار، بغضّ النظر عن عقائدهم، ففيها فوائد تختصر عليك الزمن، وتقلل من أخطائك الدعوية والاجتماعية.

فضحكت وقلت: قرأت جميعَ ما ذكرتَ وأضعافه من كلّ فنّ، وأشكو ما سمعتَ!

قال: من حفظ المتون؛ حاز الفنون، كما يقولون! ويظهر لي أنك من صنف (منهومان لا يشبعان)[١١] فقط!

والحق أن الشيخ الشهيد رحمه الله تعالى؛ كان كالحديقة الغنّاء، أنى اتجهت في جنباتها؛ لا تجد إلا منظراً جميلاً، ورائحةً زكيّةً.

إلا أن الذي لا يفوتني التذكيرُ به أن الشيخ لم يكن يكثر القراءة؛ ليطيل الجلوس، أو يضيّع الوقت، وإنما لينطلق من ورائها إلى عمل مثمر نافع بنّاء.

وكثيراً ما كان يقول: إن عشرة من الكتب تكفي الإنسان لدينه وثقافته، ويمكنه تعلمها بعِدَّة أشهر، ولكنه يُفني عمره كله، ولا ينتهي من تطبيق ما فيها.

طلبتُ منه أن أقرأ عليه شيئاً من الكتب؛ فشرعنا في كتابَي «كفاية الأخيار» للتقيّ الحصني، وكتاب «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين» لأبي حامد بن مرزوق[١٢].

واستوقفتنا فيما قرأناه عِدَّة مسائل من الكفاية، فذهبنا معاً إلى جامع «البحصة» للقاء شيخنا الكبير خالد الشقفة، فسألناه عن تلك المسائل، فأجابنا إجابة العالم الشافعيّ المكين، رحمهما الله تعالى.

---

(١١) روي هذا الحديث مرفوعاً إلى النَبيّ صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ من طريق أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، عند البيهقي في شعب الإيمان (٧: ٢٧١) والحاكم في المستدرك (١: ١٦٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجد له علّةً، ورُوي مرفوعاً أيضاً من طريق ابن مسعودٍ وابن عباس، وجميعها لا تصحّ، ورويت موقوفةً ومقطوعةً، وغير المرفوع بعضه صحيح.

(١٢) وقد كان يُنسب في السعودية إلى الشيخ عبدالفتّاح أبو غدة!

وأنجزنا قسم العبادات، ثم انتقلنا مباشرة إلى الشركات؛ لمعرفة فقه الواقع، كما قال الشيخ رحمه الله تعالى، ولم نكن نسير في فصول الكتاب تِباعاً؛ خشيةَ أن تطرأ علينا عوارضُ تحولُ دون إتمامِ الكتاب، لكننا أتممناه بفضل الله تعالى.

أما «براءة الأشعريين» فلا أذكر إذا كنا أنجزناه، أم بقي منه صفحاتٌ قليلة، لم ير الشهيد حاجةً إلى قراءتها معاً، فقرأتها لنفسي.

وأكثر ما استفدتُه من القراءة مع الشهيد مروان؛ أنّ قراءة الكتاب معه؛ تَنجُز في شهرٍ أو أقلّ من شهر، بينما لم نُنجزْ على يد غيره من المشايخ عُشرَ ما أنجزناه معه في سنوات!

وعقب الانتهاء من «براءة الأشعريين» شرعنا في كتاب «كبرى اليقينيات الكونية» للدكتور البوطي، وكان الشهيد معجباً جدّاً بكتابات الشيخ البوطي، مع أنه لم يكن راضياً قطّ عن مواقفه من السلطة في سوريا.

وجملة ما قرأت على الشهيد مروان؛ لا يتجاوز سبعَةَ كتبٍ، كان هو الذي يختارها.

وجميعها مما كنت قرأته سابقاً، ما عدا كتابَ «براءة الأشعريين» فالمرة الأولى التي قرأته فيها؛ هي التي كانت مع الشهيد.

وأظنه قال لي: اقرأ هذا الكتاب، وكتاب «تبيين كذب المفتري» لابن عساكرٍ عِدَّة مرات، وهما مفيدان جدّاً، وقد فعلتُ فِعلاً.

وقد قلت له مرةً: هناك انتقاد يوجّه إلى كتاب «براءة الأشعريين» يقال: هو للشيخ عبدالفتاح أبو غدّة، فهل هذا يقلّل من قيمة الكتاب؟

قال: ليكنْ لمن كان! المهم المضمون، اعرف الرجال بالحقّ، ولا تعرفِ الحقّ بالرجال، أنا يعجبني هذا الكتاب، وكتاب تبيين كذب المفتري، كما حدثتك مرات!

وكان رحمه الله متشعبَ الثقافةِ، لا تكادُ تطرح أمامه قضية؛ إلا عالجها خيرَ معالجة وحلّلها أجودَ تحليل، ثم إذا كانت تحتاج إلى جوابٍ وحلٍّ؛ استخلص لك الحل المناسب لشخصك أنت.

ولم يكن الأخ الشهيد رحمه الله ممن يخوض وراء الجزئيات الفقهية، أو المباحث الكلامية، أو التفاسير المطولة، وكان يوصي دائماً بالكتب الوجيزة.

أما هو فقد كان يعتمد غالباً على تفسير القرآن بالقرآن، وكأنّ كثرة مطالعته لتفسير الظلال وابن كثير؛ قد أورثته ملكة تسعفه في التفسير عند الحاجة، حتى كان يردد دائماً أنّ خيرَ تفسير للقرآن؛ هو تلاوة القرآن!! حثاً منه على كثرة تلاوة القرآن؛ لأنه يفتح آفاق الفكر، ويغذي الروح، ويطرد وساوس الشيطان، فيصفو الفكر، ويقوى على معرفة الصواب.

وحدثني مرة أنه التقى العَلّامة أبا الحسن الندويّ، وسأله الشهيد عن خير تفسير للقرآن في نظره؟ فقال الندوي: القرآن!

وعقّب الشهيد: وفعلاً إنّ خير تفسير للقرآن؛ هو قراءة القرآن بتمعّن.

فأضفت أنا: تلاوةُ القرآن بمعرفة المتشابه والغريب والمشكل، فأنا لا أظنّ مجرّد تلاوة القرآن؛ تحلّ كلّ المباحث القرآنية؟

وظني أنه لا بد من قراءة «المفردات» للراغب، و«متشابه القرآن» و«تنزيه القرآن عن المطاعن» كلاهما للقاضي عبدالجبار المعتزلي، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة على أقلّ تقدير، مع كامل تقديري لكلامك وكلام السيد الندويّ؟

لكنه سكتَ، ولم يردّ بشيءٍ!

وفي أواخر حياته، حين كان مختبئاً؛ صار ينظم الشعر الجهاديّ والحماسيّ المعروف في ديوانه اليوم، فكان ربما عرض عليّ بعض ما يكتب؛ لملاحظة الوزن الشعريّ، فكنت أضحك وأقول له: ما هذا الشعر يا مولاي؟ ما هو إلا كلامٌ عاديٌّ، وُضع في قالب شعري مُيَسّر!

فكان يضحكُ، وربما قال لي: سوف ترى! إن شعرك كلّه سيضيع، ولا يُذكر، ويبقى هذا الشعر، ويكون له أثره في نفوس الناس!

وفعلاً لقد ضاع من شعري أكثر من خمسة آلاف بيت شعري هي كل ما كتبته حتى عام (١٩٧٥م) إذ وقع تحت أيدي الأجهزة الأمنية السورية.

ونظمتُ في سجني بالأردنّ قرابةَ ألفي بيتٍ شعريٍّ، لم يسمحوا لي بإخراجها وصادروها!

وضاع بعد ذلك قرابة ألفي بيت شعري آخر في ليبيا، وأكثر من ألف بيت شعريّ في تنقّلاتي الاضطرارية في البلدان!

ولا أدري إذا كانت تحققت نبوءةُ الشهيد رحمه الله، فينقرض شعري كلُّه، غيرَ آسف عليه؛ ويبقى شعر الشهيد مروان؛ لأنه من وحيٍ روحه الطاهرة!

عقيدة الشيخ الشهيد مروان حديد ومذهبه في الفروع!!

لم تكن الدعوة السلفية في بلادنا مقبولةً، لعِدَّة أسباب من أهمها:

– عدم عرضها بالأسلوب المقنع الجذّاب.

– ولأن الصفة التي كانت تغلب على الأخوة السلفيين هي الجفوةُ، وإثارةُ مواطنِ الخلاف، وإحداثُ ضجة كبيرة حولَ مسألة صغيرة أحياناً.

– إلى جانب ذلك؛ فإن الدعوة السلفية المعاصرة؛ هي دعوة سياسية كان الهدف الأساس منها إقامة دولة متشدّدة بزعامة آل سعود، حلفاء بريطانيا العظمى.

ولا يخفى على أحدٍ أنّ الوهابيين كانوا هم الأداةَ التي عاقبت بريطانيا بها أشرافَ الحجازِ الذين رفضوا تقسيم البلاد العربية، كما رفضوا وعد بلفور رفضاً قاطعاً.

ولأهل البيت منْزلة عالية في نفوس المؤمنين جميعاً!

– يضاف إلى هذا أن الدعوة السلفية كانت حرباً شعواء على الطرق الصوفية ومشايخها المتصدّرين في تلك البلاد!

– إلى جانب ذلك كله؛ فقد كان علماء بلدنا في العقيدة ينقسمون على قسمين:

فمن كان منهم شافعيّ المذهب الفقهيّ؛ كان على المذهب الأشعري في الاعتقاد!

ومن كان حنفيّ المذهب الفقهيّ؛ كان على المذهب الماتريدي في الاعتقاد!

ثم إن الأشاعرة أنفسهم ينقسمون في مسألة الصفات خاصةً إلى قسمين:

فقسم يرى التأويل، وهو مذهب الأشاعرة المتأخرين.

وقسم يرى اتّباع رأي السلف في إمرار آيات الصفاتِ، من دون خوض في معانيها، ويسميها أهل السنة (التفويض).

فما هي عقيدة الشهيد مروان حديد؟

إن الشهيد مروان رحمه الله تعالى كان يحضّ على تحسينِ الظن بالعلماء المسلمين جميعاً الأشاعرة منهم والماتريدية، بل والمعتزلة، ويرى أن هؤلاء جميعاً كانوا يريدون خيرَ الإسلام، ولكنهم في سيرهم هذا قد يخطئون، وقد يصيبون.

فالمخطئ منهم مأجور لقاءَ اجتهاده أجراً واحداً، وليس علينا اتّباعُه في خطئه.

والمصيب منهم مأجورٌ أجرين ويلزمنا الأخذ بما وفقه الله تعالى إليه من الحق.

لذا: فقد كان يهتز بدنه حين يسمع بأن الأشاعرة جهمية، أو أن الماتريدية ضلاّل!

أو أن السلفيين مشبهة ومجسمة! وكان يتأثر جداً من هذا التعميم، ولا يجوّزُ إطلاقه أبداً.

ولقد دخلت عليه مرةً، فوجدت بين يديه كتاب «شرحُ العقيدة الطحاوية» وكتاب «شرح جوهرة التوحيد» وكتاب «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين».

سألته أتقرأ هذه الكتب الثلاثة معاً؟

فقال: أَفضلُ دراسةٍ للأفكار المتباينة أن تقرأ المسألة المشتركة هنا وهنا أكثرَ من مرّة، ثم تقارن بين مواضع الاتّفاق والاختلاف!

ولم أكن رأيتُ كتاب «براءة الأشعريين» من قبلُ، فسألته عن رأيه في الكتاب؟

فلم يرد عليّ جواباً حتى أنهى الفقرة التي كان يقرؤها فيه.

ثم سكت هنيهة، وصوّب بصره تجاه الحائط، وقال ما معناه: سبحان الله! ما دام الأشاعرة يُقرّون بمذهب أبي الحسن الأشعري في «الإبانة» وهو يوافق مذهب السلف فلماذا لا يتبنون هذا المذهب ويريحوننا من الخلاف والتأويلات التي لا يرتاح لها قلب الإنسان المسلم، فقلت له: كيف؟

فقال: هل قرأت هذا الكتاب «شرح العقيدة الطحاوية؟» قلت: لا! ولا أريد قراءته!

قال: هل قرأت هذا الكتاب، يريد «شرحَ جوهرة التوحيد؟» فقلت: نعم قرأته!

قال: فما رأيك فيه؟ قلت: والله لا أدري، وهل يجوز لي أن أبدي رأيي في العقيدة؟ أليست هذه عقيدةَ المسلمين؟

فقال: اشترِ هذا الكتابَ، يعني شرحَ العقيدة الطحاوية، واقرأْه؛ فإنه كتابٌ قيّم، واترك المقدمة هذه؛ لأنها لا تعجبك، ولا تعجبني أيضاً، وضحك.

فقلت له: يعني هل أنتَ تُفضّل هذا الكتاب على هذا الكتاب، ففتح لي الصفحة الأولى من الكتاب فإذا فيها: «جمهور المذاهب الأربعة على الحقّ، يقرون عقيدةَ الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول»!

فقلت: وماذا يعني هذا؟ قال: نذهب إلى ما اتفق عليه الناس، أم إلى ما اختلفوا فيه؟

لكن سامح الله إخواننا السلفيين؛ فإنهم يغالون في رأيهم، ويتّهمون كل من يخالفهم بما يتراءى لهم من الابتداع! ولو سلكوا غير هذه الطريقِ؛ لكان أنجحَ لهم في دعوتهم.

وخشيةَ أن أكون قد وَهِمتُ، مع الزمن، بشيء من هذا؛ فإنني سألت الأخ الدكتور أبا خالد أكرم الريّس، وهو ابن أخت الشهيد مروان، ويسكن معه في بيته، وهو ممن لا يحب الشيخ الألباني أبداً!

سألته في شهر رمضان المبارك، من شهور سنة (١٤٠١ هـ) قُربَ الحِجر في الحرم الشريف عن مذهب الشهيد العقديّ؛ فقال لي: الكلام بيني وبينك إن الشهيد كان سلفياً، لكنه لم يكن متحجراً.

وسألت الأخ الشيخ أبا علي طارق عديّ هذا السؤال نفسه في رمضان سنة (١٤٠١هـ) فأيد قول أبي خالد، ولكنه قال: كان الشيخ فيما أظن أشعرياً على مذهب الأشعري الموافق لمذهب السلف «التفويض» ولم يكنّ وهابيّاً قطعاً!

قال: ولا أذكر أنني سمعته يتكلم في شيء من هذا؛ لأنك تعلم أن الشهيدَ رحمه الله؛ لم يكن يُحبُّ تضييع الوقت بالجدل، ويرى اتّباعَ منهج السلف الصالح هو الأسلمَ والأحكم والأعلم.

قال عداب: والذي استقر في ذهني عن الشيخ أنه سلفي العقيدة، في الجملة، يثبت كل صفة أثبتها الباري جل شأنه لنفسه، أو أثبتها له رسوله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ مع التنزيه والتفويض في الكيفية، إلا إذا كان ظاهر الصفة يوحي بالتجسيم، فيرفض ذلك.

وكان يعجبه القول المنسوب للإمام مالك رحمه الله حين سئل عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ويعجبه قول الشافعي رحمه الله: «آمنت بالله على مراد الله» وكان يرددها كثيراً جدّاً.

لكنه لم يكن يزيد في الإثبات زيادةً تُوجِع القلبَ، كما يقول!

وقد سمع أحدَ الأخوة مرة يقول: «إن السلفيين يقولون: الله في السماء، أعوذ بالله!»

فقال الشهيد: «ما من مسلم يقول: بأن الله داخل السماء يا ناس، وإلا فإنه يكفر ولكن السماءَ هي العلوُّ والارتفاع! والله بائنٌ عن خلقه، استوى على عرشه، كما شاء وكما جاء في القران الكريم.

ومرة أخرى ذُكر أمامه قول الشيخ ابن تيمية بأننا نرى الله يوم القيامة مقابلةً؛ إذ لا تُتصور رؤيةٌ من دون جهة!

فقال: وماذا تقولون أنتم؟ قالوا: إننا نراه، ولكن ليس أمامنا ولا خلفنا ولا فوقنا ولا تحتنا ولا عن أيماننا ولا عن شمائلنا.

فقال: حسبي الله ونعم الوكيل! والله إن قوله أقربُ إلى العقول من قولكم.

ولكني أقول: إننا نرى الله تعالى يوم القيامة فقط، ومن أين الدليل على ما قلتموه؟

ولا دليل عند ابن تيمية على المواجهة، وحديث الرؤية (كما ترون القمر) هذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئيّ، والله أعلم.

وله ههنا كلمة مهمّة يجب أن يُوقفَ عندها طويلاً؛ إذ يقول: «كلّ هذه المسائل الخلافية في أمور الاعتقاد؛ لا يَسألُ الله عبادَه يومَ القيامة عنها، وهي إنما يعرفها العلماءُ مع اختلافهم! فكيف يَسألُ الله عنها عامّةَ الناس المقلّدين لعلمائهم؟

لكن الأمة تشغل أبناءها، وتنقسم على نفسها في مباحث ليست مطلوبةً منها أبداً»

فقلت له مرةً: ما هو المطلوب إذاً؟

فقال: المطلوب أن تُؤمن بأركان الإيمان وهي واضحة، وأركان الإسلام وهي واضحة وركن الإحسان وهو واضح..وهكذا الاعتقاد يجب أن يكون واضحاً للجميع وعلى هذا يحاسب الله عباده!

أما الفروعيات الخلافية التي يصطرع عليها العلماء؛ فلا يسأل الله عباده عنها؛ لأنه سيقبل مَن، ويرفض مَن؟

أما عن منهجه في الفروع فقال الأخ أبو علي طارق: «كان الشهيد رحمه الله تعالى إذا ظهر له حديث صحيح على خلاف ما استقر في ذهنه من حكمٍ؛ ترك ما لديه واتبع الحديث، ولم يكن يحب الخوض في الخلافات الفقهية خاصة، ويترك كلاً لما تعلمه، وما تلقاه من أقوال الأئمة.

ومثال ذلك: أنه حين يكون مسافراً فإنه يقصر ويجمع مع من أحب ذلك، دون أن يعيب على من يترك الجمع مثلاً».

قال عداب: هذا الكلام صحيح، وغاية الشهيد في ذلك؛ أن تُصرف الطاقات كلها إلى الدعوة والجهاد والتطبيق، وما دام عامة الناس ليسوا من طلبة العلم؛ فمذهب العامي مذهب مفتيه.

ثم إن الخلاف في الفروعِ؛ يجب أن لا يؤدي إلى قطيعة؛ لأنه خلافٌ بني على اجتهادٍ ومتى وضح لنا الدليل؛ أخذنا به، ولا قدرة لنا على إلزام الناس بما نرى بالقوة.

فإذا قامت دولة الإسلام؛ قررت هي الأصحَّ، وأخذت به، وفرضته على الناس فينتهي الخلاف الذي نتصارع عليه الآن في غير وقته.

قال عداب: وما أردت قوله: إن الشهيد مروان كان شافعيَّ المذهب، من غير جمودٍ، فلو رأى أن دليلَ غير الشافعية أقوى، وقال بهذا القول عالم مجتهدٌ؛ لا يتردّد مطلقاً بترك رأي الشافعيّ، والأخذ بما كان دليله أقوى، شريطةَ أن يكون قال به عالم!

مثلما ترك رأي الشافعية في مسألة زكاة الخضروات، والحديدِ، والمعادن، وعروض التجارة، وأخذ بعموم رأي الحنفية.

كما كان يأخذ بتقرير الشيخ القرضاوي في كتابه «الزكاة» من أنّ أصحاب الرواتب الشهرية؛ يدفعون زكاةَ رواتبهم في كلّ شهر، تعميماً لقوله تعالى:

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأنعام : ١٤١].

وكان يستحسنه ويحضّ عليه، وغير ذلك كثير!

وقد حدثني بعدد كتب الفقه الشافعيّ التي قرأها في سوريا وفي مصر، لكنني أذكر منها: المقدمةَ الحضرمية في العبادات، وشرحَ الغزي على متن أبي شجاع، وكفاية الأخيار، وهناك ثلاثة كتبٍ كبيرةٍ أخرى، لا أجزم بحفظي إياها.

الفصل الثالث

شيوخ الشهيد مروان حديد رحمه الله تعالى:

لم تكن الإجازات العلمية في بلدنا «حماة» مُنتشرة كثيراً، إما لأن ورعَ علمائنا الشديدَ؛ كان يمنعهم من إجازة الشباب الذين لم ينضجوا في العلم؛ أو لأن طلبةَ العلم من الشبابِ؛ كانوا يتهيبون طلب الإجازات من المشايخ، أو لأن معظم دروس المشايخ كانت عامة للوعظ والتذكير والإرشاد العام، أو لأن دراسة كتاب واحد دراسةً علميّةً كانت تحتاج إلى عمر الإنسان كلِّه، فيموت الشيخ والمريد، من دون أن ينتهي الكتاب!

ولا أزال أذكر أن شيخنا مُحَمّد الحامد رحمه الله تعالى قد شرع يشرح لنا (الهدية العلائية) للشيخ مُحَمّد علاء الدين عابدين (١٢٤٤- ١٣٠٦هـ) فبدأ بشرحها في نهاية عام (١٩٦٣) أو بداية (١٩٦٤) لا أضبط.

فتوفي الشيخ في (٥) أيار عام (١٩٦٩م) ولما ينته من نصف الكتاب الذي قرأته أنا في ثلاثة أيام؟!

وقرأت ثلاثةَ أضعافه مع الشهيد مروان في شهر تقريباً!

ولهذا فإنه لم يكن شائعاً عندنا إلا إجازة (تلاوة القرآن الكريم وتجويده).

وقد تلقّى الشهيد مروان حديد العلوم الشرعية والعربية على عدد غفير من علماء حَماة وغير حَماة.

فممّن تلقّى عليه العلمَ، وحضر دروسه عامّةً وخاصّةً؛ مفتي مدينة حماة الشيخ مُحَمّد سعيد النعسانيّ، والشريف مُحَمّد المرتضى الكيلاني «نقيب الأشراف» في مدينة حَماة في ذلك الحين.

وحضر على الشيخ زاكي الدندشي، والشيخ خالد الشقفة، وكان كبير التقدير والتبجيل له، وللشيخ محمود الشقفة.

وقد مكث في مصرَ (٧) سنواتٍ، فيبعد ألا يكونَ تلقّى العلمَ على بعض العلماء هناك ولشدّة إعجابه بالشهيد سيّد قطب، رحمه الله تعالى، واهتمامه بمؤلفاته؛ فأظنّ أنني سألته عن لقياه، فقال لي: كنت على موعد للقائه، فاعتقل سيّد قبل الموعد مباشرة.

ولهذا، فقد سألت الأستاذ سعدالدين الدسوقي، فقال: لا أظنّ الشهيدَ مروانَ لقي الشهيدَ «سيّد قطب» ومن الممكن أن يكون لقي أخاه الأستاذ «مُحَمّداً».

وقد سألت أستاذي «مُحَمّد قطب» عن الشهيد مروان حديد، فقال: سمعت باسمه من الأستاذ عبدالفتّاح إسماعيل، لكن لم ألتقِ به، ظروفنا كانت صعبةً، رحمهم الله تعالى.

وعقب عودته من مصر؛ كان يحضر درس الشيخ مُحَمّدٍ الحامِدِ الصباحيّ في جامع الجديد، إلى ما قبل حوادث حماة، عام (١٩٦٤م).

وكان يجالس ويناظر الشيخ «مُحَمّدَ أديبَ» الكيلانيَّ، والشيخ «مُحَمّدَ أديبَ» كلكلٍ والشيخ عبدَالحميد طَهمازٍ، والشيخ سعيدَ حَوّى، والشيخ «مُحَمّد بشير» الشفقة، وهؤلاء جميعاً لِداتُه وأقرانُه.

وهؤلاء الأقرانُ، وهو معهم؛ تتلمذوا جميعاً على مُقَدّمِ علماءِ حَماة الشيخ مُحَمّدٍ الحامدِ رحمهم الله تعالى.

وحضر في دمشق على الشيخ عبدالكريم الرفاعي، والشيخ عبدالوهاب دبس وزيت، والشيخ حسين خطّاب «شيخ القراء» في زمنه، وكان أكبرَ علماء دمشق في نفسه؛ الشيخُ العَلّامة حسنُ حنبكةَ الميدانيُّ.

وبفضل صحبتي له؛ أكرمني الله تعالى بالحضور على أكثرِ هؤلاء العلماء، في حضوره، وفي غيبته.

وقد لقيَ الشيخ أبا الحسن الندوي وأبا الأعلى المودودي، وعشراتٍ من علماء الشام ومصر والحجاز والهند.

وفي المدة التي صحبتُ فيها الشهيد مروان عن قرب (٦٤- ١٩٧٥م) كان حضوره على هؤلاءِ العلماءِ الذين ذكرتُ؛ حضورَ زياراتٍ، تطرَحُ فيها مسائلُ علمية.

وبعضها كان حضوره في المساجد، فكان يستمع الدرسَ إلى نهايته، بغاية الانتباه واليقظة والأدب.

وسألته مرّةً: لم لا تواظبُ على درس الشيخ مُحَمّدٍ الحامدِ المسائيّ؟

فقال: أنتم واظبوا لا بأس، أما أنا فأرى أنّ ما ينهيه الشيخ مُحَمّد الحامد بسنة من كلّ كتابٍ يدرّسُه؛ أقرؤه أنا في أسبوع.

الدروس العامة دائماً يسارُ فيها على سير الأضعف، يعني العوامّ، فيضيع وقتُ طالبِ العلم في مثل هذه الدروس! نعم هي محفوفة بالملائكة، ولا تخلو من فوائد!

وأنا إذا قرأتُ الكتابَ؛ قد يشكل عليّ منه عِدَّة مسائل، فأذهب إلى الشيخ خالدٍ الشقفة، أو إلى الشيخ توفيقٍ الصباغ، فيحلّها لي بساعة، وانتهى الأمر!

ولم يقل لي أبداً أنّ الشيخ مُحَمّداً الحامد طلبَ منه عدمَ حضور درسه، حتى لا يمسي في قلبي على الشيخ مُحَمّدٍ الحامدِ شيءٌ!

فأنا أرى الشهيد طالبَ علمٍ واعٍ جدّاً، ومثقّفاً ثقافةً متنوعةً، ولديه حافظة قويّة، ولديه ثروة فكرية وعلمية جيّدة، بيد أن انصرافه إلى الدعوة والجهاد؛ حال دون تفرّغه للعلم الشرعيّ المتَخصّص.

سألته مرّة: شيخنا لو أذنت لي بهذا السؤال: كم ساعةً تقرأ في اليوم وسطيّاً، وكم صفحةً تقرأ في ذلك الوقت؟!

قال رحمه الله تعالى: أنتَ تسألُ مثلَ هذا السؤال؟ أنت تشاهد بنفسك كلّ حياتي!

نحن ليس لدينا إلا ثلاثةُ أعمال: الدعوة إلى الله، والعبادة، والقراءة!

لكن إذا لم أكنّ مشغولاً في مرض، أو سفر، أو سجن؛ فمعظم وقتي أمضيه في القراءة.

وفي الجملة، لا يخفاك أن القراءة في كتب الفقه؛ غير القراءة في كتب الفكر، وأن القراءة في كتب الحديثِ؛ غير القراءة في كتب السيرة والتاريخ، وأن القراءة في كتب الأدب والشعر؛ ليست مثل قراءة الكتب العلمية كالفيزياء والكيمياء، ونحوها.

لكن على العموم، قراءتي اليومية لا تقلّ عن (٥٠) صفحةً، ولا أظنّها تتجاوز (٢٠٠) صفحة في اليوم، إلا نادراً.

وأنا أشهد أنّ الشهيد مروان قارئ من الدرجة الأولى، فقد كان يقرأ، حتى مع وجود تلامذته أمامه، وكثيراً ما يشركهم بقراءته، فيسمعون.

وقد أفدتُ أنا منه رحمه الله تعالى فوائد كثيرةً جدّاً، لم أسمعها من غيره.

تلامذة الشهيد مروان حديد:

لم يكن الشهيد مروان رحمه الله تعالى؛ يرى نفسه شيخاً على أحدٍ، ولا كان يحرص أن يخاطَب بشيخي!

والشهيد مروان عاش ثنتين وأربعين سنة تقريباً (١٩٣٤- ١٩٧٦م) ومع هذا فقد كان هناك أجيالٌ عديدةٌ تفتخر بالانتساب إليه، وأنها من تلامذته، وإن كان كثيرٌ منهم من أقرانه في السنّ، وربما كانوا أسنَّ منه!

وللشهيد مروان تلاميذ في مصر، وتلاميذ في سوريا.

وتلامذته في مصر قسمان: قسم منهم من المصريين، وقسمٌ منهم من السوريين وغيرِهم ممّن كانوا يدرسون في مصر!

وقد ذكر الدكتور رشيد العيسى أنَّ من تلامذته في مصر المرشد العام للإخوان المسلمين الحالي الأستاذ «مُحَمّدَ بَديعَ».

فالشهيد مروان، والدكتور سلمانُ النجّارُ، ممن أرشده إلى الانخراط في دعوة الإخوان حين كان «بديعٌ» زميلاً لسلمانَ في كلية الطبّ البيطريّ.

وحيث إنّ معلوماتنا غيرُ واضحةٍ عن طبيعة العلاقة بينه وبين الإخوة الذين أورد أسماءهم الأستاذ سعدالدين الدسوقي في شهادته؛ فيسع كلَّ راغبٍ في معرفتهم أن يقرأ شهادة الأستاذ الدسوقيّ، رحمه الله تعالى، في ملحق الكتاب.

أما تلامذته في سوريا؛ فكثيرون جدّاً، ولا ريب في أنني لا أستطيع تعدادهم؛ لكثرتهم ولضعفِ الذاكرة عن تذكّر كثيرين منهم.

لكنّ ممّا يتعيّن قوله؛ هو أن الشهيد مروان كان هو والشيخ نافعٌ العلوانيّ شيخين لجميع شباب الإخوان الذين لم يلتزموا بقرار حلّ الجماعة عام (١٩٥٨م).

ومنهم الإخوة الأفاضل: غسان حمدون، وفاروق طيفور، وفاروق أبو طوق، وصلاح مراد آغا، وأحمد مهواتي، ومعتصم المصري، ومصعب المصري، وعبدالله المصري، ومخلص زهور عدي، وغيرهم كثيرون.

وهؤلاء كانوا بعد الانفصال هم الركيزةَ الأساس في تنظيم جماعة الإخوان، بعد عودة التنظيم للعمل الحركيّ!

أما في عام (١٩٦٤م) فقد كان الشهيد مروان هو مسئولَ التنظيم الطلابي في حماة فجميع طلاب المدارس في حماة كانوا تلامذتَه أيضاً، إذ هو المسئول الأعلى عنهم، بيد أنه كان له خصوصيات مع بعضهم، وخصوصاً من استشهد معه في جامع «السلطان» وهم الإخوة منقذ صيادي، وعبدالله المصري، وتوفيق المدني، ومحمود نعيم، رحمهم الله تعالى.

أما حين وقعت الاضطرابات في صفوف الجماعة، بعد نكبة حزيران، وحدث الانشقاق بين معسكر دمشق بقيادة الأستاذ عصام العطار، ومعسكر حلب بقيادة الشيخ عبدالفتاح أبو غُدة؛ فقد حرص الشهيد مروان أن يبقى مركز حماة على الحياد، وذهب يسعى بكل طاقاته الفكرية والروحية والشخصية لرأب الصدع، ولمّ الشمل!

مع أنه كان يحبّ الأستاذ عصاماً العطّار، ولا يجد سبباً وجيهاً لانشقاق معسكر حلب عنه!

لكنه كان يرى مَن حول عصام من الدمشقيين؛ هم السبب في ذلك، وكأنّ جماعة الإخوان مزرعة لأهوائهم، فجنوا على الأستاذ عصام بذلك التوجه المتعنصر!

كان الشهيد مروان كما سيأتي يرى نفسه عنصراً عاديّاً في الإخوان المسلمين، وحين فصلوه في عام (١٩٦٩م) بسبب تسييره قوافل الشباب إلى معسكرات فتح للتدرّب على السلاح؛ لم يعلن هو انفصاله عنهم، رغم إلحاحي الشديد عليه بذلك، وإنما كان يقول: «تنتهي مهمتنا المنفردة؛ عندما تتبنى جماعة الإخوان خطَّ الجهاد في سبيل الله!»

وحين كان يشكّل مجموعةً من الشباب في أيّ مدينةٍ من مدن سوريا؛ لا يفهم أحدٌ منّا، إلا أنهم من الإخوان، لكن باصطلاح إضافيّ «من شباب الشيخ مروان» يعني ممن ينهجون الخطّ الجهاديّ في تحقيق أهداف الجماعة!

وعلى هذا؛ فلا تستغرب أخي القارئ إذا أوردت أسماءً كثيرةً من تلامذة الشهيد مروان وهم في الوقت نفسه من الإخوان!

لكنني في عام (١٩٧٤م) صرتُ أسمع منه أنّ عنوان «الإخوان المسلمون» ليس مصطلحاً قرآنيا مقدساً، ولا الجماعة التي تحمل هذا العنوان مقدسةً، ليس المهمّ العناوين والشعارات، وإنما المهمّ العمل!

بعد هذا التوضيح الضروري أقول:

إنّ أحبّ تلامذة الشهيد مروان الدمشقيين إليه:

(١) الأخ عربي جوهر، الذي اعتقل عقب اعتقال الشهيد مروان، واستشهد في السجن.

(٢) الأخ مُحَمّدُ جوهرُ، شقيقُ عربيٍّ، وحاله مثل حال شقيقه.

وقد حدثني الأخ عادل حيدر في شهادته؛ أن الشهيد مروان كان يثني على آل عربي جوهر إلى آخر أيام حياته في السجن.

(٣) والأخ عادل حيدر، الذي اعتقل عقب اعتقال الشهيد مروان، وأفرج عنه في عام (١٩٧٨م).

(٤) والأخ زكي صفدي، الذي قاوم أمنَ السلطة في شقة الشهيد مروان مع أخيه الشهيد مأمون كاخي، حتى استشهد زكيٌّ فيها في (١٩٧٥/٦/٣٠م).

(٥) والأخ أيمن شربجي، الذي دوّخ أمنَ السلطة في دمشق، سنواتٍ كثيرةً، وقد اختلفت الأقوال في نهايته فمن قائلٍ: إنه معتقل، ومن قائل: إنه استشهد، ومن قائل: إنه لا يزال مختفياً!

(٦) والأخ الشيخ عرفان المدني، وكان أحد أئمة المساجد في محافظة دمشق.

(٧) والأخ الشيخ أحمد الحموي، وكان أحد أئمة المساجد في محافظة دمشق، وقد اعتقل هو وزوجته.

(٨) والأخ حكم كركوتلي.

(٩) والأخ نَبيّل زيتونة.

(١٠) والأخ فرعون، ولم أتذكر اسمه الأول.

(١١) والأخ عمر ريحاوي.

(١٢) والأخ مصعب حمادة.

(١٣) والأخ جمال مُدَغْمِش.

(١٤) والأخ عدنان الرز.

وهؤلاء لا أعرف الكثيرَ عن أحوالهم، وقد أورد أسماءهم، وما تعرّف إليه من أحوالهم الأخ الفاضل السيّد أمير سليم زكية في كتابه «حماة في قرنٍ ونيف من الزمان».

وأبرز الإخوة الحلبيين: الشهيد سحبان طرّاب الرفاعيّ، وأنا مَن عرّفه على الشهيد مروان عام (١٩٧٢م) والشهيد حسني عابو، لكنني لا أعرفه شخصيّاً.

والشهيد عدنان عقلة من تلامذة الشهيد حسني عابو، ولم يلتق بالشهيد مروان مباشرة كما حدثني هو رحمهم الله تعالى.

ومما لا ريب فيه أنّ أعدادَ شباب مروان في حلب؛ أكثر منهم في دمشق؛ نظراً لما فعلوه في حلب، لكنني أنا شخصيّاً، لا أعرف الكثير عنهم، بسبب وجودي خارج سوريا في تلك المرحلة.

أما شباب حماة الذين انقطعوا إلى الشهيد مروان، ولم يعودوا يلتفتون إلى رضا قيادة الجماعة، أو سخطها؛ فهم كثرٌ بلا ريب!

لكنّ أفضلهم وأبرزهم في الخطّ الجهاديّ القتاليّ؛ الشهداء الآتية أسماؤهم:

الشهيد عبدالستار الزعيم، وكان هو مسؤول العمل العسكري في حماة، بعد الشهيد بدر ذكرى.

الشهيد غالب حدّاد، وكان هو مسؤول الإعداد والتدريب.

الشهيد موفقّ عيّاش.

الشهيد عمر جوّاد.

الشهيد مُحَمّد عجعوج.

الشهيد أمين أصفر.

الشهيد فيصل غنّامة.

الشهيد بدر كمال ذكرى.

الشهيد هشام مُحَمّد الجنباز.

الشهيد بسام محمود الأرناؤوط.

الشهيد مأمون كاخي.

الأخ الفاضل أحمد عبدالسلام المدللة.

والخمسةُ الآخِرون من هؤلاء؛ هم مجموعتي الخاصة، وكانت تعرف بين الشباب بأنها مجموعة (المهامّ الخاصة) وقد ابتدأتُ بتدريبهم وإعدادهم منذ العام (١٩٧١م) وخصوصاً في يوم الجمعة من كلّ أسبوع، وفي فصل الصيف؛ إذ كنت أعمل مدرّساً خارجَ حماة.

أما في العام (١٩٧٣م) حين فُصلت من التدريس؛ فقد غدت لقاءاتي معهم كثيرةً وشبهَ يومية.

وبعد اعتذاري عن العمل مع الشهيد مروان؛ لأسبابٍ يأتي ذكرها في موضعه؛ تسلّم إمرتهم السيّد أمير سليم زكية من منتصف شهر تشرين الثاني (١٩٧٤م) وحتى اعتقاله في منتصف شهر تموز (١٩٧٥م) تقريباً.

ومن تلامذة الشهيد مروان حديد الأوفياء والأصفياء؛ ممن لا زالوا على قيد الحياة:

(١) الدكتور رشيد العيسى: طبيب بشريّ، وهو من العاملين الجادّين لإسقاط النظام الفاجر في سوريا.

(٢) الأستاذ عبدالرحمن مُحَمّد نوح: وهو خريج كلية الشريعة في جامعة دمشق، وهو يزاول الآن عملاً تجاريّاً حرّاً.

(٣) الأستاذ طارق عليّ عديّ: وهو متخصص باللغة العربية، وكان قريباً من قلب الشهيد مروان، وعلى صلة وطيدة به.

(٤) الدكتور أكرم الريّس: طبيب بيطريّ، وهو ابن شقيقة الشهيد مروان، كما أنه أشبه الأسرة بخاله الشهيد مروان.

(٥) الأستاذ الدكتور رياض حسن الخوّام، وهو متخصص بعلوم اللغة العربية ويعمل أستاذاً في جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، كما أنه يُعدّ دراسةً عن الشهيد مروان حديد.

(٦) الدكتور خالد حسن هنداوي، وهو يعملُ الآن في سلك الدعوة العالمية، بإشراف الدكتور يوسف القرضاوي.

(٧) الأستاذ السيد حمدو مُحَمّد حمشو النعيميّ، خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، وهو من أحباب الشهيد ومحبّيه، وهو معروفٌ بالتزامه الإسلاميّ، وحبه الشديد للشهيد.

(٨) السيّد أمير سليم زكية، وهو من أحباب الشهيد، وأمراء المجموعات في كتائب الشهيد المقاتلة، كما تقدّم قريباً، وهو عاكفٌ منذ سنين على كتابة كتابه الموسوعيّ «حماة في قرن ونيّف من الزمان» رحمه الله تعالى.

(٩) الدكتور مُحَمّد عبدالقادر الشوّاف، وهو من خواصّ تلامذة الشهيد مروان، وممن لزمه مدة ليست باليسيرة، وأفاد من علمه وخلقه وأدبه.

وهؤلاء جميعاً على جانبٍ عالٍ من الالتزام الشرعيّ، والثقافة الإسلامية، نفع الله بهم.

(١٠) الدكتور عداب بن محمود الحمش النعيميّ، وهو متخصّص في الشريعة الإسلامية، وله مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية، وكانت عناية الشهيد به خاصّةً، فيما يُقدّر هو، كما كان شريكَه في أكثر من عملٍ دنيويّ، لكنها كلّها أعمالٌ غير ربحيّةٍ!

وهناك أعداد كثيرةٌ ممن ينتسب للشهيد مروان بالتلمذة، وهي شرف حقيقيّ، لكنّ بعضهم يعيش في داخل سوريا، وبعضهم تنكّر للشهيد، وبعضهم لا أدري عن مدى موافقته على ذكر اسمه بين تلامذة الشهيد مروان، فأرجو المعذرة من الجميع!

الفصل الرابع

اعتقال الشهيد مروان حديد

يتساءل كثير من الناس عن مأساة اعتقال الشيخ المجاهد مروان حديد، ويريدون معرفة الحقيقة من الروايات المتداولة التي تُتناقل بين أحبابه، وبين خصومه.

ولا ريب أنَّ أعرفَ الناس بأحداث الاعتقال ومقدماته من كان معه في بيته الكائن في حيّ العدوي، بمنطقة المزرعة، من محافظة دمشق الشام.

أمّا أحداثُ الاعتقال ذاته، فأعرفُ الناس بها رجالُ الأمنِ السوري الذين اعتقلوه، وهو رحمه الله تعالى، ومَن كان الدليلَ على مخبئه، قبحه الله وأخزاه.

أما مقدماتُ الاعتقال التي تمتد إلى أسبوعٍ سابقٍ عن ساعة الاعتقال، فأنا مِن أعرف الخلق بها، بل ربما لم يبق في الأحياء من يعرفها مثلي.

وأما ليلةُ الاعتقال، فأنا معه في حجرةٍ واحدةٍ من البيت، وما غمض له ولا لي مِن جَفنٍ فيها على الإطلاق!

وأما صباحُ يوم الاثنين، وحتى السابعة إلا ربعاً صباحاً تقريباً، فيوجد رجلٌ آخر غيري لا يزال على قيد الحياة، وقد وجهتُ إليه كلماتٍ قاسيةً، قبل أن يطلب الشهيد مروان مني مغادرة المنْزل لإحضار طعام الفطور .

وأما لحظات الاعتقال؛ فقد كنت بين أيدي رجال الأمن تحوطني، مسدساتهم، ذاهبين بي إلى سيارة الاعتقال.

لكن الشهيد مروان أفصحَ لواحد من المساجين بكيفية اعتقاله هو، وقد التقيتُه عِدَّة مَرات، وأملى عليّ شهادةَ الشهيد مروان عن كيفية الاعتقال، ووقّع على ذلك.

وسأتناول هذه النقاط كلّها بالتفصيل الدقيق، والصدق المطلق، فإنها شهادةٌ حضرتها وأمانة للأجيال يجب نقلها، وسوف يسألني الله تعالى عن كلّ حرفٍ فيها! ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

وإذا أهملتُ شيئاً يعرفه غيري من الأحياء؛ فأكون قد نسيته، أو تردّدت في حفظه، أو تذكّره، ولا أكون متقصّداً ذلك قطعاً، والله الموعد، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وسأذكر أسماء أناسٍ، وأشير إلى آخرين، فمن ذكرت اسمه؛ فهو من الشهداء، أو المتوفَيْن الذين قضوا نحبهم، ومن لم أذكر اسمه؛ فلأنه من الأحياء، وأخشى أن يؤذى من قريبٍ أو بعيدٍ، وخاصّة في ظروفنا الحاضرة(١٣) .

الأسباب البعيدة نسبياً لاعتقال الشهيد مروان:

السبب الأول: العميل مصطفى جيرو

لتعرّف الشهيد مروان على «مصطفى جيرو» قصّة نذكرها للعبرة، والنظر في تصاريف القدر!

كنت في العام الدراسيّ (٧٤-٧٥) مدرساً في ثانوية ابن العميد في دمشق، وكان منْزلي في حيّ «السويقة» قرب جامع «النقشبندي» وكان الشهيد مروان يسكن في حيّ «العدويّ» في المسكن الذي اعتُقل فيه، بمنطقة «المزرعة».

وذاتَ يومٍ أرسل إليّ، فحضرت، وكنت لا أزوره إلا إذا طلب مني زيارته؛ للظروف المحيطة به، وبنا.

دخلت إلى المنْزل، فوجدت الإخوة الشهداء: عبدالستار الزعيم، وغالب حدّاد، ومُحَمّد عجعوج، وكان معهم أخٌ آخر من دمشقَ، لم أكن رأيته من قبل! وكان يبدو على الشهداء

---

(١٣) أعدت النظر في هذا المبحث في عمان الأردن، بتاريخ (٢٥/٧/٢٠٠٤م).

جميعاً الغضبُ والتبرّم.

بعد إلقاء التحية والجلوس؛ انبرى الشهيد مروان، وقال لهم: ترضون بالشيخ عداب حكماً بيننا؟ قالوا: نعم نرضى!

فقلت له: وأنت ترضى يا شيخنا؟ قال: طبعاً أرضى، وكيف لا؟!

قال الشهيد مروان: هل تعرف الأخ «مصطفى جيرو»؟ قلت: لا! لم أسمع بهذا الاسم من قبل، ما له؟ والتفتّ إلى الأخ الدمشقيّ، وظننته هو!

قال مروان: قبل أن أعرّفك به؛ أطرح عليك هذا السؤال: أنت داعيةٌ إلى الله تعالى، وتريد توصيل رسالتك إلى جميع الخلق، وطلب يهودي، أو نصرانيٌّ، أو وثنيّ أن يتعرّف إليك ليحاورَك، أتقبل بلقائه، أم تعتذر تحت أيّ ظرفٍ من الظروف؟

كنت لا أزال أفكّر «بمصطفى جيرو» فلم أشأ أن أعطي رأيي التفصيليّ، الذي سيخالف رأي الشيخ بالتأكيد، فأجبت: بل ألقاه، ولو في ساحة المرجة!

قال الشيخ: جميل، لنا أخٌ من الساحل، يخدم في الجيش السوريّ، وهو في قطعة عسكرية واحدة مع أخينا فلان، وهذا الفلان أثنى على خلقه، لكنه لا يصلي، وربما شَرِب الخمرة.

وقال له مصطفى: أنا أريد أن أتوب على يدي الشهيد مروان حديد، فعرِّفْني عليه!

وأنا قلت له: أسهلاً وسهلاً، ليتفضّل في أيّ وقتٍ شاء، والإخوة يرفضون أن أتعرّف إليه، يقولون: وضعك الأمنيّ؛ لا يسمح أن تتعرف إليه في مَنْزلك، فما رأيك؟

قلت: نستمع إذاً من الإخوة؟

فقال غالب: ما قاله الشيخ تمام، لكن أليس من الحيطة والحذر المطلوبين شرعاً في مثل وضع الشيخ «أبو خالد» ألا يلتقي أحداً في مَنْزله؟

فسألتُ بقيةَ الإخوة إن كان عندهم كلام إضافيّ؟ فقالوا: نحن جميعاً رأينا من رأي الأخ غالب، لكن أوامر الشيخ على رؤوسنا!

فقلت أنا: يا شيخنا الكريم، المسألة هذه في نظري؛ تتصل اتّصالاً مباشراً بمقاصد الشريعة، وبالسياسة الشرعية!

أما اتّصالها بمقاصد الشريعة؛ فيتعلق بالمحافظة على حياتك وحياة مَن معك في البيت!

وأما اتّصالها بالسياسة الشرعية؛ فحياةُ شخصية الشهيد مروان العلمية والفكرية والدعوية؛ أولى من فقدانها بكثير، فأنت دائماً تقول لنا: نحن جميعاً لا نستطيع أداء رسالتك، كما تؤديها أنت!

فالمحافظة على طاقاتك؛ ضرورةٌ إذاً، لمصلحة الدعوة التي تحملها على كاهلك!

فأنا رأيي من رأي إخواني تماماً! ثم من هذا «مصطفى جيرو» الذي تحرص على لقائه وتختلف مع إخوانك من أجله؟

ألستم تقولون هو رجل عاديّ، رتبته «رقيب» أو «عريف» وهو غير ملتزم، فأيّ واحدٍ فينا يستطيع إقناعَه بالإسلام، كما يستطيع أن يكتشف ما إذا كان مدفوعاً من إحدى الجهات الأمنية!

قال الشهيد مروان: كلامُكم كلّه صحيح، لكن الرجل يريد مروان، يريد مروان، أنت فاهم؟!

فهل يكون مروان جباناً، فيرسل إليه واحداً من إخوانه ليناقشه؟ ماذا سيقول عن مروان: سيقول: جبانٌ، خوّار، ليس حريصاً على دعوته؟!

قلت أنا: ليس في الإخوة أحد يقول لك: لا تلقه، إنما يقولون: الْقَه خارج المنْزل!

في بيتي، في بيت صفي، في بيت غالب، في حديقة عامة، في مسجدٍ داخلَ حيّ!

قال: سيقول عنا جبناء يا ناس، ما لكم أنتم؟

فقلت له: وماذا يعني؟ ومن هذه الشخصية العظيمة التي نهتمّ لقوله، ليقل عنّا ما شاء ما دام هو حتى الآن كلباً من الكلاب، لا يصلّي، ولا يصوم، ويشرب الخمرة..إلخ!

وانتهى الحوار، والشيخ مصرٌّ على لقائه في المنْزل؛ ليُشعِرَه بعزّة المسلم، حتى لو كان في ظروف كظروفه.

قال عداب: ومما لا أشك فيه الآن أن منطلقنا كان مختلفاً تماماً عن منطلق الشهيد مروان، كان منطلقَنا هو الحفاظُ على حياته، ولم يكن هذا المنطلق مقصداً من مقاصد الشهيد مروان، في ذلك الوقتِ، إلا بقدر ما لا يلحقه من ورائه إثمٌ.

السبب الثاني: المركزية الشديدة، وعدم توزيع المهامّ:

قُبيلَ بداية العام الدراسي (٧٤ — ١٩٧٥) وفي الشهر الثامن منه؛ ذهبت أنا والشهيد مُحَمّد عجعوج، والشهيد عبدالستار الزعيم، والشهيد موفق عياش إلى حيث مخبأ الشهيد مروان في دمشق، بعد موعدٍ مسبق رتّبه الشهيد موفق عياش؛ فوجدنا عنده الأخ صفي توفيق عدي، والشهيد بسام أرناؤوط الذي كان المرافق الشخصي للشيخ مروان في تلك الفترة، رحمهم الله تعالى.

أخبرنا الشهيد مروان؛ أنّ كبار تلامذته يحتجّون على العمل غير المنظم، ويعترضون على عدم أخذه بالحيطة والحذر، وهو عزيز على الجميع.

فقال: أما عن الحيطة والحذر؛ فهذا صحيح، وابحثوا لنا عن بيت، ونتشاور في كيفية التعاملِ مع الناس الذين نرغب الاتصالَ بهم، أو يرغبون الاتصال بنا.

وأما عن العمل المنظم وغير المنظم، فنحن منهجنا القرآن والسنة، وعن القرآن والسنة؛ لا نحيد!

قلت: هذا قدر متفق عليه، لكن الإطار التنظيمي المرحلي، وتحديد الأهداف والوسائل؛ لا يتعارض مع منهج الكتاب والسنة، بل هو من توجيهات الوحي بيقين.

وطال الحوار بيني وبينه، ولينهي الحوار قال: اكتبوا تنظيراتكم التي ترونها، ولا تكثروا من الكلام، فنحن نريد أفعالاً، ثم نقرأ ما تكتبون، ونتحاور فيه، ويكتب الله الخير إن شاء الله تعالى.

وتشاورنا فيما بيننا: من يكتب؟ فوقع اختيارهم عليّ، فاستمهلتهم شهراً كاملاً حتى أنجز المشروع.

وحين أنجزت المشروع؛ رفض حتى قراءته، وأعاد جملته المعهودة: (منهجنا القرآن والسنة، وعنهما لا نحيد).

وسيأتي عرض هذه المسألة بتفاصيلها في الباب الثالث، إن شاء الله تعالى، والشاهد منها أنّ المركزية الشديدة، في ظروف أمنية معقّدة، وتواصل الشهيد مروان مع الناس، من دون تنسيق مع شبابه، أو حتى إخبارهم بخطورة وضع بيته في تلك الفترة المتقدمة؛ أسهم في كشف منزله واعتقاله.

الأسباب القريبة لاعتقال الشهيد مروان:

حين علّقت عملي مع الشهيد مروان، رحمه الله تعالى؛ حَصلَتْ عِدَّة أمورٍ، أدت إلى تركي التدريس في ثانوية ابن العميد في دمشق، وفي المعهد الشرعي في حماة.

ورغبتُ أن يتحقق الشهيد مروان من كلّ كلمةٍ قلتها له، من أنني لا أغدرُ، ولا أخون ولا يمكن أن أجعلَ شبابه مدارَ عملي الدعوي، فاستغلّيت أنني بدون عملٍ، وقررت السفر من سوريا كلها!

في (٢/٩/ ١٩٧٥م) غادرت دمشق إلى القاهرة، ومنها إلى ليبيا، وحين سافرت؛ لم أمرّ على الشهيد مروان، ولم أسلّم عليه؛ لأنه سيثنيني عن السفر، وأنا مصرٌّ عليه.

وعدت إلى دمشق من ليبيا في (١٧/٦/١٩٧٥م) حيث كان امتحان مادة القانون المدنيّ، التي سأقدمها في (١٩/٦) ومادة أخرى في (٢١/٦).

وفي هذه الأثناء دعاني الشيخ إلى زيارته، وقال في دعوته إنه غيّر البيت، لكن هنا البيت مكشوف أكثر!

وعقب أداء الاختبار الثاني في (٢١/٦) زرته لمدة ساعة، أو ساعتين، ووعدته أن أزوره وأنا مغادر إلى ليبيا في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين (٣٠/٦/١٩٧٥م).

فقال: بل تأتينا قبل يومين، أو ثلاثة على الأقلّ، لنستأنس بل أكثر، ولتستأنس زوجتي بزميلتها زوجتك، فقد مضى عليها عِدَّة أشهر، لم ترى فيها عتبة المنزل، ولا يزورنا من النساء أحدٌ تقريباً.

وانطلقتُ إلى حَماة.. والتقيت بشباب الشهيد مروان وغيرِهِم من الإخوة الأكارم، وكنتُ قلقاً غايةَ القلق على الشيخ، كما كنت أتوقّع في كلّ لحظة سماعَ مفاجئة تأتي من دمشق.

جاء الإخوة الأحباب إلى زيارتي، وبحثوا معي مسألة العودة إلى العملِ، فرفضت رفضاً قاطعاً، وقلت لهم يومها: طريقكم هذه، وبصورتها الحالية؛ بدايةُ دمارِ هذا البلد، ودمارُ الدعوة إلى الله فيه، وأنا تاركٌ سوريّا كلّها؛ حتى لا أتحمّل شيئاً من ذلك أمام الله، وأمام أهلها.

أنا لا يمكن أن أُطردَ من عملٍ، ثم أعودُ إليه بحالٍ من الأحوال؛ لأنّ الذي طردني من العمل، رأى بي ما سوّغَ له ذلك، وأنا لا أرى ذلك المسوغَ عندي سائغاً.

أنا أرى نفسي أكبر من جميع الشبه، والارتياب، والتطلع، والطموح، ومَن يتوقع مني احتمالَ أن أغدر به؛ فيستحيل أن أعمل معه إلى أن أموت!

قالوا: هو خيّرك، ولم يطردك؟! قلت: هو يعرف الطريقة اللائقة بطرد عذابٍ، وعذابٌ فهم مراده وانتهى!

وجاء يوم الجمعة الأخيرة، الموافق (٢٧) حزيران، عام (١٩٧٥م) وخطب الشيخ محمود الحامد خطبته الشهيرة في حَماة، والتي سُمّيت بالخطبة الناريّة، كما سمعت بعدُ.

وانزعجتُ أنا من هذه الخطبة التي افتقدتِ الدقَّة التي كان الشيخ محمود يُعرف بها.

بل يسعني القولُ: إنّ تلك الخطبة؛ كانت كأنها تهديد هارون الرشيد لنقفور ملك الروم بل هي أشدّ!

كانت العلاقة مع الأخ الشهيد مُحَمّد عجعوج رحمه الله تعالى متينةً وحميمة، وكان في أثناء الخطبة جالساً بجواري، وهو يفرك كفّيه، مُكفهرَّ الوجه، مما يسمع ويرى في جامع «السلطان».

وكان الأخ بسام أرناؤوط يجلس خلفي وينفخ، ويحوقل بصوتٍ مسموعٍ يملؤه الضجر!

بينما كان الأخ الشهيد هشام في إحدى زوايا المسجد، يسجّل الخطبة؛ ليحملها إلى الشهيد مروان.

كنّا جميعاً متوقّعين مصادمةً مع السلطة، عقب خروجنا من المسجد، وكان واقع حالنا فعلاً يقول: جدّدوا إيمانكم، توبوا إلى ربكم تعالى، أخلصوا دينكم لله! أكثروا من الاستغفار، فليس بينكم وبين الشهادة، إلا أن تخرجوا من باب المسجد!

حين انتهت الخطبةُ، وفي أثناء إقامة الصلاة؛ أشرت إلى بسّام، فاقترب مني، فقلت له:

لا تصلّ السنة البعديةِ، لكن انظر مَن هنا من شبابنا، فاجعلهم حول الشيخ؛ لنحميه وأخبرهم أن يكون سلاحُ كلٍّ منهم ملقّماً، فأنا أتوقع مصادمةً مع رجال الأمن بعد الصلاة!

وعقب انتهاءِ الصلاةِ مباشرة؛ كان يسرع أكثرُ الناس للخروج، بينما نحن أسرعنا بالاتجاه المعاكس، وصرنا قريبين جدّاً من الشيخ محمود، من دون أن نلفت نظره لشيءٍ!

وحين أراد الشيخ محمود الانصراف؛ سلّمت عليه، واستأذنته بزيارته عشرَ دقائق فرحّب، وقال: أنا أنتظرك في البيت!

خرجنا معه جميعاً، وجعلناه داخل حلقةٍ، حتى استقلّ السيّارةَ التي انطلقت به لتوصله إلى البيت، وقُضي الأمر على خير.

رجعنا إلى المسجد، وتبادلنا التحيات الطيبة مع كثير من شباب الجامع، وقد حاول بعضهم أن يصحبني إلى مَنْزله، أو أصحبه إلى مَنْزلي، لكنني اعتذرت من الجميع بأسباب كانت مقبولةً لدى الجميع!

وصرفتُ الإخوةَ هشاماً وبساماً ومأموناً، على أمل اللقاء بهم في مسجد سعد بن معاذ في حيّنا، بعد صلاة العصر!

انطلقتُ ومعي الشهيد مُحَمّد عجعوج، مسرعين في الوصول إلى مَنْزل الشيخ محمود الحامد، ونحن نتبادل وُجهات النظر فيما نقوله له!

ثمّ اتفقنا على أن لا يتكلّم الشهيد عجعوج بكلمة واحدةٍ؛ لأن الشيخَ محموداً مُفرطُ الحساسيّة، وما كان بيني وبينه من ثقة ومودة وصحبة طويلةٍ وجوار في المسكن؛ يجعلني مقبولاً لديه أكثرَ من غيري!

وحين دخلنا بيت الشيخ محمود، وتحاورت معه حيال موضوع الخطبةِ، وجرت موضوعات أخرى، وانتهت الجلسةُ وقد عاهدني على الأمور الثلاثة الآتية:

الأول: أن لا يخطب بعد هذه الخطبة، ما دامت الأجواء متوترةً.

الثاني: أن لا يخرج إلى منطقة ريف حَماة وبساتينها وحده، ومن غير سلاحٍ بتاتاً.

الثالث: أن لا يخرج إلى منطقة الغاب في الجمعة التالية، ليفتتح مسجداً أسسته جماعة الدعوة والتبليغ بالتعاون مع أهل القرية هناك.

وفي صبيحة اليوم الثاني اتفقت مع عدد من الإخوة منهم: هشام جنباز، ومأمون كاخي على السفر إلى دمشق ظهراً.

واستقلّينا سيارةً خاصة مستقلة، وسافرنا بها من حَماة إلى مَنْزل الشهيد مروان بدمشق، فوصلنا قبيل العصر إلى منزله العامر.

دخلت زوجتي إلى مخدع النساء، وجلسنا نحن معه في صالة الاستقبال.

ما أن دخلنا مَنْزلَ الشهيد مروان، حتى طلبتُ منه الإذنَ بالوضوء؛ لأداء الصلاة فذهبت لأتوضأ، ولما عُدت؛ إذا بالشيخ يستمع إلى الخطبة الأخيرة للشيخ محمود الحامد بضجرٍ وحزن، وبعد أدائي الصلاةَ؛ قال لي: أترى ماذا يصنع ابن حارتكم؟

وكان الشيخ محمود الحامد جاري في الحيّ، فضحكتُ أنا تلطيفاً للجّو، وقلت:

أليس هذا الذي تريدُه يا شيخ مروان؟

قال: لا! لا والله ما هذا الذي نريده، ولا هذا الذي طلبناه منه، ولا أدري ماذا دهاه؟

قلت له: حدثني الشيخ محمود، والأخ مُحَمّد عجعوج حاضرٌ؛ أنه لم يكن في ذهنه موضوعُ الخطبة هذا إطلاقاً، ولكن أحدهم لقيه في الطريق، فكلّمه بكلام هيّجه، فخطب ما خطب، وهو غير راضٍ عما حدث.

قال: وماذا ينفع هذا الكلام! إنّ هذا الكلام لا يفيدنا أبداً، ثم لماذا أنتم مستعجلون؟

نحن الآن وَضَعنا أقدامنا على عتبة العمل، ولم ندخل ساحة العمل الحقيقي بعد!

ومن الممكن أن نقطفَ نحن ثمارَ عملنا، ومن الممكن ألا يقطفه أولادنا، بل أحفادُنا ويمكن بعد!

فقلت: آلآن يا شيخنا؟ آلآن تقول هذا الكلام يا شيخ مروان؟ على كل حال هذا كلام طيبٌ، كنت أحبُّ أن أسمعه منك منذ سنوات!

قال: ماذا نعمل الآن؟

قلت: أنا أخذتُ على الشيخ محمود الحامد عهداً قطعه على نفسه بثلاثة أمورٍ وذكرتها له، فقال: ممتاز، أنا سمعت منه أنه يحبك كثيراً، ويثق برجولتك وعقلك.

قلت: وهذا هشام سوف ينزل إلى حماة، فحمّله رسالة شفويةً، أو تحريرية تؤكد على هذه الأمور الثلاثة، ثم زد عليها ما تراه مناسباً، والشيخ رجل طيب يسمع النصح.

وإن شئت فأرسل إليه ليحضر، وناقشه في جميع أمور الخطبة وغيرها، فهو رجل يستمع النصيحة بكلّ أدبٍ واحترامٍ!

وقلت: إذا جاء الشيخ محمودٌ؛ فليأت سرّاً متخفّياً، متنكراً، فأنا أخاف أن يكون مراقباً بعد هذه الخطبة، وليأت هو وهشام فقط، وفي وقتٍ تعرف السلطة أنّ الشيخ محموداً فيها نائم.

في تلك الليلةِ؛ ضاق صدر الشيخ كثيراً، وحدثنا عن تباطؤ الإخوان في تأمين بيتٍ له وهو خائف أن يُداهَم البيت، من أجل زوجته، فهو يرغب عن تعريضها لمثل هذه المواقف الصعبة.

ضمّت هذه الجلسةُ الشهداءَ: مروان، وهشام، ومأمون، وزكي، والفقير عداباً.

قال الشهيد مروان: أخ عداب، ألا ترى من الأكرم لنا أن ننزل إلى حماة الآن، ونرتاح من هذا العناء؟

المقسوم لنا هنا؛ هو المقسوم لنا هناك، إخوانك (مو مُسمّين بالله!).

قلت له: والله يا شيخي هذا أفضل، الآن يذهب أحدنا، ويحضر (تاكسي) ويقول له: إلى حلب، أو إلى إدلب، أو إلى المعرة، وننزل إلى حماة، على الأقلّ، ريثما يتدبّر بيتٌ آمن!

فغضب الإخوة رحمة الله عليهم، وقال هشام: البيت هنا غير آمن صحيح، لكن فكروا تطلعوا على الزبداني، على الغوطة، أما حماة؛ فمكهربة الآن أكيد بعد خطبة الشيخ محمود الأخيرة.

قال مأمون: أما قلتَ: إن عندك وعداً بعد صلاة الظهر غداً من أجل هذا الموضوع، فلم العجلة يا شيخي؟

قلت له: كأنك فهمتَ أنني أنا مَن يحرض الشيخ على النزول؟ الشيخ ضجران ومتضايق، والجماعة لا يتجاوبون معه، وحتى لو اعتقل الشيخ؛ فلن يحزنوا عليه، ولن تؤنبهم ضمائرهم لأنّه اعتقل بسبب تقصيرهم!

ثمّ افرضْ دوهمنا الآن يا مأمون، ألن يبقى في نفس الشيخ شيء، إذا أثنيناه عن رغبته؟

قال زكي: لا تختلفوا يا جماعة..خالي (خالتي؟) مسافر إلى العمرة، ولن يعود قبل أسبوعين، فما رأيكم أن أستأذن الوالدة، وأحضر المفتاح منها، وننقل الشيخَ وأهله إلى هناك، ونبدأ نحن نبحث عن بيتٍ، لماذا ننتظر الجماعة وغير الجماعة؟

راق لي هذا العرضُ، لكنني لم أتفوّه بشيء، فشكره الشيخ مروان، ورفض الفكرة من أساسها.

وقال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ننتظر غداً، لنرى ماذا سيتمّ بين الأخ عداب وفلان

وغدا بعد العصر سيأتي أحد المسؤولين، فإن عشنا إلى غدٍ يكون خيراً، وإن كان غير ذلك؛ فهو من الله خير.

ثم كتب الشهيد مروان رسالةً أرسلها إلى الشيخ محمود، مع الشهيد هشام، وانطلق هشامٌ في صبيحة يوم الأحد إلى حَماة.

في صبيحة يوم الأحد؛ جرى حديث طويل بيني وبين الشيخ حيالَ العمل، وعاتبني على ترك العمل، وأبدى استياءه من سفري من دون مشورته، وسفرِ بعض إخوانه الكبار، فقلتُ له متأثراً بكلامه:

أنا سأبقى معك، سأحيا معك، وأموت معك، وأنا لن أسافر بعد اليوم! أقسم بالله العظيم لن أسافر، وكرّرت القسمَ ثلاثَ مرّاتٍ!

قال: لا تحلف..لا تحلف.. بل ستسافر، وتكفّر عن يمينك؟! أنا ألزمك بهذا؟

أنت في ليبيا تنفعنا، عسى الله أن ييسر لك الأمور، ونحن لسنا على وشكِ صدامٍ مع الدولة!

كنت على موعدٍ مع ثلاثةٍ من تلامذة الشهيد مروان، عقبَ صلاة الظهر من يومِ الأحد (١٩٧٥/٦/٢٩م) وثلاثتهم منتظمون في جماعة الإخوان، وتغدينا معاً في بيت أحدهم في حيّ (المزة) ورجوتهم غايةَ الرجاء أن ينقلوا الشهيد من بيته المعروف لدى جميع خصومه، فرفضوا إلا أن ينصاع شيخُهم لأوامرهم، وأراني أحدهم (مفتاحَ) الشقة التي استأجروها للشهيد، لكنهم لن ينقلوه إليها، حتى يأتمر بأوامرهم، ويلتزم بما يريدون.

وقلت لهم: إنّ شيخنا مؤمن صالحٌ، وقلبه يحدثه أنه سيعتقل الليلةَ، أو غداً؟

فقال أحد الثلاثة، وهو يقهقه: (بريّح ويبستريح والله، إذا ما وجد أمامه أحداً فليرجع!).

وأخرجَ الآخرُ المفتاحَ من جيبه، وقال: «والله ما يلمسه بيده، حتى يعطيني عهداً على الالتزام بما نريده لصالحه».

قلت له: يا فلان، هذا كلام كبيرٌ وخطير، الشيخ قد يعتقل، وقد يقتلُ؟

قال: «أخي عداب، أنت عارف، الشيخ يريد الشهادة، خلّه يستشهد ويريّحنا، هو نحن ما عندنا شغل إلا هو؟».

قلت لهما: هل تحبّون أن أنقلَ كلامكما للشيخِ، الذي كنتم في أسرة واحدة عنده؟
فوافقا على أن أنقل كلامهما للشيخ بصريح العبارة!

وأمّا الأخُ الثالثُ؛ فلم ينطِق بكلمة إساءةٍ لشيخه مروان، لكنهم جميعاً متّفقون على النتيجة.

صحيحٌ أنّهم يقصدون بوجوب التزام الشهيد بما يريدون مَصلحتَه بتقليل عَددِ زوّاره وموافقتهم المسبقة على زياراتهم للشهيد، لكنّ الوقت لم يكن وقتَ إملاءاتٍ، وهم لم يكن لديهم خوفٌ أو خشيةٌ من اعتقاله؛ لأنهم يفكرون في دراستهم، وتخرجهم من الجامعاتِ وليسوا في وارد التغيير والجهادِ في قبيلٍ ولا دبيرٍ!

كان الشهيدَ رحمه الله تعالى طاقةً متفجّرةً، أكبر وأضخم من أن تستوعبها جماعة الإخوان المسلمين في ذلك الوقت، وحتى في هذا الوقت، هذا صحيح!

لكن أنْ يُسلِموا شيخَهم، ويحاولوا إذلاله، ويعرّضوه للمهانة والاعتقال، ثم للتعذيب والآلام في السجن، بأحقر دمٍ باردٍ؛ فهذا ما يجب أن يحاسبوا عليه، مثلما يجب أن يحاسب قاتلوه ومعذبوه، في هذه الحياة الدنيا، وإلا فعند الله تجتمع الخصوم.

حين شرحتُ في مكة المكرمة للشيخ سعيد حَوّى رحمه الله تعالى ظروفَ اعتقالِ الشهيد؛ بكى بكاءً شديداً وقال: الله أكبر! إلى أيّ مستوىً منحطٍّ وصلتْ أخلاقُ هؤلاء التلاميذ؟

رجعت إلى الشهيد مروان قبيل صلاة العصر، وقلت له: تدبير الشقة ليس أمراً صعباً لكن الإخوة يقولون: من أجل سلامتكم الغالية على الجميع؛ يريدون منك وعداً بتنسيق مسائل الزيارة؛ ليطمئنوا عليك من جهة، وليطمئنوا إليك من جهة أخرى!

التفت إليّ، وقال: صدقتَ، الثانية هي التي تهمهم، هم يريدون الدنيا، يريدون المال يريدون السعادة، أشكّ في أنهم يعنيهم أمر الدعوة في شيء (الرواية بالمعنى).

ثم قال لي: أحد المسؤولين، سيأتي لهذا الغرض، بعد قليل، فننتظر حتى نرى ما لديه!

وعقب صلاة العصر جاء مسؤولٌ من الإخوان، كان الصلةَ بين الجماعة وبين الشهيد مروان، وكان يرفض أن يجتمع مع أحدٍ من ضيوف الشهيد مروانَ، أو تلامذتِه.

وكان هذا المسؤول هو الأخ القياديّ المهندس (فاروق طيفور) كما أفصح لي هو بذلك بمنزله في القصيم.

سألني: هل تعلم من الزائر الذي لم يعجبك أن ينفردَ بالشيخ مروان وحده، فرفعتَ صوتَك، وقلت: مَن هذه الشخصية العظيمة الذي يخافنا على نفسه؟

قلت له: والله لا أدري، وليس من عادتي الاستفصال من شيخنا مروان، ولا من غيره.

قال: أنا هو! وضحكَ، غفر الله له.

التقى الأخ فاروقٌ الشهيدَ مروانَ على انفراد، وغادر قبيل المغرب، وعاد الشهيد مروان، وأخبرنا أنهما تكلّما بشأن البيت، واستنكر وصايةَ الإخوان عليه، وكان الشيخ غضبانَ جداً، وما سمعته أنا شخصياً دعا على الإخوان إلا هذه المرّة.

فإذا قدّر الله لشباب الشهيد مروان قوّةً وتمكّناً؛ فعليهم أن يحاكموا هؤلاء الثلاثةَ ويحاكموا المهندس السيد (فاروق طيفور) الذي كان في زيارته بعد صلاة عصر الأحد.

وكثر زوّار البيت في نهار ذلك اليوم وليلته كثرةً مُذهلةً، فقلت للشيخ مروان: كل هؤلاء الزوار يأتون إليك، وتريد من الإخوان أن يوافقوا على نقلك إلى بيت آخر، وما الفائدة من ذلك يا شيخي؟

يا شيخي! هذا وضع غير صحيح، والله لو كان الإنسان الذي يأتيه كل هؤلاء الشباب في يوم واحدٍ من أركان الدولة؛ لراقبته الدولةُ، وشكّت فيه، سبحان الله العظيم!

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً؛ قُرِع جرس البيت، فحملت سكينَ المطبخ واقتربت من الباب، فرأيت من المنظار السري الشيخ محموداً الحامدَ، ففتحتُ لهم الباب فدخل الشيخ محمود ومعه الشهداء بدر ذكرى، وبسام أرناؤوط، وهشام جنباز، ومُحَمّد عجعوج، واثنان آخران لا يزالان أحياء، فأعرض عن ذِكر اسميهما.

وما أن انتهينا من السلام والعناق، حتى انطلق الأخ مُحَمّد عجعوج يقول: ضيعناهم والله ضيعناهم! قلت: من؟ قال: المخابرات!

قلت: كيف ضيعتموهم، بل كيف عرفوا بكم؟

قال: جاء إليّ ابن خالتك بدر ذكرى، فأخذني ثم ذهبنا إلى بسام، ثم إلى هشام، ثم إلى فلان وفلان، ثم جئنا إلى الشيخ محمود، فتأكدنا أن سيارتين كانتا وراءنا إلى «الرستن» ثم اختفتا، فما عدنا نراهما، فيبدو، والله أعلم، أننا ضيعناهم!

وفي هذه الأثناء دخل الشهيد مروان والشيخ محمود إلى غرفة مستقلة، وتابعنا حديثنا عن متابعة المخابرات إياهم، فقلت للأخ عجعوج: يا أخي يغفر الله لكم، حَماة مكهربة من خطبة الشيخ محمود، ومن المؤكد أنه مراقب، فكان ينبغي أن يأتي متخفّياً وحده، أو يأتي معه واحد منكم فقط؟ فلماذا جئتم ستة، وكيف وسعتكم السيارة؟ وهل من ضرورة لذلك؟

قال: جئنا حمايةً للشيخ محمودٍ، وضحك، ثم قال: الله يستر في الرجعة؟

قلت أنا: الله يستر الآن قبل الرجعة، اليوم دخل إلى بيتنا هذا أكثرُ من ثلاثين زائراً؟!

ثم جئتم أنتم قبيل الفجر؛ أإلى هذا الحدّ تظنون الدولة غافلة؟

قال أحدُ الحاضرين: أنا أتوقع أنهم تابعونا إلى باب العمارة، وربما إلى باب الشقة؟

قال له: كيف؟

قال: عندما كنت أخدم في الجيش؛ كنت في دائرة الاتصالات، وحين كانوا يريدون رَصدَ شيء؛ كانت الدورية المكلفة في هذا القطاع تتابع الهدَفَ حتى نهاية قطاعها، ثم تتصل بدورية القطاع التالي، حيث تتابع هذه الدورية المهمة، وهكذا إلى نهاية الهدف.

فالسيارة التي كانت تتابعنا إلى «الرستن» ربما أعطت معلوماتٍ عن سيارتنا إلى دورية «الرستن» التابعة لمحافظة حمص، ونحن لا نعرفها.. وهكذا.. فالله يستر!

فصرتُ أسأل كلّ واحد منهم: لماذا جئت أنت؟ فكان كل واحد يقول شيئاً!

ومحصّلة ذلك كلّه أن يصحبوا الشيخ محموداً، ويفوزوا برؤية الشهيد مروان!

وانتهى لقاء الشهيد مروان مع الشيخ محمود، وخرجا إلينا عند أذان الصبح، فصلينا الصبح، وطلب الشهيد مروان من الشيخ محمود وصحبه أن يستلقوا قليلاً حتى يسافروا قبل حَرَكةِ العمارة، حين بدء دوام الموظفين.

وعند الساعة السادسة غادر الجميع الشقة، ولم يبق سوى الشهيد مروان، وأنا الفقير والأخ الصامت الصابر زكي صفدي، والأخ مأمون كاخي، والمرأتان في قسم النساء مع طفلتي التي لم تكن جاوزت العشرين شهراً من عمرها!

واستلقى الشهيد مروان على ظهره رافعاً رأسه على طرف الجدار، وأغمض عينيه لحظاتٍ، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد تراءت لي الزنزانة الانفرادية الآن؛ أضيقَ من هذا الفراش، لكن في الزنزانة رأسك في مكان منخفضٍ، وجسمك في مكان أعلى والمرحاض القذر تحت رجليك، حسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم شهادةً في سبيلك يا ربّ.. اللهم نجنا من السجن.. أعوذ بالله من سجونهم!

فأمنّا على دعائه، وأغمض عينيه ثانية!

فيما أخذ كل من الأخوين زكي ومأمون مضجيعهما، وراحا في سبات عميقٍ، فنحن لم ننم أبداً نهارَ السبت وليلةَ الأحد، ونهارَه، وليلة الاثنين، إلا ما كان من إغفاءة قاهرةٍ، ونحن جالسون!

وفي الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً، تقريباً، قُرِع الباب، فحملت سكيناً، واستأذنت الشيخَ بفتح الباب، فأذن، وقال: احذر، وتريّث، وأخبرني، فأنا منقبض!

فنظرتُ من المنظار السحري فرأيت الدكتور عبدالستار الزعيم، فقلت للشيخ: عبدالستار، ثم فتحت الباب، فدخل الدكتور عبدالستار، وتعانقنا طويلاً؛ لأننا كنا من الأحباب، ثم سلمت على الأستاذ فريد قدّاح، وعلى الأخ مصطفى عادلة، وطلبت من الجميع أن يجلسوا، ولكن الدكتور الزعيم اعتذر بأنه سيتقدّم بامتحانٍ في الثامنة والنصف واستأذن، فأذن له الشيخ، وودعته وداعَ السفر، ثم انصرف.

إرهاصات الاعتقال:

جلست بجانب الشهيد مروان، وجلس مقابلنا الأستاذ فريد قدّاح، والأخ مصطفى عادلة، وتبادلنا التحيّاتِ، وأطراف الحديث.

فبادر الأستاذ قدّاح، وأخرج مبلغاً من المال، ووضعه تحت الفراش، وقال للشيخ مروان: نعتذر عن التقصير، هذا المبلغ المتواضع للأكل والشرب، وليس لشيء آخرَ، فأغضبني هذا التصرف جداً، والتفتّ إلى الشهيد مروان، فرأيته صامتاً، فلا هو شكره حتى أعلم أنه راضٍ بهذا التصرّف السمج عندي، ولا هو ردّ عليه بشيء.

فالتفتُّ إلى الأستاذ فريد، ولم تكن الأمور بيننا سيئة أبداً، وقلت له: احمل فلوسك وأطعم بها أولادك، الشيخ مروان لا يقال له هذا الكلام! الشيخ مروان يطعم الدنيا كلها! فقال: أنت لا تتدخل بيني وبين الشيخ مروان رجاءً، هذا شيء يخصّه وحده!

فازداد غضبي، وكدت أضربُه، لولا مبادرةُ الشيخ مروان، وأمرُه إياي بالسكوت!

يبدو لي أنني إذ غضبت من الأستاذ فريد؛ صرت أتضايق من كلّ كلام يقوله، خصوصاً وأنّ أسلوبه بالكلام كأنه استخباراتيّ!

وعقبَ قليل عاد الأستاذ فريد إلى إثارتي أكثر، فقال: لا أرى معكم سلاحاً، أين السلاحُ، أين أسلحتكم، يمكن الآن تُداهَم الشقة، هل تستسلمون بدون مقاومةٍ، كم قطعة سلاح عندكم، وكم كمية الذخيرة؟

فازددتُ منه غضباً، وقلت: نحن ليس عندنا سلاح، ونحن لا نملك ثمن السلاح أصلاً حبذا لو اشتريت لنا جميعاً أسلحة! قال: وأنا لا أملك قيمة الأسلحة، هل أنا أغنى منكم؟

قلت: لماذا تسأل عن السلاح إذن، ولماذا تستغرب عدمَ وجود السلاح عندنا؟

قال: سبحان الله! الشيخ مروان مطلوبٌ بغاية الشدة، وليس معه إلا ثلاثة رجال، ليس معهم سلاح؟ إذن لماذا أنتم هنا؟

والتفتَ إلى الشيخ مروان وقال: فعلاً أنا أسأل جاداً عن السلاح، فأنت في كل لحظة مُعرّضٌ لمداهمةِ بيتك؟

فضحك الشهيد مروان، وقال له: كفى أبا صفوان، كفى تستفّز الشيخ عداباً، الآن يقوم، ويضربنا!

يا أبا محمود! لو سمحت أنت الآن صاحب البيت، قم أحضر لنا فطوراً من السوق القريب!

في لحظات الغضب الشديد؛ لم أنتبه إلى أنّ الشيخ يريد تهدئةَ الموقف، وإبعادي عن الاحتكاك مع «أبو صفوان القداح».

فقمتُ، وطرقت الباب على زوجتي، وطلبت منها وعاءً كبيراً للحليب، فأعطتني وعاءَ الحليب، وقالت: يا أبا محمود بحقّ الله تعالى أخرجني من هذا البيت، والله أشعر أن حبلاً

يلتفّ على عنقي، يريد أن يخنقني، أسألك بالله، خُذني إلى أي مكان، أكاد أموتُ في هذا البيت؟!

فاستفهمت عمّا إذا كانت زوجتُه متضايقةً منك؟

فنفت ذلك، وقالت: هي أشد مني رُعباً، وتخوّفاً، وقلقاً، وقد استأذن أخوها من الشيخِ؛ ليأخذها معه، فرفضت من أجلي!

فقلت لها: بعد الفطور إن شاء الله؛ سنَزور أخاك نصف ساعة، ثم نخرج إلى المطار فنحن يجب أن نكون في المطار الساعةَ العاشرة، والشيخ حمّلني عدداً من الرسائل إلى ليبيا وهو مُصِرٌّ على أن نسافر.

وخرجتُ من البيتِ، وقَفَل مأمون كاخي البابَ ورائي، ونزلت من الدور الخامس إلى الدور الأرضي، ولم ألاحظ أي شيء، سوى أنّ رجلاً نحيلاً كان يدخّن وهو يصعد الدرج فلم أستظرف حتى السلامَ عليه!

لكنني عندما خرجت من العمارة؛ أحسست أن النهار في باكورته، وأن المحلات التجارية مغلقة! فهممت بالرجوع، وإذا برجل خرج من أحد المحلاّت التجاريّة القريبة فعلمت أن ثمّة محلاً مفتوحاً.

كان الشهيد مروان أخبرني مساءَ يوم الأحد؛ أن أخواته سيَزُرنه يومَ الاثنين بعد الظهر وكانت زوجتي أخبرتني أن المطبخ يحتاج بعض الحاجيات، وكتبتها لي.

فدخلت الدكانَ، وسلّمت على صاحبها الدمشقي، وأعطيته الورقة، فأعطاني الأغراض، وقبل خروجي من الدكان؛ جاء الفرّان ومعه كمية جيدة من الخبز، فرأيت من المناسب لوضع منْزل الشيخ شراءَها كلهّا، إلا ثلاثة أرغفة اشتراها الزبون الوحيد الذي دخل المحلّ.

وحاول صاحب المحل أن يساعدني في حمل الأغراض؛ لأن حملها صعبٌ على شخصٍ واحدٍ، فرفضت، وطلبتُ منه أن يضعها في أكياس كبيرة، وفعل فعلاً.

لكن طفلاً صغيراً قال: عمّو أنا جاركم في الدور الخامس، وقد اشتريت لوالدتي شيئاً وأنا طالعٌ معك، فأنا أساعدك.

فحمّله صاحب المحل طبقَ البيض وفوقه عدد يسير من الأغراض الخفيفة، وسرنا إلى العمارةِ، وأنا أستفهم عن اسمه واسم والده وعمله، وكيف عرف أنني في الدور الخامس؟

فقال على سجيته: أنا اسمي فلانٌ، وأبي فلانٌ، وأمي فلانة، وأبي ضابط في جهاز كذا نسيت، وشقة الشيخ بجوارنا، كل يوم يأتي ويروح إليه كثيرون.. وهي بالأصل شقة أم حسني، لكن أجّرتها، وسافرت إلى أمريكا!

فغصصتُ من كلامه، وقلت في نفسي: نحن إذاً مفضوحون من غير جلاجل، الله يستر!

لحظات اعتقالي:

وصلنا إلى الدور الثالثِ، والطفل يتكلم على سجيّته؛ رافعاً صوته، وأنا أصغي إليه وألاطفه، ولم أنتبه إلى شيء.

ولما وصلتُ إلى الدور الرابع؛ إذا بي أرى رجلاً، وبيده مسدس، فلما أحسّ بي؛ جَفِل؛ فأيقنت أنه من الأمن، فتمالكتُ نفسي، وقلت: السلام عليكم، فرد عليّ جمعٌ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وتابعت طريقي متماسكاً، فنادى عليّ: عفوا اسمك هويتك، هويتك اسمك، وهو يشير إليّ بالمسدّس، فضحكت، ورفعت يده التي يمسك بها المسدس إلى أعلى، وقلت له: بيدك مسدس ومرعوب؟ خيراً إن شاء الله، ما لك؟

فلم يقل الرجل شيئاً، وتابعت سيري حتى وصلت الساحةَ التي أمام شقق الدور الخامس، فإذا على الدرج السابق واحدٌ آخر انضم إليه من كان في الرابع، وعلى باب الشقة اثنان وعلى الدرج الصاعد إلى الدور الخامس اثنان، فصاروا ستةَ رجالٍ، كلّ منهم يشهر مسدسه نحوي، ويدُه ترتَجف.

جاء كبيرهم، فيما بدا لي، نحوي، وقال بارتباكٍ شديد: اسمك، هويتك! اسمك هويتك! من أنت، وإلى أين قادم؟

فأزحت مسدسه عن وجهي قائلا: أبعدْ مسدسك عن وجهي، المسدسُ لا يخيف الرجال، أنت مَن، وماذا تريد؟ ورفعت صوتي عالياً جدّاً، حتى قلت: إن الجيران استيقظوا.

وكلّ غرضي أن يَسمع الشهيد مروان، فيأخذَ حِذرَه.

فغضب الرجل، وحملق عينيه قائلاً: وربّكَ أقتلك، لا ترفع صوتك أبداً!

فتجاهلتُ، ورفعتُ صوتي أكثر، ومشيتُ إلى الباب بعنف، ولكنهم أمسكوا بي بقوةٍ ومنعوني من قرع الباب، واقتادوني إلى أعلى، فتابعت صراخي: من أنتم، وماذا تريدون مني؟

فقال كبيرهم: نحن ..أنا.. أمن.. أمن دولة، هذه بطاقتي، انظر بها، اصمتْ، اسكتّ!

فقلت: أهلاً وسهلاً بكم، ماذا تريدون؟

قال كبيرهم: أين شقتك؟ قلت هذه شقتي، فقال: هذه شقتك؟

قلت: نعم، وأخرجتُ مفتاح بيتي في دمشق من جيبي، وقلت: تعالَ معي، تفضّل حتى أفتح لك الباب، وكان غرضي أن أقرع الجرس، وأضربه بشدّة، وليعتقلوني بعد ذلك، أو يقتلوني، فلا فرق!

فقال: أنا أريد أسألك سؤالاً واحداً، لكن لا ترفع صوتك، وإلا «بشنكلك لتحت»

قلت ساخراً متكلفاً الضحكَ: تفضل لنشوف؟

قال: أبو خالد جَوَّ ولا لأ؟ قلت: من أبو خالد هذا؟

قال: ألا تعرف أحداً اسمه أبو خالد؟

قلت: بلى! جدي رحمه الله أبو خالد، وابن عمّي أبو خالد، لكن من الذي تسألون عنه، ولماذا؟

قال: أبو خالد مروان حديد.

فكدتُ والله أختنقُ بريقي، ولكني تجلّدت، وقلت: من هذا مروان حديد؟

قال: لا تعرف مروان حديد؟

قلت: ولا مروان خشب!

وكان لنا أخ اسمه عادل لبابيدي، يلاطف الشهيد مروان، ويقول له: مروان من المرو وهو الحجر الصلب، والحديد معروفٌ، لو قلنا: مروان خشب ألطف قليلاً!

ففي هذه اللحظات الحرجة؛ تذكرت كلمات ذلك الأخ الطيب، وقلت له: ولا مروان خشب، فهمّ بضربي على رأسي، ولكنه تراجع، لا أدري لم؟

في تلك اللحظات اقتادوني إلى أسفل، فمشى واحدٌ إلى جانبي، ومسدسه في خاصرتي اليمنى من جهة «الدرابزين» والآخر يمشي خلفي، ومسدسه في وسط ظهري، وكان الذي يمشي ورائي رئيسَهم.

بدليل أنه التفت إلى الأربعة الباقين، وقال: إذا نحن نزلنا إلى الأسفل؛ تقرعون الباب، فإذا سمعتم حركة، فاضربوا الباب حتى «يِتْخِلِع» وحاولوا ألا تصيبوه، ونزلنا بهدوءٍ تامٍ، وأنا واجم، كأنني منوّم مغناطيسياً، وهم كذلك، فلا هم كلموني بكلمة، ولا أنا كلمتهم بكلمة، حتى وصلنا الدور الأول فنّي «المائدة» نظرت فإذا بثماني سيارات عسكريّة (لاندروفر) فيما يبدو، وفيها جنود على رؤوسهم خَوذات حربيّة، فقلت في نفسي: انتهى الشيخ مروان!

في تلك اللحظة صحوتُ من سباتي الرهيب، وحاولت أن أتحرك بهدوءٍ، ولكن رفيقّي كانا يقظين تماماً.

وفي اللحظة التي وصلنا فيها إلى باب العمارة؛ سمعت صوت الشهيد مروان يصرخ: الله أكبر .. الله أكبر ..عداب، عداب، عداب، وكان في الحقيقة يشتمهم ويقول: (كلاب.. كلاب.. كلاب).

وأعقب صراخَه! إطلاقُ عياراتٍ ناريَة قَدرتُّها بين أربع إلى ست عيارات، وخَمَد صوت الشهيد مروان بعدها نهائياً، فذرفتْ عينايَ، وقلت في نفسي: ما قيمةُ عيشك بعد شيخك؟

في هذه اللحظاتِ؛ صرنا خارجَ العمارة، وأسرع عدد من رجال الأمن المسلحين نحونا وقالوا لمن معي: هذا هو؟ قال الرئيس: لا.. خذوه..خذوه..خذوه!

ورجعا راكضين مسرعين إلى العمارة.

نظرت أمامي، فرأيت ستةً من رجال الأمن المدنيين، ونظرت خلفي إلى جهة اليمين؛ فرأيت السياراتِ الثماني التي أشرت إليها، وتذكرت ما قاله لي الشهيد مروان من أن أخواته سيأتين بعد ظهر ذلك اليوم، وسيأتي للقائه عددٌ من إخوانه من عِدَّة محافظات قال لي: إنهم قد يصلون إلى سبعين شابّاً!

فأقنعت نفسي بأن المصلحة تقتضي أن أُفلت من أيدي رجال الأمن، ما دام الشهيد مروان قد قُتل، والشباب سوف يستسلمون؛ لأنني لا أعلم عندهم سلاحاً أصلاً.

ورأيتُ الرجالَ أمامي غيرَ منتبهين إليّ، ولا مهتمّين بي، وأنا بدوري أشعرتهم باستسلامي التام لهم، ووقفت قريباً منهم، أنظر إلى أعلى العمارة، ثم سللت سكيناً صغيراً حادّاً كان معي، وصرخت فيهم، وهجمت عليهم بأقصى درجات العنف، فتفرقوا من أمامي، وهربت من بينهم، ولم يكن غرضي جرحَ أحد منهم، إلا إذا أرادوا الإمساك بي.

وهم لم يجرؤوا على الإمساك بي، لكنهم أمطروني برصاص المسدسات والرشاشات، وأنا أسابق الريح، وأتمايل في جريي تمايلَ الحصان، والرصاص يحوطني من كل اتجاه.

فلم أشعر إلا وأنا واقع في حفرة عريضةٍ، عمقها يزيد على ثلاثة أمتار بيقين، ودخل سيخُ حديدٍ في قدمي اليُسرى فمزّقها، وعندها لم أعد أسمعُ رَميَ الرصاص، وأغمي عليّ فيما يبدو، لكن لا أدري كم كانت مُدّة الإغماء، وحين صحوتُ؛ وجدتُ بِركةً من الدم تحتي، والسيخُ لا يزالُ عالقاً في قدميّ.

سحبتُ السيخ بعنف، ثم نظرت، فرأيت مكان خروج الآليات من تلك الحفرة الواسعة في الجهة المقابلة، فخرجتُ، فرأيت أمامي طريقاً مسدوداً، فرميت بنفسي في حديقةِ أحد المنازل، وإذا بصاحبها يسقيها، فصرخ بي مؤنّباً، فصرخت به: اخرس!

فسكتَ الرجل، وخاف من السكين التي بيدي، فيما يبدو، وتابعت طريقي إلى منزل الشهيد رياض جعمور في حيّ الميدان.

قصة الطريق من العدويّ إلى المجتهد؛ تحتاج إلى مقالٍ خاصٍّ، فقد كان الدم لا يزال ينزف من قدمي، ويزداد نزفه كلما مشيتُ على رجليّ، وأنا حافي القدمين...إلخ.

قصدت منزل الدكتور رياض جعمور؛ لما أعرفه من حذره الشديد، وحرصه على عدم الظهور بمظهر الإسلاميّ اللافت للنظر، وكان أخوه الدكتور مُحَمّد يدرس الطبّ، فطببني الرجل، وخاط لي جرحي الغائر الممزق، وأخبرتهم بما حدث، وطلبت منهم الاتصال بأهل الشيخ، وإعلام الإخوة بعدم الذهاب إلى منزل الشيخ؛ فإن الشيخ إما قتيل، أو جريح وغفوتُ، وأنا أحدّثهم، ولم أستيقظ من غفوتي إلا بعد صلاة الظهر؛ لأجد أمامي الدكتور الطبيب مُحَمّد، والأخ صفوان عقميق، وعدد من الإخوة الآخرين!

أعطاني الدكتور مُحَمّد حقنة (كزاز) وقال: من الأفضل أن نأخذك إلى المشفى؛ لأن جرحك عميق، وقد نزفت دماً كثيراً.

كيفية اعتقال الشيخ:

كيفية اعتقال الشيخ لا يعرفها إلا الذين اعتقلوه، ومن ساعدهم على اعتقاله، وهو يَعرفُ لحظات التنفيذ.

ومن أقدار الله تعالى أن الأستاذَ فريد قداح، كان في الشقّة في أثناء اعتقال الشيخِ، وهو حيّ يرزق.

والشهيد مروان أضرب في السجن عن الطعام أياماً طويلة، فساءت حالته الصحية والنَفسيّة، فأحضروا أحدَ السجناء الدمشقيين، وهو الأخ عادل حيدر؛ ليراقب حالتَه ويخفف عنه في زنزانته، كما حدّثني عادلٌ في شهادته.

فأنسَ به الشهيدُ مروان، وأسرّ إليه بما جرى أثناء اعتقاله.

وقد التقيتُ به في مكة المكرمة، واستضفته في بيتي، وأنا لا أعرفه من سابق، وسألته عن أيام اعتقاله مع الشهيد مروان، فأملى عليّ أوراقاً عديدة، مهرها بتوقيعه، وهي في مكتبتي في الأردن حتى اليوم، وقد أودعتها بتمامها في ملحق الكتاب.

حدثني الأخُ أبو عبدُالرحمن قال: كان مما قاله لي الشهيد مروان في الزنزانة (٩): دخل الأخ أبو صفوان، وبدأ يتكلم بكلامٍ مداعبةٍ، لم يحتمله الشيخ عداب، وبدأ يصرخ في وجه أبي صفوان، ويؤنّبه، فخشيتُ أن يتطوّرَ الأمر بينهم؛ وعدابٌ عنيفٌ، فطلبتُ منه أن يذهب إلى السوق ليشتري لنا طعامَ الفطور، ولم يكن غرضي إلا إبعادَه، حتى لا يتطور الأمر بينهما؛ لأن عداباً استاء من دخول أبي صفوان إلى مَنْزلي أصلاً، ولم يستقبله الاستقبالَ اللائق أبداً!

وعقبَ خروج عداب بلحظات؛ طُرق الباب، فقلت لهم: رجع الشيخ عداب؛ لأنه لا توجد دكاكين تُفتح الآن!

قال الشيخ: ولما نظرت من العين السحرية؛ فوجئت بأنّ «مصطفى جيرو» على البابِ، ففتحت له، ودخلت معه إلى غرفة خاصة، وقلت له: هل أوصلتَ ما طلبتُه منك إلى أصحابه؟ قال: لا، لم أتمكن!

قال الشهيد مروان: فوقع في قلبي شيءٌ، فقلت: يعني هل يمكن أن تكون وصلتْ للأمن؟ فقال «جيرو»: ممكن، والله أعلم؟

قال الشيخ: وكان الرجل قلقاً مُرتبكاً، ثم استأذن للانصراف، قال الشيخ: فقلت له: انتظر حتى نضيفك؟!

قال: لا.. الآن ليس وقت ضيافة.. أنا مُستعجلٌ أريدُ أن أصل إلى القطعة العسكرية «موضع خدمته» قبل الدوام، فقد اتصلوا بي، وقالوا: اقطع إجازتك فوراً.

قال الشهيد مروان: ولما وصلنا إلى باب الشقة؛ أخرج إحدى رجليه، وأبقى الأخرى داخل العتبة، وصار يكلمني، وأنا مستغرب من موقفه، فقد كان داخل المنزل مستعجلاً.

وما هي إلى لحظات حتى جاء عدد من رجال الأمن، فضربوا الباب، وأطلقوا رصاصةً أو رصاصات للإرهاب، واحتضنوني، وضربني أحدهم على رأسي، فأُغميَ عليّ، فلم أفق إلا في السجن».

قال عداب: وقد تيقّن تلامذةُ الشهيد مروان من هذا الأمر، وقتلوا الخائن «مصطفى جيرو» شر قتلة، عليه من الله ما يستحقّ.

سجن الشهيد مروان واستشهاده:

عومِل الشهيد مروان بأشدّ وأقسى أساليب التعذيب النفسيّ والجسديّ، وقد اكتشف أعداؤه المجرمون حياءَه الشديد؛ فكانوا يتركونه عاريَ الجسد تماماً.

ولما كان الشهيد يذهب إلى أنه لا يجوز للمؤمن إعطاءَ الدنيّة من دينه راضياً غير مكرهٍ؛ فقد كان يقاوم سجانيه ويضربهم، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قال السيد أمير زكية، وقد كان معه في سجنٍ واحدٍ:

«كان الشهيد يرى أنه حتى في السجن؛ لا يحلّ أن يُعطيَ المسلم الدنيّة من دينه، بل عليه ألا يطيعَ أوامرَهم، ولا ينفّذ رغباتهم، وإذا طلبوا منه الحضور إلى أحد كبرائهم ألا يذهب طواعيةً، حتى يأتوا هم ويأخذوه كرهاً عنه!

وفي هذا السياق، كانوا قد أحضروا له ملعقة طعامٍ مرّةً، فصار يَسُنّها حتى صار حدّها كحدّ السكين!

وذاتَ يومٍ رأى من نفسه شيئاً من النشاط، وهو ضعيف نحيلٌ جدّاً، فطلب مقابلة مدير السجن، وخبّأ الملعقة تحت ثيابه، فلمّا رأى مدير السجن؛ هجم عليه يريد ضربه بتلك الملعقة السكين، لكنهم احتوشوه، ومنعوه، وزادوا في ضربه وتعذيبه».

فلما اكتشفوا حياءه من كشف عورته المغلّظة؛ غدا تعذيبُه عليهم أسهلَ من ذي قبل؛ لأنّ حياءه الفطريّ والشرعيّ؛ كانا يدفعانه إلى الانكماش على نفسه؛ ليستر عورته فكانوا ينهالون عليه ضرباً، من دون مقاومة منه تذكر!

وأنا شخصيّاً لا أنتظر من الكافر أن يكون رحيماً على مَن يخطّط لاقتلاعه من جذوره فحكام المسلمين السابقين؛ لم يكونوا رحماءَ مع خصومهم المسلمين، بل كانوا يعذبونهم أقسى أنواع العذاب المؤدي إلى قتلهم، فانتظار الرحمة من العدوّ الكافر خطأٌ!

وأنا حين أسردُ بعضَ أنواع التعذيب التي تعرّض لها الشهيد رحمه الله تعالى؛ أهدف إلى ثلاثةِ أهدافٍ:

الأوّل: صبر الشهيد رحمه الله وثباته.

والثاني: قسوة الكافر على المؤمن ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة : ٨].

والثالث: تحذير المؤمنين المجاهدين من الأسر، وحثّهم على عدم تسليم أنفسهم إلى عدوّهم إلا شهداء، وليفعلوا بجثته بعد ذلك ما شاءوا؛ فإنّ «الشاة لا يضرّها سلخُها بعد ذبحها»[١٤].

وقبل نقل صور من تعذيب الشهيد مروان؛ يحسن أن نتعرّف على الزنزانة التي كان يقيم فيها، فهي «فيلا» كالتي يسكنها الطغاة المجرمون، غاصبو الأمة أمرَها.

حدّثني السيد أمير على الهاتف قال: تنقسم زنزانات سجن المزة على أقسام:

– زنزانة خارجية: وهي زنزانة منفردة، مساحتها (١٢٠× ٢٠٠ سم) وارتفاعها (٥– ٦ م).

– زنزانة داخلية: وهي قسمان:

القسم الأول: زنزانات منفردة، مساحة الزنزانة (١٢٠× ١٨٠ سم) وارتفاعها (٢ م) وفي داخلها حمام، وتشمل الزنزانات (١– ٦) والسرير فيها يشبه القبر؛ لأنه مبني من الحجر، ونحن كنا نطلق عليها اسم القبر، ومع هذا؛ فهي تعدّ أفضل الزنزانات، لكنها مليئة بالحشرات كالصراصير، والقمل، والفسفوس، والجرابيع.

---

(١٤) من قول أسماء بنت أبي بكر الصدّيق لولدها عبدالله بن الزُبيرِ يومَ حصار جيش الحجّاج له في الكعبة، كما في جمهرة خطب العرب للأستاذ أحمد زكي صفوت (٢: ١٧٨).

والقسم الثاني: زنزانات تتسع لنفرين، وفيّ كلٍ منها سريران حجريان أيضا، وأبعادها (٢,٥× ٢,٥) وفيها حمامها، وتشمل الزنزانات (٧– ١٢) لكنّ السلطة المجرمة كانت تَحشُر في كلّ زنزانة خمسةَ سجناء.

وفي الزنزانة (١١) كان السيد أمير، ومعه الإخوة: الشهيد وضّاح جُنيديّ وعبدالرحمن نوح، وشخصٌ حلبيّ اسمه جميل مستو، وآخر دمشقي اسمه عبدالرحمن حيدر، لكنه ليس شقيقاً لأخينا عادل حيدر، وليس من قرابته أيضاً.

والزنزانة (١٢) كان فيها الإخوة: الشهيد مأمون كاخي، ومُحَمّد صادق عون، والشهيد عصام أرناؤط، والشهيد أحمد خبّاز. ونسي السيد أمير اسم الخامس.

– زنزانة علوي: وهي على شكل مهجع كبير (٦× ١٢) وارتفاع (٢) وفي الداخل مقسم إلى زنزانات (١٤٠× ١٨٠) وارتفاع (٢ م).

وأرقام زنزاناتها، من (١– ١٩) وحماماتها، تأخذ مساحة زنزانتين.

أمّا الزنزانتان (١٣– ١٤) وكانتا مغلقتين تماماً، لا تريان النور، ولا الشمس، وفيها سُجن الشهيد وضّاح جنيدي عِدَّة شهورٍ؛ فأصبحَ جسمُه أخضرَ من الفطريّات؛ فطلب طبيبُ السجن نقلَه إلى زنزانة ترى النورَ والشمس والهواء، ففي بقائه في تلك الزنزانة خطر على حياته.

لكنّ السلطة الغاشمة نقلته إلى سجن تدمر، واستشهد في مجزرة تدمر الشهيرة.

من صور تعذيب الشهيد مروان:

وسألت أخي عادل حيدر: هل حدثك الشهيد بشيءٍ عن التعذيب الذي لقيه؟

فقال: نعم! قال لي الشهيد مروان: إنه كان عارياً تماماً في يوم اعتقاله، والدم ينزف من عِدَّة جهات من جسمه.

وفي فترة إضرابه الأول عن الطعام؛ كانوا يُرهبونه إرهاباً شديداً، فيأتون له باثنين من الملاكمين، فكانا يتدربان بالشيخ، يوم كان نحيلاً ضعيفاً، لا يقوى على الدفاع عن نفسه.

وكان أحد الملاكمَين من آل الجابي، عرفه المجاهدون، فقتلوه في سوق الحميديّة بدمشق فيما بعد!

وقال لي السيد أمير: وقد رأيت أنا والشهيد وضّاح جنيدي، والأخ عبدالرحمن نوح الشهيدَ «مُحَمّد عجعوج» وكانوا قد طلبوه؛ ليقول شهادته أمام مروان.

فقال الأخ مُحَمّد: أنا رأيت الشهيد مروان كتلةً زرقاء من التعذيبِ، وكان عارياً تماماً».

وكانوا كثيراً ما يسمعونه أصوات التعذيب المنبعثة من أخته، وزوجته، وأقاربه، وإخوانه وكانت كلها حرباً نفسيةً لا أساس لها، وإنما من أجل أن تنهار أعصابه رحمه الله.

كما أنهم منعوا عنه الطعام عدداً من الأيام، وكانوا يعطونه خبزاً مكسراً مع كأس فيه ملح، وقد يعطونه طعاماً ملوّثاً، مما جعله يُضرب عن طعامهم القذر هذا.

ومن آثار التعذيبِ الرهيب في سجن المزة العسكريّ؛ هبطَ وزنه من (٩٠) كيلو إلى (٣٦) كيلو تقريباً!

واستمر على هذه الحالة سنةً وتسعة عشر يوماً، نُقل بعدها إلى المستشفى العسكريّ وهنالك بدأت صحته في التحسن، ولكن ذلك ساء الظالمين، وأقلق الطغاةَ، فعاجلوه بحقنة مسمومة في رقبته؛ فارقت بعدها روحُه جسده في يوم الاثنين (٢٢) رجب (١٣٩٦هـ) الموافق (١٩) تموز (١٩٧٦م) وشيّع جثمانَه قلّةٌ قليلةٌ من أهله تحت حراسةٍ مشددة من قبل سرايا الدفاع، بعد أن منعوا أهله من دفنه في مدينة «حماة» ومنعوا إخوان مروان وتلامذته من تشييع جثمانه، وتوديعه الوداع الأخير.

أمطرت السماء يوم وفاته:

قال الدكتور خالد الهنداويّ: نزلتُ إلى ساحة الصالحية بدمشق، الساعة الثانية من صباح الثلاثاء، ووصلت مشارفَ حمص حوالي الخامسة صباحاً، وإذ المطر غزير!

فذهبت إلى كراج السيارات، ومن هناك انطلقت حتى أرى الشيخ عبدالعزيز عيون السود، إذ كان يُعطي في ذلك اليوم درسَ تجويد.

فقال له بعض تلامذته: ما هذا المطر في تموز، فقال الشيخ عبدالعزيز: هذا المطر لا ينزل إلا لمصيبةٍ تحل بالمسلمين، أو موتِ رجل صالح.

وقد كُسفتِ الشمسُ بعد العودة من دفنه.

ترجّل مروانُ عن حصان الجهاد شهيداً في سبيل الله، بعد أن صبر على العذاب المضني في سجن «المزة» أكثر من سنة من الزمان. رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

الفصل الخامس

من وصايا الشهيد مروان رحمه الله تعالى

هذا الفصل خاصٌّ، لم أنقله عن أحدٍ، وإنما هو ما أسعفتني به الذاكرةُ، مما كان يوصيني به، ويكرّره مرّاتٍ أحياناً، جزاه الله عني خيراً.

وللحقّ أقول: كان في أخلاقي شيءٌ من الحدّة والشدّة، وكنت أكرهُ المزاحَ تماماً!

وكنت أحسّ في قرارة نفسي أنّ الله تعالى منحني بعضَ الصفات التي أتفوّق بها على غيري، سواءٌ في القوة البدنية، أم في العلم، أم في الرجولة والشجاعة!

فالفقير عداب رياضيّ متمرس، ومصارع مُجيد، وخيّال من الطراز الأول، وكنت أرمي بالرشاش (كارلو) دراكاً، فأصيب خمسةً من خمسة!

كان يَبدُرُ مني في بعض الأحيان شدّةٌ وحدّة في مخاطبة الشبابِ الذين يضحكون، أو يمزحون في حضرة الشهيد مروان، فلا يروقُ له مني هذا.

كما كنت ألمحَ من شيخي الشهيد مروان رحمه الله تعالى؛ أنه كان يؤمّل بي خيراً كثيراً نسأل الله إسبالَ ستره علينا، بمنّه وكرمه.

وربما كان هذا وذاك من أسبابِ كثرة نصائحه لي، والله أعلم.

في العام الدراسيّ (٧١- ١٩٧٢م) كنت مدرّساً مكلّفاً في محافظة «الرقّة» وكان دوامي في إعدادية «السبخة» التي نُقلت إليها من إعدادية «شمس الدين» التابعة لمنطقة (منبج) من يوم السبت إلى الأربعاء، وكنت أنطلق فورَ انتهاء الدوام إلى مدينة حماة؛ لألتقيَ شيخي مروان، وأقوم بوظيفتي تجاه «خليتي الخاصة» وأجتمع بها وببعض الأحباب الآخرين.

وكنت أزور الشهيد مروان ليلة الخميس، وأذهب إلى أهلي عقب صلاة ظهر الخميس؛ إذ هم يعرفون أنّ دوامَ المدارس من السبت إلى الخميس، فيبدو لهم الأمر طبيعياً.

أما تلامذتي؛ فكنت أتدارس معهم مساء الخميس الأمورَ النظرية في بيتي، بينما كنا نخرج بعد صلاة الفجر للتدريب، ما لم يكن ثمة مطر، أو ثلج!

وفي إحدى الليالي الشديدة البرد؛ وصلتُ من الرقّة بسبب المواصلات متأخّراً، ومتعباً جدّاً، وجائعاً أيضاً!

حضرتُ إلى مسجد الشيخ مروان بعد العشاء بساعةٍ تقريباً؛ فوجدت عنده قُرابةَ عشرةِ شباب، ولم يكن وجه الشيخ يدل على ارتياحه من وجودهم، أو وجود بعضهم!

فما أن جلستُ لأرتاح قليلاً؛ سألني: صليت العشاء؟

قلت: جمعتُه مع المغرب، لكن إذا كنتم تريدون الصلاة؛ أصلي معكم.

قال: هل تتوضّأ؟ قلت نعم!

قمت فهيّأت نفسي للوضوء، ثم توضّأت بماءٍ، ربما كانت حرارته تحت الصفر، فكاد نفسي ينقطع من شدّة برودته!

فلما رآني أريدُ الدخول إلى الغرفة؛ قال: لا تدخل؛ نريد أن نصلي ركعتين.

أقامني وراءه، ومعي عددٌ من تلامذته الأفاضل، وصلى بنا ركعتين، ما انتهى منهما حتى تقطّعت أمعاؤنا من المغص والبرد، وانفصل جميعُهم من الصلاة، ماعدا واحداً بقي بجانبي لا أذكر اسمه الآن!

وحين سلّم الشهيدُ؛ وقف فوراً، وكأنه مذعور، ونوى بركعتين أخريين!

والشاب الذي صلّى تلكما الركعتين الساميتين وراءه معي؛ انصرف من الصلاة وخرج من باب الحرم، ثم توجه خارجَ المسجد، فخرجتُ معه؛ لأنظر مَن بقي في غرفة المسجد فلم أجد فيها أحداً، فأغلقت باب المسجد، ثم دخلت حرم المسجد، ووقفت عن يمين الشهيد، ونويت بنيته!

حين انتهى من الركعتين الأخريين، وكانتا على النصف من الركعتين الأُوليين، أو أقلّ! التفت إليّ مبتسماً، وقال: هربوا!

فرآني غير مرتاح، فقال: حتى أنت زعلان؟!

قلت: يا شيخنا، لقد مضى أكثرَ من ثلاث ساعاتٍ قطعاً في صلاة أربع ركعاتٍ وصلاةُ التراويح عشرون ركعة تصلّى بساعة، وأكثرُ الناس يهربون بعد الثماني!

فلو صليتَ بنا ثماني ركعاتٍ في ساعتين؛ فربما لم يهرب أحدٌ، وربما صلّى أكثرُ الإخوة معك، فيتدرّبون على القيام بالتدرّج، فأُجروا، وأُجرتَ!

فقال: يعني أنت لم تكن مرتاحاً في صلاتك؟

قلت: لا! أبداً، بعد نصف الساعة الأولى من الركعة الأولى؛ فقدتُ الخشوعَ تماماً وحدثتني نفسي مرّات أن أنفصلَ، كما انفصل الإخوة الآخرون!

لكنني استحييتُ منك، ووقع في قلبي أنك تريد اختبارَ صبر تلامذتك، فصبرتُ!

أما الصلاة؛ فشكلٌ، وليس لها مضمون؟!

فالتفت إليّ بغضبٍ وقال: يا عداب! كنا نظنّ بك خيراً، ونُعدّك لأمورٍ عظيمة!

تفقِدُ الخشوعَ في صلاة ركعتين، ثم تستحيي مني، ولا تستحيي ممن تقف تصلي له؟

الله أكبر، الله أكبر!

ثم التفت إليّ مرةً أخرى، وقال: هل تظنّ أنني أعتمد على واحدٍ من هؤلاء جميعاً؟

كلّا وألف كلّا!

قلت: أراك تتلطفُ بهم، وتكرمُهم، وتقرّبهم أكثرَ منّا نحن!

قال: طبعاً! طبعاً! أتألفهم حتى لا ينحرفوا، أتألفهم حتى لا يدخلوا النار، هل تريدني أن أعامِلَك مثلَهم؟!

يا عداب! أنا ليس عندي في حماة اثنا عشر شابّاً أستطيع الاعتماد عليهم، وليس اثنا عشر ألفاً، كما يقول شيخنا مُحَمّد الحامد دائماً! وأنت واحدٌ ممن أعتمد عليه!

قم، قم نصلي ركعتين، لعل الله تعالى يغفر لك ذنوبك على هذا الكلام!

قم وصلّ بي أنت!

اعتذرت عن أن أصلي به، لكنه أصرّ، فصليت ركعتين، قرأت في الأولى منهما سورة ﴿يس* والقرآن الحكيم﴾ وفي الثانية سورة ﴿إذا وقعتِ الواقعةُ﴾ ولم أزد على صلاتي التي أصليها عادةً، حتى ولا تسبيحةً واحدة!

وعقب انتهاء الصلاة؛ قال الشيخ: هل خشعتَ في صلاتك؟

قلت: أرجو! لكنني كنت في صلاة الركعتين الأخريين وراءك أكثرَ خشوعاً!

قال: لماذا؟

قلت: لا أدري، لكن أنت أفضلُ مني، وروحانيتُك أعلى من روحانيتي!

قال: لا! ليس الأمر كذلك، ولكن المأمومَ يكون همّه واحداً، والإمام تكون اهتماماته متعددةً، فإتقانُ القراءة، وإتمامُ الأركان، والانتباهُ إلى المصلّين، فينشغل أكثر من المأموم!

يا أخي الكريم..أحبّ أن أقول لك شيئاً مهمّاً: يجب أن نتدرّب على العبادة؛ كما نتدرّب على السلاح وأكثر؛ لأنّ من لا يصبرُ على طاعة الله في الأمن والرخاء ساعةً من ليلٍ؛ فكيف يصبر على منازلة خصمه ساعةً، أو ساعاتٍ في نزالٍ، أو قال: في خوفٍ!

كيف يصبر على السجن والتعذيب والإهانات، إذاً ينقلب على عقبيه، لا سمح الله تعالى.

ولا أذكر أنني خلوتُ به رحمه الله تعالى مرّةً إلا وجّه لي بعضَ النصائح النافعة في ديني ودنياي، وكان يكرر بعض النصائح التهذيبيّة لحدّتي وشدّتي مراتٍ ومراتٍ!

فمما كان يكرره عليّ، ويتغيّر وجهه إذا نصحني به، ما يأتي:

يا أخي الكريم..يشهد الجميع أنك شجاعٌ، وقويّ، لكن الجميعَ يشهد أنك تعامل إخوانَك مثلما تعاملُ أعداءَك تقريباً!

فأنت عزيز على الكافرين والفاسقين، كما أنك عزيز على إخوانك المسلمين!

وهذه الصفةُ من أقبح الصفاتِ، التي لا يجوز أن يتّصف بها المسلم!

كان جدّك عليّاً رضي الله عنه [وأنت تحبّ أن أقول لك هذا] كان أشجعَ وأقوى منك ومني، وربما من جميع البشر اليوم!

لكن انظر عندما كان الأمر يتعلّق بالأمة، ويُخشى من ورائه إراقةُ الدماء؛ تنازل عن اجتهاده، وتبع جماعة المسلمين، وليس فيهم من يقاربه شجاعةً وقوّةً في نظري!

كان رحيماً بالمسلمين، لم يؤثر عنه غلظة ولا قسوة، فلم لا تكون مثلَه يا أخي؟

إن الشهيد مروان؛ كان يوجز لي الأخوة دائماً بكلمات في كثير من أيام خلوتي معه ويقول: أخي أبا محمود:

(١) التمس لإخوانك الأعذار ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً.

(٢) لا تطلب منهم غيرَ ما يعطون (خذ العفوَ).

(٣) ولا تعاقبهم فيما به يخطئون.

(٣) وإذا نصحتَ، فتلطّف، واخفض الصوت، وأجمِلْ في الكلام؛ فإن لكل نفس وتراً فاعرف على أي هذه الأوتار تطيب الأنغام.

(٤) ولا تمدحْ نفسك أمام أحدٍ، ولو على سبيل الاستشهاد؛ فإن الناس أبعد ما يكونون ممن يرى أن له فضلاً عليهم، أو أنه أكبر منهم، ولو فيما آتاه الله من خصال.

(٥) ولا تحقد على أخيكَ، إذا أساء إليك أو أهانك، وإذا رأيت أنك لم تعد تحتمل منه؛ فبُح له بما في دخيلتك، بلطفٍ، وصِدقٍ، وغَيرة.

(٦) كن كريماً، ولكن لا تُفرّط في أموال الناس، ولا تقترض من أجل أن تكرمَ ضيفكَ وأكرمه بما يتيسّر لك، فإذا تيقنت أنّ الاقتراض واجب عليك؛ فافعل.

ولا تنفق شيئاً إلا أن ترى وجهَ الله فيه.

(٧) وإذا أحببت أحداً؛ فلا تكثر من ذكره ومدحِه، فيزيّن لك مبغضوه مساوئَه، أو يَحسدك عليه غيرُك، فيوقعون بينك وبينه الشحناء.

(٨) وإذا خاصمتَ؛ فلا تشتمْ، ولا تغتبْ؛ لئلا تعاديَ أحداً، أو تقعَ في حرجٍ حين زوالِ أسبابِ العداء.

(٩) وإياك والكذب في أصغر الأمور وأكبرها حتى مع أعدائك؛ فإن الصدق هو الذي يتناسب مع رجولةِ أمثالك، ولا تستعمل حتى المعاريض، إلا للضرورة القصوى.

(١٠) واحذر الصدقَ المريرَ الذي يَصفع المخاطَبَ، أو السامعَ، فيدمغه، وليكن صدقُك بأدبٍ، وحكمةٍ، ففي ذلك منجاة ونجاةٌ.

(١١) كن حيياً، فإن الجرأة على الإخوانِ؛ مدعاةُ نفرتهم من الحق الذي تحمله إليهم وإذا تصورتَ أمراً حقاً؛ فشاور من تثق به، قبلَ إنفاذه.

(١٢) وإذا رأيت في أمر شراً وخيراً؛ فرجح جانبَ الخير، فلأن تخطئ بحسن الظن خيرٌ لك من أن تخطئ بسوئه.

(١٣) وإياك وقرينَ السوءِ؛ فإنه يُلهيك عن الخير، ثم يبعدك عنه، ثم ينسيك إياه، ثم يوقعك في شراك الشيطان.

(١٤) وأكثِرْ من ذكر الموت؛ فإنّ ذكر الموت؛ يخيف من الله، ويُبعد عن التعلق بالدنيا ويزهد في اللذاتِ، وطولِ الآمال.

(١٥) وتعود على المشاقِّ، فلن يأتي عليك يومٌ، إلا والذي بعده أشقُّ منه وأشد.

(١٦) وأكثر من عمل الخيرِ، قبل أن تُسأل: ماذا عَمِلت؟؟

(١٧) ولا تَبِتْ وفي قلبك على مسلمٍ حقدٌ أو ضغينة، وأكثر من الحوقلةِ، والتسبيحِ والتَحميدِ، والتكبيرِ، وتلاوة القرآن.

(١٨) في أي مجالٍ من مجالاتِ الحركة والدعوة؛ قدّم غيرك في المهام، ولا تستشرف لأمرٍ؛ لأنك إن أعطيتَه؛ أُعنتَ عليه، وإن أخذتَه رغبةً وتفرداً؛ أُوكلتَ إلى نفسك وضعفِك البشريّ، وشَمِتَ بك شانئوك.

(١٩) أنفق ما تستطيعُ في سبيل الله، واحذر العُجبَ والرياء، وعليك بعطاء السرّ وإياك والمنّ؛ فإنه بغيضٌ إلى الله، مُبعدٌ عن الجنة، محزن لأخيك، مُسيءٌ إلى سمعتك!

فما أقبحَ أن يُقالَ: فلانٌ منّان بما يُعطي!؟

وفي إحدى الخلوات معه، سألني عن صفات المرأة التي أتوقّع أن تُسعدني؟

فذكرتُ له صفاتِها.

فقال: هل تتنازل عن واحدةٍ من هذه الصفات؟ قلت: أبداً، فلن أسعد إذا لم تكن هذه الصفاتُ موجودةً فيها!

قال: كثيرٌ من هذه الصفات؛ ليس موجوداً لدى والدتي حفظها الله لنا، فهل هي موجودةٌ لدى والدتك، أو إحدى مَحارِمك؟

قلتُ: بَعضُها لا أظنّه موجوداً لدى امرأةٍ أعرفُها!

قال: هذه الصفاتُ التي تذكرها؛ هي صفاتُ كُمّل الرجال، مضافاً إليها صفاتُ الأنوثة، ولا أدري إن كان يوجد في الدنيا امرأةٌ بهذه الصفات، وأرى أن تنتظر نساءَ الجنةِ فهناك توجد نساءٌ كاملاتٌ في الجمال والصفات والأخلاق!

لو سألني أحدٌ عنك من أجل خطوبةِ ابنته؛ فسأنصحه ألا يزوّجك، وإني أظنك شديداً على النساء، من فَرطِ غيرتك! (وضحك رحمه الله تعالى).

وإذا استطعتَ ألا تتزوّج؛ فافعل، فلا أراك ستستطيع السعادةَ مع المرأة، ولا إسعادَها!

الباب الثاني

منهج الشهيد مروان في الدعوة إلى الله تعالى

تمهيد: مفهوم الدعوة إلى الله تعالى:

ليس بحثنا هذا موضوعاً لمفهوم الدعوة في اللغة والاصطلاح، ولا من أهدافه الكلام على الدعوة الإسلامية، وخصائصها وصفات القائمين عليها.

إنما هو يرصد حركةَ الشهيد مروان حديد في الدعوة إلى الإسلام.

فمفهوم الدعوة باختصار هو: السبل التي يسلكها الشهيد مروان في اجتذاب الناس إلى التمسك بالدين، وطريقته في إفهامهم تميّز هذا الدين على بقية الأديان والمذاهب والأفكار الأخرى.

وقد وردت آيات عديدةٌ في القرآن الكريم؛ تحثّ على الدعوة إلى الله تعالى، منها:

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف : ٢٨].

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج : ٦٧].

والدعوة إلى الله تعالى؛ هي دعوةٌ إلى معرفته، ودعوة إلى الإيمان بوجوده وصفاته، ودعوة إلى دينه الذي ارتضاه للناس أجمعين.

الدعوة إلى الله تعالى؛ هي دعوة إلى دين الإسلام الذي جاء به الرسول مُحَمّد صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ من عند الله تعالى، بجميع ما يشتمل عليه من العقائد والأفكار والعبادات والتشريعات والسلوكيات والأخلاق.

والدعوة إلى الإسلام؛ هي دعوة إلى اتّباع الرسول الأكرم في كلّ صغيرة وكبيرةٍ من شؤون الحياة؛ لأنّ الله تعالى نصبه في هذا الموقع السامي حين قال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب : ٢١].

وقد تربى الشهيد مروان حديد في دعوة الإخوان المسلمين، وتعرّف إلى أفكارها وأهدافها وسبلها معرفة أكيدةً، جعلته طيلةَ حياته يدعو إليها، ويعدّ نفسه واحداً من أوفياء أبنائها.

فإذا نحن أردنا التعرف على منهجه في الدعوة؛ فلن نسرد معالم دعوة الإخوان المسلمين، وإنما سنرصد التطبيق العملي الذي كان يقوم به الشهيد مروان في ذات نفسه ويدعو المسلمين إلى التمسك به، والتزامه.

ومن المناسب أن نمرّ مروراً سريعاً على نشأة جماعة الإخوان المسلمين في مصر، ثم في سوريا، وأن نعرف تعريفاً يسراً بمؤسس جماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا.

كما نعرف تعريفاً وجيزاً بمؤسس الجماعة في سوريا الشيخ مصطفى السباعي.

الفصل الأوّل

لمحةُ تاريخية عن تاريخ الإخوان المسلمين في سوريا

- مَنْزلة الشيخ حسن البنّا في نظر المؤلف.

لا أريد في كلماتي الوجيزة عن الشيخ حسن عبدالرحمن البنا بيانَ مآثره، وتعداد الصفات الفريدة التي امتاز بها، كما لا أريد أن أسجّل على نفسي تهمةَ الميل والحزبية لأنني أبغضُ الحزبية والتعصب المذهبي في كل جوانب المعرفة والسلوك.

على أنني لا أكتم القارئ حقيقةَ مشاعري وأحاسيسي تجاه هذا الرجل الشهيد.

أجل! إنني أظنّ أن الرجال الذين توفرت فيهم صفاتُ الشيخ حسن البنا الذاتية والعمليّة قلائل على مدار التاريخ الإسلامي.

فإذا استثنينا طبقة الصحابة التي يمتاز أصحابها بالفضل؛ فإن الشيخ حسن البنّا رحمه الله تعالى؛ يقرن اسمه مع أعظمِ رجالاتِ التربية والتوعية والإصلاح في تاريخنا الإسلامي.

وبصفتي متخصصاً في علم الحديث الشريف، وخاصةً علمَ النقد الحديثي المشتمل على علومٍ شتى، أحدها علم الجرح والتعديل؛ فقد اطلعت على عشرات المصنفات في هذا العلم وقرأتُ سيرَ كلّ أبطال التاريخ الإسلامي، ونبلاء المفكرين والعلماء والقادة والعظماء.

وقليل من أولئك الألوفِ الكثيرة من يتفوّق على الشيخ البنا في مجموع صفاته الذاتية وعطائه الاجتماعي، المحلّي، والإسلامي.

وقليلٌ منهم أيضاً أولئك الذين يكافئونه في تلك المزايا، وذاك العطاء، من دون مزايدات!

هذا رأيي الشخصيّ في الشهيد حسن البنّا، رحمه الله تعالى داعيةً وقائداً.

بيد أن هذا الرأي لا يدفعني بحزبية مقيتة، وتعصب أرعن إلى إضفاءِ طابعِ العصمة عليه ومحاولة تسويغ أخطائه التي وقع فيها بضرورات بشريته!

وهذا لا يجعلني أرفع ذريّتَه وأهلَ بيته إلى مقامٍ أسمى من بقية البشر، وأوهم الناس بأنهم كأبيهم؟! كما لا يجعلني مسروراً بنشر أحوالهم الشخصية على صفحات المجلاّت الإسلامية كزواج بعضهم، أو حصوله على درجة علمية كالطبّ، أو الهندسة، أو المحاماة مثلاً؛ لأنّ هذه المهن بعيدة عن مسلكيّة الشيخِ، ومناطِ الاعتزاز به؟!

على أنني أحترمهم جميعاً، وأدعو لهم، وأحبّ ولده الوحيد الأستاذ سيف الإسلام.

وإنني أرجو لجميعهم من الله تعالى السعادة، والتقوى، والصلاح.

– ترجمة الشيخ حسن البنّا:

هو إمام الدعاة في القرن العشرينِ، من دون منازعٍ الشهيدُ حسنُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِالرحمن بنِ مُحَمّد البنّا.

وُلد عام (١٩٠٦م) في بلدة المحمودية، من إقليم «البَحيرة» قُربَ الإسكندرية في جمهورية مصر العربية.

وكان والده الشيخُ أحمد من العلماء الصالحين، وكان أكبرَ اهتمامه خِدمةُ الحديث النبويّ، وله مصنفاتٌ عديدةٌ منها:

(١) «الفتح الربانيّ في ترتيب وتخريج مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيبانيّ» وقد طبع طبعاتٍ عديدة، وانتفع به الناس، ولا يزالون.

(٢) «بدائعُ المِنن في الجمع بين مسند الإمام الشافعيّ والسنن» له، وهو كتابٌ في مجلّدٍ واحدٍ، جمع فيه بين مسند الشافعيّ الذي جمعه الإمام أبو العباس الأصمّ (ت: ٣٤٦ هـ) ورواه عن الربيع بن سليمان المرادي (ت: ٢٧٠ هـ) عن الشافعيّ.

وبين كتاب «السنن المأثورة» الذي جمعه الإمام أبو القاسم الرافعيّ (ت: ٣١٥ هـ).

(٣) «القول الحسن في شرح بدائع المِنن» وهو مطبوعٌ أيضاً في مجلّدين.

وكان الشيخ أحمد يحترف مِهنةَ «تجليد الكُتب» و«إصلاحَ الساعات» ولهذا لُقّب بالساعاتيّ.

نشأ الشيخ حسن في هذا البيت المسلم، وتلقّى علومَه الأوّليةَ على والده الشيخ أحمد كما انتظم في مدرسة «الرشاد الدينية» ثم في «المدرسة الإعدادية» بالمحمودية.

والتحق بالطريقة الصوفية السُنّية، المعروفة بالطريقة «الحَصافيّة»(١٥) وفيها تربى على الزهد والورع وطيب الأخلاق وحبّ الناس، والرغبة في سعادتهم في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة كما هي أهداف التصوف السلوكيّ بوجهٍ عام.

وممّا شجّعه على الالتزام بالطريقة الحصافية؛ رضا والده عن أورادهم وأذكارهم.

بل إنّ والده المحدّث الكبير في مصر، قد كتب كتاباً بعنوان: «تنوير الأفئدة الزكيّة بأدلّة أذكار الرزوقية».

وفي عام (١٩٢٠م) التحق بدار المعلمين، بمدينة «دمنهور» وكان في الرابعة عشرة من عمره.

ولما تخرّج منها؛ التحق في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة (١٩٢٣م) وتخرّج منها عام (١٩٢٧م) وقد أفاد من الحركة العلمية والسياسية التي كانت تضجّ بها القاهرة.

وعقب تخرجه من دار العلوم؛ عُيّن مدرّساً في مدينة «الإسماعيلية».

وفي مدينة الإسماعيلية؛ بدأ بتشكيل جماعة «الإخوان المسلمين» عام (١٩٢٨م).

---

(١٥) الطريقة الحصافيّة: هي فرعٌ من الطريقة الشاذلية، أسسها العارف بالله الشيخ حسنين بن حُسين بن حسنين الحصافي الحسنيّ (١٢٦٥- ١٣٢٨ هـ) الموافق (١٨٤٨- ١٩١٠م) ثم خلفه على رأس الطريقة ولده الشيخ عبدالوهّاب بن حسنين الحصافي (ت: ١٣٢٨ هـ) والشيخ حسن البنّا أخذ الطريقةَ الحصافية عن الشيخ عبدالوهاب الحصافي هذا، في عام (١٩٢٣م) بعد أن قرأ كتاباً بعنوان «المنهل الصافي في مناقب حسنين الحصافي» والحصافي نسبةٌ إلى قرية كَفْر الحصافة- مركز شبين القناطر بالقليوبية، وكان للشيخ الحصافي أثر كبير في تكوين شخصيته، إذ كان هو وأبوه حسنين من علماء الأزهر العاملين، رحمة الله عليهم أجمعين.

ومن مدينة الإسماعيليّة اختار الشيخ حسن البنّا زوجته من أسرة فاضلة كريمة.

وفي عام (١٩٣٢م) انتقلُ عملُ الشيخ حسن إلى القاهرة، ونقل إلى هناك «المركز العام للإخوان المسلمين» وجعلَ القاهرةَ مركزَ نشاطه الدعويّ، وأمضى بقية عمره في القاهرة، يدعو إلى الله تعالى، ويُسهم في إصلاحِ المجتمع دينيّاً، وعلميّاً، واقتصاديّاً، وسياسيّاً، حتى كتب الله تعالى له الشهادةَ على يد أزلام السلطة آنذاك، في الثاني عشر من «شباط- فبراير» من شهور عام (١٩٤٩م) رحمه الله تعالى.

وقد خلّف الشيخ حسن البنّا ولدين فقط هما:

أحمد سيف الإسلام، وهو صديقٌ فاضل نَبيّل، عرفته عن قُربٍ، عام (١٩٧٦م).

ومُحَمّد حسام الدين، وقد توفي في حياةِ الشيخ حسن البنّا رحمهما الله تعالى.

وخلّف الشيخ حسن ستَّ بناتٍ، هنّ: وفاء، وسناء، ورجاء، وصفاء التي توفيّت في حياة والدها هي الأخرى، وهالة، واستشهاد، هذه التي وُلدت بعد استشهاده بأيام.

والكتب التي تناولت سيرةَ الشيخ وجهودَه وجهادَه كثيرةٌ جدّاً، ولست أنا بصدد كتابة سيرةٍ له، ولا تقويمٍ لمسيرة حياته ودعوته.

بيد أنني أحبّ أن أنقل كلمةً مباركةً في الشيخ حسن البنّا رحمه الله تعالى، أظنّ أنني أنفرد بمعرفتها ونقلها.

الشيخ البنا في نظر المحدّث الحافظ التجّاني:

ففي صبيحةِ يومٍ من أيام شتاء عام (١٩٧٦م) تأخّرت على شيخي العَلّامة الصالح العارف بالله تعالى، السيد مُحَمّد بن عبداللطيف بن سالم الحُسينيّ، المشهور بالحافظ التجّاني (ت: ١٩٧٨م) فلم أصل إليه في زاويته المباركة في المغربلين- عطفة الدالي حُسين، إلا في الساعة الثامنة والنصف صباحاً.

دخلت إلى الزاوية؛ فوجدته جالساً وحده، فألقيت عليه السلام، فردّ التحيّة بأحسن منها، وقال: تأخّرت يا شيخ فيصل، أنا أنتظرك منذ صلاة الفجر!

تعال! أريد أن أحدّثك اليومَ بتاريخٍ لا تعرفه، وهو ينفعك في حياتك!

فقبّلت يده، واعتذرت عن تأخّري، بسبب قراءة حزبي من القرآن الكريم، على سيدي العَلّامة المقرئ السيد الشيخ مُحَمّد بن سليمان بن أحمد الشندويلي الحسني (ت: ١٩٨٣م) رحمه الله تعالى.

وشرع سيدي الحافظ يسرد لي تاريخَ نشأة دعوة «الإخوان المسلمين» والأدوار التي مَرّت بها، والانتقادات التي توجّه إليها، مما لم أكن أعرف شيئاً منه فعلاً.

وحدّثني بمرارةٍ وأسىً عن استشهاد الشيخ حسن البنّا، وذرفت عيناه دموعاً غزيرةً.

كما حدثني بمرارةٍ وأسىً عن قيام جماعةٍ من أتباع الشيخ بإنشاء الجهاز السريّ والقيامِ بأعمال متسرعة، من دون رجوعٍ إلى الشيخ.

كما حدّثني عن موقف شَيخيّ: السيد سابق، ومُحَمّد الغزالي بعدَ استشهاد الشيخ حسن البنا، من غير أن يذكرهما باسميهما أبداً!

وقد ألححت عليه كثيراً أن يسمّيَ، فرفض رفضاً قاطعاً، ولم يفعل.

وفي أثناء عرضه لتلك المسيرة الطويلة؛ سألته قائلاً: مولاي! هل كان الشيخ حسن البنّا عالماً؟ فقال متعجّباً من سؤالي: «عالم؟ كان أكثرَ من عالم، كان أكثرَ من عالمٍ، وأبوه أعلمُ منه! رحمهما الله تعالى».

سكتَ هنيهةً، ثم قال بابتسامة حزينة: «رحم الله الشيخ حسن..كان طيّبَ القلب مِثلَكَ..كان يريد أن يجعل كلّ الناس إخواناً مسلمين.. كان يريد حتى الأقباط أن يكونوا في الإخوان المسلمين!

كان رؤوفاً، رحيماً، طيب القلب، بسيطاً، لا يعرف الحقد، ولا الضغينة، وكان يُحسن الظنّ بكل الناس، ولعلّ هذا كان من أسباب مقتله، رحمه الله تعالى».

رحم الله الشيخ حسن البنا، ورحم الله والده الفاضل الشيخ أحمد، ورحم الله سيدي الشيخ مُحَمّد الحافظ التجاني، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

إرهاصات تأسيس جماعة الإخوان في سوريا:

ولما كان الإمام البنا رحمه الله لا يؤمن بإقليمية الدعوة؛ فقد أرسل لجنة للدعوة إلى جماعة الإخوان المسلمين، وتأسيس فروع في بلاد الشام، وكانت اللجنة مكونة من الأستاذ عبدالرحمن الساعاتي، والأستاذ مُحَمّد الأسعد الحكيم، فسارا حتى التقيا بالسيد مُحَمّد أمين الحسيني مفتي فلسطين الذي رحّب بهما قائلا:

«مرحباً بالمجاهدين العاملين.. لقد قرأت عقيدتكم فما وجدت أجمع منها، ورأيت جريدتكم فما أعجبت بمثلها وسمعت حديثكم فسمعت قولاً عجباً.. وإن مصر لا تنجز إلا بفكرتكم ولا نجاة لمصر إلا بفكرة الإخوان المسلمين».

ثم تابعت اللجنة طريقها حتى وصلت إلى دمشق يوم الأربعاء. فما كان يوم الجمعة خطب الأستاذان الساعاتي والحكيم لدعوة الإخوان المسلمين، وقابلا زعماء الحركة الإسلامية هناك، وتشكّلت أول نواة لدعوة الإخوان المسلمين في سورية.

لقد بدأت الحركة الإسلامية في سورية أواخر الثلاثينات على شكل جمعيات إسلامية فكانت جمعية «دار الأرقم» وجمعية «الشباب المسلم» وجمعية «شباب مُحَمّد» صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وغيرها من الجمعيات التي شكلها بعض علماء المسلمين ومفكروهم آنذاك.

بين الشيخين السباعي والحامد رحمهما الله تعالى:

يقول إخوان حماة: إنّ أول تشكيل لجماعةٍ تحمل اسم الإخوان المسلمين كان في مدينة حماة، عام (١٩٣٨م) وكان اختيارُ هذا الاسم من قِبَل شيخنا مُحَمّد الحامد، رحمه الله.

ثم توالت تشكيلات الإخوان المسلمين في بقية المحافظات والمدن السورية.

وفي هذه الفترة كان الدكتور مصطفى السباعي، والشيخ مُحَمّد الحامد رحمهما الله يتابعان التحصيل العلمي في مصر، وكانا على صلة وثيقة بالإمام الشهيد رحمه الله تعالى فتأثرا بفكره، وتحمسا للدعوة، وعادا إلى سورية يحملان فكر الإخوان المسلمين.

وهنا لا بد من إلقاء الضوء على نقطة هامة وهي: لماذا اختير الشيخ السباعي مراقباً عاماً للإخوان المسلمين دون الشيخ الحامد؟! ولماذا كان أثر السباعي كبيراً في الدعوة بينما لا يكاد أثرُ الشيخ الحامد يعرفُ خارجَ مدينة حماة؟!

وإحقاقاً للحق، وأمانةً للأجيال، وعن معرفةٍ بكلا الرجلين:

سواء عن طريقِ اللقاء وأخذ العلم، كما هي معرفتي بالشيخ الحامد عليه الرحمة والرضوان.

أو عن طريق الكتب والبحوث العلمية، كما هي صلتي بالدكتور السباعي رحمه الله تعالى.

لقد كان الدكتور السباعي رحمه الله عالماً كبيراً، ومفكراً عميقاً، وأديباً أريباً، وشاعراً له من الشعر القصائدُ العِذاب الطوال.. وكان فوق ذلك ذكياً ألمعياً، وسياسياً بارعاً، ودراسته الحقوقية الشرعية المقارنة؛ أمدته بالمقدرة على معالجة الأمور بأسلوب عصري واقعي، وإن جنحت به عصريته أحياناً إلى بعض الفلتات التي لا تقلل من شأنٍ، ولا يمكن أن يخلو من أمثالها إنسان!

أما الشيخ الحامد، فقد نشأ رحمه الله تعالى يتيماً، فقيراً فقراً مُدقعاً، حتى لقد حدَّث هو عن نفسه فقال: إنه كان يمشي بحذاء لا نعل له!

وكان الشيخُ الحامد من أسرة نادرةِ الذكاء، مفرطة الحساسية، فأخوه شاعر العاصي الأستاذ بدر الدين الحامد، وأخوه الأصغر هو الأستاذ المهذّب اللطيف عبدالغنيّ، ووالده الشيخ محمود

الحامد شيخ الطريقة النقشبندية في حماة، وأخوه لأمه الدكتور نجيب الريس وناهيك به سياسياً أديباً.

وخاله فضيلة العَلّامة الشيخ سعيد الجابي رحمه الله (ت: ١٩٤٨م) العالم المجاهد السلفيّ الواعي، قائد النهضة الدينية في حماة.

فَقد الشيخ الحامد والده صغيراً، وتوفيت والدتُه بعدَ أقلّ من عام، فنشأ الشيخ رحمه الله يَتيمَ الأبوين حقيقة، ولا مالَ لديهم، ولا عقار؛ إذ كان والده الشيخ محمود الحامد رجلاً متصوفاً زاهداً، يقرئ القرآن في مسجده الصغير، ويعيش من دخل محدود يسير.

وليس للشيخ الحامد من الأعمام من هو غني موسر فينفق عليهم، وكان خالهم الشيخ سعيد الجابي، على عكس مشايخ زمنه أو جلّهم، فقيراً لا يكادُ يملك قوتَ يومه، وكان يصدع بالحق، ويجاهد الفرنسيين باللسان والقلم والرشاش.

في هذا الجو العائلي؛ نشأ شيخنا الحامد رحمه الله؛ شعلةً من ذكاء، وفرطاً من حساسية، فتعهد تربيته خاله الشيخ سعيد الجابي، فلقّنه الأصول السلفيةَ، ونشّأه على الالتزام بالكتاب والسنة، وكفل الشيخَ الحامد أخوه الأستاذ بدر الدين، رحمة الله عليهما كفالةَ الفقير الضعيف.

وشبّ الشيخ الحامد، والتحق بمدرسة دار العلوم الشرعية، ثم بالمدرسة الخسروية في حلب، وهناك في حلب اتّصل بمشايخه المتصوفة، ورأى عندهم ما رأى؛ مخالفاً لما تعلمه على يد خاله الجابي.

فكأنّ الشيخ رحمه الله اضطرب فكره، وهو المرهفُ الحس، الرقيقُ المشاعر، وأراد الشيخ لنفسه خلاصاً مما هو فيه، ولكن ذهابه إلى مصر لإكمال دراسته؛ زاد من حدة اضطرابه وتشتت فكره؛ إذ كان استمساكُ علماء الدين في سوريا مبتناه على العزائمِ، بينما كان مبتنى الالتزام لدى علماء الأزهر على الرخص غالباً.

ولعل مما ضاعف الأسى والحسرة في نفسه، أن يكون الذي ينفق عليه في دراسته أحدَ الإقطاعيين الذين كانوا يتحكمون بالبلاد والعباد آنئذ! والذين كان الشيخ يرى أن كثيراً من بلايا الأمة وبؤسها؛ إنما يبدأ منهم، ويسير في ركابهم!

ونزل الشيخُ الحامد في الصيف إلى سورية، فعرّفه بعض أصدقائه على شيخ صوفي حمصيّ، يدعى الشيخ «مُحَمّد أبو النصر» من مدينة حمص.

كان هذا الشيخُ كما يقولون رجلاً صالحاً، صاحب كشف وكرامات! فلمّا التقى بالشيخ الحامد؛ لمحَ ما يعتلج في نفسه، فأرشده إلى خير وسائل العلاج في نظره؛ فاتخذه الشيخُ الحامد مرشداً وشيخاً، وهام بحبه؛ وفاءً وإخلاصاً، حتى صار يراسله من مصر ويُشيد به في قصائدَ طوال، ومقطوعات نثرية رفيعة!

وانخرط الشيخ في سلك التصوف، ولم ينس سلفيَته العتيدة التي رضعها مع لبن الرضاع فراح يحاول التوفيق بينها وبين التصوف الذي طَرَأ عليه، فهذّب كثيراً من المظاهر المنحرفة في الطريقة النقشبندية التي كانت منهجَه السلوكيّ!

وتعرّف على الشيخ البنا رحمه الله، فلمح الشيخُ الحامد فيه سلفيةَ خاله الجابي وصدقَه وجرأته، ورأى فيه وضوحَ الفكر، وصفاء العقيدة السلفية، كما رأى فيه زهد المتصوفة وتفانيهم في طاعة الله، كما لحظ في البنا تقربه إلى الله بطريقة ساميةٍ، لا تشوبها الأوهام والخيالات!

فأعجبه ذلك الشيخُ المصري! ولزمه الشيخ الحامد فترةَ وجوده في مصر، وتأثر به تأثراً كبيراً جعله لا يدري أيسير في ركابه، أم في ركاب أبي النصر؟!

وأخيراً آثر الجمع بينهما على طريقته الخاصة!

وحين عاد الشيخ الحامد إلى سورية؛ كان عليه أن يحصل على سكنٍ، فهو لا يملك سكناً، وعليه أن يبني بيتاً، فقد جاوز الثلاثين، ولما يتزوج بعد! وهذا وذاك يتطلبان مالاً مصدره الوحيد بالنسبة إليه الوظيفة الحكومية.

ومن فضل الله تعالى علينا أهلَ حيّ «الفرّاية» أن اختار الشيخُ الحامدُ جوارَنا، فاشترى منْزلاً متهدّماً في حيّنا، وبنى على أنقاضه منْزلاً متواضعاً، لم يكن له ولأسرته من متاع الدنيا سواه.

صحيحٌ أنّ الشيخ مُحَمّداً الحامدَ؛ لم يكن له أيّ نشاطٍ دينيّ أو اجتماعيّ في حيّنا شأنُه في ذلك شأنُ علماء آل المراد أجمعين، إلا أننا كنا نُحسّ أنّ وجوده بيننا بحدّ ذاته نعمةٌ وبركةٌ من الله تعالى علينا.

وانخرط الشيخ الحامد في سلك التعليم، وعين خطيباً ومدرّساً بعد ذلك في مسجد السلطان، وراح ينشر دعوة الإخوان المسلمين في دروسه اليومية في المسجد والمدرسة وعلى منبر السلطان يوم الجمعة.

وحين عاد الشيخ السباعي لم تكن لديه من العقبات ما كان للشيخ الحامد، ولم يُرهق حِسَّه المرهف ما أرهق نفسية الشيخ الحامد الشاعرية، وكان لنشأة السباعي في بيت عريق من أكبر بيوتات حمص علماً وغنى وجاهاً أثر في تكوين شخصيته ونبوغه.

وأظهر الزمن الفرقَ بين الشيخ الحامد والدكتور السباعي في مجال الدعوة والحركة.

فبينما اختير الدكتور السباعي مراقباً عاماً للإخوان المسلمين في سورية؛ رفض الشيخ الحامد أن ينضم إلى حركة الإخوان المسلمين رسمياً، فضلاً عن أن يتسلّم فيها مهمّةً حركية! وكان يحب أن يكون للمسلمين جميعاً، وليس للإخوان فحسب.

وهذا لا يعني أن الشيخ الحامد كان بعيداً عن الإخوان المسلمين، بل على العكس فقد كان الشيخُ المدرسةَ التي تخرج منها شباب الإخوان المسلمين في مدينة حماة.

وأنا لا أدري هل تجنّب الشيخ الالتزام بجماعة الإخوان المسلمين نزولاً عند رغبة شيخه أبي النصر، أم التزاماً بما قطعه للرئيس أديب الشيشكلي من وعدٍ، أم بناء على ضغوط نفسية، ومشاكل شخصية، أم رغبةً منه في عدم الصراع مع السلطات الحاكمة التي وجد نفسَه غير قادرٍ على مقارعتها.

ولعلّ ما يرجّح آخرَ تلك الاحتمالات؛ القصّة الآتية.

الشيخ مُحَمّد علي المراد ووجاهة الأسرة الدينية:

يَعلم كثيرٌ من أهلِ حيّنا أن تلمذتي على الشيخ مُحَمّد علي المراد قبل تلمذتي على الشيخ الحامد بسنتين على الأقلّ!

وكنا نلقاه أنا وابن عمّي الشهيد «مُحَمّد سعيد» وابن عمّتي الشهيد «أحمد بلقيس الحوراني» عقب صلاة العصر، في جامع «الجديد» في السوق الطويل من غير انتظام ونحن في الصفّ الخامس الابتدائيّ.

واستمرّت صلتي به وعلاقتي معه حتى توفاه الله تعالى في مدينة الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، كما كان يحب ذلك ويرجوه.

وفي عام (١٩٧٥م) وعقب مداهمة منزل الشهيد مروان حديد رحمه الله تعالى؛ نزلت أنا إلى حماة، وصرت أتنقّل فيها من بيتٍ إلى آخر؛ لأنّ السلطةَ كانت تطلبني بشدّة؛ حيّاً أو ميّتاً، كما قالوا؟!!

وفي البيت الذي كنت مختبئاً فيه؛ فوجئت بشيخي مُحَمّد علي المراد يزورني، ويعانقني ويبكي، ويقول: «ابني عداب..أنت أكثر واحد مطلوب للدولة، والدولة تنوي خراب البلد، ونحن لا نريد أن تكون أنت سببَ هذا الخراب!».

فتحاورت معه طويلاً، حتى نزلت عند رأيه في ضرورة الخروج من سوريا.

وفي أثناء الحوار؛ قلت له: سيدي أرجو أن تسمح لي بسؤال يشغل خاطري كثيراً!

قال: «تفضل لنشوف، خيراً إن شاء الله!».

قلت له: أنتم آل المراد أكبر عائلة دينية في حماة، وليس فيكم واحدٌ يعلن خصومته للدولة، بينما تعلنون في غير مناسبة عدم رضاكم عن الشيخ مروان، وعن الإخوان وتصرفات شبابهم، فهل هذه الدولة الكافرة أفضل من الإخوان، ومن شباب الشيخ مروان؟

قال لي: يا فهمان..إذا أعلنّا كلُّنا عداوتنا الدولة، وكلّنا عزّل، لا نملك ما ندافع به عن أنفسنا، وليس لدينا القدرة على مقارعة الدولة، فماذا نصنع؟

أنتم تفعلون ما تشاؤون، رضينا أم كرهنا..لكن نحن ندافع عنكم، ونردّ من كيد الدولة عنكم ما نستطيع.

يا ابني..لازم تكون هناك عائلة محترمة محايدة، لها هيبة في نفوس الحكّام، حتى تستطيع ردّ شرورهم عن البلد، أفهمت؟!»

والذي يرجح هذا الاحتمال الأخير من عدم قدرة الشيخ الشخصية والنفسية على مناهضة السلطات، في رأيي؛ أن الشيخ مُحَمّداً رحمه الله كان لا يسمح لأولاده أن يلتزموا بدعوة الإخوان المسلمين، فكان بعضهم ملتزماً فيها في حياته سراً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فقد كانت وجهةَ الشيخ الحامد ومِحَنته؛ الورعُ الشديد، والحذر من كل شيء، والانفعال لأدقّ الأمور، والتأثر حتى البكاء العنيف لأصغر المواقف المؤثرة، والسياسةُ تحتاج إلى صبر وحلم الشيخ حسن البنا، والشيخ سعيد حَوّى!

ومن وراء مجاورتي للشيخ قُرابةَ عشرين سنةً، هي كلّ عمري إلى حين وفاته، عام (١٩٦٩م) عرفتُ عن الشيخ ما لم يعلمه غيري، بعدَ أولاده الكرام حفظهم المولى.

بل ربما اكتشفتُ من شخصيّته ما لم يتنبّه إليه أولاده، وربما سمعتُ من أهلي، ومن رجال الحيّ، ما لم يُسمعوه إياه، ولم أكن أنا أجرؤ على نقل كلامهم إليه؛ لما أعلم من شدّة غضبه، وسرعة انفعاله، رحمه الله تعالى.

المهمّ أنّ شخصية الشيخ وظروفه الخاصة؛ لم تكن تؤهّله للعمل السياسيّ في نظري!

ولقد سألناه مرة: يا شيخنا لم لا ترضى أن تكون المرشدَ العامّ للإخوان، أو المراقب العام؟ فقال: يا أبنائي إنني أروي لكم قصة صغيرة، وأنتم تحكمون بعد ذلك، وتعرفون الجواب بأنفسكم!

قال رحمه الله ما معناه: دخلت مرةً دار الإخوان المسلمين، فأُذن لي بالدخول على الشيخ البنا رحمه الله، وكان الشيخ منهمكاً ببعض الأشغال، فاستقبلني بفتورٍ على غير عادته، وأجلسني قريباً منه، فدخل الشيطان في نفسي قليلاً.

وفيما أنا جالس، إذ دخل شابٌ في العشرين من عمره، حليقَ اللحية، وسيمَ الطلعة يلبس سروالاً قصيراً، يظهر منه نصفُ فخذه، وقد لبس لباسَ الفتوة، ووضع على رأسه قُبعةً عليها شعارُ الإخوان المسلمين!

فقام إليه الشيخ البنّا، ورحّب به، وقرّبه وأكرمه، ثم قضى له حاجتَه، وانصرف الشاب».

قال الشيخ الحامد رحمه الله: «فوالله لقد رأيتُني والنار تشتعل بي، وتمكن الشيطان مني!

كان ذلك في أوائل الصيف، وبعدها نزلت إلى سورية لأعود في أول العام الدراسي الجديد.

ومرت فترة طويلة، ثمّ زُرت دار الإخوان، واستأذنت على الشيخ البنا رحمه الله فدخلت عليه، فقام إليّ، وعانقني، ورحَّب بي، وأجلسني قريباً منه.

وبينما أنا عنده إذ دخل شابٌ وسيمٌ، ذو لحية طويلةٍ، يلبس ثياباً فضفاضة، فقلت في نفسي: كأنني أعرف هذا الرجل، فسلَّم الشاب على الإمام رحمه الله، ثم جاء وسلّم عليّ وبينما نحن في تبادل السلام؛ قال الشيخ البنا: هل تعرفُ هذا الشاب؟ قلت: لا!

قال: هذا الفتى الذي تأثرتَ من موقفي معه، ذلك اليوم!

فقلت في نفسي: إن الدعوة تحتاج إلى رجال أمثال البنا رحمه الله تعالى.

فالشيخ الحامد رحمه الله لم يكن يمتلك شخصيةَ القائد المحنك، ولا الشجاعةَ اللازمة للصراع، وكان حادّ المزاج إلى درجة الإفراط، والقيادةُ تحتاج إلى حِلْمٍ أفتقده أنا الفقير، كما كان شيخي الحامد يفتقده.

تأسيس جماعة الإخوان وتنصيب السباعي أوّل مراقبٍ عامّ لها:

ولد الدكتور مصطفى بن الشيخ حُسني السباعي عام (١٩١٥) في مدينة حمص، وآل السباعي أسرة عريقة في مدينة حمص، وقد أنهى السباعي دراسته الثانوية عام (١٩٣٢م)[١٦].

ثم غادر للدراسة إلى مصر (١٩٣٣) وله (١٨) سنة.

وعندما عاد لفترة قصيرة إلى حمص عام (١٩٤١م) كان منشغلاً بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين.

---

(١٦) الحركات الإسلامية في سوريا ليوهانس رايسنر (ص: ١٤٨).

وفي الفترة ما بين شتاء (١٩٤٥) وصيف (١٩٤٦) تمّ إعادة تنظيم «شباب مُحَمّد» و«الشباب المسلمين» ودمجهم تحت مسمى (الإخوان المسلمين) وانتخب مصطفى السباعي مراقباً عاما للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان.

وفي عام (١٩٣١) قُبض عليه للمرة الأولى، من قبل قوات الانتداب الفرنسي؛ لتوزيعه منشوراتٍ تهاجم السياسة الفرنسية في المغرب.

وفي عام (١٩٣٢) ألقي القبض عليه مرة أخرى لمهاجمته دولة الانتداب في خطبة الجمعة.

أما في مصر؛ فيبدو أنه كان ساهم بشكل فعال في التظاهرات المضادة للبريطانيين، مما أدى إلى زجّه بالسجن عام (١٩٣٤).

وفي عام (١٩٤٠) قام بتأسيس جمعية سرية في القاهرة، من أجل مساندة ثورة رشيد عالي الكيلانيّ في العراق، مما أدى إلى سجنه من قبل البريطانيين لمدة شهرين في مصرَ، ومرة أخرى لمدة أربعة أشهر في معتقل «صرفند» بفلسطين.

وعندما أُطلق سراحه من المعتقل، في أوائل عام (١٩٤١) عاد إلى حمص حيث ابتدأ بإعادة تنظيم «شباب مُحَمّد» حسب التقرير الذي ذكر أعلاه لأحد ضباط الاتصالات البريطانية في حمص.

مما أدى بالفرنسيين للقبض عليه مرة أخرى، وزجّه في السجون والمعتقلات لمدة سنتين ونصف!

وقد سجن السباعي من قبل الإفرنسيين، في الأعوام، ما بين (١٩٤١ – ١٩٤٣م).

وبعد توقيفه في حمص وبيروت؛ نقل إلى معتقل «المية ومية» ثم إلى قلعة «راشيّا» في لبنان، إلى أن أطلق سراحه في منتصف عام (١٩٤٣م).

وقد قيل: إنه كان يقوم بالأشغال الشاقة أثناء سجنه، وبأنه عُذّب.

وقد أدى ذلك إلى إصابته بمرضٍ شديد مزمن، لم يُعرف عن طبيعته شيء؟!

وكثيراً ما تردد أن حالته الصحية متدهورة، وأنّ مشاركته في الاحتفالات أو المهرجانات؛ كانت مخالفةً لنصائح الأطباء، وكان الشيخ حسن البنا من الذين أبدوا اهتماما بصحته.

وفي تشرين الأول عام (١٩٥٠) عولج لفترة طويلة في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت[١٧] وبقي ضعفه الجسميّ ظاهراً، وبقي مرضه ملازماً له إلى آخر حياته.

وفي أوائل الأربعينات توحدت الجمعيات الإسلامية سالفة الذكر في المدن السورية كلها تحت اسم «الإخوان المسلمين» واختير الدكتور السباعي أول مراقب للإخوان المسلمين في سورية، ووثّق الإخوان المسلمون في سورية صِلَتهم بالإخوان المسلمين في مصر، واعتبر الإخوان في سورية منذ اللحظة الأولى لتأسيس الجماعة هناك؛ أنهم جزء من جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها الإمام الشهيد حسن البنا في مصر عام (١٩٢٨م) وكانوا يكتبون في لوائحهم منذ أول تشكيل، وفي المادة الأولى من اللائحة:

إن الإخوان المسلمين في سوريا؛ جزء من جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها الإمام الشهيد حسن البنّا رحمه الله.

وكما كان الدكتور مصطفى السباعي أولَ مراقب عام للإخوان في سورية؛ فقد كان في الوقت نفسه عضواً في الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين في مصر.

والهيئةُ التأسيسيّةُ كانت أعلى هيئة تنظيمية للجماعة، وكانت بمثابة مجلس شورى لجماعة الإخوان.

هذه لمحةٌ سريعة عن شخصية مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، ولمحة أسرع عن تكوين جماعة الإخوان المسلمين التي نشأ الشهيد مروان حديد في أحضانها في سوريا.

---

(١٧) الحركات الإسلامية في سوريا ليوهانس رايسنر (ص: ١٢٠، ١٣٢) فما بعد.

الفصل الثاني

انتماء الشهيد مروان إلى جماعة الإخوان المسلمين

كتب الدكتور رشيد العيسى في شهادته ما نصه: «لا أدري عن كيفية انتمائه للجماعة شيئاً مفصّلاً بسبب فارق السنّ، غير أني سمعت منه بعد تعرفي إليه؛ أنه فوجئ بأخيه أحمد، القياديّ في (الحزب الاشتراكيّ) وعنده فرحٌ وغبطة عظيمان، بسبب مقتل واستشهاد الإمام حسن البنا، ما لفت انتباهَه، وهيّأ البذرة لانتسابه للجماعة.

وهذا يذكّرنا بكيفية انتماء «سيد قطب» للجماعة، بعدما رأى فرح الصحافة والإعلام الأمريكيين باغتيال حسن البنّا رحمه الله».

قال عداب: والذي أذكره من قوله بهذا الخصوص: في بداية المرحلة الثانوية؛ حاول التقرُّبَ مني أحدُ الأخوة، وشاركه آخرون، فلم يُفلحوا في إقناعي بخطأ ما أنا عليه.

ومضى ذلك العامُ كلّه، وأكثر من منتصف العام الثاني؛ حتى لانَ جانبي قليلاً، وبدأت أفكر فيما يقولونه لي!

ثم انتقلت إلى رحاب الإسلام الصافي، وكان حماسنا للإسلام شديداً، والحمد لله أكثرَ من حماسنا للاشتراكيةِ بكثير(١٨).

قال عداب: ربما كان الشهيد مروان اشتراكياً في بداية شبابه؛ كردة فِعلٍ، ضِدّ بعضِ الإقطاعيين الذين كانوا يعيثون في البلاد فساداً، ويسومون فقراءَها ومعظمَ أهلها سوءَ العذاب والمذلة والمهانة، مثلما كانت أسرتي اشتراكية على نحو ما ذكرتُ.

---

(١٨) مما ينبغي ملاحظته هنا؛ أنّ الشهيد مروان أمضى في المرحلة الثانوية أكثرَ من ثلاث سنوات؛ لأنّ الأستاذ نافع العلواني يقول في شهادته: إنه تَعرّف إليه عام (١٩٥١م) وقال: «كانت دعوةٌ، تلتها استجابةٌ رائعة» والدكتور أكرم يقول: إن خاله انتسب إلى الإخوان (١٩٥١) أو التي تليها، وكان في المرحلة الثانوية؟؟

وكان يرى بعضَ المشايخ يتقربُ إلى هؤلاءِ، ويعايشُهم، وينافق لهم؛ فَبَغّض ذلك إليه المتدينين، وحشرهم والإقطاعيين سواء!

أقول: ربما، وهذا تحليلٌ من عندي، لم أسمعه منه.

لكن.. لما اتصل به الإخوانُ المسلمون، واقتنع بفكرتهم؛ عرف أن الإخوان المسلمين يحاربون الظلمَ والجورَ والاضطهادَ والعبوديةَ والاعتداءَ على الأعراضِ، وسفكَ الدماء، مثلما يحاربون الأفكارَ والمعتقداتِ الضالة!

إلا أنهم إنما يفعلون ذلك انطلاقاً من عقيدة الإسلام التي تأبى هذا وتحرّمه على كلِّ مسلم، بل وتأمر المسلمين جميعاً بمحاربته كعقيدة راسخة، وليس كردودِ فعل جوفاءَ، أو عوجاءَ، تقضي على الخطأ، ليخلفَه من الأغلاط ما هو أقسى وأظلم!

وجمع الشيخ كثيراً من كتب الإخوان ورسائلهم، وعدداً من الكتب الفقهية والحديثية ليبنيَ نفسه كما ينبغي للداعية.

وانخرط الشهيد رحمه الله في دعوة الإخوان بعد أن وضحت صورتها لديه، وكان ذلك في أوائل الخمسينات، فراح يكافحُ، وينافح، ويدعو إلى هذه الدعوة، مستغلاً كل ما أوتي من قدرةٍ على الإقناع، وعونٍ على البذل، وجرأة أدبية لا يكاد يماثله فيها أحدٌ من لِداته وأقرانه.

وبعد انغماسه في الدعوة؛ لم تَعُد الدراسةُ الرسمية بالنسبة إليه شيئاً ذا بال، ولم تكن المدرسة بالنسبة إليه أكثرَ من ساحة للدعوة، التي كان معظم تمركزها في المدارس، بين الطلبة المثقفين، أركانُ الأمة وأملِ مستقبلها.

ولم يكن يرغب في متابعة دراسته، وإنما آثر التفرغ للدعوة إلى الله، ولكن عِدَّة ظروف أجبرته على متابعةِ الدراسةِ، من أهمها:

– إرضاءُ والديه اللذين يحبانه حباً كبيراً، ويخصانه بالكثير من الرعاية والعطف والحنان، وقد ألحّا عليه بمواصلة الدراسة، وإلا فلن يكونا راضيَين عن تصرفاته، وبالتالي فلن يكون مَرضياً من الله!

– تخلصه من الخدمة العسكرية الإلزامية التي كان الشهيد رحمه الله يأباها؛ لأن فيها امتهاناً لكرامة الإنسان، وتحطيماً لمشاعره، وجرحاً لمعتقداته وكرامته.

– نزولاً عند رغبة جماعة الإخوان التي شجعته على مواصلة الدراسة؛ لأنها ربما فتحت له آفاقاً جديدة، ويمكنه من خلال شهادته أن يخدم الدعوة أكثر.

أمام كل هذه الاعتبارات وغيرها مما لا أعرفه، أو لا يحضرني الآن؛ رضي الشهيدُ مروان أن يتابع دراسته الجامعية في القاهرة.

وكتب الدكتور رشيد العيسى في شهادته حيال هذه المرحلة ما نصّه:

« ليس عندي الكثيرُ حول ذلك، ولكني سمعت منه أنه عقب حصوله على الشهادة الثانوية العامة؛ حاول السفر إلى إيطاليا للدراسة، كما ذهب كثيرٌ من زملائه.

وفي دمشق التقى بالشيخ «أحمد الحارون» وهو من أهل الكشف والكرامات، فأخبر الشيخ مروان أنّ أمر السفر إلى إيطاليا؛ لن يتيسّر، وبالفعل لم يتيسّر، وعاد الشيخ مروان إلى حماة.

ثمّ قدّر الله تعالى أن تكون دراسته في مصر، وبحكم أنه ابن مزارعٍ؛ فقد اختار دراسة «الهندسة الزراعية» وبدأ مَرحلةً جديدة من حياته في مصر.

ومثلما قلت: إنّ المدرسة لم تكن تعني بالنسبة للشهيد مروان أكثرَ من ساحةٍ للدعوة إلى الله تعالى؛ فكذلك كانت جامعة «عين شمس» المصرية في القاهرة، بالنسبة إليه.

ومما يحسن قوله هنا: إنّ المعلومات المهمّة عن نشاط الشهيد مروان الدعويّ قبل عام (١٩٥٦م) نادرة في ذاكرتي، وفي سائر الشهادات التي حصلت عليها؛ فلم يُشر أحدٌ إلى جهودٍ مميزة له قبل هذا التاريخ.

لكنّ الاتّجاه العسكري عند الشهيد مروان؛ كان قديماً، بل هو يعود إلى منتصف الخمسينات؛ إذ «كان عددٌ من الإخوان المسلمين يتسابقون إلى إنشاء أجهزة عسكرية.

وكان يتزعّم هذا الاتّجاه الأخ مُحَمّد المصريّ[١٩] والشهيد مروان حديد..وكانت إدارة الإخوان في حماة لا ترغب بهذا الاتّجاه العسكريّ.

وفي عام (١٩٥٤م) أُقيمت حفلة غنائية للمطربة المعروفة «صباح» على قاعة سينما دنيا في حماة، وكان موقعها في مدخل حيّ «آل طيفور» من جهة ساحة العاصي.

وبعد أن صعِدت المغنية صباح إلى منصة السينما، وفي أثناء الاحتفال؛ قام الإخوة: مُحَمّد المصري، ومُحَمّد الأسود، وحسن عصفور، وحسني عبدالرزاق عدي، وطاهر حداد، وهاني الشققي» بالهجوم على السينما، وألقى أحدهم قنبلة.

وعلى الرغم من عدم حدوث أضرار، إلا أن صوت الانفجار، والفوضى التي صاحبت ذلك؛ عطّل الاحتفال، وانسحبت المغنية صباح قائلةً: «وداعاً يا أهل مكة» ولم تزر حماةَ بعد ذلك اليوم، ولم تُقم أيَّ حفل غنائي بعدها في حماة مطلقاً، لا هي ولا غيرها، حتى جاء عهد المقبور حافظ الأسد، فجرت عِدَّة محاولات لبعض المغنين والمغنيات بحراسة الدولة[٢٠].

---

(١٩) الذي درس الطبّ فيما بعد في ألمانيا، واستقرّ فيها، وهو غير الدكتور مُحَمّد علي المصري، وكلاهما من مؤيدي الشهيد مروان، وعلى منهجه وفكره.

(٢٠) كتاب حماة في قرن ونيّف من تاريخها، للسيد أمير سليم زكية (ص: ٦١١).

ويتميّز الشيخ طارق عديّ بدقّة شهادته، حين يقول: «لا أعرف بالتحديد، لكنه التحق بصفوفها في المرحلة الثانوية.

وقال: كان بَدءُ نشاطه بين الشباب في سورية عام (١٩٥٨م) على وجه التقريبِ، وقد اجتمع حوله بعضُ الشباب، وكان نشاطه في جامع السلطان.

وكانت الحلقات تنشط في فترة الصيف، أثناء وجود مروان في سورية.

وفي الحقيقة كان ثمرةُ نشاطه هذه التركيبةَ الجديدة للإخوان المسلمين، وكانت حلقات القرآن «تلاوة، وتجويد، وتفسير» تستمر حتى بداية درس الشيخ زاكي الدندشيّ المسائيّ.

إضافةً إلى حضور مروان درسَ الشيخ مُحَمّد الحامد الصباحي.

وكان الشهيد أبرزَ الشخصياتِ الرائدة للإخوان المسلمين في الفترة ما بين حل جماعة الإخوان عام (٥٨) إلى حوادث (١٩٦٤) وفي هذه الفترة بالذات بدأ التزامه الإسلامي يشتدُّ، ويترسخ».

فيسعنا القول: إن فترة انتسابه للإخوان قبل سفره إلى مصر؛ كانت فترة تربيةٍ وتكوينٍ نظريٍّ وعمليّ، ولم يكن عند قيادة الجماعة في حماة الكثيرُ مما تعطيه!

ويكون ما قاله الأستاذ عدنان سعدالدين في شهادته، من أنّه كان هو مرشدَ الشهيد مروان أربعَ عشرةَ سنة، أو ما قاله الدكتور أحمد جواد في شهادته: إنّ مروان كان تحت إرشاد عدنان أكثر من عشر سنوات؛ فيهما نظر كبير؛ لأنهما يخالفان معطيات الواقع تماماً!

- إن الأستاذ عدنان يقول: إن الشهيد مروان كان عام (١٩٥٠) في الصف الأول ثانويّ، فيكون الشهيد مروان أمضى ستّ سنواتٍ في المرحلة الثانوية.

وهذا الكلام مخالفٌ لكلام الدكتور أكرم الريّس، من أنّ خاله الشهيد انتسب إلى الإخوان، عام (١٩٥١) أو التي بعدها (١٩٥٢) ومخالف لشهادة الأستاذ نافع الذي يقول: إن مروان

عام (١٩٥١) لم يكن من الإخوان بعد، ويشير ضمناً إلى أنه هو الذي دعاه، وعلى يده انتسب إلى جماعة الإخوان؟!

وكلامه واضح، عندما قال لي: إنه انتسب إلى الإخوان في منتصف السنة الثانوية الثانية، لكنه لم يذكر لي أبداً أنّ عدنان سعدالدين كان موجهه[٢١]

ويبدو لي أنّ الشهيد مروان، والشيخ نافعاً وعدداً من أقرانهما؛ كانوا في حلقةٍ تحت إشراف الأستاذ عدنان قبل سفره إلى مصر (١٩٥٦م) فلما سافر إلى مصر؛ وُكل أمرهم إلى غيره، إذ ليس من المعقول أن ينتظروا من الصيف إلى الصيف، من دون موجّه!

ونحن لم نسمع شيئاً من مثل هذا في تنظيم وإدارة شباب جماعة الإخوان المسلمين!

وستأتي مناقشة الأستاذ عدنان في شهادته العجيبة في ملحق هذا الكتاب.

---

(٢١) أكّد لي هنا الأخ الأستاذ حمدو حمشو أنه سمع من الشيخ مروان أنه كان هو والشيخ نافع العلواني في أسرة إخوانية، يوجههم فيها عدنانُ سعدالدين، وهذه زيادة ثقةٍ، لا أعرفها.

الفصل الثالث

موقف الشهيد مروان

من الحركات الإسلامية والطرق الصوفية

الحركات الإسلامية؛ علَمٌ على الجماعاتِ المنظّمة التي تجعلُ السياسة من ضمن اهتماماتها الفكرية، وبرامجها العملية.

ومن المعلوم أنّ بعض هذه الحركات؛ تظهر أنها بعيدةٌ عن السياسةِ، لكنها تطمح إلى ذلك على المستوى البعيد.

وأكثر الطرق الصوفيّة؛ لا تتدخّل في السياسة، وينأون بأنفسهم عن أي صراعٍ مسلّح داخليّ، لكنك تجد كثيرين منهم شجعاناً أبطالاً في صدّ الصائل الأجنَبيّ.

والحركات الدَّعَويّة السياسيّة العاملة في سوريا في حياة الشهيد مروان حديد السياسيّة (٦٤-١٩٧٥م) كان أبرزَها جماعةُ الإخوان المسلمين، والجماعةُ السلفيّة، وحزب التحرير الإسلاميّ.

موقفه من الحركة السلفية:

الحركة السلفيّة، أو الحركة الوهابيّة، أو حركة الإصلاح النجديّة، كما هو عنوانها الرسمي في العربية السعودية؛ هي دعوةٌ متطرّفةٌ اتّبعت في جنوحها أبا مُحَمّد البربهاريّ (ت: ٣٢٨ هـ) من حنابلة القرن الرابع الهجريّ.

وقد ترجمها (جولدتسيهر) في كتابه (مدارس التفسير الإسلاميّ) وأوضح أنْ ليس لها أيّ اهتماماتٍ خارجية، لكنها أكبر مِعولٍ للهدم الداخليّ، وأشار إلى أنّ أشدّ أماكن تجمّعها تطرّفاً؛ هي واحات نجد.

ومن المعلوم أن (جولدتسيهر) رجل الخارجية البريطانية المقدّم!

فأرسلت بريطانيا مستكشفين، ورسمت المخططّ المناسب لتدريب هؤلاء البدو الشجعان، وتربيتهم على استباحة دماء المسلمين، في سبيل إقامة دولة الإسلام السنيّة

والذي يعرف حقيقة الفكر الوهابي السلفي الإصلاحي النجدي؛ يعرف أنّ القوم حنابلة، فهم يتبعون الإمام أحمد في الأصول والفروع.

إلا إذا خالف أحمد ابن تيمية إمامه أحمدَ في بعض المسائل؛ فهم غالباً على مذهب ابن تيمية!

وإلا إذا خالف ابن عبدالوهّاب إمامَه ابنَ تيمية؛ فالقول قول ابن عبدالوهّاب في مرحلة إقامة الدولة التي تحتاج إلى استحلال الدماء والأموال.

لكنّ السلفيّة التي عرفناها في بلاد الشام؛ لا تشبه هذه السلفية إلا في اليسير من مضامينها.

غاية ما هناك أنّ سلفيّة بلاد الشام يطالبون بالدليل، ويرفضون الخرافات، والاعتماد على الرؤى وعلى أحلام الشيوخ، وينكرون على الصوفية تقديسهم للقبور والشيوخ، كما ينكرون عليهم بعض الرسوم الصوفية من مثل: (الرقص والقفز في مجلس الذكر) ومن مثل (الصراخ والزعيق، تحت دعوى ورود الحال) ومن مثل (تغيير اسم الله تعالى إلى (آه، أه) أو إلى (أح، أح) ونحو ذلك.

وكان الشهيد رحمه الله كما ذكرتُ في ترجمته من الباب الأول سلفيَّ الفكر والعقيدة على نحو سلفية بلاد الشام، في الجملة، شافعيَّ المذهب في الفروع، إلا إذا ظهر لديه الحقُ على خلافِ ما تعلّم؛ فإنه ينتقل إليه دون تردد.

نعم كان يوجد بعض الوهابيين الجهال؛ كانوا يتشدّدون، ويرمون بالبدعة كلَّ من يخالف جهلَهم وتزمّتهم.

فكثير من السلفيين كان يفسق ويضلّل، بل وبعضهم يكفّر كلَّ من ليس سلفياً، في حين أن جماهير الأمة تؤمن بالله إيماناً فطرياً، ولا تشرك به شيئاً، من دون معرفة لدقائق التفاصيل في الصفات، والإيمان، والقرآن، والقدر، ونحو ذلك.

ولم يكن الشهيد مروان يقرّ كثيراً مما كان السلفيون يقيمون الدنيا ويقعدونها عليه.

كما لم يكن يوافقهم على وصف كل ما لا يروق لبعضهم بأنه بدعة، لأن البدعة ضلالة، والضلالة في النار.

وكان يرى أن أكثرَ السلفيين في بلادنا؛ لا ينطبق عليهم وصفُ متعلمٍ، فضلاً عن أن يكون حاكماً على مسائل الخلاف؛ بأنها بدعة أو سنّة!

وكان يقول: إذا قال طالب العلم: هذا الأمر في نظري خطأ؛ فمحتمل كلامه.

أما تبديع الناس وتضليلهم بمسائل الخلاف؛ فمصيبة!

كان السلفيون يشنون حرباً شعواء على المولدِ النبوي، مع أنهم لا يظهرون تأثراً كبيراً بأعيادِ: الحزبِ، والجلاء، والثورة، والأم، والعمال، والطفل، وغيرها.

فكان الشهيد يقول: سبحان الله كل هذه الأعياد يُصِمّون آذانهم عنها، إلا هذه المناسبة؟!

نعم نحن معهم أنّ هذا الاحتفالَ ليس بسنّة، ولم يرد عن الصحابةِ، ولا عن التابعين!

ولكنها مناسبة اعتادها الناس منذ مئات السنين، فما المانع الشرعي أن نستغلها لنَبيّنَ للناس حقيقةَ دينهم في هذه المناسبة المسموح لنا بالكلام فيها؟

إننا لا نستطيع الاتصالَ الكبير بالناس إلا في مثل هذا الحدث الذي تقدره الدولة مُرغمةً، ويتحمس له الناس بدافع حبهم للرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ!

فلو نحن قلنا للناس: هذه بدعة، فتركونا، وذهبوا إلى دوائر التصوف، ففعلوا في المولد ما لا يُرضي، أهذا خيرٌ! أم أن نُوَعِيَهم ونعرّفهم بدينهم خير!

سامح الله إخواننا السلفيين، نحن بإمكاننا أن نحدث ثورة من خلال المولد؟

ثم إن الله تعالى يقول: ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وهذا يغيظ الكفار، فهو إذاً مندوبٌ إليه!

وحدثني الدكتور أبو خالد أكرم الريّس بنحوٍ من ذلك.

موقفه من حزب التحرير الإسلامي:

حزب التحرير الإسلامي؛ حزبٌ سياسيّ، ينشُد إقامةَ دولة الخلافة، ويرى مشاكل المسلمين كلها إنما نزلت بهم بعد انهيار دولة الخلافة على ضعفها.

أسسه الشيخ تقيّ الدين بن إبراهيم النبهانيّ الطائيّ (١٩١٤- ١٩٧٧م) في عام (١٩٥٣م) وهو يعتمد على الدعوة السلمية، ويرفض العنف رفضاً تامّاً، لكنه بالمقابل يرفض الرأسمالية والشيوعية والديمقراطية، ويراها نظاماً كافراً.

ومع هذا؛ فإنه يجوّز الاستعانة بإحدى الدول العظمى لتساعده في إقامة دولة الخلافة، ومن دون أيّ مقابلٍ ولا امتيازات.

ومع رفضه العُنفَ، وإيمانه بالدعوة السلمية، إلا أنّ نشاطه محظور في أكثر الدول العربية؛ لأنه يتّهم حكام البلاد العربية بالعمالة، وتنفيذ مخططاتٍ استعماريّة خارجية.

لم يكن الشهيد مروان على اتّصالٍ وثيقٍ مع عناصر جماعة حزب التحرير الإسلاميّ.

وقد التقيت بهم ثلاثَ مراتٍ إحداهنّ في حماة من دون علمه، والأخريان في دمشق، بناءً على تكليفه، وانتهت اللقاءات الثلاثة، من دون أن يتزحزح واحدٌ منهم قيد أنملة عن فكرةٍ من أفكار الحزب التي نراها خطأً!

بينما كان من البدهيّ في حواري معهم أن أقول: هذا خطأٌ وهذا صوابٌ من ممارساتِ الإخوان، أو حتى الشيخ مروان.

كان يعجبه من أعضاء حزب التحرير حماسهم لفكرتهم، واستماتتهم في الدفاع عنها، ووحدة تفكيرهم، ووضوح مقصدهم، رغم أخطائهم في نظر الشهيد.

وكان ينتقدهم بشدة في بعض أفكارهم، كفكرة النصرة، وبعض الأحكام الشرعية التي يتفلتون بها، وبعض الترخصات التي لا تدل على تديّن، ولا شهامة!

موقفه من جماعة الصراع الفكري، والحرب العلمية والحضارية:

وهذا التيار يمثله الأستاذ جودت سعيد مُحَمّد، الشركسيّ الأصل، ولد سنة (١٩٣١م) ولا زال ممتّعاً بحواسّه، نفع الله به، وتلميذه وصِهره الدكتور خالص جلبي وقبلهما المفكر الأستاذ مالك بن نَبِيّ الجزائريّ.

وذكرت فيما سبق أن الشهيد كان يلتقي كثيراً بمالك بن نَبِيّ في مصر أثناء دراسته.

ولكن الأخ أبا مُحَمّد سعدالدين الدسوقي؛ لم يفصح لنا عن رأي الشهيد وموقفه من الأستاذ مالك، ومن سوء حظي أنني ما حضرت مع الشهيد مروان، حين التقى بمالك بن نَبِيّ في سوريا، مع أنني كنت يومها في دمشق!

ولكن أخي الأستاذ أبا علي طارق، حدثني فقال: «التقى الشيخ مروان بالمفكر مالك ابن نَبِيّ لقاءات عديدة في مصر، كما التقى به في سورية، وقد كنت حاضراً لقاءين أو أكثر في دمشق بعد عودة مالك من الحج عام (١٩٧١م)».

ومما كان واضحاً لدى الشيخ مروان أن منهج مالك مغاير لمنهج الإمام البنا، ومنهج الشهيد سيد قطب، والذي يقوم على مبدأ تربية الفرد أولاً.

بينما كان الأستاذ مالك يرى أن عنصر القيادة هو العنصر الأهم في تغيير واقع الأمة وكان يضرب لذلك مثلاً بالطفل الذي يجر مائة جمل لا عقل لها.

وقد كان واضحاً لدى الشيخ مروان أن المفكر مالكاً قد تلقى فكره الإسلامي من غير منابعه الأصلية، وبغير لغة القرآن وقد كان متأثراً كثيراً بالحضارة الغربية، وبنظرة الغربيين للمسلمين، وبخاصة المؤرخ «توينَبيّ».

ولا أدل على ذلك من أن مالكاً كان في مناقشاته يكثر من إيراد أقوال «توينَبي» وغيره في حين أنه ما كان يستشهد بآية أو حديثٍ، إلا لماماً.

كما كان الشهيد رحمه الله على خلاف مع جودت سعيد، رغم حبه إياه، واحترامه له، وكان خلافه معه في موضوع «الصراع الفكري» خاصة، إذ كان جودت سعيد يعتبر أن الصراع الفكري، هو الذي يُبقي الأفضل، ويُسقط المنهزم فكرياً».

قلت: ولقد كان الشيخ شديدَ التحسر على قناعة الأستاذ جودت بهذه الفكرة وكان يقول: لو أن الصراع الفكري يؤدي إلى نصر؛ لما كان ما نبديه أمام جلادينا من أدلة يقابَل بالسياطِ، والكهرباءِ، وكسر العظام!

ومن طريف ما أذكره بهذه المناسبة أن الشهيد مروان زارني في مستشفى «المواساة» بدمشق، ومعه بعض الأخوة فقال لي: هل تعرفت إلى الدكتور خالص جلبي؟ قلت: لا إلا من خلال كتبه.

قال: سأعرّفك عليه، وأرسل إليه، فحضر، وبعد تبادل التحيات؛ قال له الشهيد: أعرفك على الأخ عداب، فهذا يناطحك فكرياً حتى تدوخ! وضحكنا!

وبعد أن ذهب الأخ خالص؛ قال: مساكينُ هؤلاء الأخوة، إنهم طيبون جداً، ولكن لا أدري والله من أين دخلت عليهم هذه الفكرة المثبطة.

وفي اليوم الثاني كنت أتمشى في الممر العام، وإذا بمريض قد أجلس في حضنه فتاةً وراح يقبلها، ويعانقها أمام المرضى الآخرين الذين في غرفته، بل وأمام ضيوفهم، فقلت في نفسي: لأتصارع فكرياً مع هذا الدنس؟

فجئت وألقيت السلام، فاشمأز مني، ولكنني ضبطت نفسي، وقلت له: يا أخي: إن مَن معك مرضى، ومنهم من يعاني من سكرات الموت، وأنت طالب جامعي مثقف، ومثل هذا المنظر لا يليق إلا بالرجل مع زوجته في منزله، فقال هذه خطيبتي!

فقلت: وإذا كانت خطيبتك، أيحق لك أن تجرح شعور الناس بفعلك هذا؟

ثم إن كانت خطيبتَك، فيجب أن تكون أكثرَ غيرةً عليها، مما لو كانت غير ذلك.

وعلى كل حالٍ يجب أن تراعي مشاعرنا جميعاً، فانتهرني وشتمني، فصرخت به وطردت الفتاةَ الرخيصة!

فكانت النتيجة أن جاءني عددٌ من ضباط الجيش والمخابرات يحملون البنادق الرشاشة، يريدون قتلي؟! ولولا لطف اللهِ؛ لقتلوني آنذاك.

وبعد ساعة تقريباً، جاء الشهيد يزورني، ومعه الدكتور خالص، فرآني متغيرَ اللون متألماً ولم يكن مضى على إجراء عمليتي الجراحية إلا يوم واحد!

فقال الشهيد للدكتور خالص: «لم ينفع الصراع الفكريّ يا خالصُ، ولو كان أخوك عدابٌ معافى، أو كنا موجودين هنا؛ لرأيت صرعى جسدياً عديدين!

وبالجملة فقد كان الشهيد رحمه الله تعالى يرى الأخذ بصالح ما عند هذه الجماعات وطرحِ الغلوّ، وما يؤدي إلى التفلّت، أو المغالطات، والأخطاء.

موقفه من جماعة الدعوة والتبليغ:

جماعة الدعوة والتبليغ؛ هي جماعة أسسها الشيخ مُحَمّد إلياس الكاندهلويّ الهندي (١٣٠٣– ١٣٦٤ هـ) وبرنامج هذه الجماعة في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وترى مهمّتها الدعويّة تنحصر في نقطتين اثنين:

الأولى: تبليغ الإسلام إلى من لم يبلغه من غير المسلمين، أو بلغه، ولكن بطريقة مشوّهة.

والثانية: دعوة المسلمين العصاة إلى الله تعالى، وسلوك سبيل الهداية.

وقد كنت قريباً من هذه الجماعة منذ العام (١٩٦٢– ١٩٧٥م) وخرجت معهم عشرات المرات إلى قرى محافظة حماة، بما فيها عددٌ من قرى العلوية في سهل الغاب.

وقد كان الشيخ مروان حديد رحمه الله تعالى معرضاً عن هذه الجماعة تماماً، حتى أقنعتُه أنا عام (١٩٧٢م) بأننا استطعنا هدايةَ عددٍ غير يسيرٍ من العلويين والإسماعيليين، وأنّ الخروج معهم مفيد لتربية النفس وتهذيبها.

فبعد ذلك؛ كان الشيخ مروان رحمه الله يُرغّب الشباب بالخروج مع جماعة الدعوة والتبليغ لتحقيق ثلاثةِ أشياء:

الأول: حتى يتسنى لهم فرصةُ خلوة وانقطاع لعبادة الله عز وجل فترةً من الزمن، كان يراها ضروريةً للداعية.

والثاني: ليتعلموا على الخشونة من خلال التطبيق العملي للسنن والأعمال اليومية التي كان جماعة الدعوة والتبليغ يقومون بها.

والثالث: تعلّم الشبابِ عدداً من فنون الدعوة إلى الله تعالى، ومعرفة كيفية مخاطبة العوامّ الذين هم الشريحة العظمى من الأمة في كلّ جيلٍ!

وكان كثيرَ الثناء عليهم، وما أكثر ما كان يقول: هذه الدعوة جزء من دعوتنا، ويجب أن نقوم بها نحن، فجزاهم الله خيراً، يقومون مما ضيعناه نحن، ولو كثر العلماء فيهم؛ لأثمرت دعوتهم، ولكن، لا حول ولا قوة إلا بالله!

موقفه من التصوف والطرق الصوفية:

لم يكن الشيخ رحمه الله تعالى متصوفاً في يوم من أيام حياته!

بل كان حرباً على كل مظاهرِ التصوفِ غير الشرعيّة.

حدثني الشيخ أبو علي طارق قال: كان الشهيد يعجبه من الصوفية أدبهم وتواضع بعضهم مع بعض، وكثرة أذكارهم، وينكر عليهم ما يُبدون من مظاهر الضعف والمسكنة والذلة، كما ينكر عليهم تَنْزيهَهُم لمشايخهم عن الخطأ، وينكر عليهم حلقات الذكر التي فيها تغيير لفظِ الجلالةِ، أو التثني، أو القفز، أو الرقص.

في حين كان يستحسنُ الإنشادَ ويسمعه، سواء في ذلك الأناشيد الإسلامية الحماسية أو الأناشيد الصوفية التي فيها ذكر رسول الله، ومدحه صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، أو تحبيبُ الناس ببلده وخلقه وصفاته، وكان يحضر «مجلس الصلاة على النَبيّ» في جامع الجديد، وفي جامع التكية.

مع إنكاره لكل ما يُوهم وحدة الوجود، وأن الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ أصل الكونِ، ومصدره، ولولاه ما خلق الله الخلق، ونحو ذلك، مع عدم ارتياحه لكلمات «سلمى، وليلى، ولبنى» كتكنية عن الكعبة الشريفة، أو عن الذات الإلهيّة.

كما كان ينكر إنكاراً شديداً استعمالَ كلمات الخمر والسكر والأقداح في مقام ذكر المحبة والشوق الإلهي».

قال عداب: كان الشهيد مروان ينكر رؤية الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في اليقظة، كما كان ينكر دعوى أن تخليفَ المريد لا يكون إلا بأمرٍ من رسول الله، وينكر تلك المقامات التي يدّعونها، ويقول: هي مشاعر وأحاسيس، وربما أوهامٌ من بعضهم يظنونها كراماتٍ ومقاماتٍ!

ومرّة دار حوارٌ بينه وبين الشيخ محمود الحامد في شيءٍ من هذا، فكان مما قاله الشيخ محمود: «من ذاق؛ عرف!» ولم أكن أنا حاضراً ذلك المجلس!

فلما حضرت؛ قال لي: أين كنت، لقد فاتك مجلسٌ طيّب؟

قلتُ: تأخرت والله قليلاً؛ لأنه جاءني ضيوف، فانشغلت بهم بعضَ الوقت، فمعذرة!

قال: غدّيت ضيوفك؟

قلت: نعم! أتحبّ أن أحضر لك غداءً!؟

قال: لا، نحن تغدينا ولله الحمد، لكن ماذا تغديتم؟

قلت له: خير الله كثير، كذا وكذا وكذا!

قال: كان مذاق ذاك الطعام طيّباً؟

قلت: أنا والله لا أحب تناول الطعام في المطعم، وأرى إطعام الضيف في المطعم من قلة الكرم، لكن ظرفي اضطرني إلى هذا!

فضحك الشيخ وقال: طعامه طيّب أكيد! لكن من ذاق عرف!

فلم أنتبه حتى تلك الساعة لشيء، وقلت: بالله عليك شيخي، هل تشتهي من هذا الطعام، حتى أحضره لك؟

فأشار برأسه: أن لا، وضحك وهو يقول: «من ذاق عرف!» والله حلو! يعني كأننا نحن لم نذق حلاوة الإيمان!

وكلمته مرّة عن حالِ شيخنا مُحَمّد الحامد، وحال أخينا الدكتور سلمان النجار رحمة الله عليهما، وصراخهما في مجلس «الختم» النقشبنديّ؟

فضحك، وقال: سلمان حادٌّ وعصبيّ من دون هذه الواسطة!

على كلّ حالٍ: أنا لا أعرف هذه الأمور، ولا أريد أن أعرفها، لكنْ كلّ ما يأتي من مظاهر غير طبيعية في حلقة الذكر، أو في مجلس الختم، إن جاء عفواً ومن غير تكلّفٍ ولا تهيّؤ نفسيّ؛ فليس على صاحبه إثم؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

لكنّ الصوفية أنفسهم يعدّون الصراخ والاضطراب والبكاء في مثل هذه المجالس نقصاً في حال المريد، وليس كمالاً فيه.

وبكلّ اعتبار؛ فأنا أرى أنّ للاستعداد النفسيّ دوراً كبيراً في هذا كلّه.

فالرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ وكبار أصحابه؛ لم يُنقل لنا عن واحدٍ منهم شيءٌ من ذلك، ومحاولة توطين النفس على مثل أخلاق السلف في الذكر وغيره؛ فيه النجاة والله أعلم.

نعم: لقد كان الشهيدُ رحمه الله يعتب على كثيرٍ منا قلةَ أذكاره، وتلاوته للقرآن الكريم، وعزوفنا عن قيام الليل، والصلاة على رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وكان يقول: هذه هي العِدَّة للنصر على الأعداء، فمن لم يملكها؛ هُزم أمام عدوه.

وكان يريد منا جميعاً التحقّق بالذلّة على المؤمنين، والتواضع لهم، وعدم جرحهم وإحراجهم، تحت أيّ ظرفٍ كان!

ذاتَ يومٍ صرختُ على أحد الأخوة وعنفتُه فقال لي بغضب: أين أنت من قول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؟

أراك عزيزاً على المؤمنين، كعزتك على الكافرين؟ أين التواضع الذي أمرنا الله به، بل أُمِر أكرمُ الناس به، ومن هو خيرٌ منك ومني ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكنت حادّ المزاج، أحبّ المثالية في التعاملِ والأدب مع الشيخ، وإن كنت أخطئ أحياناً.

فحضرت إلى مجلسه مرّة، فرأيت فيه عدداً من الإخوة من جيلنا، وبعضهم أصغر مني بسنةٍ أو سنتين، وواحد منهم متمدّد بين يدي الشيخ، وقد وضع رأسه على كفّه، فطار الشرر من عينيّ، وصرخت به: أهكذا يُجلَس بين يدي الشيخ، قليلاً من الأدب والذوق يا أخي! تستغلّون حياءَ الشيخ وتواضعَه، فتتواقحون؟

وكنت على استعدادٍ أن أرمي به خارج الغرفة، لو ردّ عليّ بكلمة!

فغضب الشهيد مروان، وقال: اسمع يا أخي، اسمع يا أخي، تعالَ لنحتكم إلى شرع الله تعالى!

فأطرقتُ حياءً، وقلت: تفضل شيخي!

قال: جلسة فلان التي لم تعجبك، كم سيئة عليها؟

فلم أردّ بشيءٍ؛ لأنني لا أعرف كم سيّئة!

فقال: صراخُك علينا في مجلسنا، وتصغيرُ أخيك، ورميُه بقلة الذوق والأدب، وإخافتُه حتى كدت أن تأكله، كم سيئة يسجل في صحيفتك من وراء فلسفتك هذه!

يا أخي! يأخي الكريم: إذا أمرت بمعروفٍ؛ فليكن أمرُك بمعروف!

قصارى ما في جلسة أخيك هذا؛ أنها غير لائقة، وأنها خلافُ الأولى، وخصوصاً إذا دخل غريبٌ على مجلسنا، فربما ظنّ في ذلك قلةَ توقيرٍ لكبير المجلس!

لكنْ في أسلوبك هذا مصائب عديدة!

ابتسمتُ، وجلستُ قريباً من الأخ الذي وبختهُ، وقبّلت رأسه، واعتذرت منه، ورأيت في نفسي أنّ خطئي كان سبيلَ توصيل الشيخ الرسالةَ بأسلوبه اللطيف.

المهمّ أنه كان رحمه الله تعالى أكبرَ من عرفتُ في حياتي تحقّقاً بقول الله تعالى ﴿أذلّة على المؤمنين، أعزّةٍ على الكافرين﴾.

الفصل الرابع

موقفه الشهيد مروان

من جماعة الإخوان المسلمين

إن الحديث عن هذه المسألة؛ يستدعي تحفظاً شديداً، ودقةً في العبارات، ومعرفة الرجال الذين عاصرهم الشيخ مروان في كل مرحلة من مراحل دعوة الإخوان في سورية، وسيتناول الحديث عِدَّة فقراتٍ، لا بد من إبرازها حتى يكون الحكم دقيقاً، أو قريباً من الصوابِ، في هذه الفكرة الخطرةِ، وفي هذا الظرف بالذات.

لقد كان الشهيد مروان حديد إخوانيّا بكليته، تجري أفكار الإخوان المسلمين بدمائه وتتغذى على كتبهم ومقالتهم روحه، ويسمو على شذاهم وندي عطائهم وجهادهم وصبرهم الجميل؛ فكرُه الطيب المستنير.

ولقد كان الشهيد متحمساً لدعوة الإخوان المسلمين أشدَّ الحماس، وكان وفيّاً لهم أعظم الوفاء، و صادقاً معهم أنبلَ الصدق، ويعتبر نفسه جندياً صغيراً من جنود الإخوان المرابطين على ثغور دين الله، التي ضيعها كثيرون من غير الإخوان.

إلا أن حماسه للإسلام كان أكبر، وشمولُ الإسلام في نظره أوسع من أن يُحصرَ في دعوة الإخوان المسلمين فحسب، ولذلك لم يكن في يوم من أيام حياته التي عرفته بها متعصباً للإخوان المسلمين، دون غيرهم من الجماعات الإسلامية الأخرى، بل كان يحترم جميعَ الذين يظهر عليهم الإخلاصُ والتقوى، والعملُ لنصرة دين الله من أي جماعات المسلمين كانوا، ويعدّهم من الإخوان، ولو لم ينتسبوا إلى تنظيمهم.

كان رحمه الله تعالى يرى الإسلام إطاراً شاملاً لكل أبنائه، وإنما على أرباب الفكر وقادة الدعوات الإسلامية أن يكونوا صادقين مع الله، متجردين عن نزواتهم وأشخاصهم، عارفين بما

يقدمون لأتباعهم من غذاء روحي وتربوي، عالمين أنهم مهما تفرقت أسماؤهم، واختلفت نزعاتهم؛ فإنهم جميعاً مطالبون بحماية الإسلام وإقامة دولته وتحكيم شريعته في حياة الناس، وأن عليهم جميعاً أن يتحققوا بمعنى الذلة على المؤمنين وأن ينزل أحدهم على عرشه الوهمي؛ ليعود جندياً صغيراً من جنود المسلمين، متى اقتضى الأمر ذلك، وأن لا تكون جماعاتهم المتكاثرة المتعددة بمثابة الفرق المتباعِدَّة المتنافرة، وإنما تكون جماعاتٍ همُّها انتشالُ الشباب من سوح الضياع، وسوق الرذيلة، ورائج الأفكار الدخيلة، وتربيتُهم التربية الإيمانية الصحيحة؛ ليأخذوا دورهم كأعضاء صالحين في كيان الأمة الإسلامية.

فبالتصوف السليم؛ يغسل قلبه من أدران الدنيا، وولوغ الشهوات، ويقبل الشابّ على ذكر الله، وتلاوة القرآن لجلاء نفسه، وسمو روحه، وتدريبه على التواضع، وحب الآخرين والإحسان إليهم.

إلا أن هذا يكون مرحلةً فقط، ثم لا بد أن ينتقل منها إلى دعوة العلم والتعلّم كجماعة زيد بن ثابت مثلاً؛ ليتأصل بهذه المعاني سالفة الذكر، ويحفظ شيئاً من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويتعلّم التطبيق العملي لذلك.

وينتقل إلى جماعة الدعوة والتبليغ؛ ليتدرّب على القيام بواجب الدعوة إلى الله والتعود على الصبر وتحمل المشاق، والخلوة لذكر الله، وقيام الليل، والضراعة إلى الله في السحر حيث لا يراه أحد.

ويتصل في أثناء ذلك أو بعده بالدعوة السلفية ليتعرف منها إلى الميزان الشرعي الدقيق الذي يعرض عليه أعماله وتصرفاته وأفكاره، حيث إن الدعوة السلفية ليست أكثر من دعوة إلى تصحيح المفاهيم وتقويم الأفكار وتطهير الأعمال والقيم، مما لا يطابق كتاب الله وسنة رسوله، وما أعظم هذا وأكبره وأكثره!

وهذا كله لا يكفي في نظره، بل لا بد من انتظامٍ في خط حركي واع، وجماعة قوية يتكامل فيها كلُّ ما سبق ذكره، وينصهرُ؛ ليُوجَّه إلى تحقيق الهدف الأسمى في هذه الحياة، وتحقيق الغاية التي وجد الإنسان من أجل تحقيقها، فيكون منتظماً في دعوة الإخوان المسلمين.

فالحركات الإسلامية والجماعات المتعددة؛ كانت في نظر الشيخ مروان روافدَ قوية متينة وضرورية؛ ليتكامل الأخ المسلم المجاهد في مدارسها.

هذا ما كان يراه الشهيد مروان، ويصر على ضرورة إيجاده، ويحرص على أن تشيع هذه الأفكار بين الشبابِ، من جميع أتباع هذه الجماعات، وكان يطبّق هذا عملياً بنفسه إن أمكن، أو يرسل بعض الشباب ليتمرس على ما سلف ذكره.. ولكن!

ولكن الجماعات الإسلامية، ومنها جماعة الإخوان المسلمين؛ كانت قد غلب على جميعها النظرةُ الحزبية الضيقة، ولم يكن ينظر بعضهم إلى بعض إلا نظرة المنافس، أو الغريب، أو البعيد، ولا أحب أن أقول: نظرة الخصم إلى الخصم، أو الكبير إلى الصغير أو الشريف إلى الوضيع.. وتلك، في نظر الشهيد؛ هي الحالقة!

وإليك بعض الأمثلة التي توضح ما ذكرته عن فكرة الشيخ هذه، ورأيه في تكامل الجماعات الإسلامية:

كنت أتدارس معه بعض الأمور، ونتناقش في بعض الأفكار والأحكام، في مسجده قبل صلاة الظهر، فدخل عليه عدد من الشباب المسلم، فقام إليهم، ورحّب بهم، وأدنى مجلسهم، وقمت وإياه على خدمتهم وتكريمهم.

ثمّ جلس الشهيد يطرح معهم مسائل دعوية وحركية وشرعية كعادته، ويتبادل وإياهم وجهات النظر طيلة عِدَّة ساعات متوالية، حتى إذا حان موعد الغداء؛ اعتذروا عن تناوله، فأبى بحزمٍ، وأصرّ على تلبيتهم دعوتَه، إلا إذا كانوا على موعد مسبق مع أحد، وإلا فلا مبرر

لاعتذارهم؛ لأن البيت الذي حلّوا به هو بيتُهم، فيبقون ويتناولون طعام الغداء فيه، كما لو كان ذلك في بيوتهم تماماً.

واقتنع الشباب، وتناولوا طعام الغداء معنا، ولا أذكر أن الشيخ قطع حديثه معهم ونقاشه إياهم، بل تابع ذلك على مائدة الطعام.. وكان يخلل ذلك كله كلمات ترطيب لنفوسهم، وترحيب بهم، وإشعارهم بأنه سعيد بزيارتهم.

ولما كان يطرح معهم أفكاراً إخوانية، ويتكلّم بكامل الوضوح والصراحة؛ حسبت أنهم من الإخوان المسلمين.

ولما انصرفوا بعد صلاة العصر مسرورين معجبين بالشيخ الشهيد؛ قلت له: أخي أبا خالد! إنني لا أعرف هؤلاء، فهل هم من إخواننا، أقصد الإخوان المسلمين؟

فنظر إليَّ الشيخ نظرةً فيها شيءٌ من العتبِ والتوبيخِ، وهزَّ رأسه قائلاً: هؤلاء من إخواننا! هؤلاء من إخواننا؟ [كرّرها استنكاراً] كل المسلمين إخواننا! وهم شباب طيبون كما رأيت، وعلينا أن لا ننظر بهذا المنظار الضيق! فكل من يقول: لا إله إلا الله، ويلتزم بالإسلامِ، ويسعى لإقامة شرعة الله في الأرض، ويفتح صدره لنا؛ فهو من إخواننا، وإن لم يكن منتسباً لجماعة الإخوان المسلمين؟! لا أريد أن أسمع منك مثل هذا، فأنت أوسع أفقاً من ذلك.

كثيراً ما كان يحثّ الشباب على حضور مجلس الصلاة على رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، والذي كان ينعقد مرة في «الجامع الجديد» في السوق، وأخرى في جامع «أبي الهدى الصيادي» في الحاضر، بل وكان يحرص كثيراً على حضوره، لما فيه من ذكر لله تعالى، وتلاوة لبعض سور قصيرة، وإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله، مع عدم تهاونه في إنكار بعض ما قد يجري فيه من ألفاظ أو أناشيد لا يراها جائزة شرعاً، وكانت له هيبته رحمه الله، فينفّذُ ما يريد.

كثيراً ما سمعته يقول لبعض الشباب، وقال لي مرة أيضاً: أنت ينقصك تربية روحيةٌ وتعوّد على ذكر الله تعالى، والصلاة على رسوله، حتى يصبح هذا سجية فيك!

ويومها تنضبط أعصابُك، وتأبى أن تغتاب أحداً، أو تخيف أحداً من إخوانك، أو تتشاغل بالكلام الذي لا فائدة منه سوى الجدال.

يعني: أنت بحاجة إلى فترةٍ، تتجرد فيها عن ذاتك، وتعيش فيها مع الصوفية، وعندك من الفكر والعلم؛ ما يجنبك أخطاءهم وبدعهم!

كان يوصي الشباب المسافرين إلى دمشق بالحضور إلى مسجد زيد بن ثابت والاستفادة من علمائه ومشايخه، ويحثهم على ذلك، كما كان يوصيهم بحضور خطبة الشيخ مُحَمّد سعيد رمضان البوطي، يوم الجمعة؛ لما فيها من الفوائد.

كما كان كثير الثناء على العلماء الأجلاء أمثالِ الشيخ حسن حنبكة الميداني، والشيخ وهبي سليمان الغاوجي، والشيخ سعيد النعساني، والشيخ خالد الشقفة، والشيخ زاكي الدندشي، إضافة إلى حثّه الشباب على حضور درس الشيخ مُحَمّد الحامد، وخلَفه الشيخ عبدالحميد طهماز.

كانت له علاقات ودية طيبة مع السلفيين في البلد، ولم يكونوا يرون أحداً في البلد أقربَ إليهم منه، حتى إنه كان يزور القاضي الشرعي مصطفى الخالد في بيته أحياناً، ويتبادل معه وجهات النظر، بل إن كثيراً من السلفيين كانوا يعدّونه سلفياً، لولا أنهم سلميّون، وهو حربي؟

وكان لا يسمح بذكرِ الشيخ ناصر الألباني بسوء، إذا حاول الطعنَ به بعضُ الشباب وكان يبين للحاضرين أنه عالم محدِّث، ويجب أن يستفاد من علمه، وإن كان لا يرضى عن خطه ومنهجه في طريق الدعوة، ويرى أن الدعوة السلفية رافد، لا أنها دعوةٌ لأمة تريد النهوضَ، ودكَّ عُروشِ الظالمين.

وكان حين يسافر إلى دمشقَ؛ فربما زار الشيخَ ناصراً أحياناً، وغيرَه من العلماء السلفيين.

كما كان الشيخ ناصر يزوره حين ينزل إلى حماة، وإن كان نزوله إليها قليلاً جدّاً!

وكان بينهما مودة، على اختلافهما في الرأي أحياناً.

لشّد ما سمعته يثني على مالك بن نَبيّ، ويشيد بذكره، مع تَنَبيّهه إلى بعض أخطائه والتي سببها في نظره أن الرجل عاش في غير وطنه الأم، وتلقى علومه بغير لغته، وعاصر كثيراً من المستشرقين.

دخلت مرة عليه، وهو يقرأ كتاباً لمالك رحمه الله، فسلمت عليه، وكان وحده مستلقياً فجلس، وردّ تحيتي، ثم قال: اسمع يا أخي، وقرأ لي عِدَّة أسطر مفادها أن الحضارة ليست شيئاً سوى الزمن والتراب، ولا أذكر الثالثة الآن، وأظنها الإنسان!

ثم هزّ رأسه ضاحكاً وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله! أين الزمن الذي مضى حتى قامت دولة الإسلام؟ وماذا فعل التراب في إقامة دولة الإسلام؟ يا أخي: الحضارة هي العقيدة، الحضارة هي الدين، وما تبقى هو لوازم لهذه العقيدة وتوابع لها، أو آثارٌ من آثارها، إنا لله وإنا إليه راجعون، يرحم الله (سيد قطب) يشير إلى صوابه في هذه المسألة.

وكان رحمه الله شديدَ المحبةِ للأستاذ جودت سعيد، حفظه الله، مع مخالفته إياه في كثيرٍ من آرائه، وكم كان يزوره حين يسافر إلى دمشق، ويثني عليه خيراً في دينه وعلمه وخلقه ورجولته.

هذه كلها أمثلة تؤكد لك شموليةَ نظرة الشهيد إلى المسلمين، وإباءَه الحزبية الضيقة الخانقة.

لقد عاصر الشيخ مروان رحمه الله دعوة الإخوان المسلمين في أول شبابه، ثم انخرط في صفوفها، وتحمس لها أشدَّ الحماس، وكان ذلك في أوائل الخمسينات.

وهذا يعني أنه رافق دعوة الإخوان المسلمين في حماة، وهي لا تزال غضةً، لما يشتدَ عودها، وتتحدد وجهاتُ أنظار قيادتها حول منهج العمل والحركة في سورية.. وكان له جولات في

تصحيح بعض المفاهيم مع قادة الإخوان منذ وقت مبكر، كما كانت له مواقف معروفة في تاريخ دعوة الإخوان المسلمين في سورية، لا يجهلها إلا جاهل، أو متجاهل.

وكان من الذين يرونَ الجهادَ؛ هو السمةَ البارزة التي يتميز بها الإخوان المسلمون عن غيرهم؛ لذلك كان يسعى، ويساهم في المعسكرات التدريبية التي كانت تقام في تلك الأثناء، ويحثّ الشباب على التدريب، ويشجّعهم على التسلح، ويرغبهم في تعلم وإجادة الرمي والسباحة، وكان يرى أن على الشباب المسلم أن يتعلم قيادة الدراجة الهوائيّة، والنارية، والسيارة، والدبابة، والطائرة، متى سمحت له الظروف؛ لأن هذه كلها من لوازم الحرب، ومستلزمات الجهاد في سبيل الله اليوم.

والشيخ الشهيد، وهو الذي أمضى سنواتٍ من عمره اشتراكياً، ويعرف حقيقة الدعوات الهدامة؛ كان شديدَ التميز والتجرد، بعيداً عن كل شبهةٍ تُدني من إحدى الدعوات، فكان عنيفاً على القول بـ«إشتراكية الإسلام» و«ديمقراطية الإسلام».

وكان حرباً على الأنظمة الملكية والجمهورية، والاتحادات الفدرالية والكونفدرالية وغير ذلك من مظاهر الحكم غير الشرعي، كما كان خصماً لدوداً للنعرات العنصرية، والدعوات الوطنية، والإقليمية، والقومية، ومعادياً لأي تحالف مع أعداء الإسلام، سواء كانوا شرقيّين أمْ غَربيّين.

كما كان الشهيد في المرحلة التي عايشته فيها (٦٤- ١٩٧٥م) يأبى أشد الإباء أن يشارك الإخوان في الحكم، في أي قطر من الأقطار؛ لأن مشاركتهم تعني شيئين:

الأول: الاعتراف بشرعية الحكم القائم، وهذا مخالف لقوله تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ ولا اعتراف بشرعيةِ حكمٍ، يرفضه الإسلامُ.

٢- الثاني: الرضا بأنصاف الحلول، والسكوتُ في مقابل عدد من المناصب في الحكومة، وهذا دخول في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

فكان يرى أن هذا ممالأةٌ على دين الله، ولكن جماهيرَ قادةِ الإخوان المسلمين كانوا على خلاف رأيه وقتئذٍ؛ لأنهم يرون أن رأيه هذا يعني عدمَ قيام دولة الإسلام أصلاً!

حين قامت الوحدة بين مصر وسوريا؛ كان الذين دبروها؛ هم «الاشتراكيين العرب»[٢٢] الذين اندمجوا مع البعثيين في حزب واحد سموه «حزب البعث العربي الاشتراكي» وكان الشهيد على علم قاطعٍ بما فعله عبدالناصر مع الإخوان في مصر، كما كان قادة الإخوان عالمين بذلك أيضاً!

ولما أصدر عبدالناصر قانون «حل الأحزاب السياسية» تداول الإخوان المسلمون الرأيَ، واتفق معظمهم على حل «جماعة الإخوان المسلمين» لأنّ الوحدة حلم الجميع!

إلا أن الشهيد رحمه الله، استكبر على الإخوان ذلك واستعظمه، وكان يخاطبهم بصفتهم لا بأعيانهم فيقول: «ومن أنتم حتى تحلوا جماعة الإخوان المسلمين؟ وهل جماعة الإخوان المسلمين مؤسسةٌ تابعة لكم؟ أو شركة أنتم أصحابها؟ إن جماعة الإخوان المسلمين؛ هي جماعة المسلمين، والذي يستطيع حلها أو عدم حلها هم المسلمون جميعاً، وما دام لا يجوز ألا تكون هناك جماعةٌ للمسلمين؛ فيجب أن تبقى «جماعة المسلمين» ومن جبن وخاف؛ فليحّلَ هو نفسَه».

---

(٢٢) صحّح عدد من مراجعي الكتاب كلمةَ (الاشتراكيين) فرفعوها، ولكلامهم وجهٌ من الصواب، لكني أعرب «هم» ضميرَ فصل للتوكيد، لا محلّ له من الإعراب، فتبقى كلمة «الاشتراكيين» خبر كان.

وأبى الشهيد رحمه الله حلّ الجماعة، وتابع خط سيره في سورية ومصر في أثناء دراسته فيها، وعدّ هذا القرارَ من الإخوان المسلمين إعطاءً للدّنية في دين الله، وهو غير جائز شرعاً، ولا يطاعون به!

وحين حدثت حركة الانفصالِ؛ عادت حركة الإخوان للظهور بعد أن أضاعت مدة ثلاث سنوات تقريباً، دون كبير جدوى؟!

وكان يقول: «لو أن الإخوان المسلمين لم يحلوا أنفسهم، واشتغلوا سراً، ودربوا شبابهم على الجهاد؛ لكانوا أولى الناس بتسلم زمام الحكم بعد الانفصال، ولكن الله يعلم أننا لسنا أهلاً لذلك»؟!

وكان شباب مروان الذين عاهدوه على السير في خط الدعوةِ؛ هم محورَ العمل بعد عودة دعوة الإخوان إلى الظهور في مدينة حماة، وكانوا، ولا يزالون هم أصفى شباب الإخوان عقيدةً، وأنقاهم فكراً، وأكثرهم تجرداً وبعداً عن حظوظ النفوس!

فمنهم من قضى نحبه، وهم الأكثر، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً!

كانت الدول الاستعمارية تشيع ثقافتها السياسية في الدعوة إلى «الديمقراطية» وكان الإخوان المسلمون لا يرون الانتخابات هي السبيلَ الأمثل للاختيار الصحيح، لكنهم كانوا يعتقدون طيلةَ مرحلةِ الدكتور مصطفى السباعيّ، والأستاذ عصام العطّار أن الحياة البرلمانية هي الوسط الطبيعي والحيوي لنشاط جماعة الإخوان المسلمين، وأن الإخوان من خلال البرلمانات يستطيعون إسماعَ صوتهم للعالم، ويمكنهم أن يقيموا دولة الإسلام بعد أن يتعرف الناس إليهم، ويسمعون صوتهم، ما دامت القضية قضية أكثرية؟!

ولذلك شارك بعضُ قادةِ الإخوان في مجلس «الاتحاد القومي» الذي أنشأه عبدالناصر، كما شاركوا في برلمان عهد الانفصال، وكان الشهيد مروان يتلوى على الجمر، ويلتهب ألماً لما

يفعله الإخوان، إذْ كان على الإخوان أن يَعدّوا العِدَّة قبل هذه المرحلة وأثناءها، في الجيش، وخارجَ الجيش؛ ليتسلموا زمام الحكم، ويقيموا شرع الله(٢٣).

فلما كانت ثورة حزب البعث، والانقلاب العسكري، وفرض الإحكام العرفية، وقيام الحرس القومي والمنظمات التي أفرزها الحزب، والتي سامت الناسَ سوء العذاب؛ لم يكن لدى الإخوان مقدرةٌ على فعل شيء مؤثّر.

فتدبر الشهيد أمره، وخالف رأي القيادة، وبدأ يعدّ العِدَّة للثورة ضد هذا الحزب من أول يوم قامت فيه دولته، بل وقبل ذلك بأعوام.

لما كثر انتهاك البعثيين العلمانيين للحُرمات، وازدادت استهانتهم بالمسلمين واستصغارُهم لشأنهم، وقامت المظاهرات الحزبية تنادي:

«يلعن يومك يا حطين، والخائن صلاح الدين»

وتنادي أيضاً:

«حط المشمش على التفاح.. دين مُحَمّد ولّى وراح»

ومنها قول شاعرِهم الذي كتبوه على جدران ولافتات كثير من دوائر الدولة وعلى مداخل الثكنات العسكرية:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له ... وبالعروبة ديناً ما له ثان!

وقول الآخر:

---

(٢٣) قال الدكتور رشيد العيسى في شهادته: «أقول: رأيت الشيخ مروان يراجع مراكز الانتخابات، عام (١٩٦٢م) التي شارك فيها الإخوان بقائمة واحدة، مع بعض «الشخصيات المستقلة، والشخصيات الإقطاعية والنصارى» وكان عنهم نائب واحد فقط هو «أديب نصور» ونتيجة خسارة هذه القائمة في ريفِ حماةَ؛ قامت مظاهراتٌ عارمة، كان الشهيد مروان على رأسها» وأقول: من الممكن أن يكون ذلك رأيَ الشهيد مروان حينئذٍ، لكنني منذ عرفته، وحتى آخر ساعة معه؛ كان يرى سبيلَ الجهاد بالقوة المسلحة؛ هو السبيلَ الوحيدَ لإزاحة الطغاة في سوريا؟!

لا تسل عني ولا عن مذهبي...أنا بعثي اشتراكي عربي

وليس ذلك فحسب، بل إن كتابة أحد الطلاب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ على السبورة في المدرسة، أو على حائطٍ في المسجد؛ كان تهمةً، اعتقل من أجلها، وحوكم، وحكم عليه بالسجن، وهو طالب في السنة الثانية من المرحلة المتوسطة (الصف الثامن).

وكانت تصريحات الحزبيين بأنهم سيحولون المساجد إلى متاحف ومدارس بل ومسارح؟!

هذه وأمثالها كثيرٌ جدّاً؛ أثارت حفيظةَ الشهيد الذي طلب من قادة الإخوان أن يقوموا بثورةٍ ضد هذا الحكم الكافر؟!

ولكن هؤلاء القادة رفضوا متعللين بأنهم في أول الطريق، فيما أثبتت تجربة صراعهم مع النظام؛ «أنهم لم يكونوا أهلاً لذلك، وكانت قدراتهم ضعيفة» أفاده الدكتور رشيد.

وقام الشيخ الشهيد مع إخوانه في حماة، والذين اقتنعوا معه بضرورة وضع حد لهذه الاستفزازات بثورة عام (١٩٦٤م) والتي كانت وصمة عار في جبين السلطة الباغيةِ، وكانت واحدة من مآثر الشهيد الرائعة التي أسمعت العالمَ، ولأول مرة منذ سنين طويلة بأن الشعب يمكنه أن يقول للدولة: لا، ويثور عليها!

وأياً ما كانت نتيجةُ هذه الثورة؛ فقد كانت في صالح المسلمين مادياً، ومعنوياً، إذ انحسر فيها طغيان ثورة البعث، وانكسرت هذه القسوة والتحدي اللذين كان عناصرهم يقومون بها، وهابت الدولة الإخوان المسلمين، ووضعتهم في حسابها، وعلمت أنّ الشعب الذي ثار مع الإخوان؛ هو شعب مسلمٌ، ولا يرضى بغير الإسلام، فلانوا على عَدائِهم، وكبحوا جماح غرورهم بعضَ الشيء.

وطلب الشهيد من الإخوان متابعةَ طريقة الإعداد، فهذه جولة! ولنا مع الباطل جولات كثيرة، ربما نستشهد جميعاً، قبل إقامة دولة الإسلام، ولكن واجبنا يحتم علينا ذلك، وللدين ربٌّ، جلَّ شأنه، قد تكفَّل بحفظه.

ولكن قادة الإخوان المسلمين اعتبروا هذه الثورة عملاً انتحارياً، وظلوا على مواقفهم السابقة من مسألة الإعداد للجهاد، وأنّ خط الدعوة الحركيّ، في هذه المرحلة؛ ينحصر في البيان بالحسنى، وتربية الفرد المسلم، والبيت المسلم.

ومرت عِدَّة سنوات والإخوان يراوحون في أماكنهم، والنصيريون يخططون مع ساداتهم لتسليمهم البلاد، فكانت حرب (١٩٦٧م) مع إسرائيل أولَّ وأبرز ملامحِ هذا المخطط؟!

وقامت ثورة فتح بعد ذلك، وانتشرت انتشاراً كبيراً، وقبلت المتطوعين من دون سؤال عن هويتهم الحزبية.

فسارع الشهيد رحمه الله لإقناع الإخوان بضرورةِ التدريبِ والانخراطِ في صفوف «منظّمة فتح» ليتربى الشباب عمليّاً على الجهاد، ولكن الإخوان رفضوا هذا القرار بإجماع قادتهم؟!

فتفرّد الشهيد رحمه الله تعالى برأيه، وأرسل مجموعاتٍ من شباب الإخوان إلى معسكرات «فتح» فتدرب كثيرون على شتى أنواع الأسلحة، وشارك كثير من هؤلاء في المعارك ضد اليهود، داخل الأرض المحتلة، واستشهد بعضهم على ثرى فلسطين الطاهر، وقَتل معظمَ البقيةِ الباقية منهم النظامُ النصيري، ولكن هؤلاء لم يموتوا؛ لأن الواحد منهم كان قد ربى جيلاً من الشباب قبل استشهاده.

في هذه الأثناء كانت صفوف الحركة تتصدع، فكثرت فيها الانشقاقات، مما زادها ضعفاً على ضعفها، وتنافروا فيما بينهم، وتدابروا إلى درجة القطيعة، ويندرُ أن تجد واحداً في الصفوف الأولى، إلا وله جماعة مستقلة، أو تابع لجماعة قد استقلت.

والشهيد مروان الذي يعرف أنّ قوة الإخوان في وحدة صفهم؛ هاله أن تقع بينهم الحالقة، فتفسد ذات البين! فكان عمله طيلةَ فترة التصدع هذه وسيطاً بين الأطراف المتناحرة، يُقرّب وجهات نظر هذا، ويخوف بالله تعالى ذاك، ويناشد الثالث الله والرحم!

ولم يخلع يداً من طاعة، ولم يشكل جماعة مستقلة، كما لم يكن تبعاً لأحد الأطراف المتنازعة، وإنما جمّد نفسه ريثما تخمدُ الفتنةُ، وتنقشعُ هذه السحابة، وترجع أمور الجماعة إلى مسارها الصحيح!

وحول هذه الفترة بالذات حدثني أبو علي طارق قال: «لقد كان الشهيد مروان يستنكر ما حصل من انشقاق في صف الجماعة، ورفضٍ لقيادة الأخ الأستاذ عصام العطار، ولكنه كان يلقي مسؤولية ذلك وتبعته على من كان خلفه في قيادة العمل في دمشق، وقد بقي مخلصاً له، ومعترفاً به حتى تم توحيد الجماعة، ومات على ذلك، دون أن تبدر منه أي إساءة إلى الأستاذ عصام طيلة حياته.

ويؤيد ذلك لقاءاته به في عَمان إبّان مشاركة الشهيد في العمل الفدائي، رغم معارضة مكتب دمشق لذلك، واستنكار عصام لما يفعله مكتب دمشق.

كان مكتب دمشق يُحذّر من الاتصال بالشهيد مروان، بينما كان الشهيد يتصل بالأخ عصام، وكان على وفاقٍ، وتفاهمٍ معه.

وعلى هذا فيمكننا القول بأن الشهيد لم يكن له أدنى مسؤولية في تفرّق صف الجماعة وانشقاقاتها، بل لم يعرف له نشاطٌ سياسيٌّ في هذه الفترةِ، إلا ما كان على سبيل الإصلاح، ولمّ الشعث، وتقريب وجهات النظر» ا.هـ بحروفه.

وحول هذه بالذات حدّثني الدكتور خالد أبو التائب قال:

«كان الشهيد مروان يحب عصاماً، وعواطفه معه، وكان الأستاذ عصام يريد أن لا يخسرَ الشهيدَ، مع أن مروان كان يخالفه في كثير من آرائه.

قال: «وكنت في جلسة مع الشهيد مروان وعنده حسني عابو والأخ توفيق بركات فقال الشيخ حسني: إن بعض الإخوان، تحللوا كثيراً، أو قليلاً من مبادئهم، حتى إن بناتِ بعضهم صارت تكشف عن مفاتنها، ونحو ذلك!

فلم يرق هذا الكلام للشهيد مروان، واعتبره مجازفات من الطرف الآخر!

فقال الشهيد مروان: كان الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، مرّةً يناقش أحد الحاضرين، فأراد الأخ توفيق أن يتدخل في النقاش، فقال المناقش للأخ توفيق: تأدب! فأنت في حضرة المراقب العام، ولم يعترض الشيخ عبدالفتاح على هذا النفاقِ الظاهر!

قال الدكتور خالد: فاغتاظ الشهيد مروان، وأنكر على الشيخ عبدالفتاحِ سكوتَه، كما أنكر على المعترض المناقش.

قال الدكتور خالد: فالشهيد بهذا الشاهد الذي أورده على كلام الشهيد حسني؛ يريد أن يقول: ليست جماعةُ الشيخ عبدالفتاح على حقّ فيما فعلت، وليس هو أحسن حالاً من الأستاذ عصام.

فكان الشهيد مروان مؤيداً لعصامٍ، ومعترفاً به، لكنه لم يكن مع القادة الدمشقيين، وكان يرى أن كثيراً من مكتب دمشق لا خير فيهم» ا.هـ كلامه.

وهنا علّق الأستاذ حمدو حمشو: «بعد سفر الشهيد مروان سفراتٍ متعددة بين حلب ودمشق؛ تبيّن له أنّ الخطأ وقع من الجانب الحلبيّ».

قال عداب: وقد سمعته مراراً يذكر أن أهل حلب هم المخطؤون، وكان عاتباً على الشيخ سعيد حَوّى لوقوفه مع معسكر حلب!

كان الشهيد رحمه الله يرى أن الدعوة أكبر من كل كبيرٍ من الناس، وأن الناس مَدينون بالتزامهم دعوةَ الله تعالى، أما الدعوةُ؛ فغير ملزمة بأن تكون تبعاً لأحد، فأولى الناس بخدمتها وإدارة شؤونها؛ أقواهم على ذلك، وأقدرهم عليه، كائناً من كان، وإن كان لا يرى شرعيةَ خلعِ مَن لم يفعل ما يوجبُ خلعَه.

وقد حدّثني الشهيد مرّةً، ونحن في طريقنا إلى دمشق أنّ الأستاذ عصام العطار لا تزال بيعته في أعناق الإخوان، ولم يصدر عنه ما يستدعي خلعَه!

فإن قيل: هو في ألمانيا؛ قلنا: والشيخ عبدالفتّاح في الرياض، والشيخ عصام أكثر تفرغاً لخدمة الدعوة من الشيخ عبدالفتاح!

وعتب على الشيخ سعيد حَوّى بشدّة؛ لانضمامه إلى معسكر الشيخ عبدالفتّاح(٢٤).

بيد أنه كان يرى أن جمهور المسلمين إذا أرادوا رأياً، واتفقوا على السير فيه؛ فلا مانع من السير معهم؛ حفاظاً على مصلحة الدعوة، خاصةً إذا كان المسؤول الأول بعيداً عن مقر عمله، وأن الذين ولاّهم شؤون الدعوة ليسوا بأكفاء.

ولكنه مع هذا؛ كان يرفض بشدة الإساءةَ إلى من سبق، كما تفعل الأحزاب السياسية الجاهلية، فهؤلاء إذا عَلَوا كراسيَّ الحكم؛ هان عليهم مَن كان قبلهم، وراحوا يكيلون له التُّهَم، ويصفونه بأوخم الصفات، ويرمونه بأحدّ السهام.

هذه مقدمات تاريخية لا بد منها لإبراز موقف الشيخ من دعوة الإخوان المسلمين.

---

(٢٤) لم يرتض الدكتور رشيد العيسى مني هذه العبارة، فعلّق عليها بقوله: «بل كان الشيخ سعيدٌ هو المحرّكَ الأساس للانشقاق، وتنصيب الشيخ عبدالفتاح».

لقد قدمتُ في أول حديثي عن هذه الفكرة بالذات أن الشيخ الشهيد كان إخوانياً بكُلّيتِه، وكان يرى دعوةَ الإخوان أكبرَ الدعوات وأصدقها، وأوضحها فكراً وأعمقها منهجاً، وهي جديرة بقيادة الحركات الإسلامية التي كان يعتبرها روافد لتلك الحركة الأم.

إلا أنه مع هذا كله؛ لم يكن يرى في أشخاص الإخوان المسلمين أنهم وحدهم الممثلون لجماعة المسلمين، كما كان يرى ثمةَ نقصاً كبيراً في التطبيق والتنفيذ لأفكار الإخوان المسلمين ودعوتهم؛ وفق ما خطه لها الإمام الشهيد حسن البنا؛ مستمداً ذلك من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ!

لذلك كان الرأي الذي لم يَحِد عنه الشهيدُ قطّ؛ أن على الإخوان أن يستفيدوا جادّين من إمكانات الحركات والدعوات الإسلامية الأخرى، وينصح بفتح أبواب حوار وتفاهم مع أرباب وأبناء هذه الحركات؛ لأن جماعة المسلمين هي هؤلاء كلهم ومَن وراءهم من جماهير المسلمين الصامتة.

ومع اعترافه بوجود التقصير في التطبيق، والبطء في التنفيذ، إلا أنه كان يرى أن أكبر فكرةٍ تخلّت عنها جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، أو قل: لم تولها من العناية ما تستحقه؛ هي فكرة الجهاد في سبيل الله، والإعداد له.

ولذلك فإنه قد أخذ على نفسه إكمالَ هذا الجانب من النقص في دعوة الإخوان؛ لأنه يراه الشطر الأكبرَ والأهمَّ في دعوتهم، وكان يبيح لنفسه مخالفةَ أوامر القيادة إذا عارضته في هذا الجانب فقط؛ لأنه يرى أن الطاعة في المعروف! وما دامت لا تأمره بمعروف فيما يراه واجباً حتمياً؛ فلا ضير عليه في مخالفة أوامرها في هذا الجانب.

أما فيما عدا ذلك؛ فلم يكن إلا جندياً مطيعاً أميناً صادق الود، ناصحاً لإخوانه ودعوته، ولم ينزع يده من طاعة، حتى حين أقصوه ورفضوه وفصلوه.

وكان يرى أنّه ومن يوافقه؛ هم الإخوان المسلمون، ومَن يمارسون في حقه وحقّ موافقيه سياسةَ الإقصاء والفصل من الجماعة؛ ليسوا على حقّ، ولا يمثلون دعوة الإخوان، والمسألة في نظره ليست في كثرة موافقيه، أو مخالفيه، وإنما هي في موافقة الحقّ! وما أكثرَ ما كان يردد مقولة: «الجماعة هي الحقّ، ولو كنت وحدك»[٢٥].

(٢٥) أسند ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٦: ٤٠٩) هذه المقولة لابن مسعود، وانظر فيض القدير للمُناوي (٤: ٩٩) فقد نقل نحو هذه المقولة عن الإمام البيهقيّ، و أبي شامة المقدسيّ.

الفصل الخامس

ملامح المنهج الدعوي عند الشهيد مروان

لم يكن الشهيدُ مروان يهوى الكلامَ كثيراً، ولا يحرص على الخطب والمحاضرات النظرية إلا بمقدار ما يبلّغ به رسالةَ ربّه، وكان يحرص على التطبيق العمليّ لأفكار الإسلام النظرية!

وكان يحرص أشدَّ الحرص ألا يصدرَ عنه ما يسيء إلى الإسلام، أو إلى دعوة الإخوان المسلمين، وكان يقول لنا: جماهير العامة يقرنون دائماً بين الفكرة وحاملها، فإذا كان حامل الفكرةِ ملتزماً بها؛ فإنه بالتزامه هذا يكون قدوةً في نظر العامة.

وإذا كان ينادي بفكرة نَبيّلة، وهو يخالفها؛ فإنه يعطي المسوّغ العمليّ لغيره، كي يخالفها.

سألته مرّةً عن أثر عمر (إن في المعاريض مندوحةً عن الكذب) [٢٦].

قال: هذا يُلجأ إليه مع الأعداء، وفي حالات الضرورة فقط، أما أن يكون خُلقاً سائداً لدى الداعية؛ فلا أراه سائغاً أبداً!

ومن وراء صحبتي الطويلة له؛ ما رأيته يستعمل المعاريض أبداً، لكن كان إذا رغب عن قول شيءٍ؛ فإنه يسكت!

وسألت شيخي سعيد حَوّى عن الأثر نفسه، فقال: لا بأس بذلك عند الضرورة!

فقلت له: لكنك تستخدم التوريةَ كثيراً جدّاً شيخَنا؟

قال: أعطني مثالاً واحداً، استعملت فيه التوريةَ، ولم يكن هناك ضرورة، أو حاجةٍ!

---

(٢٦) هو أثر مروي عن عمر بن الخطاب، وعن عمران بن حصين، رضي الله عنهما؛ أخرجهما البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧، ٨٨٤) موقوفاً عليهما، وإسنادهما صحيحان.

وفي ابتداء رسم صورة هذه المعالم أقول: في جميع مدة صحبتي للشهيد مروان حديد رحمه الله تعالى؛ أستطيع القول: إن أفعال الشهيد مروان أكثرُ مطابقةً لأقواله من أيّ شخص عرفته في حياتي، ما خلا سيدي الشيخ مُحَمّد الحافظ التجاني، فكان كذلك أيضاً!

وإنّ أبرز معالم المنهج الدعوي عند الشهيد مروان؛ تتلخص بالنقاط الآتية المستقاة من العرض المطول في هذا الباب:

المعلم الأول: الاستيثاق من صحة ما تدعو إليه، ويؤكّد الشهيد مروان على عدم جواز رواية الآيات بالمعنى، ويحرّم على الداعية أن يقول: وفي الآية ما معناه كذا!

وكان يقول لنا: بئس الداعية الذي لا يحفظ آيات العقيدة والدعوة، فأي دعوة هذه إذا لم تكن من القرآن الكريم.

وكان يجوّز رواية الحديث بالمعنى، أو اقتطاع جزء منه على قدر الحاجة، بعد أن يكون صحيحاً، أو حسناً، ويجوّز الاستشهاد بالحديث الضعيف، إذا كان معناه صحيحاً!

وسألته مرة: وكيف يعرف عامة الناس ما إذا كان الحديث صحيحاً، أو ضعيفاً؟

قال: إذا كان في «رياض الصالحين» أو «الأذكار» للإمام النووي؛ فمعناه صحيح؛ لأن النووي رحمه الله تعالى فقيه وأصوليٌّ ومحدث!

لكن لا يجوز لغير المختص أن يذهب إلى كتب الرواية التي لم يشترط أصحابها الصحة ليقرأ فيها، ويظن أن كلّ ما فيها صحيح، وعلى العلماء والدعاة تكرارُ التنَبّيه إلى هذا!

قال عداب: وللاحتياط أقول: أنا أحظر على الداعية أن ينطق بأي حديث ضعيف أمام الجماهير، إلا إذا كان شائعاً بين الناس، ويريد التنَبّيه على أنه ضعيف.

لأنّ الناس لا يميزون بين الصحيح والضعيف، وحين يعلق الحديث في ذاكرتهم؛ قد يرددونه ناسين حكمه أصلاً.

ورحم الله الإمام ابن حبان البستي حين يقول: إنّ فيما صحّ عن النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، بحمد الله؛ مندوحةً عن الاحتجاج في دين الله بما لم يصحّ!

المعلمُ الثاني: الالتزام بما يدعو إليه الداعية.

كان الشهيد مروان أعلى مثلٍ عرفناه في التزام ما يدعو إليه، وكان يحرّم تحريماً قاطعاً أن يدعو الإنسان إلى الكرم وهو غيرُ كريم، وأن يدعو إلى الشجاعة وهو جبان، وأن يدعو إلى قيام الليل، وهو لا يقوم الليل، ويسعه السكوت عما لا يتمثّل به!

وتفسير ذلك عنده؛ أن الذي يدعو إلى الكرم وهو بخيل؛ يتضمن كلامُه الكذبَ والتشبّعَ بما لم يعط، والقدوةَ السيئة في مفهوم الكرم، فهذه ثلاثةُ مصايب!

قال: إنّ المستمع لا يتصوّر أن الداعية إلى الكرم؛ بخيلٌ، فيحاول الاقتداءَ به في كرمه إذا كان قريباً منه، فربما تعلّم البخل منه!

وقد روى لنا الأدلة الآتية غيرَ مرّة للتأكيد على هذا المعنى.

قال: قال الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ: (كَبُرَتْ خِيَانَةً أن تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ، وَأَنْتَ بِهِ كَاذِبٌ) [٢٧].

وقال الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) [٢٨].

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلّا لنفسك كان ذا التعليم

---

(٢٧) من حديث النواس بن سمعان الحضرميّ رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦٧٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٢٠) ومن حديث سفيان بن أسيد الحضرميّ رضي الله عنه؛ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٩٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٦١٢) وفي إسناد الحديث اضطراب.

(٢٨) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما؛ أخرجه البخاري في كتاب النكاح (٥٢١٩) ومسلم في اللباس والزينة (٢١٣٠).

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ...كيما يصحّ به وأنت سقيم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه؛ فأنت عليم

فهناك يُسمع ما تقول، ويُشتفى ... بالنُصح منك، وينفع التعليم

المعلم الثالث: لزوم التقوى.

ومفهوم التقوى عند الشهيد مروان؛ هو إحلال الحلال، وتحريم الحرام، والمسارعة في الطاعات والخيرات.

حين توجدُ لدى الإنسان خَصلة مختلفٌ عليها؛ يُحاول الإنسان أن يعرض أقوال المؤيدين والمعارضين، ويسعى إلى الترجيح بالأدلة الواضحة، نقلاً، أم عقلاً!

وفي مدة علاقتي مع الشهيد مروان؛ ما سمعت في يومٍ من الأيام أنّ الشهيدَ مروان؛ اختلف مع أحدٍ على بيعٍ، أو شركةٍ، أو مقولةِ كلامٍ منقولةٍ عن لسانه.

وكان قال لي مراتٍ كثيرةً: لا يليق بالمسلم الملتزم أن يتخاصم مع إنسانٍ على أمورٍ ماديّة؛ لأنه إذا تخاصم مع أخيه المسلم، وغير المسلم، على أمرٍ ماديٍّ، مهما كانت قيمته؛ فإنه لا بدّ من وجود من يصدّق الآخر؛ إما لعلوّ صوته، أو لوجود شيءٍ في نفس المصدّق!

ومن الشواهد على لزوم الشهيد للتقوى؛ أنه كان يدعونا إلى صيام ثلاثةِ أيامٍ من أولّ كلّ شهر، وثلاثة أيامٍ من أوسط الشهر (الأيام البيض) وثلاثة أيامٍ من آخر كلّ شهر، كما كان يدعونا إلى صيام يومي الاثنين والخميس، ويؤكّد على الإثنين، ويقول: هو أصحّ!

وهيهات أن يُؤثر عنه مخالفةٌ لما تقدّم، إلا أن يكون به ضعفٌ، أو مرض!

وكان يدعونا إلى ضرورة التزام الجماعة في المسجد، وخصوصاً الفجرَ والعشاءَ، وكان يحاسبنا على ذلك، وإذا كنا معه؛ فكان هو الذي يوقظنا، وهو الذي يؤمّنا.

وكان يدعونا إلى تلاوة القرآن، ويحاسبنا على ذلك، ولم يكن فينا أحدٌ يقرأ من القرآن بقدر ما يقرأ هو رحمه الله.

وكان يدعونا إلى قيام الليل، ويسألنا عنه، ومن العسير أن يثبت أحدٌ معه في القيام أكثر من ركعتين أحياناً.

وكان يدعونا إلى الكرم، ويعدد لنا الكرام من إخوانه في غيبتهم، وكان يكثر من الثناء على صفي عديّ أمامي.

ولا أظنّ أحداً على وجه الأرض؛ يحقّ له أن يزعم أنه أكرم من الشهيد مروان.

وكان يدعونا إلى الإكثار من ذكر الله تعالى، ويقول: أنتم مثقفون، وكل واحد منكم يمكنه أن يختار من كتاب الأذكار للإمام النووي ما يحبّ من الأذكار!

قال له أحد الإخوة مرةً: أنا أحبّ أن أقرأ القرآن الكريم فقط، ولا أحب أن أشغل نفسي بالأذكار، فقال الشهيد: أستغفر الله العظيم!

أليس لك في رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ أُسوة حسنة؟ الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ هو الذي خوطب بقول الله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت : ٤٥].

فكان يقرأ القرآن الكريم، وكان يصلي الفرائض والنوافل وقيام الليل والتهجد، وكان يذكر الله على جميع أحيانه.

هل سمعت يا أخي بكتاب «الأذكار» للنوويّ، كتاب الأذكار فيه وظائف المسلم من لحظة الاستيقاظ إلى لحظة النوم، وفيه عددٌ غفير من أشكال الاستغفار والتسبيح والتهليل

والصلاة على الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، فلماذا قالها الرسول، إذا كان يسع المسلمَ أن يكتفي بالقرآن الكريم؟

المعلم الرابع: تعليم المدعوّين بالقدوة.

لم يكن الشهيد يترك سبيلاً من سبل الدعوة، إلا سلكه على حسب ما يرى من همّة السامعين، وقدرتهم على الاستعياب، ونشاطهم.

لكنّ مجلسه كلّه دعوة، إذا غضب؛ كان من وراء غضبه حكم شرعيّ، أو حكمةٌ، أو تصحيح خطأ.

وإذا ضحك أو تبسم؛ كان وراء تبسمه قول مفيدٌ، أو حكمة، أو حثٌّ على خير!

وإذا أراد أن يضّجع؛ يفعلُ ويقول: صحّ عن النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ أنه ربما اضطجع بين أصحابه، ويستأذننا بذلك، وكان يضطجع على جنبه، ولا أذكر أنني رأيته يستلقي على قفاه، أو ينبطح على بطنه أبداً!

في يوم من أيام عام (١٩٦٦م) قبل اعتقاله رحمه الله تعالى؛ حضر إليّ في المزرعة التي كنت شريكَه فيها! فرآني أسقي، وأنا ألبس «بنطالاً» قصيراً تظهر منه ركبتي فقط، وهو ضيّق، يتناسب مع السقاية التي أزاولها وحدي عادةً، فليس معي في المزرعة إلا الله تعالى!

فسلّم، ثم قال: ما هذا البنطال؟ هذا حرام لبسه من جهتين:

الأولى: لأنه يكشف الركبة، وأنت لا تجهل الاحتياط فيها.

والثانية: لأنه مجسّد للعورة، ونحن لا نريد أن يأتينا ربحٌ بوسيلة محرمة!

صحيحٌ أنني كنت في السادسة عشرة من عمري، لكنني لم أكن قد بلغتُ بعد!

وغيرُ البالغ؛ لا يتصوّر شيئاً مثيراً في كشفِ الركبة، أو ضيق البنطال كما يتصوره البالغ الكبير فيما يظهر لي، خصوصاً وأنّ مذهب الشافعية أنّ الركبة ليست من العورة(٢٩).

فقلت له: يا شيخي.. يجوز للإنسان إذا كان في خلوةٍ أن يخلع عارياً، وهو خلاف الأدب فقط! وأنا لو تركتُ السقايةَ الآن؛ ستخرّب الساقية المزرعةَ كلها، فأرجو التفضل بالذهاب إلى الغرفة، ريثما أنتهي من السقاية!

ذهب الشهيد رحمه الله فعلاً، حتى انتهيت من السقاية التي لم يكن بقي منها سوى نصف ساعة، ثم ذهبت فتوضّأت، وغسلت الطين عن ساقيّ، ولبست بنطالي الطبيعيّ وجئت وسلّمت.

لم يُعِد الشهيدُ عليّ الكلام، ولم يؤنّبني؛ لأنه يعلم أنّ ما قاله بالنسبة لي كافٍ، ولا يحتاج إلى التأكيد عليه.

ومرة أخرى زارني في المزرعة، وأنا أجهز فتحاتِ الأحواض «المساكير» للسقاية ومعي عددٌ من الشباب يشتغلون في المزرعة، وقد جاوز الوقت الظهرَ!

فقال: هل غدّيتَ الشبابَ؟

قلت؟ لا! لكن أحضرنا معنا الغداء، وسنتغدى بعد الصلاة، إن شاء الله!

قال: هيّا إلى الصلاة، لا تؤخّروا الصلاة عن أوّل وقتها؟

فصلينا، وصلى معنا مرّة ثانية، ثم أخذني جانباً، وقال: ماذا أحضرت من الطعام؟

---

(٢٩) كان جميع زملائي وأقراني أصحابَ لحىً كاملة وشوارب، ولم يكن قد نبت لي في ذلك السنِّ، سوى زغب الشعر، وبحكمة الله تعالى؛ فقد بلغت بعد إتمام السابعة عشرةَ من عمري، ولذلك أسبابٌ أشرحها في مذكراتي!

قلت: أحضرت كمية كبيرةً من الخبز، وكمية من الجبن والخيار والبندورة والفلافل واللبن الرائب!

قال: هذا لا يصلح غداءً لشبابٍ يتعبون معنا؟

قلت له: هذا أفضل طعامٍ يقدّمه والدي للعمال في مزرعتنا، والصيف لا يحتمل طعاماً ثقيلاً؟

فضحك الشهيد كثيراً، وقال: على كلّ حالٍ، العاملُ يأخذ أجرَه في آخر النهار، فما تطعمه إياه في مزرعتك بعد ذلك؛ يتناسب مع كرمك وقدرتك!

لكنّ هؤلاء الشباب لن يأخذوا أجراً على عملهم، فيجب أن يكون إكرامهم مضاعفاً أليست الدعوة إلى الله هكذا؟ أليس تعليم الناس المكافأة على التطوّع بأفضل من الأجر هكذا؟

فخجلت أنا، وقلت: والله يا شيخي.. هذا ما كان معي من نقود، فمن أين آتيهم بالكباب الذي تطلبه لهم؟

فضحك الشهيد رحمه الله تعالى، وأعطاني ثمن كيلين من الكباب وأشياء أخرى!

فركبت حصاني، ومررت من أمام مزرعة أهلي، فناداني والدي، فأتيت إليه، فسألني إلى أين أنا ذاهب؟

فأخبرته، فضحك، وقال: شيخك هذا، لا يعرف قيمةَ التعب؛ لأنه لم يتعب بالمال الذي ينفقه، ولو كان يتعب مثلَ ما نتعب نحن؛ لعرف أنّ إطعام العمالِ الكبابَ؛ سيجعل إنتاج المزرعة مرهوناً للكباب!

حين عدتُ إلى المزرعة، وجهزتُ مع بعض الإخوة الغداءَ؛ جلسنا نتغدى؛ شعرت بأنّ أحدَ الإخوة يأكل الكباب بطريقة غريبة جدّاً، فامتنعت عن مسّ الكباب إلى أن قُمنا عن المائدة، ولم أنبس ببنت شفة!

بعد صلاة العِشاء كنا في الزاوية عند الشهيد مروان، فسألني إن كنت جائعاً، فنفيتُ ذلك!

فقال: كيف؟ أنا جائع، وأنا تغديت أفضل مما تغديت أنت!

فقلتُ: أنا لست جائعاً، وبعد ساعة أذهب إلى البيت، فأتعشى، لا حاجة إلى إرهاق الأهل في البيت!

قال: لماذا لم تأكل من الكباب عند الغداء، ألا يجوز أكلُ طعامنا؟

قلت: أعوذ بالله من ذلك! لكني وجدت بعض الإخوة يشتهيه، فأمسكت يدي عنه إيثاراً له، فربما كان لم يأكل الكباب منذ زمن، أليس هذا هو الإيثار الذي تعلموننا إياه؟

لكنّ الشهيدَ أصرّ على إحضار العَشاء، وريثما حضر العَشاء؛ حضر ثلاثةٌ من الإخوة فاقتصرتُ على تناول قطعة من الخبز، ومعها قليل من المربى، فرأيت الشهيد تغيّر وجهُه!

عاتبني في اليوم الثاني، فقلت له: شيخي الحبيب: أنا لست معتاداً أن آكلَ في غيرِ بيت والدي! حتى أعمامي وعماتي وأخوالي وخالاتي، أنا لا آكل عندهم، فلا تجعل في نفسك عليّ شيئاً من هذه الناحية، هذه تربيتي، وأنا مقتنع بها تماماً!

ضحك الشيخ رحمه الله وقال: ومن فوائد هذه العادةِ؛ نجاتك يوم أحداث جامع السلطان، حيث ذهبت لتأكل في البيت، فقيّدك الوالد بقَيْدِ الحصان!

مثل هذه الدروس العمليّة؛ لازمتني طيلةَ عمري، ولا أظنّ واحداً من تلاميذ الشهيد مروان تمثّلها في حياته، مثلما أتمثّلها أنا!

في العراق تعرّف إليّ رجلٌ نصّابٌ، وقد حذّرني بعض الإخوة من أنه نصّاب، لكنني رجحت حسنَ الظنّ، وقلت: ما عساه أن يفعل؟

صار شريكي على «باصين!» وسيارة أجرة.

ولم يعطني طيلةَ مدّة الشراكة معه ديناراً عراقياً واحداً، لكنه كان يأتي إليّ، ويأخذ مني نقوداً، ويقول: إنه يطوّر العمل!

اتّصل بي مرةً على الهاتف وقال: حصتك من الباص «البُنيّ» تبيعها بمبلغ أربعة ملايين ونصف مليون دينار؟ قلت له: نعم!

قال: توكلنا على الله! قلت له: لكني بحاجة إلى المبلغ، لا تتصرف بشيءٍ منه!

قال: فور تسلّمي المبلغ؛ سآتيك به!

كان هذا الكلام في أوائل أيلول من عام (١٩٩٥م).

وفي أوّل كانون الأول؛ جاء إليّ، ومعه قائمة طويلة من مصروفات إصلاح الباص «البُنيّ» الذي يترتب عليّ منها مليون وستمائة وسبعين ألف ديناراً، فأعطيته شيكاً بالمبلغ؛ لاعتقادي أن عملية بيع الباص؛ لم تتمّ، وإلا لكان أحضر إليّ المبلغ قبل ثلاثةِ أشهر!

في منتصف كانون الأول؛ اتّصل بي، وقال: إنه يريد أن يتحاكم هو وآخر عندي؛ إذ هما يرضيان بحكمي!

وفي أثناء المحاكمة؛ قال خصمه: إنّ باصك «البنيّ» اشتريت حصتك منه، وسلمته قيمتها في أيلول، ودفعتُ من قيمة إصلاح الباب مليون دينار وستمائة وسبعين ألف دينار، وبعد مدة من الزمن؛ فعل كذا، وفعل كذا...إلخ قصته!

قلت له: أتسمح لي بمقاطعتك؟

والتفتّ إلى شريكي النصاب وقلت له: هل كلامه صحيح؟ قال: نعم؟

قلت: ولماذا لم تأتني بالمبلغ؟

قال: بعدين نتفاهم أنا وأنت!

قلت له: نتفاهم على ماذا؟ أنت قبل أسبوعين جئت وأخذت مني قيمةَ إصلاح الباص البُنيّ باعتبار أن الباص لم تبعه؟

فقال له شريكه الآخر: الله أكبر عليك، يا حرامي، يا كذاب، تخدع الشيخَ، وتكذب عليه، وتبيعني الباص، وتأخذ منه قيمة إصلاحه بعد بيعه؟ مَن أنت من الرجال؟

فقلت له: لم صنعت هذا؟ قال: لمصلحة العمل المشترك؟

قلت له: أتظنني غبيّاً إلى هذا الحدّ؟

فصار يضرب أخماسه بأسداسه، ويكذب، ويتهرب من الكلام!

فقلت له: قل: إنك أخطأتَ، ولن أطالبك بالمبلغ!

فقال: «هو حمار، هو غلطان، هو كلب، هو كذاب، شو بدكم قولوا عنه».

فقلت له: عاملك الله بعدله.

قيل لي: لم عفوتَ عن مجرمٍ نصّاب؟

قلت لهم: كان شيخي مروان يقول: لا يليق بالواحد منا أن يخاصم أحداً من أجل الدنيا؛ لأنّ هذا النصّاب يستطيع تشويه صورتنا، وسيجد من يصدقه، وأنا لن أسمح له بهذا من أجل شيءٍ من الدنيا (والله الشاهدُ على هذا الكلام)!

ومما منّ الله به عليّ أنني الوحيد ممّن بقي من تلامذة الشيخ، الذي لا يملك بيتاً، مع أنّ لي ثلاث زوجات! وثلاثة عشر ولداً، ولا أملك سيارة، ولا أملك أدنى رصيدٍ في البنك ومدين بعشراتِ الآلاف من الدولارات، مع أن مرتبي ثلاثة آلاف دولار في الشهر منذ عام (٢٠٠٤م) فهل في تلامذةِ الشهيدِ مروان من يزعم الاقتداءَ به مثلَ اقتدائي؟

المعلم الخامس: زيارة المدعويين.

كان الشهيد مروان يزور مَن يريد دعوتهم من الناس في بيوتهم، وفي مزارعهم، وفي مضافاتهم، ويزور المساجد والزوايا، ويسافر خارج حماة، إلى القرى القريبة والبعيدة، كما يزورُ المدنَ الكبرى من مثل حمص وحلب ودمشق ودير الزور.

كان يزور العلماء، وطلاب العلم، والمرضى، والمسجونين، والتجار والصنّاع، وسائر فئات المجتمع.

وكان لشخصيته أثرٌ كبيرٌ في استجابة المدعويين لدعوته، وتعلقهم بشخصه الكريم.

ومما أذكر شاهداً على تأثّر المدعويين به، واستجابتهم لما يطلبه منهم؛ القصة الآتية:

عقب اختفائه في دمشق، عام (١٩٧٣م) طلب زيارتي إياه، فزرته، فأعطاني ورقةً صغيرةً مطويّة، وقال لي: اقرأها إن شئت، وأوصلها إلى فلان، وعنوانه كذا، وانتظر الجواب!

حملتُ الورقةَ المطوية، وذهبت إلى حيث صاحبُها، وسلّمته إياها، ووقفت جانباً!

حين علم الرجل أن الرسالة من الشهيد مروان؛ بالغ في الترحاب بي، وأجلسني على أحسن كرسيّ في متجره الصغير جدّاً.

قرأ الرجل الرسالة، وقال لي: أنت تعرف مضمونها، أليس كذلك؟

قلت: لا! لكن الشيخ مروان قال لي: انتظر حتى يكتب لك الجواب، ولا تستعجل!

ضحك الرجل، وقال: «ارفع حِجرك يا بي!».

حين سمعت: ارفع حجرك؛ طار صوابي! ولم أكن أعرف أنّ: ارفع حجرك عند الدمشقيين؛ هي ذاتها: «افتح حرجك» عند الحمويين!

قال: ما لك يا بي، ارفع حجرك، هذا جواب رسالتك!

رفعت ذيل ثوبي «الجلابية» وأمسكته بكلتا يديّ، وصار يضع فيه ما في خزنة متجره، حتى لم يُبقِ فيها ليرةً سوريةً واحدةً!

ثم أدخل يده في جيوبه الثلاثة، وأخرج من كلّ جيبٍ شيئاً من المال، ثم أدخل يده في الجيب الأماميّ الأصغر «السيّالة» وأخرج منه نقوداً معدنية، فوضعها في حجري!

ثم قال لي: سلّم على سيدنا «أبو خالد» وقل له: العفو عن التقصير، إن شاء الله الخير في الآتي، خيرها بغيرها، إن شاء الله، بلغ الشيخ أن يدعو لنا! [٣٠]

كانت الصفةُ السائدة عن الدمشقيين عند الحمويين أنهم ماديون بخلاء، ولهذا فقد ودعتُه وأنا ذاهلٌ فعلاً، ومشيت في سوق الحميدية إلى آخره، رافعاً حجري وأنا ذاهل!

في هذه اللحظة نادى أحد الباعة بصوتٍ مرتفعٍ جدّاً: المشمش حموي! فانتبهتُ، وإذا بي رافعٌ ثوبي إلى قرب الركبة من دون وعيٍ، فاقتربت منه، وقلت له: أريد كيلين من المشمش، لكن أريد كيسين!

وضع لي المشمش في كيس، ووضعت أنا النقود في الكيس الآخر، واستأجرت سيارة أجرة، وانطلقت، وأنا أستعرض في ذاكرتي قصتين:

القصة الأولى: قصة أبي بكرٍ حين تصدّق بماله كله، وحين سأله الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ: ماذا أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله[٣١].

وهذا الرجل تصدّق بماله كلّه، حتى القروش المعدنية، ثم اعتذر عن التقصير!

---

(٣٠) علّق الأستاذ حمدو حمشو هنا قال: هناك قصة مماثلة لهذه القصة جرت مع الأخ فارس شعّار، حين أرسله الشهيد مروان إلى أحد تجّار دمشق، فأحضر من عنده كيساً مملوءاً بالمال. قال حمدو: وأظنّه كان يبلغ ثمانية آلاف ليرة، وهو مبلغٌ ضخم في تلك الأيام!

(٣١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أخرجه الدارمي في سننه (١٦٦٠) وأبو داود في سننه (١٦٧٨) والترمذيّ في جامعه (٣٦٧٥) وقال: حسن صحيح.

والقصة الثانية: قصة أحد إخواننا في حماة نزل الماء الأزرق على عينيه، فقصدنا أحد أغنياء حماة، فطلب رؤيته، فلما جاء ونظر إلى عينيه كأنهما حبتا «بندورة» حمراء؛ قال له: ما رأيك في أن تشتغل عندي ثلاثة أشهر؛ لتجمع كُلفة العملية الجراحية، أليس هذا خيراً لك من مسألة الناس؟ ثم لم يعطنا ليرةً واحدةً!

ومع هذا؛ فإن الحمويين يعدّون أنفسهم أكرم من أهل دمشق، بل أكرم الخلق!

حين وصلت إلى الشهيد مروان؛ رميت ما في يدي من النقود جانباً، وقلت له: ليس في هذه الأمة أبو بكرٍ واحدٍ، ولكن يظهر أنه في كلّ جيلٍ يوجد أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، وإلا فكيف تقوم حجة الله على الخلق؟

تبسّم الشهيد رحمه الله طويلاً، وهو يقول: الخير في الشام يا أخي، لم أنت مستغرب؟!

وحين قصصت عليه القصة؛ لم يتفاجأ أبداً، وإنما قال: الصوفية يقولون: أولياء الله أخفياء، ونحن عندنا أولياءُ أخفياءُ مثلُ هذا الرجل!

المعلم السادس: الرحلات والمنتجعات:

مما درج عليه الإخوانُ أنهم يستغلون العطلة الصيفية في تشكيل مجموعاتٍ في رحلاتٍ إلى الساحل السوري، أو إلى جبل الزاوية، أو إلى ريف دمشق.

وكان من عادة الشهيد مروان السنوية في الصيف؛ إقامةُ منتجعٍ دائمٍ في منطقة جميلة قريبةٍ من حماة، تدعى «الدوّار».

وهي منطقة زراعية على ضفاف نهر العاصي، وفيها ناعورة ضخمةٌ دائمة الدوران.

وكان هذا المنتجع يدوم طيلةَ فصل الصيف، يرتاده الشباب من أحباب الشهيد مروان، وممن يرغب أن يتعرف إليه.

وفي هذا المنتجع؛ يتعلم الشابّ آداب الصحبة عمليّاً، ويتعلم الأخلاق الإسلامية عملياً، ويتعلم من أخطائه وأخطاء غيره.

وفي هذا المنتجع يتعلم الشابّ السباحة، والرماية، ويتدرّب على الحراسة، كما تحدثت في باب الجهاد من هذا الكتاب.

وكان الشيخ مروان يُلقي في كل يوم موعظة، أو يُطلب من واحدٍ منّا ذلك، وكان لا بدّ من قيام الليلِ، ومن تلاوة القرآن، ولا بدّ من الحراسة.

وفي أثناء فترة الصيف؛ قد يسافر الشهيدُ مروان إلى مواضع أخرى من المدن السورية لكن المنتجع يبقى قائماً في حضوره، وفي غيبته.

المعلم السابع: التربية الماليّة!

كان الشهيد مروان؛ لا يرزأ من أجل الدعوة إلى الله أحداً من ماله شيئاً، لكن كان له من تلامذته خواصّ، ليس بينه وبينهم محاسبة مالية!

وهؤلاء الخواصّ يعلمون يقيناً أن الشهيد في غنى عن أموالهم تماماً، وهو إن طلب شيئاً من أموالهم؛ فمن أجل أن يسدّ ثغرةً ضرورية للدعوة إلى الله تعالى.

وكان أخصَّ خواصّه في المال على الإطلاق؛ والداه الفاضلان، فمن المؤكّد أنه أرهقهما في سبيل الله تعالى غايةَ الإرهاق.

وكانت شقيقته الآنسة «يسرى» أكثرَ من يتحمّل أعباءَ ضيوفه، من طعامٍ، وشراباتٍ وتجهيزاتٍ في البيت، حين يكون ضيوفه من الغرباء عن المدينة، أو حين يكونون من كبار أصدقائه، ووجهاء البلد.

وبحكم هذه العلاقة البيتية الخاصّة، فقد كان الأخ الدكتور أكرمُ الريّس؛ هو الوحيدَ الذي يتولى إحضارَ الأطعمة والأشربة إلى مسجد الشهيد مروان، وكنا نراه باديَ البِشر حين يكون الضيف غريباً عن البلد، أو من الضيوف الكبار، القليلي الزيارة للشهيد مروان.

لكنه كان يضجرُ أحياناً من الضيوف المجاورين للمنْزل، والمداومين على مسجد الشهيد مروان، ومن القادرين على الذهاب إلى بيوتهم من أجل تناول طعام الغداء، أو العشاء، لا بخلاً، ولا كراهيةً للضيفِ وإكرامِه، وإنما لسببين اثنين:

السبب الأول: التعب والإرهاق الشديدين اللذان يسببهما ذاك التحضير لأخت الشهيد، فهي واحدةٌ، تقوم على رعاية عشراتٍ في كلّ يومٍ أحياناً.

والسبب الثاني: لأنه لا يرى ضرورةً، لا من أجل الدعوة، ولا من أجل حاجة الضيف إلى تلك الرعاية، التي يجد مثلها، وربما أفضلَ منها في بيت والده.

وكان الدكتور أكرم يَشعرُ بأنني أتأثر من كلامه، وأخجل كثيراً، فكان يعتذر إليّ بنحو ما سبق!

وكنت لا أغضب منه؛ لأنني أعلم أن كلامه ليس موجّهاً إليّ قطعاً؛ لأنني من النادر أن أذوق شيئاً من الطعام المحضّر في البيت، وكنتُ أتعلل للشهيد بأنني أحبّ أن أتغدى من السوق «كبدة، كباب» ونحو ذلك.

كان الشهيد يفهم عليّ أنني أشعر بألمِ أصحابِ البيت، ويصعب عليّ سماعُ مثلِ تعريضاتِ الدكتور أكرم، فكان يعذرني، إذا رفضت مشاركتَهم الطعام!

فإذا أجبرني الشهيد، فربما تناولت القليلَ من الخبز الذي أدّعي دائماً أنني أحبه من دون إدام، بحكم طبيعة عملي «خبّاز»!

وبعد والديه وأسرته الكريمة؛ كان الأخُ النَبيّل صفيّ بن توفيق عدي رحمهما الله تعالى أخصَّ خواصّه من إخوانه وتلامذته في المال على الإطلاق.

ذاك الرجل الشهم الذي لم يترك لنفسه مالاً، إلا كان تحت تصرّف الشهيد مروان.

وكنت ممّن أكرمه الله تعالى من صغار خواصّه في المال أيضاً.

فأنا منذ الصفّ السابع أعمل «خبّازاً» فأعمل في كلّ ليلةٍ من الساعة الواحدة، وحتى الساعة السادسة صباحاً منذ ذلك السنّ، ما عدا الصيفَ، فكنت أعمل حتى أذان الظهر، ويكون الأجر مضاعفاً؛ لأنّ والدي أفهمني أنه لن يعطيني ما أحتاجه من مصروف، وعليّ أن أكون رجلاً!

وكنت أتقاضى في اليوم الواحد أكثر مما يتقاضاه بعضُ زملائنا من تلامذة الشهيد مروان من أهله في أسبوعٍ كامل، وكنت أصرفه كلّه، ويندر أن يبقى معي منه شيءٌ إلى اليوم التالي.

كان الشهيد مروان مطّلعاً على وضعي هذا، وكان قد خبر شخصيتي المالية، بل هو القدوة والأسوة المباشرة لي في جوانب كثيرة، ومنها الجانب الماليّ.

وكان من فضل الله تعالى عليّ أنه لم يعطني ليرةً سوريةً واحدةً طيلة صحبتي معه مقابلَ ما قد يطلبه مني من أشياء للزاوية، أو لفقيرٍ على بابها، أو لأمورٍ خاصةٍ أخرى!

قصارى ما كان يفعله؛ أنه كان يهمس في أذني: «معك فلوس؟» فإن أشرت بنعم قال: نريد كذا وكذا وكذا.

كنت في غايةِ السعادة؛ لتلك الثقة التي كان الشهيد يوليني إياها، وكنت أرى أنني من أقربِ المقربين إليه، بهذا التصرّف الذي لم أره يتصرّف مثله إلا مع نفرٍ محدودٍ من تلامذته:

«صفي عدي، رشيد العيسى، أكرم الريس» ولا أعلم أحداً آخر.

وربما كان له خواصّ في المال غيرُ هؤلاء، لكنّ ذاكرتي لم تسعفني بأكثر ممّا ذكرت!

ولم يكن هذا منه معي بعدَ أن صرتُ مدرّساً، في العام الدراسيّ (١٩٧٠- ١٩٧١) وإنما منذ عام (١٩٦٦م) وخصوصاً يوم كنتُ شريكَه في المزرعة القريبة من مزرعة والدي.

واستمرّ تعامله الكريم هذا معي إلى لحظة اعتقالي على باب منْزله في دمشق؛ إذ طلب مني أشياءَ أحضرها معي، ولم يسألني ما إذا كان معي نقود أم لا؛ لأنني كنت أخبرته قبل يومين بما معي من نقود!

لكنها جميعها وللأسف كانت من نصيبِ أجهزة الأمن المجرمة التي قصفت منْزل الشهيد، ثم استولت على محتوياته!

وأتذكّرُ من صور تعامله الماليّ مع الأخ صفي عديّ العديدَ من الصور، أقتصر على واحدة منها:

كان الشيخ يريد أن يعملَ بالتجارة والزراعة معاً، ولم يكن لديه رأس مال، فذكر أمامنا ذلك، ولم يجبه منا أحدٌ بشيءٍ؛ لأننا طلاب صغار، سوى صفيّ، فقد قال له: غداً نعرض قطعة الأرض التي في «معرّين» ومتى بعناها؛ يمكنك شيخنا أبا خالد أن تجعلها رأس المال!

وفعلاً باع قطعة الأرض، وأعطى ثمنها للشهيد ليتاجر به.

ومن صور تعامله معي في عام (١٩٧٠- ١٩٧١م) أنه قال لي: كم مرتبك؟

قلت: أكثر من ثلاثمائة وخمسين ليرة؟

قال: كم تعطي أهلك منها؟

قلت: رفض والدي أخذ شيءٍ، وقال لي: لو أصبحت رئيساً للبلاد، فأرجو ألا أحتاجك في شيءٍ، الوالد غنيّ، وعزيز النفس جدّاً، لكن له عقليته الخاصة في ماله!

لكنني أعطي والدتي وأخواتي ما يقرب من خمسين ليرةً في الشهر، وأنفق ما تبقى!

قال: هل لديك التزاماتٌ خاصة تجاه آخرين؟

فأخبرته بما عليّ من التزاماتٍ تُجاهَ بعض أقاربي الفقراء، وبعض زملائي!

فَسُرّ كثيراً، ورتّب عليّ خمسين ليرةً سوريةً لإحدى فقيرات الحيّ، كما رتّب عليّ مثلها لينفقها هو على نيّتي في وجوه الخير، فوافقتُ على ذلك، مع استثناء ثلاثة أشهر الصيف؛ إذ لا أتقاضى فيها مرتباً، وكنت أتفرغُ فيها للتدريب!

وحين كنت مدرّساً في محافظة «الرقّة» عام (١٩٧١-١٩٧٢) كان مرتبي يزيد على «٤٥٠» ليرةً سورية فرتّب عليّ ترتيباتٍ إضافية.

وفي يومٍ من الأيام جئت من «الرقة» إليه، فسألني عما إذا كان معي فلوس؟

فقلت له: اليومَ قبضت مرتبي، وناولته المفروض عليّ في وجوه الخير عن طريقه.

فقال: نحن اشترينا «بندقيّةً» من فلانٍ، ولم ندفع له سوى (٥٠) ليرةً، وكانت قيمة البندقيّة (٣٥٠) ليرة.

فقلت له: سعر البندقية (٢٧٥) لكن ما دمتَ قد اشتريتها؛ فلا تسأل عن بقية قيمتها أنا أدفعها للأخ فلان، وذهبت إليه، ودفعت إليه خمسين ليرةً أخرى، وقسطت له المبلغ على دفعاتٍ، حتى تمّ السداد!

ومن صور تعامله المالي معي أنني وجدت في الرقة «سمناً» إذا وضعه الإنسان على النار؛ فاحتْ منه رائحةُ العطور المتنوعة، فاشتريت منه «تنكتين» واحدةٌ منهما لأهلي، وواحدةٌ للشهيد مروان.

وبعد مدّة يسيرةٍ، طلب مني «تنكةً» أخرى، وتبسّم ضاحكاً، وقال: لكن هذه بثمنها فقلت له: ثمنها واصلٌ وموجود والله! فلم يفاتحني بعدها بشيءٍ.

وكان يتهكّم ممّن يسافر إلى بلدان الخليج، من أجل جمع المال.

كان لنا أخ فاضلٌ قريبٌ من قلب الشهيد مروان، وكان يفاتحنا بأنه يرغب أن يتزوّج فتيسرت له فرصة عملٍ في «أبو ظبي» وحين أراد السفر؛ جاء ليودّع الشهيد، فقال له: لماذا تسافر إلى «أبو ظبي»؟ فأخبره بهدفه.

فالتفت إليّ، وقال: أعطني مسبحتك، فأعطيته إياها!

فأمسك بها، وقال: «لا إله إلا الله» عِدَّة مرات، ثم صار يقول: «أبو ظبي، أبو ظبي» وظلّ يردّدها، حتى أيقنّا أن الشهيد لا يرضى عن أيّ واحدٍ يطلب من الدنيا سوى كفايته!

سألني مرةً: كم معك من النقود؟ فقلت له: عشر ليرات!

قال: كيف ستكفيك إلى آخر الشهر؟ أنا معي بعض النقود!

قلت: اشتريت أشياء، سآخذها معي إلى محافظة الرقة، فإذا بعتُها؛ فيصبح معي ما يكفي لآخر الشهر وزيادة!

وسمعته مرةً يقول لصفيّ: عدابٌ يعرف كيف ينتزع رزقه، يعمل أعمالاً متعددة ويُعَلّم ويَتَعلّم، وفي كلّ ذلك موفقٌ، ما شاء الله!

كان الشهيد يريد بتعامله هذا؛ أن يتعلّم طلابُه الكرمَ والبذلَ والإنفاق في سبيل الله، وأن يخلعَ من نفوسهم حبّ الدنيا، وجمع المال، ولكنهم كلّهم أصحابُ مالٍ وخيرٍ!

بارك الله في ذرياتهم وأموالهم، وذكّرهم دائماً بأنّ شيخهم الكبير؛ لم يخلف ولداً، ولا بيتاً، ولا سيارةً، لكنه خلّفهم هم، فهم ثروته الوحيدة من الدنيا!

فلينظروا كيف يخلفوه في تلك الثروة المباركة، التي أفنى حياته في تربيتها وتنميتها لتسعد في الدنيا والآخرة؟!

****

الباب الثالث

المنهج الجهادي عند الشهيد مروان حديد

الفصل الأوّل

موجز تاريخ العمل الجهادي للإخوان المسلمين في سوريا

عندما انتسب الشهيد مروان إلى الإخوان المسلمين في أوائل الخمسينات؛ كان أوّلَ ما قرأه مجموعة «رسائل الشهيد حسن البنا» ومن ضمنها «رسالة الجهاد» وقد حدّثنا الشهيد مروان مرّاتٍ عديدةً بضرورة حفظها، وحين كان يستشهد ببعض مضمونها؛ كان يلخّصها لنا تلخيصاً دقيقاً، مما يدلّ على أنه كان يحفظها، لكنني استحييت أن أسأله عن ذلك.

وكان الشهيد مروان يحضّ على قراءة (معالم في الطريق) لسيّد قطب، وظني أنه كان يحفظه، لكنه كان يرجّح فهم الشيخ حسن البنا الفقهيّ دائماً، ويميل إليه.

ولهذا كان الاتجاه العسكريّ عنده منذ بدايات انتسابه إلى الإخوان المسلمين، وليس هو وحده من كان لديه هذا الاتّجاه، بل كان عددٌ من شباب الإخوان المسلمين يتسابقون إلى إنشاء أجهزة عسكرية، كما سيأتي بعد قليل.

ويحسن بنا أن نلقي الضوء على سلفه في المنهج الجهاديّ عند الإخوان؛ ليتوضّح أمامنا أن الشهيدَ مروان؛ ليس مبتدعاً للفكر الجهاديّ في الجماعة، وإنما هو أصيل في الجماعة، نصّ عليه مؤسسها في مصر، ومؤسسها في سوريا.

الشهيد حسن البنا والجهاد:

مما لا يحتاج إلى دليلٍ أن الشيخ حسن البنا كان يوقن بأنّ الحقّ الذي لا تنصره قوة؛ هو حقٌّ ضائعٌ، مضيَّع.

وهو حين رفع شعاره «حقّ- قوة- حريّة» إنما رفعه لتكون القوّة للمنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين؛ بمنْزلة الماء والهواء في حياة الكائن الحيّ!

والشهيد مروان الذي كان معجباً غايةَ الإعجاب بالشهيد البنا؛ كان يتتبع كلّ ما كتبه أو خطب به، في فترة حياته في مصر.

وقد حدثنا غيرَ مرّةٍ بأنّ مجموعة «رسائل الشهيد البنا» ليست سوى جزءٍ يسير مما كتبه البنّا، أو حاضر به، وأنه هو جمع في مصر الكثيرَ من محاضراته ومقالاته المنشورة في «مجلة الإخوان المسلمين» ومجلة «المنار» ومجلة «الشهاب» ومجلة «النذير» وغيرها.

ولذلك كان يكرر كثيراً وكثيراً جدّاً أنّ من لم يضع في منهاجه الدعويّ مشروع الإعداد والتدريب للجهاد؛ فليس هو على منهج الشيخ حسن البنّا.

وبناءً على هذا؛ كان يقول: «نحن الإخوان المسلمون، ومن ليس على منهجنا؛ فليس هو من الإخوان المسلمين، سواء فصلونا، أم شوهوا صورتنا».

وكان ربما قال: أنا لست أدري هل هؤلاء الإخوان المسلمون وصلوا إلى مرتبة القيادة في الجماعة، ولا يعرفون رسائل الشهيد البنّا؟ أليس في مجموع الرسائل رسالة كاملة باسم «رسالة الجهاد»؟

وحين شرع في تكوين خلايا الشباب عام (١٩٧١م) قال لي، وأظنه قال لغيري من عرفاء المجموعات: ليكن أوّل ما تقرؤه للشباب «رسالة الجهاد» بل إذا استطعت أن تحفظها عن ظهر قلبٍ، وتشجّع الشباب على حفظها؛ فإنها على وجازتها؛ قد أشارت إشاراتٍ واضحة إلى أدلة وجوب الجهاد، وبينت كثيراً من أحكامه.

وقد خطر لي أن أسوق رسالة الجهاد للشهيد البنّا بتمامها في هذا الكتاب، لكنّ رسائل الشيخ حسن البنا مشهورة متداولة، لا أظنّ واحداً من الإخوان ليست في مكتبته.

بيد أنني رأيت أن أسرد فهرسَ مباحث هذه الرسالة، لعلّ فيه ذكرى لمنتقدي الشهيد مروان من الإخوان خصوصاً.

(أ) الجهاد فريضة على كلّ مسلمٍ.

(١) سور وآيات القرآن الكريم الواردة في الجهاد.

(٢) آيات من سور البقرة وآل عمران والنساء.

(٣) سورة الأنفال كلها حثّ على القتال.

(٤) سورة التوبة، كلها كذلك حثّ على القتال، وبيان لأحكامه.

(٥) سورة القتال «مُحَمّد» تصور أن سورة بأكملها تسمى سورة القتال في كتاب الله الحكيم.

(٦) سورة الفتح، وهي أيضاً كلها في غزوات الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ.

ثم قال البنا: «هذه يا أخي بعض المواضع التي ورد فيها ذكر الجهاد، وبيان فضله، وحث المؤمنين عليه، وتبشير أهله بالثواب الجزيل، والجزاء الجميل، وكتاب الله مملوء بمثلها فتصفحه وتدبّر ما جاء في هذا الباب؛ ترَ العجبَ العُجاب، وتدهش لغفلة المسلمين عن اغتنام هذا الثواب!»[٣٢]

ونتابع عرض فهرس الرسالة الجهاد:

(ب) نماذج من الأحاديث النبوية في الجهاد، وساق الشهيد البنا (٣١) حديثاً في الجهاد ثم قال: «والأحاديث الكريمة في ذلك وأمثاله، وفي غزو البحر وتفضيله على غزو البرّ بمرات، وفي غزو أهل الكتاب كذلك، وفي تفصيل أحكام القتال؛ أكثر من أن يحيط به مجلّد كبير، وأدلّك على كتابِ «العبرة فيما ورد عن الله ورسوله في الغزو والجهاد والهجرة» وهو خاصٌّ بذلك

(٣٢) رسائل الشهيد حسن البنا (ص: ٥٩٦) طبعة دار البصائر.

البحث! وكتابِ «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام» للنحّاس، وما جاء في كتب الحديث كلها في باب الجهاد؛ ترى الكثيرَ الطيّب»[٣٣].

(ج) حكم الجهاد عند فقهاء الأمة.

ونقل خلاصة أحكام الجهاد عند الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية والزيدية، وختم هذه الفقرة بقوله: «المسلمون الآن كما تعلم؛ مستذلون لغيرهم، محكومون بالكفار، وقد ديست أرضهم، وانتهكت حرماتهم، وتحكّم في شؤونهم خصمهم، وتعطّلت شعائر دينهم في ديارهم، فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم؛ فوجب وجوباً عينيّاً لا مناص منه أن يتجهّز كلّ مسلمٍ، وأن ينطوي على نيّة الجهاد، وإعداد العِدَّة له، حتى تحين الفرصة، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً»[٣٤].

(د) لماذا يقاتل المسلم؟

(هـ) الرحمة في الجهاد الإسلامي.

(و) ما يُلحق بالجهاد «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

(ز) خاتمة الرسالة.

جاءت رسالة الجهاد في (٢٦) صفحةٍ غنيّةً بالفوائد، وافيةً في البيان وإقامة الحجة فحبذا لو عاد قادة الإخوان، الذين يتحدثون عن الديمقراطية، وحقّ المرأة في أن تكون رئيساً للدولةِ، إلى قراءة هذه الرسالة الوجيزة!

وتحت عنوان «القوّة من مقومات دين المسلم»:

قال الشيخ حسن البنا تحت عنوان: (حِكَمُ العِباداتِ): «كل هذه العبادات؛ لاحظَ

---

(٣٣) مجموعة الرسائل (ص: ٥٩٧) فما بعد.

(٣٤) مجموعة الرسائل (ص: ٦١٠).

الإسلام فيها ثلاثةَ معانٍ، لم تتوفر في غير تعاليمه.

أما المعنى الأول؛ فأن تكون سهلة ميسورة، مستطاعة:

ففي الصوم ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[البقرة : ١٨٥].

وهذه قاعِدَّة يطبق عليها أن المسافر لا يصوم، وأن المريض يفطر ..إلخ.

وفي الحج، يفرض وجوبه على من استطاع إليه سبيلاً.

وكذلك الزكاة، يدفعها المسلم بعد أن يستكمل ضروريات حياته، من مأكل ومشرب ومسكن، ونفقات أهله، وفرسه وسلاحه.

ومن هذا يُعلمُ أن الفرس والسلاح من ضروريات حياة المسلم.

والمسلمون الذين لا يعرفون فنّ السلاح؛ مسلمون يجهلون حقيقة الإسلام...

وبذلك نعلم أنّ القوة من مقومات دين المسلم، لحماية رسالة الإسلام، والإسلام لم يترك عذراً لمعتذر» وفي هذا السياق قال:

«فالمسلم الذي يملك اليوم «دبابةً» له بكل صامولة حسنة!»[٣٥].

كان الشهيد مروان يعرف هذا جيّداً، ويعتقده عقيدةً راسخةً، ويستنكر على مَن يركن إلى الدنيا، ويحاول التمتّع بلذّاتها، وهو يرى دينَ الإسلام في خطر، والمسلمون في هوانٍ وضياع.

كان يقول لنا: لقد عاتب الله تعالى أصحابَ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ وأنّبهم في آياتٍ كثيرة من كتابه، حين همّوا أن يرتاحوا من عناء الجهاد ويعودوا إلى إصلاحِ مزارِعهم، ونَعَمِهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ*

(٣٥) من محاضرات الإمام البنا (ص: ٧٤).

إلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٨– ٣٩].

كان يرى على الواحد من المسلمين عامّةً، وعلى الدعاة المسلمين خاصة؛ أن يكون نصيبه من هذه الدنيا، كما جاء في الحديث الشريف: (يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي، وَإِنَّ مَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَأَقْنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ؛ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ)(٣٦).

ويقول: هذا كافٍ! (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)(٣٧) فماذا تريد أن تصنع بالمال بعد ذلك؟

ومرّت عليه مدّةٌ، كان فيها عاتباً على شيخنا مُحَمّد الحامد عتباً شديداً، وكان يقول: خائف على أيّ شيء؟ هل هو سيخلّد، هل هو كذا، هل هو كذا!

فذكرت له أنّني سمعت شيخنا الحامد يقول ما معناه: «حقيقة الزهد في الدنيا أن تأخذ منها ما يُعينك على الطاعة، ويبلغك المَقِيل! كيف يكون هذا؟

يعني حين يستلم الموظف راتبه الجديد؛ يتصدّق بما تبقى عنده من راتبه القديم! لا لا! هذا ليس زُهداً أبداً، هذا هو الغنى، لا ليس هو الزهد، هذه كفاية تامة!»

وبكى الشيخ مُحَمّد رحمه الله تعالى.

وقلت له: إنني رأيت الشيخ مُحَمّداً الحامد مُعتجراً بطرف لفافة عنقه، ويطرق باب بعض الفقراء من أهل حيّنا، فإذا فُتح الباب؛ ألقى صرةً بيدِه، لا أدري ما فيها، ثم انصرف

وأحياناً يطرق الباب، ويلقي الصرة من فوق الجدار، إذا كان قصيراً وينصرف.

---

(٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٩).

(٣٧) من حديث عبدالله بن مِحصَن الخَثْعَميّ رضي الله عنه؛ أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد (٤١٤١) والترمذي في كتاب الزهد أيضاً (٢٣٤٦) وقال: «حديث حسن غريب».

وقد انتبه شيخُنا الحامد مرة أنني رأيته، فدعاني وقال: إياك أن تقول: إنك رأيت مُحَمّداً الحامد يفعل هذا، فأغضب عليك!

فرأيت وجهَ الشهيد مروان يتهلل، ويقول: جزى الله شيخنا الحامد خيراً، فهو ذو فضائل كثيرة، و﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وقلّ انتقادُه له كثيراً بعد ذلك.

وحين توفي شيخنا الحامد، عام (١٩٦٩م) تولى الشهيد مروان شؤون تشييعه ودفنه.

وحين أمطرت السماء حزناً على شيخنا الحامد؛ شاهدتُ دموعَ الشهيد مروان تنهمر على وجنتيه؛ استبشاراً بكرامة الشيخ مُحَمّد الحامد على الله تعالى، مع أن الشهيد مروان كان نادرَ البكاء.

وأرجو ممّن يقرأ كلامي عن أشياخي خالصَ الرجاء أن يثق بأنني أحبّهم وأجلّهم أجمعين

لكنني أنفر من التهويل في منقبياتهم، والإغضاء عن عوارضهم البشريّة، حتى يظنّ قارئ تراجمهم أنهم معصومون، أو محفوظون من أيّ خطأ!

وهذا من شأنه؛ فقدانُ التقويم العلميّ للشخصيات البشرية، وتضخيمُ المناقب إلى درجة الترهّل، مع أنها ربما كانت صفاتٍ عاديّة محمودة!

الدكتور الشيخ مصطفى السباعيّ:

وكان الشهيد مروان يعتزّ كثيراً بالدكتور مصطفى السباعيّ، ويصفه بصفات الشجاعةِ والرجولةِ، والتضحية، والجرأة، إلى جانب العلم والاجتهاد.

وعقب آخر عيادةٍ قام بها للدكتور مصطفى السباعيّ، رحمه الله تعالى؛ في المشفى قبل وفاته بأيّام يسيرة؛ حيث توفي السباعي في (٢٧) جمادى الأولى، عام (١٣٨٤ هـ) الموافق (٣/١٠/١٩٦٤م).

حدثنا الشهيد مروان في مسجده، قال: لقد سمعتُ من الشيخ السباعيّ أمرين أثّرا بي تأثيراً كبيراً:

الأوّل: قرأ علينا الدكتور مصطفى قصيدةً يرثي بها نفسه، ويوصي أهله وجيرانه بأولاده ولفت نظري أنه لم يُثن في القصيدةِ على زوجته أبداً، ولم يوصها بشيء!

وذكر الشهيد بهذا الخصوص كلاماً تحليليّاً يخصّ أسرةَ السباعي، لا أرى حاجةً إلى ذكره...إلى أن قال:

إني أعتب على إخواننا، يتركون بناتِ العلماء الأفاضل، والرجال المحافظين ويتزوّجون من نساء عاديّات؛ لأنهنّ أجمل!

متناسين أنّ صاحبَ الدعوةِ؛ مُعرّض للسجن والتشريد والقتل والانشغال الدائم بالدعوة، وهذا لا تقوى عليه امرأةٌ من بنات الدنيا، بل ولا ترغب فيه أصلا!

والأمر الثاني وهو الأهمّ؛ قول الشيخ السباعي: «لا بدّ لهذه الدعوة من قوّة تحمي الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، وتحمي مكتسباتها».

وذكر أنّ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ كان له حرّاس ومرافقون، لم يكونوا يتركونه وحده؛ خوفاً عليه من خصوم دعوة الإسلام.

كما ذكر الشهيد مروان أنّ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ كان يصحب معه سفيهاً طويل اللسان، فلما سئل عن ذلك؛ قال: إذا جَهِلَ علينا سفيهٌ؛ فإننا لا نستطيعُ أن نقابلَ جهلَه بمثله، فيقوم سفيهنا بردّ جهالته(٣٨).

ثم التفت إليّ الشهيدُ مروان، وقال: هذا كلامٌ دقيقٌ صائب! فلو كان لدينا كتيبة رياضيّة مدرّبة تدريباً عالياً، وخصوصاً على الرشاقة والملاكمة؛ لكنّا رددنا كيدَ خصومنا؛ بتسليط

---

(٣٨) في كشف الخفاء (٢: ١٦٩) نحوه، وعن الشافعي مثل ذلك أيضاً.

هؤلاء الشباب عليهم.

ولو كان لدينا كتيبةٌ مدرَّبةٌ على السلاح؛ لأرهبنا من يريد الوقوف في وجه الدعوة إلى الله، على مبدأ سنّة «التدافع».

وكنت صغيرَ السنّ، فقلت له: وماذا تعني سنّة «التدافع»؟

قال: هي في قول الله تعالى:

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠].

وأَحسَّ الشهيد بأني لم أستطع استخلاصَ سنّة «التدافع» من الآية الكريمة فقال:

إذا اختصم رجلان، وتضاربا بالأيدي، وكان مع كلّ منهما سلاحٌ مكافئ للآخر؛ فكلاهما لا يحاول استخدامَ سلاحه؛ لأنّ محاولة استخدامه؛ ربما كانت سببَ قتله، وانتهاء حياته، قبل أن يَستخدم سلاحه.

فوجود السلاحِ مع هذا؛ يدفع استخدام الآخر سلاحَه ضدّه، والعكس صحيح.

ولم أسمع الشهيد ذكرَ أسرة الدكتور السباعيّ سوى هذه المرّة.

أما الأمر الثاني، وهو ضرورةُ تكوين قوّة تحمي الدعوة؛ فقد ظلّ يردّده حتى بدأ بتكوين تلك القوّة في عام (١٩٦٩م) عندما أرسلنا إلى التدريب في معسكرات فتح، ولو من غير إطلاق اسمٍ معيّن على حركته.

وبدافع الفضول وحبّ الاطّلاع؛ رأيت أن أعرف شيئاً عن شجاعة الشيخ السباعي غير مشاركته في حرب فلسطين، فهذه يعرفها كلّ الناس!

فوقفت على كتابٍ كتبه رجل غير مسلمٍ أصلاً، وهو على صلة وثيقة بدوائر الاستخبارات البريطانية والفرنسية.

الكتاب هو «الحركات الإسلامية في سوريا– من الأربعينات وحتى نهاية عهد الشيشكلي» ومؤلفه هو «يوهانس راينسر».

قرأت الكتاب كلّه، وأعجبت بما فيه من معلوماتٍ كنت أجهل أكثرها، ثم تتبعت المواضع التي خَصّ المؤلف فيها السباعيّ بالذكر، فاستخلصت ما يخصّ جهاد السباعي بما يأتي:

قال يوهانس (ص: ١٤٨): ولد الدكتور مصطفى بن الشيخ حُسني السباعي عام (١٩١٥) في مدينة حمص، وآل السباعي أسرة عريقة في مدينة حمص.

وقد أنهى السباعي دراسته الثانوية عام (١٩٣٢م)

يستبعد يوهانز (ص: ١٢٠) أن يكون السباعي يرأس جمعية الهداية الإسلامية في حمص لصغر سنه، إذ إنه ولد في حمص (١٩١٥) وغادر للدراسة إلى مصر (١٩٣٣) وله (١٨) سنة.

وعندما عاد لفترة قصيرة إلى حمص عام (١٩٤١م) كان منشغلاً بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين.

وفي الفترة ما بين شتاء (١٩٤٥) وصيف (١٩٤٦) تمّ إعادة تنظيم «شباب مُحَمّد» و«الشباب المسلمين» ودمجهم تحت مسمى الإخوان المسلمين، وانتخب مصطفى السباعي مراقباً عاما للإخوان المسلمين في سوريا ولبنان.

وفي ذلك التاريخ عُقد لقاء تدريبيّ للتنظيم شبه العسكري للإخوان المسلمين، أي «الفتوة» في يبرود، في (٢٨) آب.

وحسب تقرير الشرطة اللبنانية؛ فقد حضر إلى يبرود ما يعادل (٣٠٠) شابّ من الإخوان للتدرّب على استعمال الأسلحة، .

وفي عام (١٩٣١) قُبض عليه للمرة الأولى، من قبل قوات الانتداب الفرنسي؛ لتوزيعه منشوراتٍ تهاجم السياسة الفرنسية في المغرب.

وفي عام (١٩٣٢) ألقي القبض عليه مرة أخرى لمهاجمته دولة الانتداب في خطبة الجمعة.

أما في مصر؛ فيبدو أنه كان ساهم بشكل فعال في التظاهرات المضادة للبريطانيين، مما أدى إلى زجّه بالسجن عام (١٩٣٤).

وفي عام (١٩٤٠) قام بتأسيس جمعية سِريّة في القاهرة، من أجل مساندة ثورة رشيد عالي الكيلانيّ في العراق، مما أدى إلى سجنه من قبل البريطانيين لمدة شهرين في مصر ومرة أخرى لمدة أربعة أشهر في معتقل «صرفند» بفلسطين.

وعندما أًطلق سراحه من المعتقل، في أوائل عام (١٩٤١) عاد إلى حمص حيث ابتدأ بإعادة تنظيم «شباب مُحَمّد» حسب التقرير الذي ذكر أعلاه لأحد ضباط الاتصالات البريطانية في حمص.

مما أدى بالفرنسيين للقبض عليه مرة أخرى، وزجّه في السجون والمعتقلات لمدة سنتين ونصف!

قال يوهانس أيضاً (ص: ١٣٢) وقد سجن السباعي من قبل الإفرنسيين، في الأعوام ما بين (١٩٤١– ١٩٤٣م) وفي العام الذي أطلق فيه سراحه؛ قيل: إنه عَقَد مؤتمراً في حمص، اشترك فيه موفدون من لبنان، تقرّر فيه إنشاء منظمة شبه عسكرية، مشابهة للكشافة، هي «الفتوّة».

فبعد توقيفه في حمص وبيروت؛ نقل إلى معتقل «المية ومية» ثم إلى قلعة «راشيّا» في لبنان، إلى أن أطلق سراحه في منتصف عام (١٩٤٣م).

وقد قيل: إنه كان يقوم بالأشغال الشاقة أثناء سجنه، وبأنه عُذّب.

وقد أدى ذلك إلى إصابته بمرض شديد مزمن، لم يُعرف عن طبيعته شيء.

وكثيراً ما تردد أن حالته الصحية متدهورة، وأنّ مشاركته في الاحتفالات أو المهرجانات؛ كانت مخالفةً لنصائح الأطباء، وكان حسن البنا من الذين أبدوا اهتماما بصحته.

وفي تشرين الأول عام (١٩٥٠) عولج لفترة طويلة في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت.

أقول: استمر مرضُ الشيخ السباعي الذي لا يَعرفُ عن طبيعته شيئاً أحدٌ من البشر سوى قوّات الاحتلال الفرنسيّ الغاشمة المجرمة!

وبقي يلازمه إلى أن فارق الحياة رحمه الله تعالى، وشكر له جهوده، وجمعنا به في ظلّ عرش الله يوم القيامة، وعلى حوض الحبيب مُحَمّد صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في أول منازل الجنة.

السباعي والقضية الفلسطينية:

قال يوهانس (ص: ٢٥١): إن قرار تقسيم فلسطين من قبل الأمم المتحدة، وما تبع ذلك من تأسيس دولة إسرائيل، إضافةً إلى هزيمة العرب في الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام (١٩٤٨م) كانت له أبعادٌ دائمة، ليس فقط لدى الإخوان المسلمين، بل لدى العرب أجمعين.

ولا تكمن المشكلة في فقدان مناطق من الأرض، تعتبر بحقّ من وجهة النظر العربية خاصة بهم!

بل الأهم من ذلك؛ هو أن فقدان فلسطين يعني أيضاً فقداناً للكرامة، وهو هِزّة نفسية عنيفة.. يظهر ذلك واضحاً من خلال معالجة الإخوان لتلك المسألة...

ولقد تحولت المسألة الفلسطينية منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، في مجال السياسة الواقعية إلى صدمة، وكونت المحور الأساسي لمشاكل المنطقة، وأهم مشاكل السياسة العالمية.

كما أن الكثير من وجهات نظر العرب في أيامنا هذه؛ كان الإخوان المسلمون قد نوهوا بها في العامين (٤٧ – ١٩٤٨م) سواء بالتلميح أم بالتصريح.

أما مصطفى السباعي؛ فقد وجد أنه لا بديل عن الإجابة إلا بالسلاح، ومن ناحية السياسة الفعلية؛ فإن مصطفى السباعي كان يعني من ذلك:

(أ) إدخال التجنيد الإجباري، وتسليح الجيوش.

(ب) إعادة النظر في العلاقات الاقتصادية مع الدول المضطهدة، أي الدول العظمى.

أما أهم واجبات الشعب؛ فهي الاستعداد للقتال؛ فإن لغة القوة؛ هي لغة السلاح وهي اللغة التي يتكلمها ستالين وترومان وأتلي!

نظم الإخوان المسلمون احتفالا شعبياً في (١٢) أيلول في المسجد الأموي، أقسم فيه الحاضرون على «الميثاق الوطني الكبير».

إنّ ذلك الاتفاق الذي تكرر ذكره مراراً فيما بعد، وسمي «الميثاق الوطني» يعدّد المطالب السياسية للإخوان المسلمين فيما يتعلق بالسياسة الفلسطينية:

المطالبة بإقامة دولة عربية مستقلة في فلسطين، ومحاربة الخطة التي تدعو إلى التقسيم، أو الإخلال بالحكم العربي في فلسطين.

إن جميع اليهود الصهاينة الذين هاجروا بعد الحرب العالمية الثانية، بناء على تصريح بلفور؛ هم غرباء عن فلسطين، ومطالبون بالعودة إلى بلادهم، وعليهم إعادة أراضيهم وممتلكاتهم إلى العرب.

يعلن الميثاق عن فقدان ثقة العرب بعدالة الدول الغربية، وبأن على العرب الاعتماد على أنفسهم في سبيل تحرير دولة فلسطين.

التعهّد بمحاربة كل دولة تساند العدوّ الصهيونيّ، بغضّ النظر عن الطرق التي تتم بها المساندة.

البدء بتكوين «جيش التحرير العربي» لإنقاذ فلسطين، وإن ذلك الجيش الشعبيّ؛ يتمّ تكوينه من الشباب السوري، وذلك لمساندة الجيوش الشعبية الأخرى في كفاحها لتحرير فلسطين.

محاربة مشروع سوريا الكبرى الإمبريالي، والمحافظة على نظام الدولة الجمهوري في سوريا.

إنّ هذا الميثاق يعبر بمثابة «ميثاق وطنيّ» عام، يجب على الحكام التمسكُ به، والتصرف بمقتضاه.

يتابع «يوهانس» كلامه (ص: ٢٥٤) فيقول:

«في أواخر أيلول (١٩٤٧م) قررت الهيئة العليا للإخوان المسلمين في مصر إعلانَ الجهاد من أجل قضية فلسطين، وكلّف لأجل ذلك جميع دعاةُ وخطباء الإخوان دعوةَ المسلمين في خطبة الجمعة، بتاريخ (٣) تشرين الأول، لأداء البيعة من أجل نصرة فلسطين، والاستعداد للجهاد، وحتى بذل الروح من أجل ذلك».

وقال (ص: ٢٥٦): «وفي «قطنا» بالقرب من دمشق؛ فقد أقيم معسكر لتدريب المتطوعين».

وفي (٢٩) تشرين الثاني؛ صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية تتجاوز ثلثي الأصوات، أي: (٢٣) مؤيد، في مقابل (١٣) رافض لقرار التقسيم...

بعد هذا القرار صدر عن الإخوان المسلمين تصريح رسميّ، بتاريخ (٢) كانون الأول (١٩٤٧) بيّن موقفهم المبدئيّ في قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، كان أبرز ما فيه: «أيها الشعب الكريم: لقد وقعت الكارثة، إذ أقرت الأمم المتحدة خطة تقسيم فلسطين.

إنّ التقسيم قد أصبح حقيقة واقعةً بالنسبة للدول الحاكمة، وقريباً سيسارعون بتنفيذ قرار التقسيم وإنهائه، إذا لم يقف العرب وقفة واحدةً ليقولوا: كلا!

إن الحكومات والشعوب العربية، تساندها الشعوب المسلمة في الشرق والغرب؛ صرحوا منذ زمن طويل بأنهم لن يوافقوا على قرار التقسيم، وبأنهم لن يسمحوا بتنفيذه وبأنهم سيسعون بكل ما يمتلكونه لجعل قرار التنفيذ الذي يُخلّ بتفكير كل من خطط له وسعى لإقرار تنفيذه؛ باطلَ المفعول.

لقد تجلّد أجدادنا مئتي عام حينما تعرضوا إلى غزوٍ غادرٍ مشابهٍ أثناء الحروب الصليبية الأولى، ثم كُتب لهم النصر، وهكذا فإن الأمة تُعاهد على حربٍ طويلةٍ مضنية، ولا هوادة فيها، إلا أن النتيجة تكمن بها، والنصر سيكون حليفها بإذن الله».

وقد طوّل «يوهانس» في الكلام على القضية الفلسطينية بفصل ماتع (ص: ٢٥١-٢٨٧) يحسن قراءته بتمامه، فهو بمثابة وثائق محققة عن قضية فلسطين المركزية في فكر الإخوان المسلمين.

كان أمام الشهيد مروان إذاً عملاقان مؤسسان من عمالقة دعوة الإخوان المسلمين.

فالشيخ حسن البنا في مصر، وقد تلقى فكره وعلومه من كتبه ومقالاته التي جمعها، ومن لقائه بمن استطاع من تلامذتِه، وتلامذتهم في مصر.

والشيخ مصطفى السباعيّ المؤسس الحقيقي، والعلم الأكبر في دعوة الإخوان المسلمين في سوريا.

وجهاد الاثنين؛ واضحٌ وضوحَ الشمس، فمن أين عشش الخوف والرعبُ في نفوس الإخوان، وكيف حادوا عن منهج الشيخ البنا ومنهج الشيخ السباعيّ؟

من المعروف أنّ الشيخ السباعي رحمه الله تعالى تنازل عن منصب المراقب العام للأستاذ عصام العطار الدمشقيّ، عام (١٩٥٧م) لأسباب عديدةٍ، منها تدهور حالته الصحية بسبب ما تعرض له في السجون كما تقدم.

والشخصية الدمشقية في غالب صفاتها؛ هي شخصية مسالمةٌ، لطيفة، تكره العنف وتألفُ الدعَة.

وقد أحاط الأستاذ عصام نفسه بثُلّة من الدمشقيين المنعَمين، وشأن هؤلاء؛ هو البرلمان والديمقراطية، وليس شأنهم الجهاد والقتل والقتال!

أرسل معي الشهيد مروان عام (١٩٧٠م) رسالةً إلى واحدٍ من قيادات الإخوان في دمشق، وأعطاني رقم هاتفه، فلما وصلت دمشق؛ اتّصلت به، فاعتذر عن لقائي في ذلك اليوم؛ لأنه مشغولٌ جدّاً، كما قال، وحدد لي اللقاء بعد (٤٨) ساعةً تقريباً!

فلما جئت إليه في بيته؛ كان الرجل كريماً جداً، وأنيقاً جداً، ولطيفاً جداً، كما كان رقيقاً جداً، وأشار إليّ بالجلوس، فجلست على «كنبة» وثيرةٍ، هوت بي إلى أسفل من شدة نعومتها وطراوتها!

وفي أثناء الحديثِ أخبرني أنه أمضى اليومين الماضيين في مضايا والزبداني، إذ كان في نزهة مع زوجته وطفلته الصغيرة!

سلّمته الرسالة، فبدأ يتمعّر لونه، ويتغيّر، ويقول: ما علاقة مروان هذا بالجماعة، وما شأنه فيما حصل من خلاف؟ ما هذه اللغة الإملائية علينا، نحن الذين نقرر ما هو بمصلحة الجماعة، وليس مروان!

قلت له: أنت تريد مناقشتي في مضمون الرسالة، وأنا لا أعرف شيئاً أكثرَ من أنني حاملٌ لها، وأنتظر الجواب، ولا أرى من مصلحة الجماعة أن تكشف لي شيئاً مما فيها!

ثم قلت له: فهمتُ منك الآن أنّ الرسالة تتحدث عن أنّ الجماعة منقسمة، وأن الشهيد مروان يتدخل في هذا الأمر؟

قال: نعم، وهذه قضية حلها عند القيادة، وليس عند مروان، وغير مروان.

قلت له: حين تكون الجماعة منقسمةً على نفسها، أترى هذا أمراً مهمّاً؟

قال: طبعاً هو أمرٌ مهمّ ومزعجٌ، لكن ليس كلّ أحدٍ يحقّ له التدخّل فيه!

قلت له: هل الجماعة ملكٌ للقيادة فقط؟ وهل نحن في جماعة الإخوان عندنا كهنوت البابوات، لا يُحلّ ولا يُحرّم إلا هم؟

أليس من كان أكثرَ اهتماماً بشؤون الجماعة؛ هو الأولى بالحديث عن أمراضها؟

الشهيد مروان حديد، يقوم الليلَ يضرع إلى الله تعالى أن يوحد صفّ الجماعة، ويسافر إلى دير الزور، وحلب، وإدلب، ويعمل ليلَ نهار في سبيل رتق هذا الفتق، بل الخرق، وأنت من قيادة الجماعة، كنت في نزهة لمدة يومين مع زوجتك في «مضايا» و«الزبداني» وأنا عنصر من عناصر القاعِدَة الذين لا يُشرّفهم أن يعملوا تحت إمرة أمثالك من المترفين المنعمين إلى حدّ البطر والترف!

مثلك يا عمي لا يصلح لنا، ولا نصلح له، ولو كنت مكان الشهيد مروان؛ لأحدثت انقلاباً على قيادةٍ إقطاعية من أمثالكم! ايذن لي لو سمحت، فقد سمعت منك جوابك وسأنقله لشيخنا مروان بكلّ أمانة.

حين رجعت إلى بيتي؛ وجدت الأخ ياسر فخري ينتظرني عند أحد الإخوة المقيمين معي في المنْزل، فأخبرني أن الشهيد مروان ينتظرني في منْزل «صفي عدي» رحمهما الله تعالى في دمشق!

فذهبت إليه، وقصصت عليه ما جرى، فضحك ضحكة ألم وحزنٍ، وقال: سامح الله الأستاذ عصام، هذا كله يقع على رقبته وفي ذمته، فهؤلاء لا يهمهم من الجماعة إلا أنها مصدر زعامةٍ، ووجاهة لهم!

كما كان كثيرٌ من قيادات الإخوان في بقية المدن السورية، على هذه الشاكلة!

لا أدلّ على ذلك، من اتّخاذ تلك القيادة المترفة قراراً بحلّ الجماعة في عام الوحدة (١٩٥٨م) ولهثَتْ وراء انتخابات الاتحاد القومي العلمانيّ!

ولهذا كان مروان يرى أن تلك القيادات كلها في الموضع الخطأ، ولا يجوز لمثل هذه القيادات أن تتولى أمور جماعة الإخوان!

بقي أن أشير إلى أنّ مشايخنا في الدعوة يذكرون أنّ شيخنا مُحَمّد الحامد؛ من مؤسسي دعوة الإخوان في حماة خصوصاً، وفي سوريا عموماً، والذي أحفظه جيّداً عن غير واحدٍ من أولاده أنه كان ينهاهم بإصرارٍ عن الانتساب لجماعة الإخوان المسلمين.

كما سمعته أكثرَ من مرةٍ في الدرس العامّ وفي منزله، يقول: لا ينبغي للعالم أن يكون حزبيّاً، الصحيح هو أن يكون العالم لجميع المسلمين.

وإن الناظر في «فهرس» كتاب «يوهانس» يجد أنه ذكر اسم السباعي فيه (٧٥) مرّةً وهذا يعني كثرَةَ جهوده المشار إليها، لكنه لم يذكر اسم الشيخ مُحَمّد الحامد، ولا مرةً واحدةً في كتابه، ممّا يدلّ على أنّه لم يكن للشيخ الحامد أثرٌ ظاهرٌ في نشأة دعوة الإخوان وتطورها؛ وكان أثره مقتصراً على تربية شباب الدعوة في حماة، فحسب!

تلك التربيةَ الصوفيةَ الجبريّةَ التي كانت تؤمن بأن خَلاصَ الأمة من الظلم، على الحقيقة؛ لا يكون إلا بظهور المهديّ المنتظر! «يا مروان! ليس لها من دون الله كاشفة، يا مروان! العين لا تقاوم مخرز، يا مروان ما لها غير سيدنا المهدي!».

وليس شيخُنا الحامد وحده من يعتقد بهذا، ويربي الشباب عليه، إنما هي سيرة مشايخنا الصوفيين جميعاً، وللأسف!

ولهذا، فقد كان الشيخ مُحَمّد الحامد في خلافٍ دائمٍ مع الشهيد مروان، تجاه مسألة فكره الجهاديّ، ولم يؤيده ولو مرّةً واحدةً في موقفٍ من المواقف التي تتطلبّ جرأةً وشجاعة، كما كان الشهيد مروان يكرّر دائماً!

حدثني شيخي الدكتور غسان حمدون على الهاتف من صنعاءَ، حديثاً طويلاً، فكان من جملة ما قال: «كنت واقفاً مع الشهيد مروان أمامَ شارع بيتنا، فشاهدتنا والدتي من المنْزل، فلبسَتْ ثيابها، وذهبت إلى الشيخ مُحَمّد الحامد، وأخبرته بما رأت، وقالت له: نخشى يا شيخنا من ثورة جديدة، يخطط لها الشيخ مروان؟!

قال الدكتور غسان: «فأرسل إليّ الشيخُ مُحَمّد الحامد، وقال لي: طاعتي عليكَ فرضٌ لا تذهب إلى الشيخ مروان بعدُ».

وقال الدكتور غسان أيضاً: علاقتي بعد عام (١٩٦٤م) كانت بالشيخ مروان عاديّة جدّاً!

وقال أيضاً: إن الشيخَ مُحَمّداً يأخذ على الشهيد مروان شيئاً، اسمه الاستعجال!

قلت له: إن الشهيد مروان يتّهم الشيخ الحامد بأنه غيرُ شجاع؟

فقال: لو كان الشيخ مُحَمّد غير شجاعٍ؛ لما ربّى شجعاناً!».

قال عداب: الشيخ مُحَمّد الحامد شيخي، وقد صحبتُه منذ عرفت دعوة الإخوان المسلمين، وإلى أن حضرتُ دفنه، وكنت فيمن وظّفهم الشهيد مروان لحماية جنازة الشيخ من احتمال كيدِ غيرِ الإسلاميين!

وفضلُه علينا كبير كبير، وقد تعلمنا من ورعه، وخصوصاً الورعَ الماليَّ الطيب الكثير!

وأنا شخصيّاً تعلّمت منه الدقّةَ العلميةَ في البحثِ، ومحاولةَ الاستقصاء في الاستدلال والتوثيق، وهو أهلٌ لكلّ خير وفضل!

بيد أنّ من الأخطاء الشائعة عند المسلمين؛ ضرورةَ إضفاء جميع الصفات الحسنة على الشيوخ، وتنْزيههم عن جميع الصفات السلبية البشرية!

وأُذكّر هنا بشهادة الأخ الفاضل الشيخ طارق عدي حين قال: كان مروان هو مِحوَر شباب الدعوة، حين قرّر قادةُ الإخوان «حلّ» الجماعة، فكان أبرز شخصية ما بين عام (١٩٥٨م) وعام (١٩٦٤م).

وكان شيخي الدكتور غسان حمدون من جملة تلامذته، وبالتأكيد تعلّم الشجاعة على يدي الشهيد مروان، وليس على يدي غيره، مع تقديرنا العظيم لسائر علمائنا الكرام!

وفي شهادات الإخوة الكرام في الملحق؛ ما يؤكّد قولَ الشهيد مروان: لو وقف الشيخ مُحَمّد الحامد معنا؛ لتغيرت أوضاع سوريا، ويحزنني أنه لم يقف معي ولو موقفاً واحداً! [٣٩].

الفصل الثاني

تاريخ الاتّجاه العسكريّ عند الشهيد مروان

جهاد الشهيد مروان قبل سفره إلى من مصر (١٩٥٦م):

كان هناك عددٌ من شباب الإخوان يتبنون الفكر الجهادي، وكان يتزعّم هذا الاتّجاه الشهيدُ مروانُ حديد، والأخ الدكتور مُحَمّد المصريّ [كان يعيش في ألمانيا] وكانت إدارة الإخوان في حماة؛ لا ترغب بهذا الاتّجاه العسكريّ.

وفي عام (١٩٥٤م) أُقيمت حفلة غنائية للمطربة المعروفة «صباح» على قاعة سينما دنيا في حماة، وكان موقعها في مدخل حيّ الطوافرة [آل طيفور] من جهة ساحة العاصي.

---

(٣٩) انظر شهادات: الشيخ وهبي الغاوجي، والشيخ طارق عدي، والدكتور أكرم الريّس، وغيرها!

وبعد أن صعِدت المغنية صباح إلى منصة السينما، وفي أثناء الاحتفال؛ قام الإخوة: مُحَمّد المصري، ومُحَمّد الأسود، وحسن عصفور، وحسني عبدالرزاق عدي، وطاهر حداد وهاني الشقفي» بالهجوم على السينما، وألقى أحدهم قنبلة.

وعلى الرغم من عدم حدوث أضرار، إلا أن صوت الانفجار، والفوضى التي صاحبت ذلك؛ عطّل الاحتفال، وانسحبت المغنية صباح قائلةً: «وداعاً يا أهل مكة» ولم تزر حماةَ بعد ذلك اليوم، ولم تُقم أيَّ حفل غنائي بعدها في حماة مطلقاً، لا هي ولا غيرها، حتى جاء عهد المقبور حافظ الأسد، فجرت عِدَّة محاولات لبعض المغنين والمغنيات بحراسة الدولة[٤٠].

وفي مرحلة حياته في مصر (١٩٥٦- ١٩٦٤م) التقى الشهيد بعدد غير قليلٍ من تلامذة الشيخ البنا، ومنهم أعضاء في التنظيم العسكريّ الخاصّ.

وكان ينزل في الصيف إلى سوريا في معظم الأحيان، لا لزيارة أهله فقط، وإنما ليتواصل مع زملائه وتلامذته، ويتدارس معهم شؤون الدعوة إلى الله هناك.

لكنّ معاصريه في مصر؛ لم ينقلوا إلينا أنه كان يدرّبهم على السلاح، أو أنه كان يكوّن خلايا مسلّحة، بيد أنهم نقلوا إلينا أنهم كان يشارك إخوانه المصريين سرّاءهم وضراءهم وكان قد كوّن خلايا إخوانية مؤمنة، عرفت فيما بعد باسم «جماعة مروان حديد».

وفي عهد الوحدة (١٩٥٨م) أصدر عبدالناصر مرسوماً بحلّ جميع الأحزاب والجمعيات والجماعات، ومنها جماعة الإخوان المسلمين.

واستجابت قيادة الإخوان المسلمين في سوريا لهذا القرار، وأعلنت حلّ تنظيمها؛ بحجة أنّ الوحدة حُلم، وعسى أن تتمدّد الوحدةُ، فتشمل أقطاراً عربية أخرى، فيكون هذا من مصلحة الإسلام، وتقديم المصلحة الشرعية العامّة على المصلحة الخاصة؛ واجب شرعيّ!

---

(٤٠) كتاب حماة في قرن ونيّف من تاريخها، للسيد أمير سليم زكية (ص: ٦١١).

بيد أنّ الشهيد مروان رفض هذا القرار، ورأى أنّه جبن وسذاجةٌ من قيادة الجماعة؛ إذ كيف يصدّقون كلامَ عبدالناصر، وهو الذي غدر بإخوانهم في مصر، وأذاقهم البلاء الشديد.

ويؤرّخ الشيخ نافع العلواني هذا الحدث بقلمه فيقول: «طُلب من شباب الإخوان أن يعتبروا كلَّ رابطة بينهم وبين القيادة قد قُطعت..وكان ذلك في بيت أحدهم.

فالتفت إليّ الشهيد مروان رحمه الله تعالى وقال: «هكذا يفهم جماعتُك الإسلام؟ ثوبٌ يخلعه الإنسان متى شاء، ويلبسه متى شاء».

قال الشيخ نافع: وتخلو الساحة في حينها من العمل الإسلاميّ، إلا منه رحمه الله تعالى.

فجدّ في عمل دؤوبٍ، وحافظ على القاعِدَة الصلبة من الشباب، الذين أراهم، أو أرى بقاياهم الآن مستمسكين بهذا الدين، لا يفرطون به، ولا بشبابه؛ حافظ على القاعِدَة الصلبة التي أعادت لسوريا وجهها الإسلاميّ»[٤١].

حدثني الشهيد مروان رحمه الله في إحدى ليالي الشتاء الباردة عن سذاجة قيادة الإخوان المسلمين الفكرية والسياسية في سورية فقال: لقد أصدر عبدالناصر قانون حلّ الأحزاب السياسية.

وقرر الإخوان المسلمون حلّ جماعتهم، فأعلنوا حلّها، وفعلاً لم يبق من جماعة الإخوان إلا روابط فردية ودية تجمع بين أفرادها.

وعلى مستوى «حماة» ذهبتُ، وقابلتُ قادةَ مركز حماة، فوجدتهم متخاذلين فتجاذبت معهم أطراف الحديث، وعنّفتهم لكن دون جدوى، ولما كنت أعلم أن حلّ جماعة الإخوان المسلمين؛ معناه تلاشي العمل الإسلامي في البلد؛ اجتمعت مع بعض الأخوة وقررنا استئناف نشاط الجماعة منفردين، ما دامت القيادة قد حلّت نفسها.

---

(٤١) من ترجمته للشيخ مروان في صدر ديوان شعره (ص: ١٢).

راحت قيادةُ الإخوان تَجري وراء الاشتراك في انتخابات الاتحاد القومي، وكنا ننهاهم عن المشاركةِ، وموالاة الظالمين.

وفي هذه الأثناء كان الشباب المتحمسون؛ وافقوني على فكرة الاستمرار في العمل الحركي سراً، بأن يجمعوا الشبابَ، ويربوهم التربية الإخوانية المعروفة، وكانت تتم بيننا المراسلات، يستشير بها بعضُنا بعضاً فيما يجب فعله، واستمر الحال هكذا حتى أُعلن الانفصال!

عندها رأت الجماعة نفسها ضائعةً، لولا هؤلاء الشباب الذين كانوا يعملون سراً، ولو أن الجماعة عملت سراً؛ لكان الإخوان أقوى قوة في عهد الانفصال.

وعادت الجماعة إلى الظهور، وراحت تشغل نفسها بالانتخابات، ووقعت بأخطاء كثيرةٍ، كنت أعترض عليهم لأجلها، ولكن ليس هناك من يسمع؛ لأن قادتنا تفكيرهم كله متجه نحو الديمقراطية والبرلمان، ولم يكن عند أحد منهم قناعة أن دولة الإسلام يمكن أن تقوم إلا عن طريق البرلمان».

وكان مما أذكره أنّ أكثر القواعد؛ لم تستجب لقرار القيادة بحلّ جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، ووافقه على قراره هذا الشيخ نافع علواني، والدكتور مُحَمّد المصري.

وكان من جملة تلامذته الأفاضل في هذه المرحلة: شيوخي الدكتور غسان حمدون الواعي، والشهيد حسن عصفور، والشهيد عبدالله المصريّ، وغيرهم.

وكان عاتباً على الأستاذ عدنان سعدالدين؛ لحرصه الشديد على ترشيح الإخوان المسلمين إياه في انتخابات «الاتّحاد القوميّ».

وحين سألته قائلاً: «من هذا عدنان سعدالدين؟» ولم أكن سمعتُ به من قبل؟

غَضب الشهيدُ مروان غضباً شديداً؛ ظنّاً منه أنني أستهين به، وأقلّل من شأنه، وقال:

«مَن عدنان سعدالدين؟ إذا كان في الإخوان المسلمين خمسةٌ من السياسيين؛ فواحدٌ منهم عدنان سعدالدين! إذا كان في الإخوان ثلاثةٌ من السياسيين؛ فواحدٌ منهم عدنان سعدالدين! إذا كان في الإخوان اثنان من السياسيين؛ فأحدهما عدنان سعدالدين!

لا يجوز يا أخي التقليل من شأن أحدٍ من إخوانك، حتى لو اختلفنا معه، أو انتقَدْنا موقفاً خطأً له».

فأوضحت له أنّ سؤالي استفهاميّ، وليس تحقيريّاً، فأنا لم أسمع إلا تلك اللحظة بهذا الإسم، فعذرني الشهيد، واستغرب من عدم سماعي بعدنان سعدالدين، وهو من الجيل الثاني من رجالِ الإخوان المسلمين في سوريا، على حدّ قوله.

وفي أثناء الوحدة بين مصر وسوريا؛ زار جمال عبدالناصر سوريا، ومن البلدان التي زارها؛ حماة، وفيها التقى عدداً من العلماء والوجهاء.

حدثني الدكتور أكرم الريّس قال: حدثني خالي مروان أنّ الشيخ مُحَمّد الحامد التقى جمال عبدالناصر حين زار حماة مع وفدٍ من علمائها ووجهائها، فقدّم الشيخ الحامد له نصائح، فتقبّلها عبدالناصر، وتبسّم لكلام الشيخ الحامد، وقال له: أنتم تُصدرون الأوامر ونحن ننفذ.

قال الشهيد مروان: وكان الشيخ مُحَمّد عاطفيّاً جدّاً، فأثنى على عبدالناصر كثيراً، ثمّ قنت، ودعا له في القنوت!

ثمّ تراجع الشيخ مُحَمّد الحامد بعد ذلك، وخاطب عبدالناصر على المنبر قائلاً: أنت أضللتَ الناسَ، ومزقتَ وحدتهم، وقتلتَ العلماء...إلخ!» انظر شهادة د. أكرم.

وقد حدثني الشهيد عن هذا الموقف مطوّلاً أكثرَ من مرة، وأنه غضب من كلام الشيخ مُحَمّد غضباً شديداً، وارتفع صوته أمام شيخه الحامد، وقال له: هذا حرام يا شيخنا، هذا رجل مجرمٌ غادر، أنسيت ما فعل بإخواننا في مصر؟

قال عداب: وهذه الحادثة؛ إحدى الشواهد التي يستدلُّ بها الشهيد مروان على عاطفيةِ الشيخ الحامد، وسهولةِ خداعه!

استغرب الإخوة المراجعون أن أكتب هذا الكلام عن شيخنا الحامد، رحمه الله تعالى وطالبوني بحذفه، ولعمري لقد استغربت من شيخي مروان هذا الكلام يومها جداً، لكنني بعد متابعتي مثلَ هذه المسائل في تاريخنا الإسلاميّ؛ وجدت أكثرَ علمائنا يرقّعون مواقفهم من السلطة الغاشمة ترقيعاً، وأكثرهم ضعفاء أمامَ الحاكم، تارةً بدعوى المصلحة الشرعية، وتارةً أخرى بدعوى (لا! ما أقاموا فيكم الصلاة)[٤٢].

وأرجو من القارئ الكريم أن ينظر في كلام الذهبيّ الآتي:

ترجم الذهبيّ في كتابه أعلام النبلاء السلطان قُطُز، فقال:

«المظَفَّرُ، قُطُزُ بنُ عبداللهِ المعِزِّيُّ، السُّلْطَانُ الشَّهِيْدُ، الملِكُ المظَفَّرُ، سَيْف الدِّيْنِ قُطُزُ ابنُ عبداللهِ المعِزِّيُّ.

كَانَ أَنبل مَمَالِيْك المعِزّ، ثُمَّ صَارَ نَائِب السّلطنَة لولده المنْصُوْر، وَكَانَ فَارِساً شُجَاعاً سَائِساً، دَيِّناً، مُحَبَّباً إِلَى الرَّعِيَّةِ، هزم التَّتَار، وَطهَّر الشَّام مِنْهُم يَوْم «عَينِ جَالُوت» وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَتَلَ الفَارِس «أَقطَاي» فَقُتل بِهِ، وَيَسْلَمُ لَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ جِهَادُهُ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أُخْتِ خُوَارِزْم شَاه جَلاَلِ الدِّيْنِ، وَإِنَّهُ حُرٌّ، وَاسْمُهُ مَحْمُوْد بن مَمْدُوْدٍ.

وَيُذكر عَنْهُ أَنَّهُ يَوْم عين جَالُوت لَمَّا أَن رَأَى انكشَافاً فِي المسْلِمِيْنَ، رَمَى عَن رَأْسه الخُوذَةَ، وَحَمَلَ، وَنَزَلَ النَّصْر.

---

(٤٢) من حديث عوف بن مالكٍ الأشجعيّ رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٥).

وَثَبَ عَلَيْهِ بَعْض الأُمَرَاءِ وَهُوَ رَاجع إِلَى مِصْرَ، بَيْنَ الغُرَابِي وَالصَّالِحِيَّة، فَقُتل فِي سَادِسَ عَشَرَ ذِي القَعِدَّة، سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ وَستٍّ مائَةٍ، وَلَمْ يَكملْ سَنَةً فِي السّلطنَة رَحِمَهُ اللهُ(٤٣).

وترجم قاتلَه الملكَ الظاهر بيبرس التركي القفجاقي، فقال: «كان في طليعة الجيش في مصافّ «عين جالوت، ثم وثبَ الأمراءِ الذين واطؤوه على قتل الملك المظفّر قُطز، وملّكوا الظاهر، في سنة (٦٥٨ هـ) وكان عظيمَ الهيئة، كثيرَ الغزو، خليقاً بالملك، والله يعفو عنه»(٤٤).

قال عداب: على كلام الذهبيّ مؤاخذات، منها قوله: « وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَتَلَ الفَارِس «أَقطَاي» فَقُتل بِهِ، وَيَسْلَمُ لَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ جِهَادُهُ».

السلطان قطز قتل الفارسَ «أقطاي» بأمر الملك؛ لأنّ أقطاي تنمّر!

فإن كان قتله بحقّ؛ فلا يجوز أن يقول الذهبيّ: قتل أقطاي، فقُتل به!

وإن كان قتله بباطل طاعةً لملكه من غير حقّ؛ فهو قاتلٌ، ويجب إقامةُ الحدّ الشرعيّ عليه، لا أن يُقتل غيلةً عقب انتصاره على التتار في موقعة «عين جالوت».

فقتل الظاهر بيبرس له، ليس لإقامة الحدّ عليه، وإنما طمعاً في الملك من بعده!

المهم أنّ «أقطاي» كان ظالماً غشوماً، كما قال الذهبيّ، و«قطز» قاتلٌ، و«بيبرس» قاتل.

أمّا الظالم، فلم يترحّم عليه، وأما الثاني: رحمه الله، والثالث: يعفو الله عنه؟

إنّ هذا كلّه أثر من الجبرية العقدية في الوصول إلى الملك، وأنّ القاتل من أجل الملك ممكن أن يعفو الله عنه!

كيف لا! وإمام الملوك معاوية الصحابيّ الجليل خالُ المؤمنين، قتل عشراتِ الألوف من المسلمين تحت دعوى «قميص عثمانﷺ» الهزيلة؛ ليتولى الملك!

---

(٤٣) أعلام النبلاء (٢٣: ٢٠١).

(٤٤) ذيل أعلام النبلاء (٢٤: ٣٠٥).

فقد أورد الذهبي من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن سويد الكلبيّ قال: صلى بنا معاوية في النُخيلةِ الجُمعةَ في الضحى، ثم خطب، وقال: «ما قاتلناكم لتصوموا، ولا لتصلوا، ولا لتحجوا، أو تزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلناكم؛ لأتأمّر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك، وأنتم كارهون!»[٤٥].

فمعاوية قتل المسلمين؛ ليصبح ملكاً عليهم، ثم يلقي الحمل على الله، فهو الذي أعطاه الملك كرهاً عن أصحاب رسول الله الصالحين!

أترى الجبرية الموغلة، أترى التطاول على الله في الاعتذار؟

أليس جميعُ أهل السنة يقولون: رضي الله عنه، ويجزم الوهّابية منهم والناصبة بأنه حطّ رحاله في الجنة؟

هذا هو الترقيع الذي أشرت إليه، وهذا هو عدمُ وضوح مفهوم الولاء والبراء الذي فهمته من كلام الشهيد مروان، وهذا يشترك فيه أكثرُ علماء أهل السنة!

جهاد الشهيد مروان بعد عودته من مصر:

تقدم الكلام على أنّ الشهيد مروان رفض «حلّ» الجماعةِ لنفسها، وبقي يعمل في الدعوة إلى الله تعالى، ومعه ثلة من الشباب المؤمن.

وكانت تنشط خلايا أولئك الشباب في فترة الصيف، حين يرجع من مصر لقضاء العطلة الصيفية بين أهله وإخوانه.

وكان من وسائل الدعوة التي يتّبعها الإخوان المسلمون، بل ومعظم الدعاة على الساحة الحموية؛ الاحتفالُ بذكرى المولد النبويّ.

وكان الشهيد مروان يوضح الحقيقة للناس بكلّ جلاء، وينتقد السلطة العلمانية الحاكمة.

---

(٤٥) أعلام النبلاء (٣: ١٤٧) وإسناده صحيح.

ويؤرخ الدكتور أكرم ريّس لأول اعتقال للشهيد مروان بعد الانفصال، فيقول:

«كان أولَّ اعتقالٍ لخالي مروان سنة (١٩٦٢م) بعد احتفال المولد النبوي في المسجد الشرقيّ، وكان رئيس الشعبة السياسية حينذاك أنيس خير بك.

أرسل إليه يستدعيه، فرفض الذهاب لمقابلته، كما هو شأنه دائماً، فأرسل إليه سيارة من رجال الأمن، فاعتقلوه.

وكان قد بقي خمسةَ أيام في غرفة «النظارة» وطلبوا منه التنازل عن الحديث في السياسة ووسطوا لذلك أباه وأخاه عدنان، ولكنه رفض بشدة، ووجّه إليهم بعض الكلام، ثم شكلوا له محكمةً مدنيةً في «السرايا».

حين أرادوا إدخالَه إلى قاعة المحكمة؛ طلبَ إحضار مصحف، ثم دخل إلى المحكمة وهو معه، ولما سألوه عن سبب هجومه على الدولة؛ قال: احكموا بهذا حتى أجيبَكُم فبرؤوه!».

«وكان الاعتقال الثاني بعد الانفصال، في عام (١٩٦٣م) «حيث كان الشهيد مروان يخطب في جامع «البحصة» من منطقة الحاضر، بعد استلام حزب البعث للسلطة، وكان جريئاً جداً، يهاجم تجاوزات السلطة على الدين.

ومن جملة ما كان يقول في خطبه: إنّ البعثيين لا يقبلون بالله سبحانه وتعالى شريكاً لبعثهم! وإنّ البعثيين إذا جاءهم الملكان في القبر؛ أجابوا: «البعث ربي، وعفلق نَبِيّي!».

فتمّ اعتقاله بعد هذه التصريحات.

وفي أثناء اعتقاله؛ تدخّل بعض الوسطاء، ومنهم أخوه «أحمد حديد» وهو من قيادات الاشتراكيين، فاجتمع هو والمحافظ «وكالةً» العقيد شكري العنبريّ، مع الشهيد مروان وكان الشهيد مروان لم يتخرّج بعد من الجامعة، فقال له العنبريّ: أنت ما زلت طالباً، فدع هذا للكبار، مثل الأستاذ عصام العطار، وسواه!

فأجابه مروان: ﴿لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء : ٨٤].

وعندها انسحب أخوه «أحمد حديد» من الجلسة؛ لما رأى من صلابة مروان، وأُسقط في يده، ولكن بعد أيّام أُفرج عن الشهيد مروان» أفاده الدكتور رشيد العيسى(٤٦).

حوادث حماة وهدم جامع السلطان:

قال عداب: الفقير عدابٌ من مواليد (١٩٤٩/١٢/٩م) وحين وقعت حوادث جامع السلطان؛ كان عمري أربعةَ عشر عاماً، وأشهراً، فأنا أروي ما أحفظه منذ خمسين سنة فمن الطبيعيّ أن يخالفني من هو أكبر سنّاً، وأحفظ لتلك الحوادث مني!

حين عاد الشهيد مروان من مصر في العطلة الصيفية عام (١٩٦٣م) لم أره؛ لأنني كنت في الصيف أعمل آنئذٍ في المزرعة مع والدي.

وفي بداية العام الدراسيّ (٦٣-١٩٦٤م) شاهدته في مسجد السلطان جوار المنبر، ذا لحية طويلة حمراء، يلبس «بنطالاً» و«بالطو» من لونٍ واحدٍ، ويضع على رأسه قلنسوةً باكستانية رمادية اللون، ويحمل في يده عكازاً جميلاً!

قال الدكتور رشيد العيسى: «في بداية العام الدراسيّ (١٩٦٣- ١٩٦٤م) كان الشهيد رحمه الله يخرج بعضَ الشباب في مسيراتٍ ليلية طويلةٍ، مع تدريبهم على الهجوم والكمائن، وكان يقوم بتشجيعهم على اقتناء السلاح، والتدرّب عليه».

قال عداب: لكنه عاد إلى مصر في أواخر عام (١٩٦٣م) لتأدية امتحانِ مادةٍ كانت متبقية عليه.

---

(٤٦) الدكتور رشيد ينفي كلامَ الدكتور أكرم، ويراه متوَهّماً؛ لأنّ أنيس خير بك؛ كان في زمن حكم «البعث» وليس في زمن الانفصال، وعدابٌ يميل إلى رأي الدكتور رشيد؛ لأنه أكبر منّا سنّاً، فهو من مواليد (١٩٤٦م) وأنا والدكتور أكرم من مواليد (١٩٤٩م) والسنة الواحدة في ذلك العمر؛ تفرق كثيراً.

قال الأخ سعدالدين الدسوقي رحمه الله تعالى في شهادته المزبورة في آخر الملحق: «وعندما أفرج عني في نهاية عام (١٩٦٣م) التقيت بمروان الذي كان قد أفرج عنه، هو الآخر، وحضر للقاهرة لأنه كانت عنده مادّة إكمال «البكالوريوس».

قال عداب: ثم ظهر لنا في شهر شباط في غالب ظني، من شهور عام (١٩٦٤م) ويومها علمنا أنه كان يتقدم بامتحان مادةٍ كان يحملها من السنة الرابعة في كلية الهندسة الزراعية، وعلمنا أنه تخرج، وغدا مهندساً زراعيّاً، وضحك، رحمه الله تعالى.

لم يكن بين عودةِ الشهيد مروان حديد الأخيرة من القاهرة، وبين حوادث حماة إلا أقلّ من ثلاثة أشهر، فيما أذكر أنا، ولم تكن تلك المدّة كافيةً لتسليحٍ، ولا تدريب، ولا استعدادٍ لمعركة مع سلطة مجرمة، كما لم يكن الشهيد يريد التصادمَ معها، وإنما كان يستخدم منابر المساجد وسائلَ ضغطٍ عليها؛ لتحسّن تصرفاتها مع المدينة المؤمنة[٤٧].

وعندما صعّد محافظ حماة العلمانيُّ الملحدُ عبدالحليم خدّام العَداء ضدّ الإسلاميين؛ صعّد الشهيد مروان لهجةَ التحدي معه، واعتصم في المسجد، وجعل مِن إذاعةِ الأذان في جامع «السلطان» إذاعةً إسلاميّة، يذيع منها بياناته، وينتقد أداءَ المحافظ الاستفزازيّ.

في هذه الأثناء؛ شعر الشيخ مُحَمّد الحامد، شيخ شباب الإخوان جميعاً، والمدرّس العامّ والخطيب في جامع السلطان؛ شعر بالخطر المحدق بالمسجد، وبالشهيد مروان ومَن معه من الشبابِ، فكان يستدعي الشهيدَ مروان إلى غرفته، ويتحاور معه حيالَ مواقفه التصعيدية ولهجته التي يطفح منها التحدّي!

---

(٤٧) عقّب الدكتور رشيد على كلامي هذا بقوله: هذه الرواية عن أحداث حماة كلُّها مغلوطة ومضطربة جملة وتفصيلاً، وأقول: هذا ما أتذكره وبثقةٍ، وحبذا لو كتب لنا أحدٌ الصوابَ الموثق!

وفي إحدى الليالي، وعقب انتهاء الدرس؛ أراد الشيخُ أن يخرج ليتوضّأ، فلمح الشهيد مروانَ فناداه، ووقفا تحت سدّة المؤذّنين، ونحن ننظر إليهما، وطال الحوار بينهما حتى أُقيمت الصلاة، فكان مما قاله شيخنا الحامد للشهيد مروان: «يا مروان! سأحمّلك المسؤوليّة عمّا سيحدث لبيت الله هذا، وما سيحدث لك، ولهؤلاء الشباب الصغار!

يا مروان: العين لا تقاوم مِخرزاً، يا مروان: ليس لها من دون الله كاشفة، يا مروان: ليس لها إلا سيّدنا المهدي، عجّل الله بظهوره».

هنا قاطعه الشهيد مروان، وقال له: متى سيظهر المهديّ يا شيخنا؟ منذ نعومة أظفارنا وأنتم تقولون لنا: سيظهر المهدي قريباً، وافرض أنّ المهدي لم يظهر في مائة سنة، أو ألف سنة، فهل يعفينا الله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ هل نترك هؤلاء المجرمين يستبيحون حرمات الإسلام والمسلمين، حتى يظهر المهدي؟ ما هذا الكلام يا شيخنا؟

فصرخ الشيخ الحامد في وجهه، وقال له: «حذّرتك يا مروان! حذّرتك يا مروانُ، وهؤلاء كلّهم في عنقك أمام الله، وأمام أهليهم» وتركه وانصرف!

وفي الأسبوع الذي سبقَ اقتحامَ مسجد السلطان؛ كنتُ ملازماً للشيخ مروان، ولا أكاد أبتعد عنه خطوةً واحدةً، وما رأيت لدى الشهيد من السلاح سوى سيفٍ أبيض كان يحمله بيده حملاً، وكان قد وضع على جنبه خنجراً مُذهباً فقط!

كنت في الرابعةَ عشرةَ من عمري، وكنت أستحيي أن أسأل الشيخَ، أو أحاوره، وكنت مستمعاً في الغالب!

فقلت لقريبي الشهيد منقذ الصيّادي رحمه الله تعالى: «أخي منقذ! هل لدى الشهيد مروان بندقية، أو مسدس؟ قال: ولمَ هذا السؤال؟ قلت: طلقة البندقية يمكن أن تقتل جنديّاً على الدبابة، لكن ماذا يصنع السيف معها؟

فقال ما معناه: «السيفُ رمز العزّ، والسلاحُ موجود بإذن الله تعالى، نحن موعودون بالسلاح!».

وفي ليلة الأربعاء (١٦/٤/١٩٦٤م) وبعد منتصف الليل؛ كنت وعددٌ من إخواني مع الشهيد مروان على السدّة، فصعِد الشهيد غازي زكيّة، والشهيد منقذ الصيّاديّ، ومعهما كيس، فلمّا فتحاه؛ كان فيه ثلاثُ بنادق روسيّة، وكان على جَنبِ كلّ منهما مسدّس.

كان الشبابُ المعتصمون في المسجد؛ تأتيهم الموائد من أغنياء البلد ووجهائها، وكانوا يأكلون منها.

لكنني أنا لم أذق منها لقمةً قطّ، كنت أستحيي أن أجلس مع الرجال على مائدةٍ واحدة من جهةٍ، ولأنّ أهلنا ربّونا ألا نأكلَ عند أحدٍ، إلا بإذن خاصٍّ منهم، وهذا الإذن غير موجود؛ لأننا كنا نهرب من البيت إلى مسجد السلطان في غفلة من أهلنا.

وما أذّن الفجر حتى كدت أقع مغشيّاً عليّ من الجوع، فلما صلينا الفجر؛ استأذنت الشهيد مروان بالذهاب إلى البيت؛ لأقضي بعض حوائجي، فأذِن.

والتفت إليّ الشهيد رحمه الله، وأنا نازل عن السدة، وقال: «أليس عندكم سلاح يا عداب؟ أنا أعرف أنكم تهتمون بالخيل والسلاح، حتى لو كان بندقية صيدٍ، فإنها تفيد؟».

فلم أردّ عليه شيئاً، لكنني هززت رأسي وابتسمت؛ إشعاراً بأنني سأحاول!

خرجت من المسجد أنا وأخي الشهيد «أحمد بلقيس الحوراني» وانطلقنا حتى مررنا ببيتنا، فودّعني وقال: «نصف ساعة فقط، نأكلُ ونرجع».

حين دخلت إلى البيت؛ وجدت والدي غضبانَ جدّاً، ويبدو عليه القلقُ الشديد، فما أن رآني حتى تنفّس الصُعَداء[٤٨] كما يقولون، فقال: أين كنت؟ قلت: في المسجد!

---

(٤٨) قال في التاج: تنفس الصُعَداء: هو تنفس طويل ممدودٌ، أو هو تنفّس بتوجّع!

قال: وجهك أصفر كثيراً لماذا؟ قلت: جائعٌ كثيراً!

فالتفت إلى والدتي، وقال لها: فَطِّريه!

وانصرف إلى أسفل المنزل، حيث زريبة الحيواناتِ؛ لتقديم طعام الصباح لها.

قبل انتهائي من طعامي؛ صرخ عليّ أخي أحمد بلقيس من الشارع، فناداه والدي: تعال يا أحمد تعال.

حين فتح والدي الباب لأحمد كان في يد والدي قيدٌ حديديّ، فهرب منه أحمدُ، ونجا من الحَبس، وتابع طريقَه إلى مسجد السلطان، وحضر المعركة هناك، واعتقل مع من اعتقل!

أما أنا، ففي لحظة انتهائي من الطعام؛ جاء والدي، وصفعني على وجهي صفعة أحسستُ منها بالموت الأحمر، وقيّد يديّ بحبل إلى الخلف، ووضع قيدَ الخيل في قدميّ وأقفله، وأعطى مفتاحه لوالدتي.

كان والدي يريد أن يتركني على هذه الحال، وينصرف إلى عمله في الحقل القريب، لكنه خاف أن أضغط على والدتي، فترقّ لي، وتفكّ قيدي، فأهرب إلى المسجد.

فحملني على ظهره، ونزل بي من الطابق العلويّ، وفكّ قيدَ رجليّ، وأركبني على الحصان، ثم ربط بحبلٍ معه يديّ مع سرج الحصان.

ولما خرج الحصان من المنزل؛ ركب عليه قُدامي، ويداي مربوطتان إلى الخلف.

سار بنا الحصان إلى المزرعةِ القريبة، وأصوات القذائف والرصاص تملأ الدنيا، وأنا في غاية الفرح؛ لاعتقادي أننا سننتصر في هذه المنازلة على الدولة الكافرة المجرمة!؟

حين وصلنا إلى مزرعتنا التي تبعد قرابة ميلين عن بيتنا في حيّ الفرّاية في حماة؛ فكّ رباطي مع الحصان، وفكّ قيدَ يديّ، وقال: يا ابني أنا ما عندي غيرك[٤٩] أين تريد أن تذهب، والبلد مشتعلة؟ يمكن تأتيك رصاصة طائشة، فتموت، فنبقى نبكي عليك كلّ العمر، يا ابني هذا الذي يصنعه شيخك مروان والقرودُ الذين معه انتحارٌ، قطعاً انتحار! يا ابني، العينُ لا تقاوم مخرز!

عقب صلاة الظهر في المزرعة؛ قال لي والدي: أنا أريد النوم، فراقب أنت الغنماتِ حتى لا يخرّبوا المزرعة، فأشرت برأسي: أن نعم!

وعندما سمعتُ غطيطَ والدي؛ جمعتُ الغنمات في زريبتها، وأغلقت عليها الباب، ثم أطلقت ساقيّ للريح، وطرت مسرعاً متوجّاً إلى المدينة، راغباً الوصولَ إلى مسجد السلطان.

حين وصلت إلى «تلّة الحوراني» قُرب حيّ «عين اللوزة» أدركني والدي على حصانه فضربني بعصا طويلة كانت معه؛ فعانقتُ الأرض، وانقطع نفسي.

أدرك والدي أن الضربة قاتلة، فبدا متأثّراً جدّاً، وأنا أحاول استرداد أنفاسي التي انقطعت بضربته القوية.

وحين بدا نَفَسي طبيعيّاً؛ احتضنني، وعيناه تذرفان، وحملني على الحصان، وركب ورائي وعاد بي إلى المزرعة، ولم يعمل والدي ذلك اليوم في المزرعة شيئاً، وإنما جلس يراقبني فقط.

---

(٤٩) كنت أكبر إخواني وأخواتي الأحياء، ولم يكن لوالدي ولدُ ذكر غيري، حتى وُلد أخي «غازي» في (١٩٦٤/١/١م) فهو في أيام حوادث حماة، في شهره الرابع، ثم وُلد أخي «غسان» في عام (١٩٧٠م) واستشهد في مقاومة الشباب الحمويّ غزو أمريكا للعراق، عام (٢٠٠٣م) رحمه الله تعالى.

أمام الجري السريع جدّا الذي قمت به، ومن وراء تلك الضربة الموجعة؛ أحسست أنني في دوار شديدٍ، ما لبثتُ أن تقيّات، ثم نمت نوماً لم أدرك معه شيئاً، قبلَ صوت والدي: قم الحَق صلاةَ العصر!

نظرتُ حولي؛ فإذا الشمس صفراء، فسارعت بالوضوء من الساقية التي كانت جاريةً يومئذٍ بقربي، وصلّيت العصرَ، ثم صلينا المغربَ بعد دقائق، ثم صلينا العشاء بعد أذانه في المزرعة.

عقب صلاةِ العشاء قيّد والدي الحصان بالقيد الذي كان قيّدني به، وتركه في المزرعة وأغلق باب الزريبة على الغنمات، ثم انطلقنا إلى المدينة مشياً على الأقدام.

حين وصلنا شارع «العلمين» كانت الدبابات ترمي الرصاصَ من رشاشاتها في كلّ اتّجاه، وبينما نحن نريد قطع الشارع؛ لنتوجه إلى حيّنا؛ توجّهت إلى جهتنا دبّابةٌ، وصارت ترمي بغزارة فائقة، فكمنّا عند زاوية بيت، ريثما هدأ الرمي.

بعد هدوء الرمي علينا؛ أطلّ والدي من زاوية البيت التي كنا نحتمي وراء جداره، فوجد الدبابة قد توجّهت باتّجاه ساحة العاصي، والحركة معدومةٌ في الشارع.

فقال لي: انتظر هنا حتى أقطع الشارع، فإذا وصلتُ سالماً؛ فلا تقطع حتى أشيرَ إليك وقطع والدي الشارع وسطَ إطلاقٍ كثيفٍ من النيران، فأشار إليّ أن اصبر.

لكنني لم أصبر، فقطعت الشارعَ فوراً، وسلّم الله تعالى، فلم أُصبْ أنا ووالدي بأذى.

أحببت تسجيل هذه الحادثة؛ لتوضيح أنني كنت واعياً لذلك الحدث تماماً، ولأؤكّد على أن الشهيد مروان رحمه الله تعالى، لم يكن يمتلك السلاحَ الذي يصلح لمقاومة جيش ولا كان ظرفُه مهيّئاً لصدام عسكريّ مع الدولة، ولا هو كان يطمح إلى هذا الصدام، إنما كان يريد أن يُشعر الدولة العلمانية أننا موجودون، فانتبهوا.

ولم يكن الشهيد مروان ساذجاً، حتى يسمح باعتصام أكثر من أربعين صبيّاً معه، كلّهم دون السادسة عشرة من العمر، لو كان في نيّته صدامٌ مع الجيش!

ومن المناسب هنا تسجيلُ خلاصةٍ لما كتبه عددٌ من المؤرّخين لهذه الحادثة؛ لأنّ القدر المشترك بين ما كتبوه؛ هو الحقيقة، ثم وراء ذلك حقائقُ متوزعة بينهم، ووجهاتُ نظرٍ لدى هذا، ولدى ذاك، منها الصواب، ومنها غير الصواب!

أحداث حماة في نظر الدكتور نيكولاس فان دام:

قال المؤلف في كتابه «الصراع على السلطة في سوريا»: «شجّع التسامحُ النسبيّ الذي أبداه الإسلام تجاه المسيحية واليهودية، ومساواتُه بين القوميات؛ بقاءَ الطوائف الدينية والعِرقية.

ولكن الثقافة العربية الإسلامية؛ استوعبت بشكلٍ عميق الأثر كلَّ هذه الطوائف، بما فيها اليهود والمسيحيون.

كانت شعوبُ المنطقة، قبل سيادةِ المبدأ القوميّ في العالم الإسلاميّ؛ بعيدةً عن التفكير القوميّ.

وكان العرب والأكراد والفرس والأتراك؛ يعيشون بتسامحٍ كبيرٍ فيما بينهم.

وكان سكان ما يسمى بسورية اليوم، يصنفون أنفسهم: إما سنة، أو علويون، أو دروزاً، أو إسماعيليين، أو أرثوذكس، أو يهود..إلخ.

ولم يكن لتحدّث معظمهم باللغة العربية أيّ تأثير يُذكر على الوضع السياسيّ.

ولم تكن أغلبية السكان السنية؛ تعتبر الحكم العثمانيَّ حكماً أجنَبيّاً، بينما اعتبره العلويون والدروز والإسماعيليون وغيرهم حكماً أجنَبيّاً، مخالفين أهلَ السنة، بهذا الاعتبار

تركز عدمُ تسامح المسلمين السنيين الديني بشكلٍ عامٍّ على الشيعة والأقليات الإسلامية الأخرى مثل العلويين والدروز والإسماعيليين، وليس على المسيحيين واليهودَ الذين تمتعوا بحماية

أقليات الرسالات السابقة، مما مكنهم من الحفاظ على شخصيتهم، حتى وقتنا الحاضر. وكان عليهم مقابلَ ذلك القبولَ بمواطنة من الدرجة الثانية»[٥٠].

أحداث حماة في نظر الدكتور أحمد فارس جوّاد:

كتب الدكتور أحمد عن حادثة جامع السلطان، عام (١٩٦٤م) خمساً وثلاثين صفحة، أقتصر منها على خلاصة وجيزة.

قال رحمه الله: « شيخنا الحامد على الرغم من حدّته وعصبيته العجيبتين؛ إلا أنه يملك قلباً ملؤه الطيبة والحبّ، والغيرة على دين الله، والرغبة في عدم إراقة الدماء.

كان الشيخ الحامد يعرف الصلة القويّة بين الشهيد مروان والدكتور أحمد جوّاد فاستدعى الشيخُ الحامدُ الدكتور أحمدَ جوّاد إلى مَنْزله، وكلّفه بحمل رسالةٍ شفوية عاجلة إلى أخيه وجاره مروان.

يقول الدكتور أحمد: «خرجتُ مسرعاً متّجهاً إلى جامع السلطان، أبحث عن مروان بين الجموع المحتشدة في حرم المسجد؛ فوجدته واقفاً على السدّة التي اعتاد المؤذنون أن يقيموا عليها، وقد ازدحم عليه إخوانه والمعتصمون معه، وقد اصطبغت عيناه بلون الدم، وظهر عليه الإعياء والتعب.

فقلت له: يا أبا خالد: أتسمع مني بعضَ الكلمات الموجزة.

فقال: هاتِ ما عندك!

فقلت له: رسالةٌ من الشيخ، وهو يريدك أن تُغادر وإخوانك بأسرع وقت، وأبلغته فحوى رسالة الشيخ الحامد، ومفادها: أن يغادر المسجد هو والمتضامنون معه في أسرع وقتٍ؛ لأنّ

---

(٥٠) الصراع على السلطة في سوريا (ص: ١٩).

الشيخ الحامد بعد لقائه بأمين الحافظ في حماة؛ أحسّ بالخطر الداهم لما يبيته الطغاةُ من نيّات سيئة لجامع السلطان، ولمدينة حماة بوجهٍ عامّ.

ورأيت بعد خروجي من المسجد الأخ عبدَالله المصريّ، متّجهاً إلى مروان، فقلت له: حاول أن تقنع مروان بفضّ الاجتماع، فقال عبدالله: سأفعل.

فذهب للتوّ إلى المسجد، وتحدّث مع الشهيد مروان طويلاً، حتى أقنعه بإنهاء الاعتصام لكنهما وجدا أنّ الليلَ قد تأخّر، فأرجآ ذلك إلى ما بعد صلاة الفجر.

فلم تبزغ شمس الأربعاء الموافق (١٦/٤/١٩٦٤م) حتى كانت السلطة قد حشدت قواتها ومدافعها الثقيلة، فنشِبت معركةٌ غير متكافئةٍ بين الجيش والمعتصمين.

أمّا الشيخ الحامد الذي أدرك حقدَ البغاة وما يبيّتونه للمدينة من كيدٍ ودمارٍ، وما كان يراه من مَنْزله الذي يطلّ على مكان المعركة، من تَلّة عالية يقبع عليها مَنْزلُه، نزل من أعلى بيته، بعد أن أنزل معه كُتباً فيها أسماء أصحاب بدر، وشرع في قراءتها؛ متضرّعاً إلى الله أن يُنْزل نصره ورحمتَه على المحاصرين؛ لاعتقاده أنّ الله ينصر عباده عند ذكر الصالحين، ولا سيما البدريون أهل الفرقان، يوم التقى الجمعان.

كان عبدالله المصري الذي أقنع مروان بالخروج؛ قد كتب له مولاه تعالى الشهادة فكان في عداد شهداء جامع السلطان، رحمهم الله تعالى»[٥١].

قال عداب: لي على هذه الشهادة بعض الملاحظ:

الأول: كان الكلام على أنّ الدكتور أحمد جوّاد المقرّب من الشيخين الحامد وحديد؛ قادرٌ على إقناع أخيه مروان بفضّ الاعتصام، وسياق الكلام يوحي بأنّ أحمد جوّاد غيرُ قادر على

---

(٥١) الإخوان المسلمون في سوريا (٣: ٥٥٤) فما بعد، بتصرف يسير في العبارة.

إقناع الشهيد بذلك، بل كان الأخ عبدالله المصريّ؛ أقدر منه على إقناع مروان فكيف يختار الشيخ الحامد من لا يحسن الحوارَ والاقناع؟

الثاني: الدكتور أحمد جوّاد؛ ترك جامع السلطان وانصرف إلى بيته، وعبدالله المصري لم يغادر المسجد؛ لأنه ومروان؛ وجدا الليل تأخر، فأرجآ الأمر إلى الصباح!

فلم يذكر لنا الدكتور أحمد في شهادته اسمَ الذي أخبره أن الشهيد عبدالله المصري استطاع أن يقنع الشهيدَ مروان؟

كما لم يذكر لنا مَن الذي أخبره أنهما أرجآ ذلك إلى الصباح؟

وقد كنتُ على السدّة مع الشهيد مروان وعددٍ من الإخوة الشباب، من بعد صلاة العشاءِ، وحتى أذانِ الفجر، أصلي إذا صلى، وأقرأ القرآن إذا قرأ، ولم ننم جميعاً في تلك الليلة ساعةً واحدة!

والذي كان حاصلاً؛ هو جوّ خوفٍ وتوجّس، فالشباب يهيئون أنفسهم، وأسلحتهم المتيسرة، وقد أُطفئت أضواء المسجدِ الخارجية، وتوزّع الشباب يحرسون المسجد، فمنهم من كان كامناً داخل المئذنة، ومنهم من كان كامناً عند بابَي المسجد، ومنهم من كان على ظهر المسجد للمراقبة.

وعقب صلاة الفجر حين استأذنته أنا وأخي الشهيد أحمد بلقيس في الذهاب إلى مَنْزلينا، وأننا سنرجع؛ أذن لنا، وقال: إن شئتما ألا ترجعا؛ فلا حرج؛ لأن رجوعكما؛ قد يعني الاستشهادَ، وإذا أردتما العودة؛ فلا تتأخرا، قبل غَلق الأبواب!

والتفت إليّ الشهيد رحمه الله تعالى، وقال: «أليس عندكم سلاح يا عداب؟ أنا أعرف أنكم تهتمون بالخيل والسلاح، حتى لو كان بندقية صيدٍ تفيد؟» وتقدم ذكر ذلك.

فقول الدكتور أحمد جوّاد، من موافقة مروان على فضّ الاعتصام، وأنهم أجّلا ذلك إلى ما بعد صلاة الفجر فقط؛ كان يحتاج أن يذكر لنا مَن الذي أخبره بهذا!

والثالث: قولُ الدكتور أحمد: إنّ الشيخ الحامد كان يرى ما يحدث في جامع السلطان من مَنْزله الذي يطلّ على مكان المعركة؛ فيه نظر!

والدكتور أحمد وسائرُ إخواننا يعلمون أنّ بين بيت أهلي، وبيت الشيخ الحامد أقلّ من عشرين متراً، خطَّ نظر!

وبيتنا أعلى من بيت الشيخ مُحَمّد الحامد بأكثر من ثلاثةِ أمتار في السماء جزماً!

وما كان أهلنا يرون إلا الدخان المتصاعد من المسجد، ولا يسمعون إلا أصواتَ الرصاص، وتفجّر القنابل!

وأذكر أننا في رمضان كنا نفطر على أذان جامع السلطان، وكان لا يظهر من مئذنته إلا القسمُ العلويّ منها فقط، فأين ساحة المعركة من أنوار المئذنة؟!

وهذا يعني أنّ مَدّ نظره إلى جهة موضع المعركة الذي يبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات؛ لم يكن يعني أكثر من مزيد حسرته، وحُرقته على ما يحدث!

والخامس: قوله: إن الشيخ كان يقرأ في كتبٍ، ويتضرع؛ فهذا القول أيضاً فيه نظر!

لأن الدكتور أحمد لم يقل لنا: إنه كان مع الشيخ في بيته، فرآه راقب المعركة، ورآه أنزل من مكتبته في الطابق العلوي إلى سكنه في الطابق السفلي كتباً، فيها أسماء أصحاب بدر وشرع في قراءتها، وهو يدعو متضرعاً؛ لاعتقاده أنّ الله ينصر عباده..إلخ الكلام!

ثمّ أين الدليلُ الشرعيّ على مثل هذا الاعتقاد؟ ولماذا الكتبُ التي فيها أسماء الصحابة وليس القرآن الكريم الذي يحتوي على أسماء الملائكة، وأسماءِ الأنبيّاء والمرسلين، وهم أفضل من الصحابة، وأعلى مَنْزلةً؟!

وهذا الشيخ الوليّ الصالح الذي لا أظنّ حموياً يتردّد عن الجزم بولايته، قد قرأ ودعا، لكنّ المحاصرين قد قتل منهم من قُتل، واعتقل الباقون، فهل هذا هو النصر الذي يعتقد الشيخ الحامد بتنَزّله عند ذكر أصحاب بدر؟

وهل الشيخ الحامد فعلاً يعتقد هذه العقيدة، أو أنّ الدكتور قدّر هذا تفسيراً وتحليلاً وهل قال له الشيخ الحامد ذلك؟

صحبنا الشيخ الحامد سبعَ سنين، سمعته مراراً يقول: «إذا ذكر الصالحون تنَزلت رحمات الله تعالى؛ لأنهم أحبابه» وذكر لنا مرة أن الأعاجم من مزيد اعتقادهم بصحيح البخاري؛ فكانوا يحملونه معهم في السفينة؛ ليحفظها الله من الغرق!

ومما لا ريب فيه أنّ هذه عقائد العوامّ، فهل كانت هي عقيدةَ الشيخ الحامد أيضاً؟

يذكّرني هذا بكلامٍ للدكتور أحمد جوّاد، كان سمعه من بعض قادة الإخوان عقب مجزرة حماة، عام (١٩٨٢م) فكان يردده بطيبته وسلامة صدره.

دخل عليّ زميلي الدكتور عبدالرحمن مُحَمّد الحامد يعودني، بعد خروجي من المشفى على إثر إجراء عملية «قرحة المعِدَّة» فرآني أجهش بالبكاء، وكلّما حاولت كظمَ غيظي وإمساك نفسي؛ ازدادت حدّة البكاء عندي.

فخاف على جُرحي الطريّ من أن يتأثّر بذلك، فراح يهوّن عليّ، فقال: إيْ أخي أبا محمود، هونّ عليك، فنحن في المنظور العسكريّ؛ منصورون بفضل الله تعالى!

صعقتُ، و جَفَّ الدمع في مقلتي، وأقلعت عن البكاء، وسألته: كيف يا عبدالرحمن؟

قال: نحن قتلنا من الجيش المهاجم للمدينة ما بين أربعة آلاف، إلى ستة آلاف!

والجيش قتل من إخواننا ما بين (١٥٠- ٢٠٠) أخٍ، رحمهم الله تعالى!

قلت: آه يا عبدالرحمن! والله لولا أنك ابن شيخنا الحامد؛ لشتمتك!

مَن هذا العسكري الفهيم الذي قال لك هذا الكلام البهيم؟

أين الثلاثون ألفاً الذين أذعتم أنتم أنهم قُتلوا في حماة؟

أين عشرة آلاف أرملة تأيّمت في حماة؟

أين أكثر من أربعين ألف طفل تيتموا في حماة!

فقاطعني وقال: «عدمُ المؤاخذة أخي أبا محمود...الله أراد أن يطهّر البلد، ويمحّص الناس، مَن هؤلاء القتلى؟ اللوطي، والزاني، والسكّير، والخمّير، والحشّاش...».

وصار يعدّد من الأصنافَ الدنيئة التي يَتخيّلُ أنها موجودة في حماة، وأنّ الله طهّر البلد منها!

فقاطعته، وقلت له: أحلف بالله العظيم يا عبدالرحمنِ، هذا الكلام ليس كلامك! فأنت لا تعرف أن تقولَ مثلَ هذا الكلام، من الذي أسمعك هذا الكلام القميء؟

هل ابن عمي «مُحَمّد سعيد» من الحشاشين؟ هل أولاد عمي خالد الأربعة الذين قتلوا في معركة استمرت ساعات في مَنْزلهم في حيّ عين اللوزة حشاشون، أم زناة، هل ابن عمي حسين الهبطة حشاش؟ هل ابن عمي مُحَمّد عزّالدين ميلص لوطي أم حشاش؟

هل مئاتٌ من آل الكيلاني، ومئاتٌ من آل البارودي، وعشراتٌ من آل كنعان، وآل فلانٍ وفلانٍ؛ هذه صفاتهم عندكم، وقد أكرمكم الله تعالى، فأراحكم من مناظرهم القبيحة، وكبائرهم الجالبة لسخط الله تعالى؟

كيف تتحدّثون بهذه اللغة الاستعلائية الوقحة!

فأشفق عليّ كثيراً من القهر والغضب اللذين ألما بي، وقال: هوّن عليك يا أخي أنت على حقّ، لا والله ما هو كلامي! لكنّ أحدَ المسؤولين؛ كان يهوّن على شباب الجماعة ما حصل في حماة، في مكتب مكة المكرمة ، فسمعته يقول ذلك!

فألححت عليه، واستحلفته: أليس القائل عدنان سعدالدين؟

فاعتذر، وقال: أنا مؤتمن على هذا الكلام، أنْ لا أقوله إلا للخواص، وأنا عضوٌ في المكتبِ، ولا يجوز لي أن أفشي سرّاً قيل فيه.

لكنّ بعضَ زوّاري في الأيام التالية صارحوني بأنهم سمعوا مثل هذا الكلام من عدنان ومن غيره من المسؤولين!

وبعد أكثرَ من عشرين عاماً تقريباً من مجزرة حماة؛ وفي عمّان الأردن، وفي مسجد السيّدة عائشة؛ التقيت مع أخي الفاضل الطيّب الدكتور أحمد جوّاد، وجرى ذكرُ مجزرة حماةَ عَرَضاً، وتذكّرنا من المآسي التي حصلت، فقال: نحن نقول هذا للإعلام الخارجيّ!

هذا صحيح! لكن فيما بيننا أخي أبا محمود، نحن من المنظور العسكريّ؛ منصورون!

وأعاد الأسطوانة التي ذكرها الدكتور عبدالرحمن الحامد بتوسعٍ أكثر، ومن دون أيّ أسىً إلا على (٢٠٠) شهيد الذين ارتقوا من إخواننا إلى مصافّ الشهداء!

ضبطتُ أعصابي؛ لأعرف منه اسم قائل هذا الكلام؛ لأنه يكون قد سمعه من قائدٍ في الجماعة في تلك الفترة؛ إذ إنه كان دائماً من القيادة، أو قريباً منها!

فقال: أبو عامرٍ، وغيرُه يقولون ذلك، وهذا هو الواقع!

فقلت له: والله يا دكتور أحمد كنتَ في نظري أعقلَ من هذا، وأرحمَ من هذا، وأنبلَ من هذا، يا ناس هل كلام عدنان سعدالدين يفعل بكم فعلَ السحر، والطفل الغبيّ ينقضه من أساسه، هذا إن كان له أساس.

هذا الكلام جريمةٌ، وخيانةٌ لدماء الحمويين الطاهرة!

الله أكبر عليكم، وعلى هكذا جماعة استعلائية حاقدة، وتركت المجلسَ وخرجت!

قال عداب: وفوق كلّ ما سبق؛ فهذا كلامُ جاهلٍ بالجندية وبالسياسة وبالدين!

أما الجهل بالجندية؛ فإنّ الانتصار؛ هو الفوز الذي يعقبه تحقيق الأهداف، وليس الانتصار بأكثرية عدد القتلى، لو سلّمنا بأنّ الحمويين، وليس الإخوان؛ قتلوا من الجيش أربعةَ آلاف!

وأما الجهل بالسياسة؛ فإن القادة السياسيين؛ إنما يخوضون الحرب؛ لتحقق لهم أغراض سياسية مهمة، وإذا فرضت عليهم الحرب؛ خرجوا منها بأقلّ الخسائر، وأفادوا منها في تحقيق الأهداف!

وقادة الإخوان المسلمين؛ خرجوا من الحرب المفروضة عليهم بأقبح الهزائم!

أما من جهة التنظيم نفسه؛ فقد تآكل، وتشقق ثوبه إلى مزعٍ غير منسجمة، واستسلم أكثر عناصره للنظام، وأجروا تسويات معه، وأرسلوا نساءهم وأولادهم إلى سوريا، وهذا إقرارٌ بسلطته، واعتراف بالهزيمة المنكرة بين يديه!

وأما من جهة تبعاتِ تلك الحرب؛ فقد غدا الإخوان ملزمين بكفاية آلاف العائلات التي خرجت هاربةً من ديارها في سوريا، وتأمين أسباب الدراسة المكلفة لمن يريد الدراسة من أبنائهم!

كما كانت ملزمة بمساعِدَّة عائلات الضحايا الذين سقطوا قتلى في مذبحة حماة!

وغير ذلك من المصائب التي يفضّل صاحب المروءة عدمَ ذكرها!

وأما الجهل بالدين؛ فلأنّ آلاف القتلى، وآلاف الأسرى، وآلاف المفقودين، وآلاف الأرامل، وعشرات الألوف من اليتامى؛ كلهم من أبناء المسلمين، حتى لو كانوا حشاشين أو عصاةً، أو منحرفين، فهَدْرُ دمائهم؛ لأنه يُظَنّ بهم ما ذكروه من المعاصي؛ جريمةٌ في حقّ الشرع؛ لأنّ الإسلام هو صاحب القاعِدَة الفقهية المشهورة: «المتّهم بريءٌ حتى تثبت إدانته».

فمتى حاكم قادةُ الإخوان هؤلاء العصاةَ، ومتى أقاموا عليهم البيّنات بما وصفوهم به؟

ويذكّرني مثلُ هذا الاتّهام القبيح الوقح، بقول وقحٍ آخر منهم، يحمل درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، حين نطق في لحظة غضبٍ قائلاً: «أصلاً أهلُ السوق كلّهم «مناويك!» ثم انتبه إلى أنني وعدداً آخر موجودون، ونحن من أهل السوق، فضحك وقال: «أنا آسف، نحن نعدّ أهل العليليات حواضرية».

فقلت له أنا: لا يا سيدي نحن سُوَقيّة، ولا يشرفنا الانتساب إلى الحاضرِ، إذا كان أهله بمثل أخلاقك، بالله عليك، ألا يلزمك حدُّ القذف!

كان حيّنا يدعى «حيّ الفراية» وهو يمتدّ من باب البلد، إلى شارع العلمين، شرقاً وغرباً، ويمتد من النصب التذكاريّ إلى ساحة ملجأ الأيتام شمالاً وجنوباً!

وكان يسكنه آلاف الناس رجالاً ونساءً وشباباً، وكنّا نسمع أنّ فيه شابّاً واحداً يُتّهم بهذه التهمة القبيحة، ومن شدّة إكثارِ أهل الحيّ على أهله؛ باعوا بيتهم، وهجروا الحيّ!

وكنّا نسمعُ أنّ فيه امرأةً أرملةً تُتّهم، وكانت تتردّد على رجل خبّازٍ، كنتُ أعملُ عنده وكان يضاحكها، فتضحك له، فبطشتُ به، وبصقتُ في وجهها، وطردتُها، فما رجعت!

فهل وجود هذا الشابّ المتّهم، ووجود هذه المرأة اللعوب؛ يجعل كلّ الحيّ على الصفة التي أطلقها ذلك الدكتور الأحمق الجاهل القاذف؟ اللهم غفرانك لنا يا ربّ!

فالدكتور أحمد طيّب إلى درجةٍ كبيرة جدّاً، وثقته بقيادةِ الجماعة مطلقة، ولا أذكر أنني سمعت منه مرةً واحدةً انتقاداً لمسئول، وكأن قيادة الجماعة أولياء محفوظون، أو هم مثل أئمة الشيعة معصومون!؟

لهذا، فأنا أتحفّظ على ما أشّرت عليه من هذه الشهادة، والله المستعان!

وأنا لا أريد أن أسردَ أحداثَ حماة، عام (١٩٦٤م) لأنّ كثيراً منها موجود في شهادات الإخوة، في ملحق الكتاب، وموجودٌ في كتاب الشيخ سعيد حَوّى «هذه تجربتي وهذه شهادتي» وفي مذكرة الدكتور أحمد جوّاد على وجه التفصيل الدقيق!

نشاط الشهيد مروان الجهادي بعد حوادث حماة:

لم يترك الشهيد مروان نشاطه الدعويّ والجهاديّ، بعد أحداث حماة، عام (١٩٦٤م).

وههنا عِدَّة مواقف يحسن تسجيلها؛ للوقوف على رأي الشهيد مروان الثابت في تلك السلطة الظالمة التي يجب جهادُها حتى النهاية.

(١) «عقب أحداث حماة حضر بعض مندوبي الصحف المحلية والأجنَبيّة إلى حماة؛ لتغطية الحدث، وعمدوا إلى مقابلة الشيخ مُحَمّد الحامد، ووجهوا إليه مجموعةً من الأسئلة:

س: ما رأيُك بحزب البعث؟

ج: لا يقرّ الإسلام التجزئة ولا الحزبية، وكلّ الأحزاب خارجة عن الإسلام!

س: ما رأيُك بمروان حديد؟

ج: إنه من تلامذتي، وهو شابٌّ مؤمنٌ قويّ الإيمان، يَنْزع إلى تطبيق أفكاره بشدّة.

س: هل له عمالةٌ لأحد؟

ج: مروان رجل نظيف، ولا يمكن أن يحدث معه هذا!»[٥٢].

(٢) عقب توفيق الله تعالى لشيخنا الشيخ الحامد في استصدار عفوٍ عن المحكومين بالإعدام من رئيس الجمهورية «أمين الحافظ» قبّل الشيخ مُحَمّد الحامد رأسَ أمين الحافظ واصطحب معه الشهيد مروان والشيخ عبدالحميد طهماز رحمهم الله تعالى.

---

(٥٢) مذكرة الدكتور أحمد جواد (ص: ٢٨).

وحين رآه الشهيد مروان؛ شكره على جهوده وعنائه، لكنه قال له: سامحك الله يا شيخنا، لقد فوّت علينا فرصةَ نوال الشهادة في سبيل الله تعالى.

فبكى الشيخ مُحَمّد رحمه الله وقال له: «والله لو رآك حسن البنا؛ لقرَّت عينُه».

(٣) ثم بلغ الشهيدَ مروان أنّ الشيخ مُحَمّداً قبّل رأس «أمين الحافظ» وأوصى تلامذته أن يقبّلوا رأسه، ففاتحه بذلك وقال: كيف تستجيز أن تقبّل رأس هذه المجرم، وتوصي طلابك أن يقبّلوا رأسه؟ هو مجرم ظالم متغلّب، ليس له أيّ سلطةٍ شرعيةٍ علينا!

سبحان الله! هم غصبونا بلادنا، وسلبوا خيراتها، ودمّروا أخلاق الناس، ثم نقبّل رؤوسهم، إن تنازلوا عن شيء يسيرٍ من حقوقنا الشرعية.

فاحتّدَ الشيخ مُحَمّد الحامد، وصرخ بوجه مروان: يا مروان لقد أنقذك من حبل المشنقة ألا يستحقُّ الشكر!

فارتفع صوت الشهيد مروان قائلاً: يُشكر على ماذا؟ المجرم لا يُشكر إذا تنازل عن بعض إجرامه؛ لأنه يبقى مجرماً!

وتصايح الشيخان، ثم استأذن الشهيد مروان بالخروج من بيت الشيخ، وانصرف.

وكنت يومَها أنتظر الشهيد مروانَ على باب منْزل الشيخ الحامد، حسب طلبه.

(٤) كان الشهيد مروانُ يُحرج الشيخ الحامد كثيراً، ويريد منه الصدعَ بالحق، وإزالة المنكر، وقد حدث نقاش بين الشيخ الحامد والشهيد مروان، وكان يتعلق بإنكارِ منكرٍ وكان الشهيد مروان يريد فتوىً عامّةً علنيّةً من الشيخ في درس جامع السلطان المسائيّ!

فغضب الشيخ الحامد منه، وطلب منه عدمَ إحراجه في مثل هذه المواقف، كما طلب منه عدمَ حضور درسه، إذا كان سيضطره إلى مثل هذه الأمور؛ علماً بأن الشيخ الحامد كان أفتى بمثل هذه الأمور من قبل، لكنه لم يجد في تلك الفترة مصلحةً في إعلانها.

الذي أريد لفتَ نظر القارئ الكريم إليه أنّ الشهيد مروان كان يطمح إلى أن يقف الشيخ مُحَمّد الحامد إلى صفّه؛ لأنه إذا وقف إلى صفّه؛ تشجّع كلّ الخائفين، وتابعوا مروان على منهاجه، وآزروه، وربما كنّا خَلَصْنا من هذا النظام الملحد!

وكان أكثرُ تلامذة الشيخ مُحَمّد الحامد على مثلِ رأيه، مخالفين للشهيد مروان، ويعدّونه متعجّلاً لطلب الشهادة فقط!

وقد حدثني الشهيد مروان مرةً بكلام دار بينه وبين الشيخ مُحَمّد الحامد.

ثم قال لي: يا أخي! مروان ليس متعجّلاً، وروحه ليست رخيصةً، إلا في سبيل الله!

ثم هل مروان وحده هو المكلّفُ بالجهاد في سبيل الله؟ هل المشايخ مُعفَون من ذلك أو من التحريضِ عليه؟

إذا كان مروان متعجلاً ومتهوّراً، فأين عملكم أنتم؟ لقد مضى على الشيخ مُحَمّد الحامد أكثر من ربع قرن، وهو يُدَرّس مادة الديانة، ويخطب في المساجد، ألا يكفي هذا الوقت لبداية التفكير في الجهاد؟

وقيادةُ الإخوان الجبانة، المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله، والمخالفة لمنهج الإخوان الذي رسمه الشيخ حسن البنا، متى سيصبح الوقت مناسباً عندها؟ أما آن لها أن تفهم أن البرلمانات؛ لا يمكن أن تقيم دولةَ الإسلام الصحيح الصافي، الذي يريده الله تعالى.

فقلت له: يا شيخي، لو أنك تطالبُهم بتدريس كتاب الجهاد من كتب الفقه، بدلاً من تدريس كتابي الطهارة والصلاة اللذين لم نخرج منهما حتى اليوم!

إنك لو طالبتهم بذلك، ولبّوا طلبَك؛ فهذا منهم يكفي؛ لأن مشايخنا يخافون من خيالهم! فلا بيئتهُم، ولا نشأتهم، ولا ثقافتهم تجعل منهم شجعاناً، قادرين على تحمّل مسؤوليات الجهاد، واعذرني إذا قلتُ لك: إنك تَطلبُ المحال!

ثمّ إنني أرى الناسَ غيرَ مهيّئين للتفرغ لمشروع الجهاد أصلاً، الناس عندهم عائلات ومسؤوليات، ومعظم أهل حماة فقراء، فمن هو القادر على ترك وظيفته وعمله من أجل أن يتفرغ للجهاد، وأنت غير قادر على تأمين راتبٍ واحدٍ منهم لمدة شهر!

فغضب الشهيد مروان مني غضباً شديداً، وقال: الجهاد فرضُ عين، وحين يكون الجهاد فرضَ عينٍ؛ لا يُسأل عن القدرة والكفاية والإذن، يَهُبّ الناس جميعاً للجهاد في سبيل الله والله هو الذي يهيئ سبيلَ أرزاقهم، وسبيلَ نصرهم، متى رآهم صادقين!

قلت: لا تغضب يا شيخنا، حفظك الله! الناسُ مُغيّبون عن الدين أصلاً، فضلاً عن الجهاد، هل من العلماءِ أحدٌ يوافقك على أنّ الجهاد فرضُ عين، ولو وافقوك؛ فيجب أن يكونوا أوّل النافرين!

الناس لا تعرف أحكام الوضوء والصلاة، حتى تعرف أحكام الجهاد، وأنت والله تُكلّف نفسَك، وتُكلّف المشايخَ فوق الطاقة!

يا شيخَنا أنت تقول لنا مراراً: لا تطمحوا أن يتابعكم أكثرُ الناس، ولا تتصوروا أن يُصبحَ عددكم ألفاً، لكن إذا أثبتم وجودكم، وحققتم بعضَ الانتصاراتَ الموجعةِ لأعداء الله؛ تسارع الناس إلى الالتفاف حولكم، وإلى عونكم، وإلى حمايتكم، فلماذا لا تحصر جُهودَك في هذا الاتّجاه؟

المشايخ يا شيخنا تربية تركيا، الدولة الإسلامية العظيمة في نظرهم، وهي التي كانت تقوم بالقتال عنهم، وعليهم هم أن يُعلموا الناس الطهارة والصلاة، والفضائل، واجتناب الكبائر، فهم لا يزالون بهذه العقلية، فكم يحتاجون حتى يستطيعوا استيعاب ما تقوله لهم!

يا شيخنا أنا سمعت من أحد مشايخي في الصف السابع، يقول: لبس «البرنيطة» الأوربية يخرج الإنسانَ عن الدين؛ لأنها من شعائر الكفار، مع أنّ هذه «البرنيطة» مفيدة جدّاً للمزارع، والراعي، وعاملِ البناء، وغيرهم!

فلا أظنّ أصحابَ هذا المستوى من التفكير؛ قادرين على التضحية بالحياة والجاه والمنصب، فلا تكلّف الناس فوق طاقتها؛ لأنك لن تستطيع جلبهم إلى صفك، وستجعل منهم خصوماً لك(٥٣).

يا شيخنا أنت تقول: إن الشيخ الحامد أوعى مشايخ حماة لدعوة الإخوان، وحين أردت القيام بمشروع توحيد «صلاة العيد» وتوحيد «صلاة الجمعة» كان أوّل من ثار عليك، وأيّده في ذلك جميعُ آل المراد، وغيرُهم، فأين صلاة العيدينِ والجمعةِ من القتال والقتل؟!(٥٤).

---

(٥٣) واحدٌ من المراجعين الأفاضل؛ كتب متهكّماً «لعلّ الشيخ عداباً يحدثنا عن الجهاد الذي قام به مثلاً منذ ثلاثين سنة، وعن الكتائب التي قادها، والعمليات التي أجراها» وجوابي على ذلك أنني رفضتُ في حياة الشهيد مروان جهاداً غيرَ منضبط ولا منظم، وشباب الشهيد مروان رفضوا عملي معهم لقسوتي كما زعموا وعرضت نفسي مراتٍ على مكتب مكّة المكرمّة، وعلى عدنان سعدالدين شخصيّاً للنزول إلى الداخل، فقال في غيبتي: نحن لسنا قادرين على شيطان واحدٍ، يريد عبدَالستار، حتى نردفه بشيطان آخر!

وحدثني الدكتور خالد الهنداوي قال: حدثني الدكتور عبدالستار برغبتك في النُزول إلى سوريا، والذي أقوله لك: حظّ النفوس موجودٌ عند الجميع! هذا من جهة..ومن جهة أخرى، فالمتهكّم لم يشارك في عملية عسكريّة واحدة في حياته، وسائر ما قام به هو وقيادةُ الإخوانِ؛ كان فاشلاً مخزياً مدمّراً، فعَدمُ مشاركتي في شيء منه؛ كان لطفاً من الله تعالى بي، حتى لا تتلطخ يداي بدماء الأبرياء، وحتى لا أكون سبباً في دمار بلدي، بتخطيط قاصر، ووعي عسكري وسياسيّ ساذجٍ! على أنني ذكرت في موضع آخر من الكتاب أنني اتّخذت قراري بالعكوف على العلم الشرعيّ، فأكرمني الله تعالى بكتابة أكثر من (١٠٠٠٠) صفحة محترمة من قبل العلماء، وجميع قيادة الإخوان المسلمين الحاليين، والمتهكّم منهم طبعاً، ربما لا يفهمون أكثرَ ما فيها مجرّدَ فهم، والله المستعان!

لم يردّ الشهيد عليّ شيئاً، لكنه قال لي بعد مدّة: نحن لا نيأس، وفي الناس خير كثير!

وفي مرة ثانية جرى حوار بيننا بهذا الخصوص؛ فقلت له: حصر جهودك في مدينة حماة؛ لا يوصلك إلى تحقيق مرادك، فالسلطة تستطيع أن تبيد حماةَ وأهلها، وتمسحها عن خارطة سوريا، ولن تجدَ أحداً يعارضها، كما لن يغضب لك ولحماةَ أحد!

أنت الآن غير مطلوب، وإن كنت مراقباً بالتأكيد، لكن لو رتّبت أمورك، فتستطيع أن تسافر سرّاً إلى المعرّة، وتجتمع ببعض إخوانك، تذكرهم وتحثهم، وتكلفهم أن يتابعوا هم تحريضَ الناس، ومنها إلى إدلب، ثم إلى حلب، وهكذا حتى يعرف بدعوتك الآخرون ويقتنعَ بها واحدٌ نشيطٌ في كلّ مدينة على الأقلّ؛ ليتابع دعوة الناس.

كان هذا الكلام في حزيران، من صيف عام (١٩٦٦م) والله أعلم.

أطرق الشهيد مروان طويلاً، ثم قال: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[البقرة : ٢٦٩] وتبسّم رحمه الله تعالى.

تابعتُ كلامي غيرَ متأثّر بما ظننتُه استخفافاً بكلامي، وقلت له: شيخي أنت لا تعمل في وظيفةٍ رسمية، وليس لديك عملٌ دنيويّ تخشى أن يتعطّل، وبالتالي فلست مطالباً بشيءٍ ونحن الآن في أول الصيف، فيمكن أن تُشيع بين الإخوة أنك تريد الاصطياف، ثم تنقّل.

لكنّ الشهيد مروان كان منشغلاً في أمورٍ كثيرة، وكانت له اتّصالاتٌ لا أعرف عنها الكثير، مع السيد «عثمان الأمين» وغيره من وجهاء حماة، ورجالاتها في تلك الفترة.

---

(٥٤) تنظر شهادة الشيخ وهبي الغاوجي، فقد حضر واحدةً من مناظرات الشيخين الحامد ومروان بهذا الخصوص!

ولا أزال أذكر أننا كنا عنده في مسجده، فاستدعاه أحد الإخوة من آل الباروديّ وأخبره بشيءٍ، لا أدري ماهو، فرجع الشهيد مروان مسرعاً، وقال: قوموا إخواني إلى بيوتكم، يمكن الآن يُداهَم المسجدُ، فيعتقلونَكم.

واعتقل الشهيد مروان في (١٦) تمّوز، من عام (١٩٦٦م) وفي الليلة ذاتها، قُبَيل أذان الفجر؛ داهم رجال السلطة السيد عثمان الأمين «أبو طارق» ولكنه لم يستسلم لهم، بل قاومهم حتى أُصيب إصاباتٍ بالغةً، نُقل على إثرها للمستشفى، فما أُذّن لصلاةِ الظهر حتى أسلم روحه المؤمنة إلى بارئها، رحمه الله تعالى، وتقبّله في الشهداء والصالحين.

وكان السيّد «عثمان الأمين» رحمه الله تعالى محبّاً للشهيد مروان كثيراً، وقد صحبني الشهيد مروانَ غيرَ مرّة إلى مضافته في حيّ الشماليّة.

وعقب استشهاده؛ أوصاني الشهيد مروان بالتردّد على أولاده، وتوجيههم، فهم صغارٌ وواجبنا أن نرعاهم.

وقد قمت بذلك أنا الفقير عداب، وأخي السيد حمدو حمشو، وبقيت صلتنا مستمرّةً مع أولاده الأفاضل، وخصوصاً مع كبيرهم السيّد «طارق» إلى يومنا هذا.

وظلّ الشهيد مروان في الاعتقال، حتى أفرج عنه عقب إعلان سقوط القنيطرة في (٩) حزيران، عام (١٩٦٧م).

كان اعتقال الشهيد مروان، وقتل الشهيد عثمان الأمين يجري في إطار تصفيات الخصوم، بعد انقلاب شباط (١٩٦٦م) حيث جرى صدام مسلّح بين «أمين الحافظ» ورجال حافظ الأسد، أدّت إلى إسقاطِ حكمه.

وكانت تلك السنةُ سنةَ تصفيةِ حسابات بين أطراف حزب البعث المتناحرة، وعرّجوا على اعتقال العلماء والمناهضين؛ ليتفرغ بعضهم لبعضٍ من جهة، وليخططوا لعملية تسليم الجولان من جهة أخرى، والله تعالى أعلم.

وقبل أن تُضرب الحركة الفدائية بالأردن بقليلٍ، فيما عرف بأيلول الأسود، عام (١٩٧٠) اعتقل مروان، وبقي قُرابةَ ثلاثة شهور في المعتقلِ، تنقّل خلال هذه الفترة إلى عِدَّة معتقلاتٍ، كان آخرَها معتقلٌ في شمال سوريا.

قال الأخ الأستاذ حمدو حمشو: «اعتقل الشهيد مروان قبل أيلول من عام (١٩٧٠).

وكنت معه قبل ساعتين من اعتقاله، وتوضيح ذلك أننا كنا في دمشق، فنزلنا إلى حماة ومعنا الأخ صفي عدي، فافترقنا قبل صلاة الجمعة، واتّفقنا أن يكون لقاؤنا في جامع «السلطان» فاعتقل الشهيد مروان في أثناء ذهابه إلى مسجد السلطان».

ثمّ لم يعد يسلّم نفسه إلى السلطة مطلقاً، بل كان يختفي كلّما أحسّ أنهم يريدون اعتقاله.

معسكرات التدريب في منظمة فتح:

منشأ فكرة التدريب:

حدّثني المهندسُ الفاضل عبدالعزيز علي المصري، قائد معسكرات الإخوان في «منظمة فتح» ونحن في طريقنا من الأزرق إلى عمّان قال: «نحن ذاهبون لنقابل عدداً من قيادات الإخوان الأردنيين، تلك القيادات التي كانت ترفض عملنا هذا، وتعدّه شرّاً على الجماعة وما صدّقنا أن توافق، ولهم طبائع خاصة من العجرفة والكبرياء!

فإذا قلت لك: انتظرني في صالة المركز الإسلامي في جبل عمّان؛ فلا تزعل؛ لأنهم لا يحبون أبدا أن تكون معنا؛ لأنك في نظرهم صغير، وليس لك شغل بين المسئولين!

وتابع حديثه: في عام (١٩٦٥م) أو قال: (١٩٦٦م) اتّصل بي أبو عمّار ياسر عرفات، فالتقينا في الكويت، فقال لي: يا أبا أسامة نحن قد انطلقنا في مسيرتنا النضالية بإذن صريحٍ، أو ضمنيّ من معظم الدول العربية، ويخبرني الإخوة المسئولون أن الشيوعيين واليساريين مُقبِلون إقبالاً شديداً على الانخراط في الحركة، والإسلاميون نوادر بين صفوفها.

يا أبا أسامة غداً تقولون: أبو عمّار يقوي الشيوعيين واليساريين وغير المتدينين! نحن لا نستطيع أن نردّ متطوّعاً، كما لا نستطيع أن نمنع ترقيةَ من يستحق الترقية العسكرية.

يا أبا أسامة غدا يتولى زمامَ الحركة هؤلاء، وأغدوا أنا وأنتم عاجزين عن تدارك الموقفِ فاتّصل بجماعتك «يعني الإخوان المسلمين» وقل لهم: نحن على استعداد أن نوفّر لهم تدريباً عالياً على أفضل الأسلحة الموجودة عندنا، ونحن مستعدّون أن نخصّهم بمراكز تدريب خاصة، وإذا قيل لنا: لم هذا؟ نقول لهم: هؤلاء المتدينون يريدون الجهادَ، وإذا نحن جمعناهم مع الشباب غير المتدين، فسمع أحدهم واحداً يشتم الدين أو الربّ؛ فإنه سيقتله، أو يُقتل، فتحدث أمورٌ ليست في صالح الحركةِ، فمن الأفضل أن نعزلهم في قواعد لوحدهم.

يا أبا أسامة..ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد، وقد أعذر من أنذَر».

قال أبو أسامة: فنزلت في الصيف إلى عمّان، والتقيت بقيادة الإخوان: الأستاذ مُحَمّد عبدالرحمن خليفة، والدكتور إسحاق الفرحان، والشيخ إبراهيم زيد الكيلاني، ولم يكن حصل على الدكتوراه بعد، والدكتور علي الحوامدة، وغيرهم.

وأبلغتهم رسالة «أبو عمّار» وتداولنا الأمر من جوانبه، وكان رأي المراقب العام الأستاذ مُحَمّد عبدالرحمن خليفة والأكثرين على أنّ التدريب العسكري ليس من صالح الجماعة، في ذلك الوقت.

وتكرر الكلام مني مع بعضهم على انفراد، فوافقني الدكتور إسحاق الفرحان [فيما يذكر عداب] وإبراهيم زيد الكيلانيّ.

واستمرّ الأخذ والردّ حتى عام (١٩٦٨م) ولم يصدر شيءٌ رسميّ عن الجماعة؛ عندها غضب الأخ أبو عمرو صلاح حسن من برود الجماعة، وبُطء حركتها، وحمل بطانيته على ظهره، ونادى بأعلى صوته: «إني مهاجر إلى ربّي، فمن شاء أن يتبعني؛ فليفعل» وتبعه عددٌ من الإخوة، وأقمنا أوّل معسكر للشباب في «العالوك» انتهى كلامه.

بل انتهى ما أحفظه من كلامه.

في بداية العام (١٩٦٩م) اتّخذ المكتب التنفيذي العام للإخوان المسلمين «وهو يمثّل المراقبين العامّين في الدول العربية» اتّخذ قراراً بالمشاركة في العمل الفدائيّ، بالتعاون مع منظمة «فتح» وتمّ افتتاح معسكر التدريب في قرية «العالوك» شمال مدينة عمّان في الأردنّ.

نشاط الدعاة إلى الجهاد في حماة:

الدكتور رشيد العيسى كان هو المسؤول عن تنظيم التحاق شباب الشهيد مروان بمعسكرات الشباب في الأردن، وأتركه هنا ليحدّثنا عن تاريخ هذه المرحلة!

قال حفظه المولى: «في عام (١٩٦٨م) وبعد هزيمة حزيران (١٩٦٧م) انتشر العمل الفدائيّ، وبدأت منظمات العمل الفدائيّ باستقطاب الشباب الفلسطيني والعربيّ بشكلٍ عامّ.

وكان في مدينة حماة أستاذ فلسطيني، اسمه «مُحَمّد سعيد طروية» ويلقّب «أبو السعيد» وكان هو المسؤول عن حركة «فتح» في مدينة حماة، وكان ينشط لربط العمل الفدائيّ بفعاليّات حماة الشعبية، ومن رؤوس هذه الفعاليات الشهيد مروان حديد، والشيخ عبدالله الصبّاغ خطيب جامع الشيخ علوان، والدكتور مُحَمّد علي المصري.

وحيث إنّ هاجس الشهيد مروان الأوّل، وشغله الشاغل؛ هو تعليم شباب الإخوان فنون القتال، وتدريبهم على حمل السلاح، وتأمينه؛ فكان لا يترك باباً يستطيع تأمين هذه الأهداف عن طريقه إلا ولجه.

وفي ذلك العام نفسه (١٩٦٨م) طلب الأستاذ مُحَمّد سعيد طروية من الشهيد مروان أن يقوم بزيارة إلى الأردن، للقاء ياسر عرفات، وزيارة قواعد الفدائيين، برفقة الشيخ عبدالله الصبّاغ، والدكتور مُحَمّد علي المصري، فاعتذر الشهيد مروان، وأرسلني بديلاً عنه.

وبالفعل؛ فقد زرنا الأردنّ، وبقينا فيها ثلاثةَ أيّام، ونمنا في قواعد الفدائيين، والتقينا بالسيّد ياسر عرفات في بيتٍ قديمٍ في مدينة «السلط» وكان في هذا البيت «مركز الرصد الثوريّ».

وفي هذا العام أيضاً؛ قام الشهيد مروان، وأنا معه، بزيارةٍ إلى معسكرات ضاحية «الهامة» من ضواحي دمشق، والتقينا بالمدعو «أبو علي إياد» وكان هو المسؤول عن تلك المعسكرات، وعن تأديب المذنَبيّن والمساجين في حركة «فتح».

وكان شديدَ المراس، غليظَ الملامح والكلام، مصاباً في رجليه وعينيه، وكان دائماً يحمل عصاً غليظةً يضرب بها المذنَبيّن، وهو في مقعده!

ودار حديثٌ بين الشهيد مروان وأبي عليّ هذا؛ فقال أبو عليّ للشيخ: إن الإخوان المسلمين جبناء قضى عليهم عبدالناصر، ولم يفعلوا شيئاً!

فأجابه الشهيد مروان: «لا يغرنّكم ما أنتم عليه الآن، حيث إن للأنظمة مصالحَ ومآرب وغاياتٍ، في وجودكم ورعايتكم.

ولكن عندما تجتمع الأنظمة على ضربكم؛ فسوف نرى ما تفعلون».

«وقتل أبو علي هذا في أحراش جرش، في أثناء أحداث أيلول، عام (١٩٧٠) في الأردنّ» انتهى كلامه.

وفي صيف هذا العام (١٩٦٨م) حَضَرتُ للشيخ مُحَمّد الحامد خطبةً قويّة جدّاً حثّ الناس فيها على الجهاد، فاستجاب لذلك عددٌ كبيرٌ من الشباب، ومن بينهم الشيخ مُحَمّد أمين بن الشيخ مُحَمّد الحامد، فقد التحق للتدريب في معسكرات فتح، ولكنّ الشيخ مُحَمّد الحامد العاطفيّ جدّاً؛ لم يحتمل هذا الأمر، وفرض على الشيخ عبدالله الصبّاغ، وعلى الشهيد مروان أن يعيدا إليه ولده فوراً.

وبما أنني جاره بيتَ بيت، فقد كنت أسمع بكاءه ونحيبه في الليل، وكان كثيراً ما يردد جملة «آه.. قتلتني يا أمين.. قتلتني يا أمين.. قتلتني يا أمين».

ومع تأكيد الشهيد مروان حديد، والشيخ عبدالله الصباغ للشيخ الحامد أنني لا أعلم بعزم «مُحَمّد أمين» ولا بسفره؛ إلا أنه بقي مصرّاً على أنّ أولاده لا يعرفون هذه الأمور فلولا تحريضُ عداب وتشجيعه؛ لما فكّر ابني بمثل هذه الأمور أصلاً!

كنتُ متضايقاً جدّاً لتصرّف شيخنا رحمه الله تعالى، وكنت أقول في نفسي: أنت تحرّض الناس على الجهاد والالتحاق بمعسكرات التدريب، وتقول: نحن أمّة مجاهدة فيجب أن يتعلّم الجميعُ على السلاح، ثم تصنع الذي تصنع على ولدك؟ كنت أقول: لا أدري ما هذا التناقض، وكنتُ أستغربه غايةَ الغرابة.

وفاتحتُ الشهيد مروان بالأمر، ونقلت له الصورة الليلية المتكررة، فقابله الشهيد مروان في منْزله، وانتظرته أنا قريباً من منزل الشيخ الحامد.

فلما خرج؛ صحبته، فحدّثني أنه قال له: هل تعتقدُ أن الموت والحياة بيد الله يا شيخنا؟

هل تعتقد بما قلتَه على المنبرِ، من وجوب التدرّب على السلاح، فما معنى نحيبك على ولدك بهذه الصورة التي تُشمت بنا الاشتراكيين من جيرانك؟

فغضب الشيخ الحامد من الشهيد مروان، وقال له: مُحَمّد أمين هذا على جانب من الذكاء والدهاء، ونحن نعدّه ليكون عالماً، فأمثاله قليلون!

قال الشهيد مروان: ومن قال لك: إن مجرد تدرّبه في المعسكر؛ سيكون سببَ قتله يا شيخنا؟

قال الشيخ: أنا مريض..أنا ضعيف..أنا لا أصبر على فراق واحدٍ من أولادي أبداً، أو معنى هذا الكلام!

كان تصرّف الشيخ مُحَمّد الحامد العاطفيّ هذا؛ سبباً في حدوث جفوة إضافيّةٍ بينه وبين الشهيد مروان حديد.

ولم يلبث الشيخ «مُحَمّد أمين» في معسكر التدريب إلا أسبوعين، أو أكثر قليلاً، لا أذكر، ثم رجع بطلبٍ شديدٍ من الشيخ عبدالله الصبّاغ.

وحين رجع «مُحَمّد أمين» قابله والده بكثير من الحنان، وبكثير من الشدّة، مما ولّد عند الشيخ «مُحَمّد أمين» عقدةً من العلماء، فكان يقول لي: «أنا لا أفهم هذه المعادلة عند المشايخ، يريدون من الناس أن يضحّوا، ولا يضحّون، يريدون من الناس أن ينفقوا، ولا ينفقون، يريدون من الناس أن يكونوا شجعاناً، وهم ليسوا كذلك» أو نحو هذا الكلام!

نشاطُ الشهيد مروان حديد في التدريب على السلاح:

قدمتُ الكلام على أنّ فكرةَ تكوين خلايا مُسلّحة في صفوف الإخوان المسلمين؛ قديمةٌ عند الشهيد مروان، وترجع إلى منتصف الخمسينات.

لكنّ قيادةَ الإخوان كانت ترفض مثلَ هذه الأفكار؛ لأنها وضعت في منهاجها أن صناديق الاقتراع؛ خيرُ وسيلة للوصول إلى الحكم، وهذا من شأنه أن يخفف من ضغوط الحكومات عليها، ويسمح لها بالتمتّع بلذات الحياة التي كانت شديدةَ الحرص عليها.

وبعد امتحانات الجامعة السورية، في حزيران، عام (١٩٦٩م) أرسل الشهيد مروان إلى الأردن أربعةً من إخوان حماة، وهم «رشيد العيسى، وعبدالستار الزعيم، وغالب الكيلاني وحمدي المدنيّ» وكان معم الأخ «فريد قدّاح» وهو من بانياس الساحل.

فهؤلاء ومن معهم كانوا هم الرعيلَ الأوّل من المتدرّبين الحمويين في معسكرات الشيوخ في الأردن.

وفي صيف عام (١٩٦٩م) ذاته كانت الدفعة الثانيةُ من الشباب، وقد جاوز عددهم خمسين من الشباب، وكان منهم الشهيد غازي نيربيّة، والأخ فايز آوى، والأخ عهد برازي، والأخ عبدالمنعم بربر، والشهيد أحمد بلقيس الحوراني، والأخ مُحَمّد منير لطفي والدكتور عداب الحمش.

وتوالت الدفعات بعد ذلك، فكان من الدفعة التالية: الأخ أبو مسعود الرحمون، والشهيد زهير سعدو، والأخ بسام سعيد مكية، والأخ عبدالغني زينو، والأخ مُحَمّد نور زينو، والشهيد مُحَمّد حسن عجعوج، فيما أذكر.

وكان من الدفعة التي تلتها، الإخوة: حمدو حمشو، والشهداء نصر كيلاني، وتميم الشققي، وعمر جواد، ونصر عيسى، وخلدون مرقة، رحمهم الله تعالى.

ومن المناسب القول هنا: إنّ قيادة مركز حماة للإخوان المسلمين؛ صدّرت قراراً قياديّاً بفصل الشهيد مروان حديد، وسائر من التحق بمعسكرات التدريب من جماعة الإخوان المسلمين، وأظنّ عددهم كان أكثر من ستين عنصراً.

ولا أزال أذكر أنّ الشهيد مروان حديد حين زارنا مع الدكتور مُحَمّد علي المصري في معسكر التدريب في الأزرق؛ بلّغنا بهذا القرار، فضحكنا من سخافة تلك القيادة كثيراً.

وأظنّ أن الشهيد غازي النيربية قال: فَصلونا أم لم يفصلونا، فالولاء لجماعة الإخوان المسلمين يجري في دمائنا.

فقال الشهيد مروان حديد: نحن الإخوان المسلمون أصلاً، وهؤلاء الذين فصلونا ليسوا من الإخوان المسلمين، أليست شعارات الإخوان المسلمين: (الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا).

فكلّ من يتنكّر لهذه المبادئ؛ فليس هو من الإخوان المسلمين.

وإخواننا هؤلاء قد جعلوا شعاراتهم: (المال غايتنا، والركون للظالم سبيلنا، وطول الأمل أسمى أمانينا) أو كلاماً كهذا.

فنظمت في تلك المناسبة أبياتاً من الشعر الضائع، أذكر منها:

ما للقيادة في حماة تسرّعت...في فصل أبناءٍ لها ورجال

هل في الجهاد معرّة تنتابنا...أو إنهم صاروا دعاةَ ضلالِ؟

بدمائنا نهج الإمام شهيدنا.. من غير تكبيلٍ، ولا أغلال

قل للقيادة لن نعود لظلكم.. حتى ننال شهادةَ الأبطال

فلأنتم ثوبُ التخاذل والعنا.. ولأنتم والله شرّ رجالِ

فغضب الشهيد مروان رحمه الله تعالى من جملة (ولأنتم والله شرّ رجال) وقال لي: هذا حرام عليك، وهذا يمين غموس.. هناك من هو شرٌّ منهم بكثير، هناك الخائن والسارق، والزاني، وشارب الخمر، وقاتل النفس..إلخ..غيّر هذا الشطر؛ فهو والله شرّ مقال! وضحك ضحكةَ عتب، رحمه الله تعالى.

فعدّلت البيت الأخير إلى الآتي:

فلأنتم رمز التخاذل بيننا...وقراركم بالفصل شرّ فِعالِ.

رحم الله الشهيد مروان، فقد كان شرعيّاً في كلّ حركاته وسكناته، وكان فعلُه يتطابق تماماً مع أقواله، بل ربما كانت أفعالُه أصدقَ من أقواله.

إغلاق مراكز التدريب في الأردنّ:

في أواخر حزيران، أو أوائل تمّوز، من عام (١٩٧٠) غادرتُ إلى الأردنّ، ونزلت في دار الإخوان، ثم زُرت الشهيد عبدالله عزام، والتقيتُ معه بالقائد الماجد «أبو أسامة» عبدالعزيز العلي في المركز الإسلاميّ، وأخبرته برغبتي أن أشارك بعمليّة فدائية، لعلّ الله يرزقني الشهادةَ في سبيله![٥٥].

فنصحني أن أعود لإكمال دراستي؛ لأن الأمورَ تسيرُ من سيّء إلى أسوأ!

ولما رأى مني إصراراً وإلحاحاً؛ وجهني أن ألتحق بقاعِدَّة بيت المقدس التي كنت أنتسب إليها، لأرى إخواني هناك.

ورجوته أن أشارك في العملية التي كانت مقررة في بداية شهر تموز، ثمّ تأجلت شهراً.

لكن لا أدري السبب الذي جعله يرفض ذلك، وكلفني مع ثلاثة من الإخوة بمهمةٍ استطلاع على جبال اليرموك، وطلب منّا رصدَ تحرّك الطائرات الإسرائيلية:

متى تنطلق، ومتى تنتهي مهماتها؟

إلى أيّ مدى تتقدم باتّجاه الأراضي الأردنية؟

---

(٥٥) علّق الأخ حمدو حمشو على كلامي هنا بقوله: «هذا التاريخ غير صحيح؛ لأني كنت موجوداً في حزيران هناك، ولم أشاهدك، وكان الأخ أبو أسامة قد ترك العمل، فلا أدري إن كان قدومك كان في آخر حزيران» قال عداب: أكثر التواريخ التي أذكرها هي تقريبية من الذاكرة، فأرجو المعذرة، وأما ترك أبو أسامة للعمل، فلم يترك العمل نهائياً، إنما كان قد زعل من بعض الإخوان في الأردنّ، ثم رجع، وهو الذي قام بعمليّة «إغلاق مراكز التدريب» بعد آخر عمليّةٍ قام بها شباب الإخوان، واستشهد فيها الأخ «زهير سعدو» وقد حمّلني رسالةً للشهيد مروان رحمه الله تعالى.

ما أنواعها، وكم عدد الطائرات.

وفي منتصف تمّوز أرسل إلينا: أن تظاهروا أمام الطيران الإسرائيليّ، حتى يراكم، ثمّ انزلوا أسفلَ الجبل، واختبئوا بين الصخور، وليبق «أبو دجانة» يناوشهم ببندقيّته؛ لنرصد ردّة فعلهم، وهو قادر على حماية نفسه منهم!

وعقب الانتهاء من ذلك؛ عودوا إلى المعسكر فوراً؛ لأنهم سيرصدونكم، ومن الممكن أن يرسلوا «كوماندوس» إلى تلك المنطقة!

وتظاهرنا في رأس الجبل، وكنا أربعة رجال فقط، ولمعت الشمس على سلاحنا فرأينا ثلاث طائرات ميراج، تأخذ دورة استعدادٍ للهجوم علينا.

تأكّدنا أنهم شاهدونا، وأنهم قادمون إلينا بسرعة وعنف بالغَين، فهُرِع الشباب بين الصخور بالنزول إلى أسفل الجبل، ووجدت قمّة تلّة قويّةً حصينة، وتترست بها ووضعت بجانبي مخازن رشاشي «كلاشنكوف» وبدأتُ الرميَ على الطائرات اللواتي كنّ منخفضات جدّاً، لكنني شعرت والله! أن رصاص بندقيتي أفقدهم توازنهم، وصاروا يرمون حِمَمهم عشوائيّاً.

نجا الشبابُ في الغارة الأولى، واختبئوا في كهفٍ حصين أسفل الجبل، ولم يبق غيري أمام الطائرات التي ارتفعت في طيرانها، وصارت تحوم حولي.

أوقفت الرمي بعد انتهاء الغارة، وحين غادرت الطائرات؛ غيّرت موقعي، إلى موقع أخفض في سفح الجبل!

وما هي إلا لحظات حتى أغارت طائرةٌ، ورمت تلك القمّةَ التي كنت عليها بثلاث قذائف، جعلتها أثراً بعد عَين!

وعاودتْ طائرتان من الثلاثُ الكرّة تلو الكرة، وهما تقصفان هذا المكان الذي لا يوجد فيه أحد، بل لم تُبقِيا هما فيه ما يُقصف!

بقيت الطائرتان تدوران حول تلك القمة المنهارة وترصدها طيلةَ نصف ساعة تقريباً، ثم انصرفتا نهائيّاً.

كان الشباب يظنون أنني قُتلت، فلما هدأ طيران العدوّ؛ أرادوا أن يصعدوا الجبل فناديتهم من أعلاه: إني نازل إليكم، فبدأ بعض الشباب يطلقون الرصاص ابتهاجاً، لكنني طلبت منهم الكف عن ذلك، ونزلت بغاية السرعة!

حين رجعنا إلى المعسكر؛ استقبلنا الإخوة فيه استقبالاً حارّاً، وفرح القائد عبدالعزيز العلي بعودتي سالماً، إذ كانوا سمعوا من الأخبار عن معركة نشبت، وأصيبت فيها طائرة وقتل عددٌ من الفدائيين!

لكنّ أبا أسامة قال للشباب: «إن كان قُتل أحدٌ؛ فهو أبو دجانة وحده».

وطلب أبو أسامة مني أن أشرح لهم الذي حصل؛ ليصححوا الأخبار التي نُشرت فحدّثته بدقة عمّا حصل، فصار يضحك مسروراً لنجاة الشباب، ونجاتي من بعدهم، لكنه داعبني وقال: «ما كان تُستشهد يا ابني، ونخلص منك؟».

فقلت له: معركة «سيّد قطب» قادمة، فاجعلني مع رجالها، واخلص مني، وأعدك ألا أرجع إليك أبداً!

ووافق على ذلك، لكنّ أحدَ الإخوة حدّثه أنني لا أجيد السباحة، فعدل عن ذلك وقال: أخبرني كيف لا تحسن السباحةَ، وأنت حمويّ؟

بعدَ منتصف شهر آب؛ كلفني أبو أسامة بنقل رسالةٍ ضرورية إلى الشهيد مروان في سوريا، وقال لي: لا ترجع أبداً إلى هنا، وهذا أمرٌ عسكريٌّ عليك تنفيذه.

فرجعتُ إلى دمشق، والتقيت هناك بالشهيد مروان رحمه الله تعالى، وبلغته الرسالة التي كان من مضمونها أنّ الأمور تسوء، وأنّ المعسكرات قد تُغلق قريباً، فلا ترسلوا أحداً بعد اليوم، وهيئوا أنفسكم، لعلنا نستطيع نقل بعض السلاح المتوسط إليكم!

في عملية الشهيد سيد قطب التي نُفّذت في (٢٩) آب؛ استشهد فيها من حماة الأخ زهير سعدو، رحمه الله تعالى؛ وحمل الشباب نعشه، ونزلوا به إلى حماة، وكان بصحبته الشهيد عبدالله عزّام، الذي نزل في ضيافة الشهيد مروان حديد[٥٦].

وفي أيلول من هذا العام؛ اعتقل الشهيد مروان في مدينة حماة، وبقي في المعتقل قرابة ثلاثة أشهر.

وحين خرج من السجن كنت معلّماً في متوسطة حلفايا، فما علمت بخبر الإفراج عنه إلا عندما نزلت في نهاية الأسبوع إلى حماة.

بعد إقفال معسكرات التدريب في أيلول الأسود عام (١٩٧٠م) وبعد خروجه من السجن في نهاية هذا العام؛ ظنّ الشهيد مروان أنّ هؤلاء الشباب الذين تدرّبوا معه في المعسكرات؛ سيكونون نواةَ كتائب تنظيم إخوانيّ مسلّح.

بيد أنّ قيادةَ الإخوان أصدرت قراراً يسمح بعودة جميع من تدرّب في المعسكرات إلى صفوف الإخوان المسلمين، إذا كان يتعهد بعدم الخروج على أوامر الجماعة.

واستثنى القرار الشهيد مروان حديد، وشيخاً آخر، لا أذكر اسمه الآن.

---

(٥٦) علّق الأخ حمدو حمشو هنا: إنّ «الشهيد عبدالله عزّام؛ لم يحضر يومَ استشهاد زهير، وإنما جاء إلى حماة، يوم استشهاد نصر عيسى» وجوابي أنّني لم أحضر جنازة الشهيد «نصر عيسى» ولا حفلةَ التكريم التي أجريت له، وأنا نزلت في قبر الشهيد زهير، ودفنته وحدي، وسال دمه على ثوبٍ أسودَ لي، بقيتُ سنةً لم أَغْسِلْه، وألقى الشهيد عبدالله عزام كلمة حماسيةً، لَقِيَتْ رضا أهل الشهيد والناس، لكنّ تعليق أخي حمدو ذكّرني، فصححت معلومةَ تاريخ نزولي إلى حماة، فجزاه الله خيراً.

أرسل إليّ الشيخ فارس الملي «أبو أحمد» أخي الشهيد عمر مرقة، يفاوضني في الرجوع إلى صفوف الإخوان المسلمين، وطال الحوار بيننا ساعاتٍ، لكنني كنت أرى القيادةَ التي تفصل شباباً ذهبوا ليتدربوا من أجل حمايتها؛ قيادةً سيئة.

وكان مما قلته له: أنا لم أفصل نفسي من جماعةِ الإخوان، ولا الشهيد مروان فَصلَ نفسه من جماعة الإخوان، فإذا فَصلت الجماعةُ من قام بفصلنا؛ فنعود إلى ممارسة نشاطنا في إطار تنظيم الإخوان، فنحن الإخوان المسلمون، كما يقول شيخنا مروان، وقد راجعني الشيخ فارس الملي في ذلك مرات.

وراجعني الشيخ سعيد حَوّى رحمه الله تعالى في ذلك، وطالت إحدى الجلسات معه حتى أذان الفجر، فرفضت الرجوعَ إلى صفوف التنظيم، إلا إذا فصلوا القيادةَ التي وقّعت على فصلنا، ولو أسبوعاً واحداً، لكنني أبديتُ استعدادي للتعاون معه بصفته الشخصيةِ، مع استمراري في العمل مع الشهيد مروان.

فكرة التنظيم المسلّح المستقلّ:

بعد فصل قيادة الإخوان الشهيد مروانَ رحمه الله تعالى وكثيراً من شبابه، وبعد انتهاء زمن التدريب في «معسكرات الشيوخ» كان يرفض رفضاً قاطعاً تشكيل تنظيم جديد يكون في مقابل تنظيم الإخوان المسلمين، وكنت أُلحّ عليه في ذلك إلحاحاً شديداً، وكان يغضب لمقترحي كثيراً!

وقلت له مرّةً: يا شيخنا أنت قلت لي مرّات: إن الإخوان يعتقدون بالديمقراطية وصناديقِ الاقتراع؛ لأنها تتناسب مع جُبنهم، وحبهم للحياة، وأنت تؤمن بالمنهج الجهادي في سبيل التغيير، ولم يتغيّر لديهم شيءٌ، فلماذا نضيّع وقتنا في انتظار أن تتغيّر القيادة المتخاذلة، وتأتي قيادةٌ يمكن التفاهم معها؟

قال: يا عداب..نحن لسنا جماعةً سوى جماعة الإخوان، ولسنا تنظيماً جهادياً مستقلاً نحن الإخوان المسلمون، وتنتهي مهمّتنا عندما تتبنى جماعةُ الإخوان منهج الجهاد في سبيل الله تعالى.

نحن نعمل على تدريب الشباب على السلاح، وعلى إعدادهم نفسيا وتربوياً للاعتقاد بفكرتنا، حتى يأتي اليوم الذي يهدي الله فيه قيادة الجماعة، فتتبنى خطّ الجهاد، فنكون قد استغلينا الوقت، فلم نضيعه، كما يضيّعونه هم، ونكون قد هيأنا لها عدداً من المجاهدين الشجعان، والمدَربين الأكفاء.

وكررت عليه هذا الأمرَ مرّات، فقال لي في المرّة الأخيرة من صيف عام (١٩٧١م): مدّ يدك أخي، فمددتُ يدي، فقال لي ردّد ورائي بحكم ما تراه من حقي عليك: «أعاهد الله تعالى أن لا أشقّ صفّ الإخوان، ولا أسعى إلى ذلك، ولا أحاول جمع شبابهم حولي، وألا أكونّ جماعةً، أو تشكيلاً مفرداً ما حييتُ» أو نحو هذا الكلام.

وحين ردّدت وراءه قلتُ له: ما حييتَ، فقال: بل ما حييتَ أنتَ، فقلت له: لا سلطانَ لك عليّ بعد وفاتك سيدي!

بدأنا تدريبَ الشباب الذين التفوا حول الشهيد مروان، منذ ذلك التاريخ، وكان يُشرف على التدريب الرياضيّ والعسكريّ شبابٌ ممن تدرّب في معسكرات الإخوان في منظمة فتح، أو ممن خدم العَلَمَ في سوريا، وكانت لديه مقدرة على التدريب.

كان الشهيد عبدالستار يكمل دراسته الجامعية في طبّ الأسنان، وكان الشهيد غالب الحداد يكمل دراسته أيضاً، وكان لكلٍ منهما مجموعةٌ من الشباب مرتبطة به.

وكان للشهيد مُحَمّد عجعوج مجموعته الخاصة، كما كان للشهيد فيصل غنامة مجموعته وكان للشهيد أمين الأصفر مجموعته.

وكانت مجموعتي الخاصة، وهي فعلاً ذات المهامّ الخاصة؛ مكوّنةً من الشهداء: هشام جنباز، وبسام أرناؤوط، ومأمون كاخي، وبدر ذكرى، وأحمد عبدالسلام مدلّلة.

وكان لي مجموعةٌ خاصّةٌ أخرى؛ رفضت الانضمامَ إلى مجموعاتِ الشهيد مروان فيها ابن عمي الشهيد «مُحَمّد سعيد الحمش» وابن عمي الشهيد «مُحَمّد عزّ الدين ميلص» وأخي بالرضاع الشهيد أحمد بلقيس الحوراني، وأخرون لا يزالون أحياء!

هذه المجموعات الستّ؛ هي نواة تنظيم الشهيد مروان حديد العسكريّ في حماة، وكان هناك مجموعة سابعةٌ، لم يكن عريفُها على صلة بي، ولا كان يراجعني في حماة؛ لأنه شديد الحذر.

في مجموعة عداب الحمش الخاصة؛ كان الأخ أحمدُ مدللة أكبرنا في السنّ، وكان بدر ذكرى بديناً نسبيّاً، فكانا يتعبان في التدريبات الرياضية، وكانا يعتبان عليّ بشدّتي وقسوتي في التدريب الرياضي والعسكري، مما سبب نفوراً نفسيّاً للشهيد بدر ذكرى من قيادتي للشباب.

وبعد اعتقال الشهيد مروان، ووصولي إلى لبنان؛ طَلَبتُ من الشباب أن يسمحوا لي بالعودة من لبنان إلى سوريا للعمل معهم.

فقال لهم بدر: إذا عاد الشيخ عداب إلى حماة؛ فسيتسلم القيادة هو، وأنا شخصيّاً سأترك العملَ، ولن أكون تحت قيادته.

وحين سأله الشهيد هشام جنباز عن السبب، قال: عدابٌ قاسٍ شديدٌ، ويفرض رأيَه ولا يؤمن بالحوار، وعليه فقد يكون عَمَلُنا معه صعباً!

أصرّ هشامٌ وبسامٌ على ضرورة عودتي، وأنه لا يوجد من يقوم مقامي في العملِ وانقسم الشباب بين مؤيد لرأي بدر، ومؤيّد لرأي هشام، وبلغني الخبر في طرابلسَ فأرسلت إليهم أن اجعلوا بدراً أميراً عليكم، ريثما ينتهي الدكتور عبدالستار من دراسته، فأنا مشغولٌ الآن في

العمل مع «جند الله» وقد عزفتُ عن العودة إلى سوريا، ولا أحب أن يكون بينكم خلافٌ مطلقاً، لا بسببي، ولا بسبب غيري.

وأثّر هذا الانقسامُ في نفسي، وعزمت على الابتعاد نهائيّاً عن العمل معهم، وتفرّغت للعلم الذي كنت فيه ناجحاً، ولله الحمد.

عود على بَدء:

استمرّ العمل في تدريب الشباب وتسليحهم منذ عام (١٩٧١م) وحتى عام (١٩٧٤م) والأمور بيننا تسير بانتظام، وعدد الشباب يزداد باطّراد في حماةَ، وحلب ودمشق، وحمص، وإدلب، ودير الزور، لكنّ جميع الخيوط مشدودة إلى يد الشهيد مروان رحمه الله تعالى.

لم يكن ظاهراً لدينا أيّ منهج تنظيميٍّ، مدنيّ، أو عسكريّ للشيخ مروان.

ولم تكن الأهدافُ المعلنةُ أكثرَ من الحصول على الشهادة في سبيل الله تعالى.

ولم يكن الشهيد مروانُ يتحفّظ في مخبئه، بل كان يلتقي مع من يريد دعوتهم إلى فكرته وكان هذا يُغيظ الإخوانَ المسلمين منه، كما كان يخيفنا عليه.

وفي إحدى المناسبات الدينية «المولد النبويّ» أو في حفلة زفاف أحد الإخوة، لست أضبط، وفي صيف عام (١٩٧٤م) التقيت مع الشهداء: عبدالستار الزعيم، وغالب حداد، ومُحَمّد عجعوج، وفيصل غنامة، وموفق عياش، فرغبوا أن نلتقي بعد انتهاء الحفل.

التقينا فعلاً في بيت الشهيد غالب حداد، فبدأ الشهيد عبدالستار يقول: يا شيخ عداب أنت أكثرُنا قرباً من الشهيد مروان، وأكثرنا ملازمةً له، وهو يثق بك كثيراً، ويعتمد عليك، ويحبك، وأنت أكثرُنا جرأةً عليه؛ وأنت طالب علمٍ شرعيّ من بيننا.

فقلت: وما هو المطلوب؟

قال: الإخوةُ عرفاء الفصائل هؤلاء يقولون: الشهيد مروان يتصرف بكل شيء، من دون أن يشاورنا في شيء، ومن دون أن نعرف شيئاً، ونحن في الحقيقة لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون، ونحن نعيش الرعبَ الدائم على الشهيد مروان.

عددُ الشباب في المحافظات صار كبيراً، لكنهم يتساءلون: من نحن؟ ما أهدافنا، ما وسائلنا في الوصول إلى الأهداف؟

يعني باختصار نريد لهذا التجمّع أن يكون له كيانٌ كما نريد له أن يكون له نظام داخليّ، ومنهج تربوي شامل!

فسألت كلّ واحدٍ من الحاضرين: وهل أنت موافق على هذا الكلام؟

فجميعهم قالوا: بالتأكيد!

وسألتهم: هل جميعكم موافق على تشكيل تنظيم، بعيداً عن الإخوان المسلمين.

فكان كلامهم: هذا ضروريّ، وكثير من شباب الإخوان سيكونون معنا أيضاً!

فقلت لهم: ولكني عاهدتُ الشهيد مروان أنني لا أكوّن تنظيماً مفرداً عن الإخوانِ، ولا أساهم في شقّ صفّهم؟

قالوا: أنت لن تقوم بهذا، والذي سيقوم بهذا هو الشهيد مروان نفسه، وأنت من جماعة الشهيد مروان طبيعيّاً.

قلت لهم: لنناقش ما الذي ينبغي أن نقوله للشيخ مروان، ونتّفق عليه، ونكتبه على ورقٍ، وتوقعون عليه، ثم أحاور الشهيد مروان فيه!

فاتّفقنا على أنّ الشهيد مروان لا يحبّ الجدالَ، ولا الحوار الطويل معنا؛ لأنّ مقتضى قيادته لنا أن نسمع ونُطيع!

قالوا: فليكن كلامُنا محدّداً، وواضحاً في فقراتٍ.

وتمخض عن تلك الجلسة المطوّلة صفحةٌ واحدةٌ، تتضمّن عدداً من الأسئلةِ المتّفق على جواب أكثرها بيننا.

حملنا هذه الأسئلةَ المحفوظةَ الإجابات كما هو المفترض، والتي يمكن لكل واحدٍ منا أن يجيب عليها بما اتّفقنا عليه، دون تململٍ.

وذهبت أنا والشهيد مُحَمّد عجعوج، والشهيد عبدالستار الزعيم، والشهيد موفق عياش إلى حيث مخبأ الشهيد مروان في دمشق، بعد موعدٍ مسبق رتّبه الشهيد موفق عياش، فوجدنا عنده الأخ الفاضل صفي عدي، والشهيد بسام الأرناؤوط.

حاولت أن يكون المتكلّمُ أحدَ الشباب غيري؛ لإحساسي الباطني بأن الشهيد مروان يحسّ بأنني محبوبٌ من الشباب، وقد يؤدي هذا إلى انشقاقٍ في صفوف جماعته الناشئة.

واتّفقنا على أن يكون المتحدّث هو الشهيد عبدالستار الزعيم.

وبعد تبادل تحيات الإخاء والمودّة؛ طلبتُ من الشهيد مروان أن أقوم أنا بتجهيز شرابٍ ساخنٍ للشباب، فأذن لي.

قال الشهيد عبدالستار للشهيد مروان وأنا أسمع: يا شيخنا أنت شيخنا، ووالدنا، وتاج رؤوسنا، لكنّ لنا بعض الأسئلة الملحّة، نرجو أن تجيبنا عليها، كما نرجو أن تكون الإجابات مكتوبة، حتى تكون مرجعاً لنا؛ لنلتزم جميعاً بها.

قال الشهيد مروان: هاتوا لنرى؟! فناوله عبدالستار نسخةً من الأسئلة!

فقرأ الشهيد مروان الأسئلة كلّها، ثمّ ناداني بصوتٍ مرتفعٍ نسبياً، فحضرت، فقال لي:

أليس هذا خطّكَ الكريمَ طبعاً؟

قلت: نعم هو خطّي، فربما كنت أجملَ إخواني خطّاً، فكتبتُ ما أملَوه عليّ، فما الخطأ في هذا شيخي؟

قال: هذه الأسئلة كلها جيّدة، ليس فيها شيء أعترض عليه، لكنّ الإجابة التفصيلية عليها؛ تحتاج إلى كتاب.

ثم أجاب على تلك الأسئلة إجاباتٍ سريعةً، خلاصتها:

(١) هل نحن تنظيمٌ منفصلٌ عن جماعة الإخوان المسلمين في سوريا؟

قال: نحن لسنا تنظيماً منفصلاً عن جماعة الإخوان المسلمين، بل نحن الإخوان المسلمون، بيد أنّ إخواننا في التنظيم؛ لم يفهموا بعد أن الجهادَ؛ هو السبيل الوحيد لإعادة عزّ الإسلام والمسلمين.

وما داموا كذلك، فحن نعدّ أنفسنا من جماعة الإخوان المسلمين، وإن لم نكن من تنظيم الإخوان المسلمين.

(٢) ما عنوان تنظيمنا هذا؟

قال: يمكن أن نطلق على فصيلنا أيّ اسمٍ معبّر كان، وليكن مثلاً: «جماعة المسلمين» أو «أنصار الإسلام» أو «حزب الله» فقلت أنا: «الطلائع الإسلامية» أو «طلائع الإسلام» ممكن مثلاً؟

قال: ليس المهمّ الاسم، إنما المهمّ أنّ هذا العنوان هو عنوان مؤقّت، ريثما يُفيق قادة التنظيم عندنا، فعندها نعود إلى الأصل، ويمكن أن يبقى اسم الفصيل كما هو في إطار الجماعة، بعد الاتفاق معهم على ذلك.

(٣) ما أهدافنا؟

قال: أهدافنا باختصار تتلخص في ثلاث نقاط:

(أ) إقامة الدولة الإسلامية على نهج الخلافة الراشدة.

(ب) تفجير طاقات السوريين ليعطوا النموذج الأعلى في البناء والحضارة.

(ج) استرداد سائر البلاد التي فتحها المسلمون، وإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية فيها ابتداءً بفلسطين ولبنان، وانتهاءً بالأندلس والهند والصين الإسلامية.

(٤) ما السبيل إلى تحقيق هذه الأهداف الكبرى؟

قال: الجهاد في سبيل الله تعالى، ولا سبيل آخر.

فقلت له: الجهاد كلمة عامة شاملة، فهل ننهج سبيل المواجهة، أو سبيل حرب العصابات، أو سبيل الاغتيالات، أو سبيل الانقلاب العسكري، أليس هذا كله جهاداً؟

فقال: كل ما يتيسر لنا مما ذكرت؛ فهو جائز، وعليه أدلّته الشرعية.

(٥) ما حدود علاقتنا مع الإخوان المسلمين والحركات: السلفية، والصوفية، وجماعة التبليغ، وحزب التحرير؟

قال: كلّهم إخواننا، وعلاقاتنا معهم تقوم على المودة والحب والنصيحة، ومن الممكن أن يكون شبابُ هؤلاء أسرعَ استجابةً لنا من غيرهم؛ لأنّ تربيتهم إسلامية بوجهٍ عام.

فنحن بحاجة إلى إتقان منهج جماعة الدعوة والتبليغ؛ لتبليغ عامة المسلمين فكرتنا الجهادية.

ونحن بحاجة إلى الفكر السلفي الذي يتبع الدليل من الكتاب والسنة، وينبذ التقليد الأعمى، وهذا يفسح لنا المجال للاستفادة من جميع المذاهب الإسلامية.

ونحن بحاجة إلى التزكية والأذكار لتقوية الإيمان، وتقويم السلوك البشري، لكن من غير التزام بطريقة محددة، ولا بشيخ بعينه؛ لأنّ هذا يوجب إلزاماً والتزاماً.

وحزب التحرير في الجانب التنظيريّ ممتاز، وإن كنا نخالفهم في بعض الترخصات الفقهية، كما نخالفهم في مسألة الاستعانة بغير المسلم لإقامة دولة الإسلام.

(٦) ما نظرتنا إلى الحكومة السورية؟

قال: نحن لا نقول: الحكومة السورية، وإنما نقول: نظام الحكم القائم؛ هو في الحقيقة نظامٌ نصيريّ طائفيّ، والنصيريّة كفرةٌ بإجماعِ المسلمين.

وهو في الظاهرِ نظامٌ بعثيّ علمانيّ، محاربٌ للدين الإسلاميّ على وجه الخصوص، ألم تسمعوا ما قالوا:

آمنتُ بالبعث ربّاً لا شريك له ..... وبالعروبة ديناً ما له ثانِ

أما الوزراء، وسائر القائمين بتصريف شؤون الدولة؛ فمن كان منهم نصيرياً، أو درزيّاً، أو إسماعيلياً، أو نصرانيّاً، أو يزيديّاً؛ فهؤلاء جميعهم كفرة، ولا يجوز أن يكون لهم وِلايةٌ على المسلمين، إضافةً إلى أنهم لا يُؤتمنون على أمن الأمة، ولا على خيرات البلاد.

وأما البعثيون عن عقيدة؛ فهم كفرةٌ، مثلهم مثل سائر المرتدين الملاحدة.

وأما المضطرون للعمل في دوائر الدولة؛ فكل واحدٍ منهم ينظر في حاله وتصرفاته.

وهذه المسألة حساسة جدّاً، تحتاج إلى تفصيل واسع.

(٧) ما نظرتنا إلى الحكومات العربية؟

قال: نظرتنا إلى الحكومات العربية كلها؛ موزونة بميزان واضحٍ:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧].

والرأي الراجح عند العلماء أن الثلاثة واحد، فمن حكّم شرعَ الله تعالى، في الاعتقاد والفكر، والتشريع بفروعه الكثيرة؛ فهو مؤمن، نخضع له، ونفتديه بأرواحنا، ومن خالف ذلك؛ فليس منّا، ولسنا منه.

(٨) ما موقفنا من حكومات الدول الإسلامية؟

قال: موقفنا منها؛ هو موقفنا من حكومات الدول العربية، هو موقفنا من النظام في سوريا فما الفرق، هل دين العربيّ؛ غير دين التركي، غير دين الهنديّ؟ سؤال غريب!

(٩) ما موقفنا من الصراع العربي الإسرائيليّ؟

قال: موقفنا؛ هو موقف الإسلام، سنظلّ نقاتل اليهود الصهاينة، حتى نستعيد آخر شبرٍ في فلسطين، وحتى لا نُبقي لليهود الصهاينة شوكةً فيها، ونطبّق عليهم ما طبّقه الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ على بني قريظة، بل صهاينةُ اليوم؛ شرٌّ من أولئك اليهود.

(١١) ما المنهج الجهاديّ الذي يجب أن نسير عليه في سبيل الوصول إلى غاياتنا؟

قال: هذا موضوع طويل جداً، لكن كما تقدم الكلام: كل ما يتيسر لنا من أشكال الصراع؛ فهو جائز، وعليه أدلّته الشرعية.

(١٢) ما الشكل التنظيمي لحركتنا، وما حدود صلاحيات القائد الأعلى، وما صلاحيات عرفاء المجموعات، كلّ في حيّه؟

قال: يظهر أنّ كلّ الكلام المتقدم؛ هو تمهيدٌ لهذا السؤال الذي يُخفي ما وراءه!

أنتم ماذا تريدون بالضبط؟

نحن لا نزال عشراتٍ من الشباب، من سائر المحافظات السورية، كلّ مجموعة منهم مرتبطة بعريف، والعرفاء مرتبطون بي، أين المشكلة في هذا؟

قال الدكتور عبدالستار: نحن نريد أن يكون لدينا القائد الأعلى، ولديه صلاحيات محددة، وله نائبٌ أو أكثر، ولكلّ واحدٍ من النواب اختصاص، وله في كلّ محافظة نائبٌ، ويكون لدينا مجلس شورى، ومجلس مالي، ومجلس عسكري، ومجلس إعلاميّ!

فضحك الشهيد مروان رحمه الله تعالى وقال: ما تظنون أنفسكم أنتم؟ أتظنون أنكم أصبحتم دولة؟

نحن فصيلٌ من جماعة الإخوان المسلمين، فمتى تبنى التنظيم خطّ الجهاد؛ فهم لديهم جميعُ هذه التخصصات وغيرها، فلماذا نشتت جهودنا فيما هو مفروغ منه؟ لا تستعجلوا علينا!

ثمّ إذا جعلنا واحداً منكم للإعلام؛ فهل يستطيع أن يقنع المدعوّين كما أقنعهم أنا؟

وهل هم سيسلّمون له كما يسلمون لي؟ أنا صاحب الفكرة، وأنا أعرف الناس في عرضها، والدفاع عنها.

الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ كان هو المسؤولَ السياسي والديني والعسكري والاقتصادي والاجتماعي، وكذلك كان أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، هؤلاء هم قدواتنا فهل أنتم مؤمنون بهذا أو لا؟

(١٣) ما شكل الدولة السورية المرتقبة، أهي نظام ملكي، أو جمهوريّ، أم نظام الخلافة؟

قال: حتى نوّصل إليه؛ نتكلّم عليه، بيننا وبين هذا الأمر سنون طويلة من الصراع، فلِمَ تُولون الجوانب النظرية تلك الأهميّة؟

حين نصل إلى سدّة الحكم، ولا أظنكم ستصلون في حياتكم؛ فعندها نستشير الخبراءَ الموجودين في سوريا من الشرعيين والحقوقيين والمختصين بفروع السياسة، وهم سيناقشون الشكل الممكن للحكم، بما لا يتعارض مع نظام الإسلام السياسيّ.

وذكرتم نظام الخلافة، فنظام الخلافة لا يُطبّق على إقليم، إنما هو خاصّ بالخليفة الأعظم الجامع لأقطار الأمة كلها.

والرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ لم يغيّر شكلَ أيّ نظامٍ سياسيٍّ استجاب حاكمه لدعوته، فكان هناك الملك، وكان هناك الأمير، وكان هناك السلطان، فلم يغير شيئاً؛ لأنها أقاليم، المهمّ أن تحكم بما أنزل الله تعالى.

وعلى كلّ حالٍ، هذه المسألة لم يحن موعد الكلام فيها فيما أرى.

قال: لكن هناك مسألة مهمّة، سبق ذكرها، وهي: المنهج الجهاديّ الذي يجب أن نسير عليه في سبيل الوصول إلى غاياتنا؟

هذا موضوع طويل جداً، يحتاج إلى كتابة بحث مفصّل فيه، ويمكن الإفادة من تجارب الآخرين، حتى لو كانوا غيرَ مسلمين، مع تعديل تجاربهم حتى تصبح مطابقة لأحكام ديننا وأخلاقياته.

فحبّذا لو قام واحدٌ منكم، وكتب لنا بحثاً في ذلك، بعد أن يطّلع على تجارب: نوّاب صفويّ، وهتلر، ولينين، وهوشي منه، وجيفارا، وغيرهم، وبعد قراءته عدداً من كتب حرب العصابات ونحو ذلك.

فخصمنا نظام مجرمٌ له جيش، وطائفة متماسكة كافرة، لا ترجع في خصومتها إلى حلالٍ، ولا إلى حرام، ولا إلى أخلاق.

واتّفقنا على أن يقوم بكتابة ذلك البحث عداب الحمش؛ لما هو معروف عنه من تنوّع ثقافته، ولأنه طالب علم شرعيّ، فتكون كتابته أقربَ إلى الصواب من غيره، أما غيره؛ فلا يستطيع كتابة بحثٍ كهذا، إلا بصعوبة.

كنت في تلك الأثناء أعمل مدرّساً في ثانوية «ابن العَميد» في حيّ الأكراد بدمشق أيام السبت والأحد والاثنين، وكنت أعمل في معهد التكية الهدائية الشرعيّ في حماة، أيامَ الثلاثاء والأربعاء والخميس، فكانت الأيام الثلاثة التي أكون فيها بدمشق؛ مخصصةً للمطالعة والكتابة في البحث الذي كُلّفت به، أما الأيام التي أكون فيها بحماة؛ فلا أستطيع فيها فعلَ شيءٍ؛ لأنها موزّعةٌ بين المدرسة، وشؤونِ شباب الشهيد مروان في حماة، ومنها نزرٌ يسيرٌ للبيت.

وكنت كلّما أنجزت مبحثاً من مباحثه؛ صوّرت نسخةً عنه عند أخينا وزميلنا الشهيد أحمد بوظان الكردي؛ حفاظاً على سريّة البحث، وأعطيتها لأخي الشهيد مُحَمّد عجعوج ليقرأها، ويقرئها لمن شاء من عرفاء المجموعات.

وبعد بضعةٍ وأربعين يوماً؛ انتهيتُ من كتابة هذا البحث ومراجعته، وتعديل ما اقتنعت به من ملاحظات الإخوة الشهداء رحمهم الله تعالى.

وحدّدنا يوم (١٩٧٤/١١/٣م) للاجتماع بالشهيد مروان، وتسليمه البحث.

وفعلاً حضرنا جميعاً إلى حيث كان الشهيد مروان مختبئاً في تلك الأيام، فسلمنا عليه وسلّمته دفترين مجموع صفحاتهما من القطع المدرسيّ الصغير؛ يقرب من (٤٠٠) صفحة من قَطع الدفتر المدرسي الصغير!

فقلّب الشهيد مروان الدفترين، واستكثر عددَ الصفحات، وقال: نحن أردنا (٣٠-٤٠) صفحة، ترسم معالمَ منهج جهاديّ! نحن أمّة أفعال، ولسنا أمّة أقوال وتنظيرات!

متى سنقرأ معاً هذين الدفترين؟

فأجبته بهدوءٍ بالغ: شيخنا الفاضل، أنت مَن كلّفني بكتابة هذا البحث، ونحن لن نقرأه معك، فأكثر الشباب قرؤوه على مراحل، ولا بدّ من أن يقرأه كلّ واحدٍ منهم مرّةً أخرى بعد تصويباتك وتوجيهاتك، وأنت تستطيع قراءته في يومين، فليس هو بالكبير جدّاً.

نحن نريد أن نقرأ عليك مقدمة البحث؛ لتدعوَ لنا وللبحث أن يكون على مستوى تطلعاتك، وبعد ملاحظاتك؛ عسى أن يكون هو منهاجنا النظري، وبرنامجنا التطبيقيّ.

قال: تفضّل، اقرأ!

فشرعت أقرأ مقدمة البحث في الدفتر الأول، بينما كانت عينا الشهيد مروان تقرآن فهرس الكتاب في الدفتر الثاني، وكان في عناوين الكتاب:

القائد الأعلى الحاليّ؛ هو الشهيد مروان حديد.

صفات القائد الأعلى.

صلاحيات القائد الأعلى.

نائبا القائد الأعلى.

نائب القائد الأعلى للشؤون المدنية.

نائب القائد الأعلى للشؤون العسكرية.

أمراء تشكيلات المدن والقرى.

مجلس شورى الحركة.

وشرعت في القراءة، فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم..الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمّد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد!

فالتفت الشهيد مروان رحمه الله تعالى، وقال: كفى كفى!

أخي الكريم عداب..نحن دستورنا القرآن، و منهجنا السنة النبوية، من لا يعجبه هذا فيمكنه أن يؤسسَ لنفسه حركةً على مضامين هذا البحث المطوّل، أما نحن فلا نحتاج إلى هذا البحث، ولا إلى غيره، هذا ما عندي!

واحمرّ وجهُ الشهيد، وبدا عليه الغضب، وقام يصلي، رحمه الله تعالى.

علانا جميعاً الوجومُ والصمتُ المطبقُ، حتى انتهى من صلاته، فقلت له: يا شيخنا ممكن تسمح لي بكلمات، قبل أن أستأذن؟

قال: طبعاً تفضل!

قلت: أما أوّلاً: فأنتَ مَن طلبَ كتابةَ هذا البحث، ومقتضى تكليفك لي به؛ أن تقرأه ثم تعترض عليه، ومن حقك أن تحرقه، أما أن ترفضه لمجرد أن قرأتَ بعض عناوين الفهرس؛ فلا أظنّ هذا مقبولاً، ومنك تعلّمنا الحوار والاستماع والمناقشة والصبر على المخالفِ، ونحن لسنا من مخالفيك قطعاً .

وأما ثانياً: فجميع مَن قرأ البحث من الشباب؛ قدّم إليّ ملحوظات جيّدة، وهم جميعاً وافقوا على البحث في الجملة، وفي هذه الأوراق ملاحظاتُهم لتنظر فيما لم آخذ به، فربما رأيتَه مناسباً.

وأمّا ثالثاً: فهؤلاء الإخوة جميعهم مَن طلب مني أن أعرض عليك ما عرضناه في لقاء التكليف بهذا البحث، ولست أنا مَن قادهم إليك، كما ربما تتصور.

وأخيراً، فرقبة عداب الحمش غاليةٌ جدّاً، بل هي أغلى رقبة في هذا الوجود، لكنها ترخص في حالٍ واحدة فقط، حين تكون في سبيل الله، وَفقَ عملٍ شرعيّ منظّم.

وعلى كلّ حالٍ؛ فأنا أعتذر عن العمل معكم على لا منهج، ولا خطّة، ولا وضوح!

وكنتُ قد عاهدتُك على أنني لن أشكّل أيّ جماعة، ما دمتَ على قيد الحياة، متعنا الله بحياتك، فاطمئنّ من هذه الجهة، لكنني جاهزٌ للمنازلة في أيّ وقتٍ، فمتى نويتم منازلةَ النظام؛ فأنا لست بحاجة إلى تدريب، كما لست بحاجةٍ إلى مواعظ!

وسأتركُ لك الكتابَ؛ لتطّلع عليه؛ مدّةَ أسبوع، ثم تفضّل فأرسله إليّ مع الأخ صفي أو مع أيّ أخٍ من الإخوة الحاضرين، فأنا ليس عندي نسخةٌ أخرى منه، وهو يُهمّني جدّاً.

ولكم عندي أشياءُ؛ سأسلّمها للأخ مُحَمّد عجعوج عندما أنزل إلى حماة يوم الاثنين أو الثلاثاء إن شاء الله تعالى، ثمّ استأذنتُ، وانصرفتُ(٥٧).

وحين نزلت مساءَ يوم الاثنين إلى حماة؛ التقيتهم، ومعهم الأخ مُحَمّد عجعوج فسلّمته ما لهم عندي، وسجّلناه على عِدَّة أوراق، ووقع عليها الأخ مُحَمّد عجعوج، وشهد الآخرون.

وبعد أن فهم الشبابُ مني حقيقةَ ما جرى؛ صعبَ عليهم الأمر، وأراد الشهداء هشام جنباز، وبسام أرناؤوط، ومأمون كاخي؛ أن يتركوا العملَ مع الشيخ؛ فغضبت منهم وقلت: كأنكم تريدون أن تؤكّدوا للشيخ أنّ عداباً له جماعةٌ داخل الجماعة؟ لا!

سوف تستمرون، وأنا في خدمتكم في جميع ما تحتاجونه.

وبعدها تفرّغت للعمل المدرسيّ، حيث كنت أدرّس ثلاثة أيام في ثانوية ابن العميد بدمشق، وثلاثة أيام في المعهد الشرعيّ (التكية الهدائية) بحماة، ووطنت نفسي على ترك العمل السياسي نهائياً، واعتبرت يوم (١٩٧٤/١١/٣) تاريخَ توبةٍ عن السياسة!؟

وبعد أسبوعين تقريباً أرسل الشهيد مروان إلي رسالة شفوية مع الأستاذ صفي عديّ رحمه الله تعالى، يقول فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾!

فغضبتُ كثيراً، وأخبرته أني سلمتُ ذلك إلى الأخ مُحَمّد عجعوج في ثاني أيام لقائنا؟

فقال صفيّ: أمسِ، أو أوّلَ من أمسِ كان الأخ مُحَمّد عندنا، ولم يقل للشيخ شيئاً!

---

(٥٧) علّق الأخ الدكتور رشيد العيسى على هذا الموضع بقوله: «كنت قدمت للشيخ مروان رحمه الله اقتراحاً قريباً من هذا التفكير، في ضرورة التنظيم والترتيب، وعلى إثرها تركتُ مسؤوليّةَ مجموعة الإخوة في جامعة دمشق».

قلت: بلّغ الشيخ بهذا، وقد استلمها مني هو وهشام ومأمون ثلاثتهم.

ومضى أسبوعان آخران، فأرسل إليّ يطلب مقابلتي، فرفضت، فأرسل يقول: إذا لم تحضر إلينا؛ فسنَزورك في بيتك، وهذا يسبب لك حرجاً، فاعتذرت بسبب ضيق وقتي، ولم

أزره، وأرسل إلى بيتي في دمشق مَن يتفقدُ وجودي؛ ليزورني، فلم يجدني.

وبعد أيام زارني الأخ صفي عدي في ثانوية ابن العميد، وقال: الشيخ يريد رؤيتك؛ ليعتذرَ منك، فقد تحقّق لدى الشيخ أنك لم تقم بأيّ نشاط طيلةَ هذه المدّة، ولم تذكر أمام زوّارك هنا في دمشق، أوفي حماة أيَّ شيء ممّا جرى، لكنّ الشباب يقولون للشيخ مروان: نحن نريد الشيخ عداب، فهو ربّانا، ونحن لا نرتاح مع أحدٍ غيره، ومن المحال أن يغدر عداب بشيخه مروان، أو بنا.

فقلت له: هل أنت مقتنعٌ بعمل الشيخ على هذه الطريقة؟

قال: أنت تعرف رأيي منذ سنين! ولذلك أنا ليس لي أيُّ صلة بعملكم، سوى صلة الأخوّة، والمحبّةِ للشيخ!

أنا لا أؤمن بكلّ هذه الأعمال التي يفكر الشيخ أن يقوم بها!

واقع سوريا، والواقع الدوليّ؛ أكبر مما تتصورون بكثير، وبكثير جداً، يا عداب!

لكن الشيخَ، كما تعلم، يريد الشهادة، ولا يريد غير الشهادة أبداً!

المهم ماذا أقول للشيخ؟

قلت: سلّم لي عليه، واسأله أن يرضى عني ويسامحني، وقل له: تذكّرْ يوم فصله الإخوان عام (١٩٦٩م) ثم طلبوا منه الرجوع عام (١٩٧٠م) فقال لهم: عملٌ فصلتُ منه، من المحالِ العودةُ إليه ثانيةً مدى الحياة!

أنا لا يمكن أن أرجع إلى العمل معه إطلاقاً، ولن أعمل مع غيره بكل إصرار.

وطمئنه بأن ظنّه أنني سأسحب الشباب من عنده؛ لن يتحقق، وقد ظن بي ما لم أكن أتصوّر صدورَه عنه، وكنت أظن أنني أوفى تلاميذه له.

قال صفي: طيب زُرْه وطيّب خاطره؟! قلت: أفعل إن شاء الله تعالى، إذا انتقل من البيت الذي هو فيه، فالمنزل مكشوف، وأنا لا أريد أن يؤذى هو، أو أوذى أنا بهذه الزيارة التي لن تقدّم، أو تؤخر شيئاً.

كان يومُ (٣/١١/١٩٧٤م) هو آخر يومٍ من العمل العسكريّ لي مع الشهيد مروان.

والذي استمرّ من تموز، عام (١٩٦٩م) تقريباً، ولم أرجع إلى العمل معه، ولا مع غيره!

بعد اعتذاري عن العمل مع الشهيد مروان، رحمه الله تعالى، أو قل: طَردِه إياي من العمل؛ عيّن بدلاً مني شابّين آخرين؛ ليتوليا أمرَ مجموعتي:

فالسيد أمير سليم زكية رحمه الله تعالى؛ يتسلّم إدارة الجانب العسكري!

وشابٌّ آخر من زملائنا في كلية الشريعة، لا أعرف أين هو، فأسأله إن كان يأذن بذكر اسمه؛ ليتولى الجانب التوجيهيّ والتربويّ.

قال عداب: فحتى هذا التاريخ؛ لم يكن الشهيد مروان شكّل تنظيماً خاصّاً به، ولا أطلق على مجموعاته أيَّ تسمية خاصّة بهم.

وحدّثني أخي السيّد أمير سليم زكيّة قال: «وإلى أن تمّ اعتقال الشهيد مروان رحمه الله تعالى صبيحةَ يوم الإثنين (٣٠/٦/١٩٧٥م) لم يكن اسمُ «الطليعةُ المقاتلةُ للإخوانِ المسلمين» موجوداً، ولا معروفاً، لكن في عام (١٩٧٥) وبعد اعتذار الأخ عداب عن العمل مع الشهيد مروان، وفي دمشق، وبحضوري وحضور عدد من الإخوة؛ أطلق الشهيد مروان على تنظيمه اسم (حزب الله) وكان شعار التنظيم المسلّح «قنبلة دفاعيّة (malse) وبندقية «كلاشنكوف» روسية».

قال عداب: ومما يؤكّد كلام السيّد أمير أنّ «بيانَ الجهاد» الذي صدّره الشهيد مروان قبلَ اعتقاله بأيّام، قد أورد فيه جملة «حزب الله» في الفقرة «٣» وذكر في الفقرة «٩٢» أنّ من صفات «حزب الله» أنهم يحبون الله، ويجاهدون في سبيله، والله أعلم.

****

الفصل الثالث

معالم المنهج الجهادي عند الشهيد مروان حديد

مصادر الوقوف على هذا المنهج؛ ثلاثة:

المصدر الأول: بيان الجهاد المكوّن من (٩٩) فِقرة.

المصدر الثاني: ديوان شعر الشهيد مروان، فقد ضمّن شعرَه جميعَ آرائه وتطلعاته ومنهجه في التطبيق والتنفيذ.

المصدر الثالث: هو الروايات الشفوية التي نقلناها نحن عنه، أو نقلها إلينا غيرنا ممن عرفَ ما لم نعرفه.

والمتأمّل لبيان «الجهاد» الذي وزّعه الشهيد مروان على العلماء في سوريا، قبل اعتقاله بأسبوع، والذي عجّل في اعتقاله من وُجهة نظري؛ يتوضّح لناظريه المعالمُ الآتية:

المعلم الأول: مَن المطالب بالجهاد؟

(١) البيان مُوجّه إلى العلماء، ووصفهم بالعاملين من باب التحريض النفسيّ، إذ كل عالم يظن بنفسه أنه من العاملين، أو يرجو ذلك على الأقل!

(٢) وموجّه إلى جميع المسلمين، ووصفهم بالمخلصين؛ لأنه وصف حبيبٌ إلى كلّ مسلمٍ، وجميع المسلمين يرجون أن يتحققوا بهذا الوصف النَبيّل.

(٣) وموجّه إلى الجماعات الإسلامية جميعها، بمن فيها جماعةُ الإخوان، التي يئس الشهيد مروان في آخر أيامه من استنهاض همم قادتها لتبني خطّ الإعداد والتدريب من أجل الجهاد في سبيل الله تعالى.

(٤) الشهيد يصنّف المجتمع المسلم إلى أصناف:

– الصنف الأول: الطبقة الحاكمة، وهي طبقة كافرةٌ؛ لأنها لا تحكم بما أنزل الله وكلّ من يرضى حكمها؛ فهو كافر في مفهوم الولاء والبراء عنده.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة : ٥١].

أما من يعمل معهم تحت ضغط الخوف والحاجة؛ فإذا وقف في طريق المجاهدين؛ فإنه يقتل مع سادته الحاكمين؛ لأنه في صفّ أعداء الله، ويكثّر سوادهم، ثم يحشرون يوم القيامة على نياتهم، وأمرهم إلى الله تعالى.

– الصنف الثاني: العلماءُ، وواجب العلماء قولُ الحقّ، ونصرة الحقّ باللسان والقلم والمواقف، بل وبالسنان إن كان العالم قادراً.

أما تخذيل العالم للمسلمين عن الجهاد، وتسويفه، واختراع المعاذير؛ ليستر خوفه وجبنه؛ فهذا يحشره في زمرة الموالين للطغاة، وحكمه الظاهر عند الشهيد حكمهم ثم الله يحاسبه يوم القيامة.

– والصنفُ الثالث الأغنياء، وواجب هؤلاء عنده الجهاد بالنفس والمال، فإن كانوا غيرَ قادرين على الجهاد بالنفس؛ فعليهم الجهاد بالمال.

والجهاد بالمال؛ ليس إخراجَ زكاة أموالهم فقط، وإنما هو تسليح المجاهدين والإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم.

كما كان يرى وجوب إبقاء العمل بسهم ﴿وفي سبيل الله﴾ من أسهم مصارف الزكاة.

– والصنف الرابع: هم المسلمون القادرون على حمل السلاح والجهاد، لكنهم غير قادرين على كفاية عوائلهم، وعلى تجهيز أنفسهم.

وهؤلاء يتوجّب عليهم التدرب على السلاح، وتهيئة النفس على قدر الطاقة وانتظار ساعة الحسم؛ لمشاركة المجاهدين القتال، وتكثير عددهم.

- والصنف الخامس: وهم المستضعفون من الرجال الطاعنين في السنّ، والمرضى والجبناء، والنساء والأطفال.

وهؤلاء صنفان في نظر الشهيد مروان:

فصنف قادرٌ على مغادرة البلاد، فليغادروا البلاد، قبيلَ إعلان الحرب على النظام الكافر.

وصنف غير قادر على مغادرة البلاد؛ لأيّ سببٍ من الأسباب، وعلى المجاهدين حمايةُ هؤلاء مما يحمون منه أنفسهم وأهليهم.

ثمّ إن أصابهم بعد ذلك قتلٌ، أو سجنٌ، أو تعذيب، أو تخريب بيوتٍ، أو أيّ مصيبة مما يفرزه القتال مع عدوٍّ كافر؛ فهذا موجودٌ في الدنيا كلها، ولا يجوز أن يصرفنا الخوف على حياة الناس؛ عن الجهاد في سبيل الله، مادام الحاكم كافراً!

فإلى هؤلاء جميعاً وجّه الشهيد مروان بيان الجهاد الذي سماه «نداءً».

المعلم الثاني: من العدوّ القريب والبعيد؟

لا يرى الشهيد مروان فرقاً بين طاغوتٍ عربيّ، وطاغوتٍ غربيّ، وطاغوتٍ صهيونيّ فالكل على مستوى واحدٍ من الطغيان، وجميعهم لا يحكمون بما أنزل الله فهم كافرون وظالمون وفاسقون.

ويرى الشهيد مروان أنّ «الكافرون والظالمون والفاسقون» في الآيات التي وردت وصفاً لمن لم يحكم بما أنزل؛ هي ثلاث صفات مؤكدة متساوقة، يتّصف بها ثلاثتها جميعُ من لا يحكم بما أنزل الله تعالى.

وكان يقول: إن سياق الآيات لا يدلّ على غير هذا.

وقد قال الطبري في تفسيره: «وكذلك القولُ في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس؛ لأنه بجحوده حكمَ الله بعدَ علمه أنه أنزله في كتابه؛ نظير جحوده نبوّة نَبيّه، بعد علمه أنه نَبيّ»[٥٨].

لكن الترتيب الطبيعيّ لدى الشهيد مروان: تطهير البيت الداخليّ وترتيبه، ثم العدوّ الأقرب، ثم إخضاع العدوّ الأبعد فالأبعد، ثم تبليغ دعوة الإسلام، ونشر العقيدة الصحيحة؛ لأنّ هذا موقع المسلمين الحقيقيّ!

ولأنهم جميعاً طواغيت، فالشهيد لم يكن يرى الاستعانة بواحدٍ منهم، ولا قَبول مساعِدَّة من أحدهم؛ لأنهم يتصرفون وَفق المصلحة الدنيوية، والمصلحة الآنية، وقد يغدرون في أيّ لحظة، والركون إليهم يقودُ إلى النار!

وكلّ مَن يرمي الشهيدَ بأنه كانت له ارتباطات خارجية؛ فهو مُفترٍ، فجميع سلاحنا في الفترة الأولى؛ كان شراءً من تجّار السلاح في مدينة حماة بالتقسيط!

اللهم إلا عدداً من القطع التي استطعنا إدخالها من الأردن أيّامَ أيلول الأسود (١٩٧٠)

فكان الموظفون، وأصحاب الدخل من شباب الشهيد مروان يسلّح الإنسان منهم نفسه، ويساهم في شراء قطعة سلاحٍ، تكون تحت تصرّف الشهيد مروان، يضعها حيث يرى المصلحة.

وكان رحمه الله تعالى يقول لنا: نحن نحتاج إلى سلاح مجموعةٍ واحدةٍ فقط، ثم يكون سلاحنا من عدوّنا، فسلاح الجيش السوريّ؛ هو سلاح هذا البلد، ونحن أحقّ به من أولئك الطغاة العملاء، فمتى استطعنا الحصول عليه، وبأيّ وسيلة؛ فهو حقنا الشرعي.

المعلم الثالث: أسلوب البيان

---

(٥٨) انظر تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر (١٠: ٣٤٥- ٣٥٨).

قارئ بيان الشهيد مروان يلاحظ فيه لهجة الإشفاق أحياناً، ولهجة الإنذار أحياناً أخرى، وقد تشتدّ لهجته في أثناء البيان؛ استشعاراً وإشعاراً بثقل الأمانة وعِظَم المسئولية!

وإلا فالشهيد مروان، كان مثالَ الأدب واللطف والدماثة، مع صغار إخوانه، فضلاً عن كبارهم، بلهَ العلماءَ والمفكرين، وقادةَ الجماعات الإسلامية؟

المعلم الرابع: المفاصلة بين الحقّ والباطل:

كان الشهيد مروان يرى أنّ المفاصلة الوجدانية والعملية؛ يجب أن تظهرَ بين الحقّ والباطل، فلا يجوز أن تميّع القضايا، على مبدأ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم : ٩].

بل يجب وضوحُ عدمِ الرضا عن الكفر والكافرين، وعدمِ مسالمتهم ومعاملتهم.

والحاكم إمّا أنه كافر أصليّ.

وإما أنه كافرٌ بالردّة الكلية، أو الجزئية.

ولا خلاف بين علماء الأمة على سقوط ولاية المرتدّ، وحرمة إبقائه في الحكم، إن حدثت ردّته بعد تسلّمه الحكم، كما لا يجوز أن يمكّن لكافر من حكم المسلمين لحظةً واحدة.

المعلم الخامس: الفرق بين ارتكاب المعصية وتشريعها.

للشهيد مروان منهج واضح في التفريق بين الحاكم والمحكوم في الإلزام والالتزام؛ لأنّ الحاكم مطالب بعبادة الله تعالى في ذاته، ومطالبٌ بتعبيد الناس لله تعالى أيضاً.

كما أنّ هناك فرقاً بين الحاكم والمحكوم في موقف كلٍّ منهما من الكبائر والمحرمات.

فالحاكم والمحكوم؛ حكمهما واحدٌ، إذا ارتكب أحدهما معصيةً ما.

والحاكم والمحكوم كلٌّ منهما يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لكن أمر الحاكم ونهيه إلزاميّ، وأمر المحكوم ونهيه استشاريّ.

والمسلم العادي يمكن أن يزني، ويسرق، ويتعامل بالربا، فيكون عاصياً فاسقاً، لكن الحاكم إذا شرّع الربا والزنا والسرقة؛ فإنه يرتدّ عن الإسلام!

إذا أباح الحاكم الربا، وسنّ القوانين لحماية المتعاملين به؛ فإنه يكفر!

إذا أباح الحاكم زنا المتراضيين، وأبطل العقوبة الشرعية للزنا، وحمى الزناة بالقوانين المانعة من التعرض لهما؛ فإنه يكفر!

إذا عطّل الحاكم حدّ السرقة، وحدّ الحرابة، وشرع قوانين مخففة؛ فإنه يكفر!

المعلم السادس: الفروق بين الكافر الأصلي، والمرتد، والمكفَّر ببدعته.

مما هو معلوم لدى أحباب الشهيد مروان أنه يفرق بين الكافر الأصليّ، كاليهودي والنصراني، والبوذي، والمجوسيّ، وبين الكفر الطارئ بالردّة، أو بانتقاض شعيرة من شعائر الدين، أو الكفر بالبدعة.

فالحوار مع الكافر الأصليّ؛ يكون في أصول الإيمان الكبرى، بينما يكون حوار الكافر بالردّة في المسألة التي حكم عليه بالردة بسببها، أو في الشبهة التي جعلته يخرج من الملة.

والكافر بالردّة، أو انتقاص شعيرة من شعائر الدين؛ يوقفُ، ويُجمَع مع لجنة من كبار العلماء والمفكرين المسلمين، ويظل الحوار المتكافئ الخالي من الإرهاب والتخويف مستمراً حتى تُقامَ على المرتدّ الحُجة، وتزال من أمام ناظريه الموانع، ثم يمهل ثلاثةَ أيام، ثم يطبق عليه الحدّ، فيفقد باستحقاقه إقامةَ الحدّ عليه كلَّ خصائص المؤمن واستحقاقاته.

أما الكافر الأصلي؛ فهو مصون الحياة والدم حتى لو كان يعتقد ما اعتقد المسلم المحكوم بردته!

لكنّ الكافر الأصليّ، أوالكافر بالردة؛ لا يجوز أن يكون لهما ولايةٌ على المسلمين ولو طمحا إلى ذلك وحاولا؛ فيجب محاربتهما.

أما المكفّر بالابتداع؛ فلا يُدعى كافراً في المجتمعِ، على الصحيح؛ لأنّ مسألة الكفر بالبدعة؛ غامضة جدّاً، وقد يكون الصواب في جانب المكفَّر ببدعته، أو على الأقل قد يكون معذوراً بابتداعه؛ لأنّ الابتداع؛ هو اتّباع مذهب رآه صاحبه، أو اقتنع به المسلم.

المعلم السابع: هل استيلاء الكفار من المواطنين على الحكم يدعى استعماراً؟

قال الشهيد في الفقرة «٦»: « وإذا كانوا ــ يعني الحكّام ــ اليهودَ الصهاينة، فهل نعاملُهم ونتعايش معهم، فيما إذا احتلوا بلادنا وحكمونا؟ وكيف نفعل، وما يكون موقفنا، إذا احتل بلادَنا يهودُ الصهاينة؟».

وهذا يدلّ بظاهره على أنّ الكفار من أهل البلاد إذا استولوا على الحكم؛ يكونون عند الشهيد مروان محتلّين، مثلهم مثل اليهود المحتلين، والصليبيين المحتلين، وغيرهم.

والمعروف عند العلماء أنّ هؤلاء يدعون متسلّطين، طاغين، مستبدين، والفارق الجوهريّ بين كلام الشهيد، وكلام السياسيين الشرعيين؛ هو أنّ العدوّ الخارجيّ يحتلّ جميعَ البلاد والعباد، ويستحلّ من كلّ مواطنٍ ما يستحلّ من الآخر.

أما الاستيلاء الداخلي، فيكون غالباً باسم الوطنية، أو الحزبية، أو القومية، وتكون أدوات الحكم والسلطة؛ هي من الشعب المغرّر به والمغلوب على أمره، أو من جماعةٍ من المنتفعين الذين وافقوا أولئك الطغاة لمصالح دنيوية مشتركة بينهما.

فمقاومة الاحتلال الخارجيّ بالحرب والسلاح؛ لا يختلف عليها المؤمنون من أبناء الوطن، لكنّ مقاومة الاستيلاء الداخلي؛ يختلفون عليها كثيراً؛ لأنّ الإنسان في هذه الحال قد يقاتل أخاه، أو ابنه، أو ابن عمه، أو جاره.

ومنهم من لا يستطيع أن يفهم كيف يجوز قتال هؤلاء، وهم من أهل الوطن!

ولذلك فإن فتنة الاستيلاء على مقاليد الحكم في مجتمع؛ تكون أكثر خطورةً وضرراً من الاحتلال الخارجيّ، وإن اشتركا في الحكم الشرعي ذاته، وهو مقاومة الاحتلال الخارجيّ ومقاومة الاستيلاء الداخليّ الكافر.

قال إمام الحرمين الجويني: «لا يجوز عَقد الإمامة لفاسق، وإن كانت ثورته لحاجة ثم زالت، فاستمسك بعُدّته محاولاً حملَ أهل الحلّ والعقد على بيعته؛ فهذا أيضاً من المصاولة والمطاولة، وحملِ أهل الحلّ والعقد على العقد له، بحكم الاضطرار!

وهذا ظلمٌ وغَشم يقتضي التفسيق، فإذا تُصُوِّرتْ الحالة بهذه الصورة؛ لم يجز أن يُبايَع!» [(٥٩)].

قال عداب: هذا الفاسق الذي لم يُحكم بخروجه من الدين، أما الكافر الخارج عن الدين بكفرٍ أصليٍّ، أو بالردّة؛ فلا يجوز إقراره على حكم البلاد بحالٍ من الأحوال.

المعلم الثامن: هل مقاومة المتغلّب الكافر فرضُ عينٍ، أم لا؟

قال الشهيد مروان في الفقرة (١١): «وإذا كان القتال فرضاً، فهل هو فرضُ عين؟ أو فرض كفاية؟».

قال عداب: قضيةُ إيجابِ القتالِ عينيّاً، أم كفايةً، في مثلِ ظروفِنا؛ تحتاج إلى نظر من وجهين:

الوجه الأول: تنويرُ الأمة وتثقيفُها بثقافة الجهاد.

والوجه الثاني: الاستضعافُ في الأرض.

---

(٥٩) غياثُ الأمم للجويني (ص: ٣٢٨).

أما عن الوجه الأوّل؛ فإنّ علماءَ الأمة ورثوا الخنوع والخضوع عن العهد العثمانيّ الذي كانوا يعدّون فيه السلطان العثمانيّ خليفةَ الله في الأرض، فيدعون له في خطب الجمعة ويقنتون له في أعقاب الصلوات.

وحين جاءت الحكومات الوطنية؛ عاملوها المعاملةَ ذاتها؛ لأنّ مذهب أهل السنة القائم على وجوب طاعة الإمام المتغلّب؛ لا يكوّن رجالاً شجعاناً، ينكرون على الحاكم فضلاً عن أن يثوروا عليه!

أمامَ هذا؛ فإننا نحتاج إلى برنامجٍ «تنويريّ» طويل الأمد، نُعدّ الدعاة على ضوئه؛ ليكونوا رجالاً، لديهم القدرة النفسية والشجاعة على قول: لا! للحاكم المستبدّ الظالم.

ومن مفردات هذا البرنامجِ؛ إظهارُ مواضع كفر هذا الحاكم بعينه، لا إطلاق الكلام العام؛ لأنّ العامة ليس لديهم القدرة على تنْزيل الأحكام، ولا تَعديتِها.

هذا الحاكم كافر، لماذا؟

هذا الحاكم يجب الخروج عليه، وسلب السلطة منه لماذا؟

هذا الحاكم لا يجوز طاعته، لماذا؟

ولا ريب في أنك ستصطدم بالحاكم نفسه وأعوانه من المنتفعين والجهال والجبناء أيضاً!

ولهذا قلت: برنامج طويل الأمد، ويحتاج إلى كُتيّبات صغيرة، ميسّرة العبارة، توزّع مجاناً وتحتاج إلى زياراتٍ خاصة، وغير ذلك مما لا يجهله الدعاة.

وأما الوجه الثاني، وهو الاستضعاف في الأرض؛ فيجب إزالة الاستضعاف النفسيّ أوّلاً!

يجب أن يُنتزع الخوف من نفوس الناس.

يجب أن يُنزع من قلوب الناس الوهن، حبّ الدنيا وكراهية الموت!

يجب أن يُزرع في نفوس الناس حبّ الاستعلاء على الباطل.

يجب أن يزرع في نفوس الناس حبّ الفداء.

يجب أن يزرع في نفوس الناس خُلقُ الايثار!

يجب أن يزرع في نفوس الناس حبُّ الشهادة في سبيل الله.

يجب أن يُزرع في قلوب الناس أن يكونوا في صفّ الحقّ، وليس في صفّ الأقوى.

يجب أن يزرع في قلوب الناس حبُّ العلماء الصالحين العاملين.

وهذا كله يحتاج إلى تربية، والتربية لا تكون بين عشيّة وضحاها.

لذلك أرى في تقرير شيخنا الشهيد مروان الفرضيةَ العينيةَ الفوريةَ نظراً، والله أعلم.

المعلم التاسع: وجوب الإعداد لانتزاع السلطة من الحكام الكافرين.

في الفقرات (١٣- ٢٥) يرى الشهيد مروان أن الإعداد لانتزاع السلطة من المتغلّب الكافر؛ واجب عينيّ، وليس المطلوبُ الإعداد المكافئ للعدوّ، وإنما المطلوب هو الإعداد على قدر الطاقة؛ لأنّ المعركة ليست بيننا وبين الطاغوت المتغلب الكافر، وإنما هي بينه وبين جبّار السموات والأرض، الذي بيده النصر، وبيده الهزيمة.

فإذا رأى الله تعالى منا الإخلاصَ والصدق وبذْلَ الوسع في سبيل نصرة دينه وتحكيم شريعته؛ فهو حتماً سينصرنا على أعدائه الجاحدين به، أو المعطّلين لتطبيق أحكام دينه وشريعته في الأرض ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمّد: ٧].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩].

أعود وأقول مرةً ثانيةً لمزيدٍ من التوضيح:

إن المسألةَ التي يعالجها الشهيد مروان؛ جديدةٌ على العالم الإسلاميّ الذي عاش أربعةَ عشر قرناً في ظلّ حكوماتٍ، تنحرف قليلاً أو كثيراً في تطبيقاتها للشريعة الإسلامية لكنها ترفع شعار الإسلام، وتطالب المسلمين في تطبيقه في الجملة.

وفرق كبيرٌ بين متغلّب يعلن أنه يطبق الإسلام، ويقوم بشعائره وفرائضه بنفسه، لكنه يخطئ في التطبيق، أو يظلم فيه.

وبين متغلّب يشرّع أحكاماً تخالف المعلومَ من الدين بالضرورة، ويحميها بقوة القانون والسلاح!

لكنّ الوهن الذي أصاب الأمة؛ صار يسوّغ لقادتها من العلماء والمفكرين أن يقولوا:

لا تتعجّلوا، الوقت غير مناسب، ليس لها من دون الله كاشفة، العين لا تقاوم مِخْرَزاً ليس لها إلا سيدنا المهديُّ!

وهم في الحقيقة؛ لا يتوجهون إلى التغيير في قليلٍ ولا كثيرٍ؛ لأنّ ثقافتهم هي ثقافة الخنوع للحاكم الظالم، وهي ثقافة آبائهم وأجدادهم على مدى ثلاثة عشر قرناً!

وهم ينتظرون متغلّباً أقوى، لكنه أفضل من المتغلب الظالم، حتى يَكفيَهم المهمة!

خصوصاً إذا كان الحكّام لا يجاهرون بكفرهم، بل ربما أدَّوا الشعائر الظاهرة، من صلاة العيد، وصلاة الجمعة، وربما الصلاة الراتبة أيضاً!

العلماء يعلمون يقيناً أن إباحة الزنا والربا والخمر؛ كفر صريح، وحمايةُ المتعاطين أكبرُ قبحاً وكفراً، لكنهم يقولون: نحن لا نقدر على تغيير المنكر، والثورة على الحاكم؛ تجلبُ بلاءً أكبر، فالصبر حتى يخرج المهدي، أو يطمح متغلب آخر؛ هو الحلّ الوحيد عندهم!

حين احتلّت فرنسا بلدنا سوريا؛ هبّ عددٌ من علماء الأمة يقاوم الاستعمار؛ لأنه دفعٌ للصائل الأجنَبيّ، لكنّ أكثر العلماء والزهّاد؛ لم يقاوموا، ولم يشاركوا، إلا عندما رَجَحت كفة الثائرين على فرنسا!؟

كثيرٌ من العلماء والمفكرين يُثنون على شكري القوتلي، وعلى أديب الشيشكلي، وربما وصفوهما بالشجاعة والبطولة، لكن هذا وذاك كلاهما أقرّ القوانين الفرنسية العلمانية الكافرة وعمل بها وحماها، والعلماء لا يجرؤون على تكفير هذا أو ذاك حتى اليوم.

وفي اعتقادي أنّ علماء سوريا جهّال في السياسة، وجهّال في سنن التغيير، فضلاً عن عامّتها، ناهيك عن ضباطها الذين ورثوا عن الجيشِ السوري، وريثِ الجيش الفرنسي كلّ عقائدِ العلمانية والغطرسة والعنف!

وفي ظني أيضاً أنّ المفاصلة بين الإسلام والعلمانية؛ لم تكن واضحةً لدى شرائحَ كثيرةٍ من الشعب السوريّ، بل وحتى اليوم من يصلي ويصوم ويخرج زكاة ماله؛ لا يجرؤ أحدٌ أن يصفه بالكفر، مهما صنع بعد ذلك!

وأرى أن حكام سوريا بعد الاستقلال؛ كانوا في حاجةٍ من علماء الأمة إلى الزيارات المخلصة، والنصح الحازم، والتعليم الواضح المركّز، ولم يكونوا في حاجةٍ إلى السباب والتكفير والتضليل والمحاربة.

فشكري القوتلي، وحسني الزعيم، وأديب الشيشكلي، وناظم القدسيّ، وأمين الحافظ وزياد الحريري، وغيرهم، لم يكونوا يعرفون عن الإسلام السياسيّ شيئاً، وبكلّ تأكيدٍ لم يكونوا يجحدون وجودَ الله تعالى، ولا يحاربون شريعته، لكنهم جاهلون بها جهلاً تامّاً!

فأين العلماء الناصحون الذين التقوا بهم، وكتبوا إليهم، وشرحوا لهم باختصارٍ النظامَ السياسيّ الإسلاميّ، وشجعوهم على تبنيه؟

والقول بعمالةِ جميعَ الحكّام، وتبعيّتهم العقدية والفكرية؛ يصعب عليّ التسليم به!

كما يصعب عليّ التسليم بمقولة: «لا جهل في دار الإسلام» في الجانب السياسيّ على الأقلّ؛ لأنّ أكثر العلماء والمشايخ جهلةٌ بهذا الجانب؛ فضلاً عن العسكريين العوامّ!

والشهيد رحمه الله تعالى؛ كان يرى أنّ لا عُذرَ بالجهل في دار الإسلام، وكان يرى أن تركيا بلّغت الإسلامَ لجميع الطوائف، وتكليفُ المسلم الشرعي؛ يجب أن يدفعه إلى سؤالِ العلماء، وتعلّمِ الإسلام، وعدمُ فعله الواجبَ عليه؛ لا يكون عُذراً له بجهله.

وقد أوضحت هذه المسألة أتمّ إيضاحٍ في كتابي «المجتمعات الإسلامية المعاصرة بين دار الإسلام ودار الحرب».

لهذا أرى أنّ الرحمة والشفقة بالعلماء والمشايخ؛ أولى من تحميلهم ما لا يطيقون!

هذه أبرز معالم المنهج الجهادي النظرية، عند الشهيد مروان، رحمه الله تعالى.

وقد أوضحت كثيراً من الأمور في حواشي «بيان الجهاد» فمن قرأ هذه الصفحات، ثم قرأ البيان، سيتوضّح له كلّ شيءٍ بخصوصِ فهم الشهيد مروان لقضايا الجهاد في سبيلِ الله إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

بيان الجهاد

نداء إلى العلماء العاملين، والمسلمين المخلصين، والجماعات الإسلامية

(١) يا إخوةَ الإسلام! ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة: ٤].

(٢) فمَن المخاطبُ بهذه الآية يا معشرَ العلماء، وهل هي مُوجّهةٌ إلينا، نحن المسلمين كلَّ المسلمين؟[٦٠].

(٣) وهل نفذتموها مع حكام بلادكم، أم تتعايشون معهم، ولا تظهرون لهم العداوةَ والبغضاء؟[٦١].

(٤) وهل الحكّام يحكمون بكتاب الله وسنة نَبيّه، وإذا كانوا لا يحكمون بكتاب الله وسنة نَبيّه، وإذا كانوا لا يتخذون من كتاب الله دستوراً لهم في حياتهم الخاصة والعامّة، وفي القانون الذي يحكمون به البلاد؛ فهل هم كفرة أم لا؟ أفتونا بعلمٍ يا علماءَ الإسلام! [٦٢].

---

(٦٠) المخاطَب بهذه الآية؛ هم المسلمون جميعاً، لكن القضايا السياسية؛ مرجعها إلى أصحاب الحلّ والعقد في الأمة، والعامّة تبعٌ لهم، فإذا كان أهل الحلّ والعقد جاهلين في السياسة، ضعفاء، فالواجب تكميلهم وتقويتهم، قبل إلزامهم بما ليس بمقدورهم أصلاً!

(٦١) جواب ذلك؛ أن إنكار المنكر يكون على قدر الوسع، وعلى مراتب، ولذلك قال الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وسلّمَ (مَا مِنْ نَبِيّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي؛ إلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ؛ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ! فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٥٠) والشهيد مروان في بيانه يوجبُ القتالَ على الجميع.

(٥) وإذا كان الحكامُ كفرةً وظالمين وفاسقين، فما الفرق بينهم وبين اليهودِ الصهاينة؟

(٦) وإذا كانوا كاليهود الصهاينة، فهل نعاملُهم ونتعايش معهم فيما إذا احتلوا بلادنا وحكمونا؟ وكيف نفعل، وما يكون موقفنا، إذا احتل بلادَنا اليهودُ الصهاينة؟

(٧) وهل هناك فرقٌ بين طاغوتٍ عربيٍّ، وطاغوت يهودي إسرائيلي صَهيونيّ؟[٦٣].

(٨) وهل يتوجب علينا قتالهُم؟

(٩) وإذا كان يتوجب علينا قتالهم، فهل نُعِدّ العِدَّة لقتال الكفار ثم نبدأ القتال؟ أم نقاتلهم من دون إعداد؟ أم نقول: ليست لدنيا إمكانياتُ القتال، ولذلك فقتالهم لا يتوجب علينا؟[٦٤].

(١٠) وما هو حُكم القتال لأعداء الله، ولإقامة دولة الإسلام، إذا كان أعداءُ الله هم الكفرةَ الحاكمين؟ هل هو حرام؟ أم مكروه؟ أم مباح؟ أم مستحب؟ أم سنة؟ أم فرض؟

---

(٦٢) جوابُ هذا التساؤل؛ أنّ من لم يحكم بما أنزل الله؛ فهو كافر، لكن تكفيرَ كلِّ حاكم بعينه؛ يحتاج إلى حوارٍ معه؛ ليُفهمَ منه سببُ عدم تحكيمهِ لشرع الله تعالى، أما التكفيرُ على الأعيان مطلقاً؛ فلا يجوز إلا للحاكم الكافر، أو المرتد!

(٦٣) لا فرق بين طاغوتٍ عربيّ، وطاغوتٍ صُهيونيٍّ من جهة الكفر والإيمان، لكن من جهة قتالهم؛ فأنت لا تجد واحداً من العلماء يخالفك في قتال الصهاينة، لكنك تجد أكثرَ العلماء يخالفونك في قتال الحاكم العربيّ المتغلّب؛ لأنه يقود في نظرهم إلى فتنة أكبر! أيسرها أن يقتل الأخ أخاه، والابن أباه، وهكذا!

(٦٤) حين كان الرسول صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ في مكّة المكرمة؛ لم يكن قادراً على مقارعة المشركين، والذي كان قادراً عليه؛ هو بناء العقيدة في نفوس أصحابه، وتربيتهم على الطاعة والتضحية والمحبة والفداء، وحين صار لديه مكان يأمن فيه هو وأصحابه، وحين وجد أنصاراً على الحقّ؛ قاتل المشركين، وهزمهم، وأقام دولة الإسلام في جزيرة العرب، لكن استكمال هذا؛ أخذ من رسولٍ مسدّدٍ بالوحي، وبجنودِ الله تعالى أكثرَ من عشرين عاماً، وأنا أشهد بالله أنّ الشهيد مروان قبل ثلاثة أيامٍ من اعتقاله الأخير؛ لم يكن متعجّلاً، وكان يرى أنّ الإعداد يحتاج إلى وقتٍ طويل!

(١١) وإذا كان القتال فرضاً، فهل هو فرضُ عين؟ أم فرض كفاية؟[٦٥].

ومتى، وبأيِّ سِنٍّ يُكلّف المسلم بالقتال؟

(١٢) وما حكم من يقاتل الكفار بمفرده لإعلاء كلمة الله، هل هو في الجنة أم في النار؟[٦٦].

(١٣) وما حكم من لا ينوي قتالَ الكفار وإقامةَ دولة الإسلام، وإعلاءَ كلمة الله؟

وما حكم من لا يعمل لذلك؟[٦٧].

(١٤) ماذا نسمي من يقول: الإسلام ديني، ولا يعمل بكتاب الله، أو يَنقُص منه، إن كان ذلك عن كُفرٍ به، أم عن جهالة؟

---

(٦٥) الشهيد دائماً يتساءل، ثم يقرر، ثم يلزم القارئ بتقريره، ثم يبني عليه، ثم ينتقل إلى تساؤلٍ آخر هو في حقيقته بناء على ما قرّر هو، ونحن لا نستطيع أن نُقرّر حكماً عاماً من أنّ قتالهم فرض عين، أو فرض كفاية، قبل أن ينتشر الفكرُ الصحيح، ويَعرفَ الناس أنّ هذا الحاكمَ كافرٌ، وأنّ الرضا بحكم الكافر حرام، وقبل أن يجتمع أهل الحل والعقد على منهاجٍ لمقاومةِ هذا الحاكم، وإلا فإنّ ما يترتب على الفشل في إزاحة الحاكم؛ أكبر من إظهار رفض الأمة له لكن من دون إشهار السيف! ونحن حاربنا «حافظ الأسد» وفشلنا في حربه، فكانت آثار الفشل كارثيةً، ولهذا فلا أرى مسألة إيجاب قِتال الحاكم الكافر عينيّاً؛ تقرّر بهذه السهولة!

(٦٦) نصّ ابنُ العَربيّ في أحكام القرآن (١: ٤٦٢) على أنّ هذا موضع خلافٍ بين العلماء، ورجح هو جواز ذلك من أربعة أوجه، وذكرها، فانظرها، ونصّ عليه القرطبي في تفسيره (٥: ٢٩٣) وانظر تفسير الطبريّ (٤: ٢٩٦) و(٨: ٥٧٩) وشرح النووي على صحيح مسلم (١٧: ١٩٧) والغياثي (ص: ١١٥) وهذا كلّه في مقاومة الصائل، أو في الجهاد الخارجي، أما في مقاومة الحاكم المتسلط؛ فلم يتعرض لها القدماء فيما اطّلعت، لكن أشار الجويني في الغياثي إلى عدم جواز قيام آحاد الناس على الحاكم الظالم خشيةَ الاستئصال.

(٦٧) جواب ذلك في قوله صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: (من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو؛ ماتَ على شعبةٍ من نِفاق) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩١٠) أما العمل لذلك؛ فمسؤولية أهل الحلّ والعقد، وليس هذا من شأن العامة.

(١٥) وهل كان التقصيرُ أو الخطأ من المبادئ والأفكار الإسلامية، أم من الذين يُنادون بها، ويتَبَنّونَها، وينتسبون إليها؟

(١٦) أم من مبادئكم أيها المسلمون، وهي القرآن والسنة؟[٦٨].

(١٧) هل تؤمنون بالقرآن والسنة جملةً وتفصيلاً؟ وهل يتوجب عليكم العمل بجميع ما في القرآن والسنة، ما عدا الخصوصيات؟[٦٩].

(١٨) أم إنّ القرآن نزل على مُحَمّد صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وهو خاص به وبأصحابه، وأن الآيات التي لا تستطيعون العملَ بها الآن؛ لعدم وجود الحاكم المسلم والدولة الإسلامية، كآيات الحدود؛ هل يتوجب عليكم أن تَعملوا بكل الوسائل المطلوبةِ والمشروعة لكي تتمكنوا من تطبيقها في المستقبل، وذلك بالعمل على إزالة الطغيان وتحكيم الإسلام، أم أنتم في حِلٍّ من العمل بها على الإطلاق؟[٧٠].

---

(٦٨) أرى أنّ حماس الشهيد لما يؤمن به، ويسعى إليه؛ أبعده عن موضع النِزاع! إذ لا يوجد عالم مسلم على وجه الأرض يقول: إن في المبادئ الإسلامية خطأً، فضلاً عن أن يكون في القرآن والسنة خطأً، وفكرةُ عينيّةِ الجهاد التي سيطرت على عقلية الشيخ ومشاعره؛ جعلته يعرض ما يتصوره هو، وما يعتقده هو على أنّه الحقّ الصُراح الذي لا اختلافَ في شيءٍ من جزئياته.

(٦٩) من الضروريّ أن أبيّن هنا كلمة «السنة» غير واضحة المفهوم عند أكثر المسلمين، حتى اليوم؛ إذ الذي يفهمه هذا الأكثر أنّ السنة مرادفة للحديث، فكلّ حديث مرويّ عن النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ بإسنادٍ صحيح؛ فهو سنة! وهذا المفهوم هو الذي أوقع العلماء في تناقضات، كما هو الذي أوقعهم في اختلافاتٍ لا حصر لها، وأختصر هنا فأقول: ما اتّفقت الأمة على روايةٍ أنها من هَديِ النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ فهي السنة فقط، والباقي روايات قد يثبت أن بعضها سنةٌ بعد الدراسة.

(٧٠) كان الشهيد مروانُ عُمريَّ النَزعة، ولهذا أتعب مَن بعده، والذين عاصروه؛ لم يطيقوا ما ألزم به نفسه، وأبرز نقاطِ الخلاف بينه وبينهم أنه كان يرى ما يعتقده هو؛ واجباً على الجميع، ولا عذر لأحد بسواه، وأنهم آثمون حتى يتابعوه على ما يرى. بينما يرى علماء سوريا أنهم إذا تابعوه على فكره؛ فإنّ الدولة تجمعهم في ساعة واحدة وتقتلهم

(١٩) هل تعملون على إقامة حكم الإسلام؛ لتتمكنوا من تطبيق وتنفيذ أوامر الله، أم تُهملون ذلك، ولا تتحملون نتيجةَ إهمالكم أيةَ مسؤولية بين يدي الله تعالى؟

(٢٠) وهل يمكننا، والحكامُ قد ركبوا رؤوسَهم، ورفضوا أن يحكموا بدستور القرآن وزجّوا من يطالبهم بذلك في السجون؛ هل يمكننا إقامةُ حكمِ الإسلام ودولةِ الإسلام وإعلاءِ كلمة الله، من دون اللجوء إلى القتال؟

(٢١) وهل نحن مطالبون بإعداد القوة على قدر استطاعتنا لنواجه الكفار؟ وما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ* وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

(٢٢) هل يجوز للمسلم أن يعتقد أن الكفار قد سَبَقوا، وأننا لا طاقة لنا بهم، أم هذا كان ظنَّ الكافرين أنفسِهم ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾؟

(٢٣) أو ليست المعركةُ هي بين جبّار السموات والأرض وبين الكفار ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ والله يدلّنا على الطريقِ، طريقِ الإعداد للوصول إلى رضوان الله، وإرهاب أعداء الله تعالى؟

(٢٤) ما حكمُ القتالِ إذا سيطر الكفارُ على بلدٍ أنتم فيه؟

(٢٥) وهل يَخرجُ الابنُ للقتال بدونِ إذن أبيه، والمرأةُ بدون إذن زوجها والمدين بدون إذن الدائن، والعبد بلا إذن السيد كما يقول الفقهاء؟

من دون نكيرٍ، فيبقى الناس من دون علماء! فوجود العلماء على ضعفهم؛ خيرٌ من عدم وجود علماء! والشهادة مطلب سامٍ، لكن حين تكون الشهادةُ في مَساقِ منهجٍ صحيحٍ في التغيير والجهاد، والمآسي التي تترتب على أعمالٍ غير مظنونةِ النجاح؛ توجب التفكيرَ بطريقةٍ أحسن عائداً، وأقلَّ خسائر!

أم إنّ هذا الحكم قد تغير في زماننا؟[٧١].

(٢٦) وما معنى حديثِ الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ: (من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدثْ نفسَه بالغزو مات على شعبةٍ من نِفاق)[٧٢] أو (مات ميتة جاهلية؟)[٧٣].

(٢٧) وما مدى صحة هذا الحديث وما معناه؟ وإن كان صحيحاً فهل ينطبق علينا، وهل نحن مطالبون بالعمل بمقتضاه؟[٧٤].

(٢٨) وهل نغزو في سبيل الله، ونتركُ الكفارَ يحكمون بلادنا؟

هل يتوجب علينا قتالُ الكفارِ الحاكمين أوّلاً؟[٧٥].

---

(٧١) يقيس الشهيد مروان وجوبَ قتال الكافر الداخليّ المتغلّب؛ على وجوب دفع وقتال الصائل الخارجي، وهو قياس غير صحيح؛ لأنّ من البدهيّ أن المتغلّب الداخلي هو الذي يملك أسباب القوة، ويحكم الناس بقوة القانون وبقوة جيشه، والجمهور عامّة، والناس على دين ملوكهم، فإذا أخرجنا الولد لقتاله بدون إذن أبيه، والمرأة بدون إذن زوجها، والعبد بغير إذن سيّده، فإلى أيّ مكان يلجؤون، وإلى أي موئلٍ يأمنون، بل نحن سنتركهم أمام آلة الحرب النظامية، يُقتلون ويُؤسرون وتُسبى النساء، وتهتك أعراضهن! فهذه الأحكام لا مكان لها هنا البتة؛ في الظروف الداخلية التي تَكرّست في كلّ بلد، وفي ظلّ الظروف الدولية المحيطة بنا.

(٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم في الإمارة (١٩١٠) وأبو داود في الجهاد (١٥٠٢) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٧) وهو حديث غريبٌ من الأفراد المطلقة، لم يروه عن النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ سوى أبي هريرة، ولا عن أبي هريرة غير سُميّ مولى بني مخزوم، ولا عن سميّ غير عمر بن مُحَمّد بن المنكدر، وانظر علل الدارقطني (١٠: ٨٩).

(٧٣) هذه الجملة ليست من حديث الباب، وإنما هي طرفٌ من حديثٍ آخر لأبي هريرة مرفوعاً: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، ثم مات؛ مات ميتةً جاهلية) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٤) ومسلم في الإمارة (١٨٤٨).

(٧٤) رتّبَ الشهيد صحّةَ الحديثِ على تخريجِ مسلمٍ له، لكنّ في الحديث علّتين: الأولى: التفرد المطلق، فهو لا يُعرف معناه عن النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ من غير هذه الطريق! والثانية: أن عبدالله بن المبارك قال: «فنُرى أن ذلك كان على عهد رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ» ناهيك عن أنّ تحديثَ النفس بالجهاد؛ مقدورٌ لكلّ أحدٍ لكنه غير مؤثّر في الخارج شيئاً!

أم يتوجّب قتالُ الغزاة الكفرة الذين احتلوا بلداً من بلدان الإسلام بعيدة؟ وأيهما أولى؟ وما حكم كلٍّ منهما؟

(٢٩) يا معشر العلماء؟ وإذا كنا نريد الغزوَ والقتالَ وجهادَ أعداء الله صادقين؛ أوليس من واجبنا إعدادُ القوة لذلك؟ والله يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عِدَّة وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وبماذا نحكم على من لم يُعِدُّ العِدَّة للقتال وهو يملك أسبابها؟[٧٦].

(٣٠) هل نحن المسلمين عامّةً والعلماءَ والجماعاتِ الإسلاميّةَ خاصةً، نعيش في بحبوبة من العيش في ظل نظام إسلامي؟ أم إننا نُسامُ الخسفَ من عيش الذل؟

(٣١) هل الموت في طاعة الله خير؟ أم الحياة في ظِلِّ كفرهم وآثامهم والخوفِ منهم وعدمِ الاستعداد لقتالهم؟ هل هذه الحياة بهذا الشكلِ؛ حياةٌ في طاعة الله، أو معصيته؟

(٣٢) فماذا يقول العلماء والمسئولون عن الجماعات الإسلامية؟[٧٧].

(٣٣) وما معنى قول الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ

---

(٧٥) لا يُتصوّر أن نغزوَ غزواً خارجيّاً أصلاً من دون حاكم قادرٍ على تنفيذ أوامره! أمّا قتالُ الكفار الحاكمين بلادَنا؛ فلا يمكن من دون قيادةٍ قادرةٍ على حماية الخارجين على الكافر من بطشه، وإلا كان تغريراً بالمجتمع.

(٧٦) إذا امتلك كلّ قادرٍ قطعةَ سلاحٍ، وسلّح غيره، فهل هذا يكفي في إزاحة الحاكم الكافر، أو لا بدّ من اتّفاق أهل الحلّ والعقد على إزاحة الحاكمِ، وسلوكهم السبيل القويمة الموصلة إلى ذلك؟

(٧٧) المفترض أن يقول العلماء، وقادة الجماعات الإسلامية: نحن نعيش الذل والخسف والجور، ويفترض أن يجتمعوا على رأيٍ واحدٍ في حكمهم على الحاكم الكافر المتغلّب، ثم يكون لهم موقفٌ موحّد في مقاومته. لكنّ من الضروريّ القول: إنّ الشهيد مروان كان سبّاقاً في تفكيره ونهضته، على عقلية شعبنا في سوريا بأكثر من ستين سنةً!

إنّ الذي استُشهد من أجله مروان؛ وصلت إليه الأمة اليومَ، وأشعلت ثورةً أكثرَ عفويّةً من ثورته، وللأسف!

إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥].

وإذا كان هذا هو الطريقَ إلى النار؛ فما هو الطريق إلى الجنة؟

(٣٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾[البقرة: ٢١٤]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٢].

(٣٥) وهل الجهاد الذي يأمرنا به الله سبحانه بقوله: ﴿وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[التوبة : ٤١] هو جهادُ القلب واللسان فحسب، أم قتالُ التضحيةِ والبذل؟ ماذا تقولون يا معشرَ العلماء؟

(٣٦) وهل يشتري الله من المؤمنينَ كلِّ المؤمنين أنفسَهُم وأموالَهم، أم ألسنتهم؟

(٣٧) وهل يُسمّى مؤمناً من رفض أن يبيع نفسه وماله لله؟ وماذا كان شرطُ هذه البيعةِ مع الله؟ أليس ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[التوبة: ١١١][٧٨].

فهل ترونه قال: يَخطُبون، ويُدَرّسون، ويُفلسفون، ويصارعون فكرياً، أو يستسلمون لسجنِ أعداءِ الله وتعذيبهم؛ دونما اعتراضٍ أو مقاومة؟[٧٩].

---

(٧٨) خطاب الله تعالى التكليفيّ لعباده، دائماً يكون موجّهاً إلى القادر على التزامه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً﴾ [النساء : ٧٥] فالمخاطب بقوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ إنما هو للقادرين على القتال، والقادرون على القتال إذا قاموا جميعهم للقتال، وليس ذلك من طبيعة النفس البشرية؛ فستتعطّل الحياة! ولهذا قال تعالى: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء : ٩٥].

(٣٨) وما معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥]

(٣٩) هل معنى هذا أن الله ينصر رُسلَه بحمل السلاح لإعلاء كلمة الله، والذود عن دينه وشريعته لإقامة دولة الله في الأرض؟

أم معناه أن نستسلمَ لأعداء الله يَقتُلون، ويَهتكون الأعراض، أعراضَ المسلمات، ويُجبرونَهُن على الزواج من المشركين الحاكمين، من دونِ أن نُحرّك ساكناً؟ أفتونا أيها العلماء! [٨٠].

(٤٠) وإذا كان لا يقاتل في سبيل الله إلا المؤمنون الصادقون، الذين مَرّوا بمراحل التربية والسلوكِ؛ فمتى تنتهي مرحلةُ التربية هذه، يا مَن تقودون الجماعات الإسلامية؟

(٤١) وما هو المقياسُ لتقدير أهليّةِ المسلمِ لأن يكون مُقاتلا؟ أو إنّه غيرُ أهل؟

أوْ إنّ الجماعةَ وأهلَ الطريق؛ أهلٌ للقتال أم لا؟

(٤٢) وهل يمكن لكم أن تُقدّموا أنفسكم للقتال، وفيه ما فيه من الإعدادِ اللازم على جميع المستويات المادية والمعنوية، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾

[التوبة: ١١١] [٨١].

---

(٧٩) هذه هي طبيعةُ الاستبداد، والشهيدُ مروان نفسه؛ قد تعرض لأنواع من التعذيب؛ جعلته يتصوّر وجودَ رقابةٍ حتى على عقله وما يفكّرُ به، فهل تعريض الناس جميعاً لهذا؛ أمرٌ مشروعٌ، أم إن هذا قد يَفتِنُ المسلمَ عن دينه؟!

(٨٠) الطبيعيّ أن لا نستسلم، لكن الله تعالى قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة : ٢١٤] فالابتلاء والوقوع تحت ضغط الظالمين وقهرهم؛ واردٌ، وليست المجابهة الفورية مفيدةً في كلّ آن!

(٤٣) وأنتم ترغبون بالجنة؟

(٤٤) ما الفرقُ يا أيها العلماءُ بين قول الله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾[البقرة: ٢١٦] وبين قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)[البقرة: ١٨٣].

وما معنى (كُتِبَ) في الأولى و(كُتِبَ) في الثانية؟

(٤٥) وإذا كان معنى ﴿كُتبَ﴾ فُرِضَ؛ فبالتالي كان القتال فرضاً على المسلمين، كما هو حال الصيام.

(٤٦) ولكن إذا كان موعدُ الصيام في رمضان، فمتى موعدُ القتال؟ أفتونا يا معشر الفقهاء!

(٤٧) وبأي حجة أيها المسلمون تُعفون أنفسكم من القتال؟

(٤٨) وهل لكم يا أيها المسئولون في الجماعاتِ الإسلاميّةِ والطُرُقِ الصوفيّةِ؛ أن تعفوا أنفسكم من القتال بحُجّة من الحُجَج الآتية:

١) عدمِ الاستعداد! وما يمنعكم من الاستعداد؟ والله يأمركم به، ولم يُكلِّفْكم فوقَ طاقتكم حين قال لكم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفال: ٦٠].

٢) الحذرِ والخوفِ من انكشافِ أمرِ الاستعداد، من السلطةِ الكافرة الحاكمة!

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١٣].

﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) [الفجر: ٢٥- ٢٦].

---

(٨١) يُلاحَظ هنا أن الشهيدَ لا يَقصدُ الوقوف في مُواجهة طغيانِ الحاكم الكافر بِردودِ فعلٍ فورية، إنما يقصد توجه قيادات الأمة إلى ضرورات الإعداد والاستعداد، مهما أخذ ذلك من زمن، وهذا ما صرّح به لي قبل اعتقاله بيومين وقد ذكرت ذلك في منهجه الجهادي فانظُرْه.

أتتركون أمرَ الله بالاستعداد؛ خشيةَ الكَفَرة، وتخافون العبيد الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؟

أليس تركُ الاستعداد معصيةً، والرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ يقول: (مَوتٌ في طاعة اللهِ؛ خير من حياة في معصية الله)[٨٢].

٣) أَوْ تَعتقدون أنكم لستم أهلاً للقتالِ، أو مواجهةِ أعداء الله، وأنتم تزعمون أنكم من «حزب الله» وترضون بالذل؛ فكأنكم تنسبون الذُلّ لله عزّ وجلّ الذي تنتسبون إليه![٨٣].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُون﴾[المنافقون: ٨].

٤) أو فقدان التربية الإيمانية عند أفراد الجماعات الإسلاميّةِ، أو أهل الطريقِ، أو نقصانها؟

فهل تربيةُ الكفّار أقوى من تربيتكم لإخوانكم ومريديكم، حتى إننا نجدُ أهلَ الكفر يندفعون للقتال، وأنتم وإخوانكم ومريدوكم لا تندفعون؟

فما هي غايتكم وما هي غايتهم؟ وما هي طريقكم وما هي طريقهم؟

---

(٨٢) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ أخرجه الطبرانيّ في المعجم الصغير (٧٤٩) والكبير (٢٠: ١٧٢) وفي مسند الشاميين (٦٥٨) وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥: ١٦٦) وقال: «غريبٌ من حديث معاذ، لم يروه عنه إلا يزيد ابن مرثد، وعنه الوضين بن عطاء» ورواه إسحاق ابن راهويه عن سويد بن عبدالله، عن يزيد بن مَرثدٍ، من دون الوضين» وأورده الهيثميّ في مجمع الزوائد (٥: ٤٢٨) وقال: «يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ والوضين بن عطاء؛ وثقه ابن حبان، وضعّفه جماعة» قال عداب: الوضينُ في مقام من يقبل في المتابعات، ولم يتابَع على حديثه هذا فالحديث ضعيفٌ، لكنّ معناه لا اختلاف على صحّته.

(٨٣) ليس بالضرورة ذلك! بل ربما نَسبْنا الذلَّ لأنفسنا بذنوبنا من جهة، وضعف إمكاناتنا من جهةٍ أخرى، وتعالى الله أن يُنسب إليه شيءٌ من هذا، وهذا الاستنتاجُ غير صحيحٍ البتة، وإلا كان كلُّ من عصى الله بمعصية؛ نسب الله إلى تلك المعصية، وهذا لم يَقُلْ به أحد، والله أعلم!

ومَن هو ناصركُم، ومَن هو ناصرهم؟

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ)[مُحَمّد: ١١].

إنّ التربيةَ الإيمانيةَ؛ لا تتأتى إلا لمن يأخذون الإسلام بكامله، ولا يتَخَلَّوْن عن فريضة الجهاد.

٥) أو بحُجّةِ الحفاظِ على الدعوة والتنظيم ومصلحتيهما!

إذا كان الحفاظُ على التنظيمِ؛ هو الذي يمنعكم من القتالِ، فما هي مهمة التنظيم؟

إن تنظيماتِ الأحزابِ والجماعاتِ كلَّها تقوم على العمل للسيطرة على نظام الحكم في البلاد التي يَقطُنونها؛ لكي يَحكُموا بمبادئهم، ويحققوا أهدافهم، مهما كانت تلك المبادئ والأهداف!

أمّا أنتم فتتركون القتالَ، وتعصون اللهَ بترككم القتالَ، وتخاذلِكم عن نصرةِ دين الله، والله هو الذي علّمنا أن طريق القتالِ؛ هو الطريقُ الوحيد للنصر والغلبة، وتحقيق المبادئ والأهداف، فالله تعالى يقول:﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)[التوبة: ١٤].

فهل جعلتم مصلحة التنظيم وَثناً يُعبدُ من دون الله؟[٨٤].

وأما الدعوةُ؛ فهي دعوة اللهِ، وقد تكفل الله بحفظها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

وما عليكم إلا أن تسيروا في طريق الدعوة والقتال لتنجوا من عذاب الله تعالى!

---

(٨٤) كان الشهيدُ مروان يُردّد هذه الجملةَ كثيراً، لكن الذي ينبغي الانتباه إليه؛ هو أنّ واقع حال الأمة في زمان مروان؛ يستدعي (إعادة صياغة العقل المسلم) ليكونَ مهيّئاً للتضحية والفداء، والشهيد مروان لا يريد في هذا الحشد الهائل من الأدلة إلا أن تتبنّى الحركاتُ الإسلاميّة فكرةَ الجهاد، ثم تقوم بالإعداد والاستعداد لذلك.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[مُحمّد: ٤٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

٦) أو إخفاقِ الثوراتِ، كفشلِ ثورةِ الأكراد! ما بالُكم تضربون المثل بالثوراتِ المخْفِقَةِ الفاشلة، لتُسوّغوا[٨٥] قُعودَكم عن فريضةِ الجهاد، فإذا لم يكن في القتال إلا الموتُ في سبيل الله، فهل الموت على الفراش أفضل؟

وأنتم تعلمون أن الموت والأجل بيد الله، ومن لا يعتقد بهذا؛ فهو كافر! كافرٌ ببعضِ كتاب الله، ومن يَكفرْ بشيءٍ من القرآنِ؛ فهوكافر!

فاسمعوا إن شِئتُم:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً﴾[آل عمران : ١٤٥].

﴿إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس : ٤٩].

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[الجمعة: ٨].

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾
[آل عمران: ١٥٤].

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ﴾
[البقرة : ٢٤٣].

ثم اسمعوا إن شئتم: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[آل عمران: ١٥٧].

---

(٨٥) في الأصل: لتبرّروا، والصواب لغةً ما أثبتناه.

فهل تجدون في كتاب الله عز وجل مَثَلاً يُثبّط المؤمنين عن القتال، أمْ إنّ الله سبحانه يقول:﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[البقرة: ١٤٨].

ففي القتالِ ينالُ المؤمنُ ثوابَ الدنيا، وحسنَ ثواب الآخرة.

ثم لا تنسوا أن الأكرادَ اعتمدوا في ثورتهم على إيرانَ، واتخذوها سنداً لهم، فلمّا تخلت عنهم إيرانُ، وتخلى عنهم سندُهم؛ فقدوا الثقة بالنصر وبأنفسهم، فهُزِمت ثورتُهم!(٨٦).

وأما نحن المؤمنين؛ فإننا نتوكل على الله، وهو ناصرنا ووليُّنا:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق: ٣].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾[مُحَمّد: ١١].

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾[آل عمران: ١٦٠].

---

(٨٦) في الفقرة (٤٩) وصف الشهيد ثورةَ الأكراد بالثورة الجاهلية؛ لأنها ثورةٌ قومية، هدفها الانفصال، المعارض للقرآن الكريم في وجوب توحّد المسلمين، إضافةً إلى كونها ثورةً علمانية ماركسيّة فاسدة!

ثم اسمعوا إن شئتم:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَاد)[آل عمران: ١٢].

فمَن تُبشرون بالنصرِ، ومن تُبشرون بالخذلان يا معشر المسلمين؟

٧) أو عَدَمِ وُجودِ النصير الذي يَمُدّ بالذخيرة والسلاح!

إن الله كلفنا أن نُعِدّ استطاعتنا، وبعد ذلك نتوكّلُ على الله، واسمعوا إن شئتم:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)[الفتح: ٤]

هذا من جهةٍ، ومن جهة ثانيةٍ؛ فإننا ننتزع السلاحَ من أيدي أعدائنا بإذن الله تعالى.

٨) أو عَدَمِ الثقة بإخوانكم المسلمينَ، أو عَدَمِ التعاون معهم، والله تعالى يقول:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

فإنّ بالإمكان أن يتعاونَ المسلمون على أكبرِ خير وبرٍّ، وهو قتالُ أعداء الله، وإقامةُ حُكمِ الإسلام، ثم تَتَولّدُ الثقةُ بطريق القتالِ، ويُعرَف المخلصون من خلال المحن!

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾[السجدة: ٢٤].

ومما يؤدي إلى الثقة والمحبة بين المسلمين أن يتذكر كلٌّ منا حديثَ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ:

(طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس) [٨٧].

وقوله أيضاً: (كل بني آدم خطّاءٌ، وخيرُ الخطائين التوابون) [٨٨].

---

(٨٧) من حديث الحسين بن عليّ رضي الله عنهما؛ أخرجه أبو نُعيم في حلية الأولياء (٣: ٢٠٢) مسلسلاً بأئمة آل البيت رضوان الله عليهم، ومسلسلاً بصيغة: «أشهد بالله، وأشهد لله» ومن حديث أنس بن مالكٍ؛ أخرجه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٧: (١٠٣٦٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٦١٣) وإسناده حسن.

(٨٨) من حديث أنسٍ رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في مسنده (٣: (١٣٠٧٢) وابن ماجه (٤٢٥١) والترمذيّ (٢٤٩٩) وقال: «هذا حديث غريبٌ، لا نعرفه إلا من حديث عليّ بن مَسْعَدَة عن قتادة، عن أنس» قال عداب:

وعلى هذا؛ يحاسبُ كلٌّ منّا نفسَه حساباً عسيراً، ويعتبرُ أن كلَّ أخٍ من إخوانه مُعَرَّضٌ للخطأ بطبيعته، ولهذا يتوجب أن ينصَحَه، ويتواصى معه بالحق والصبر، ويتسامحَ معه بنيّةِ إصلاحه، ولا يتكبرَ عليه!

وما أجمل صفاتِ المؤمنين من أصحاب رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، ومن تبعهم بإحسان في كل زمان ومكان:

﴿مُحَمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[مُحَمّد: ٢٩].

اسمعوا: ﴿مُحَمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

شَغَلتهُم أُخراهم عن التفكير في سفاسف الأمور، وتَسَقُّطِ عوراتِ الناس وعيوبِهم، وقد فهموا، وتمثّلوا قولَ الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣].

وإنّ اللهَ قد كلّفكُم بالقتالِ، وتحريضِ إخوانكم المؤمنين، فإن لم يستجب لكم أحدٌ؛ فـ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة : ١٠٥].

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤].

(٤٩) فهل تُعفون أنفسَكم من القتالِ بحُجّة عدمِ الاستعدادِ، والحذرِ، والخوفِ من اكتشافِ الأمر، أو فقدانِ التربية الإيمانية، والحفاظِ على الدعوة ومصلحتِها، وإخفاقِ الثورات

وقد صححه قوم لقوة صلة عليّ بن مسعِدَّة بشيخه قتادة، وضعّفه آخرون لعموم منزلة عليّ بن مسعِدَّة في مرتبة الاعتبار، وعدمِ الاحتجاج بما ينفرد به، وهو ما أذهب إليه.

الجاهليّة، وعدمِ وجود النصير الذي يُمِدُّنا بالذخيرة والسلاح، وعدمِ الثقة بإخوانكم؟ فإن الله تعالى لم يُعْفِ مِن القتال إلا الأعرجَ والأعمى والمريضَ! [(٨٩)] فما رأيكم يا قادةَ المسلمين، ويا علماءَهم؟

(٥٠) وتدبروا قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ألاّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)[التوبة: ٩١ – ٩٣].

(٥١) والسؤالُ يا معشرَ الفقهاء هو: أَيُعفى من القتال الفقيرُ الذي لا يَملِكُ العِدَّة، أمْ إنّ عليه أن يَقِفَ إلى جانب المقاتلين، إذا كان القتالُ فرضَ عَينٍ، يُمِدُّهم بالماءِ، وينقلُ الجرحى، وينتظرُ حتى يَتمكّنَ من الاستيلاءِ على سلاحٍ يقاتلُ به، أو ينتظرُ حتى يُستشهدَ أحدُ إخوانه فيأخذَ سلاحَه، ويقاتلَ مكانَه؟[(٩٠)].

(٥٢) وهل يَتوجّبُ على الأغنياء أن يُسلّحوا الفقراءَ في حالة الإعداد للقتال؟

(٥٣) وهل يجوز للمسلمين أن يمنعوا سهمَ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة : ٦٠] من أموال الزكاة إن وُجِد من يُطالِبُ به ليتجهَّزَ للقتال في سبيل الله؟

---

(٨٩) الشهيد هنا يلخص الاحتمالات السبعة التي أوردها مُفصّلةً لبيان أسباب انصراف المسلمين عن الاستعداد والإعداد للجهاد في سبيل الله.

(٩٠) من شدّة حماس الشهيد مروان لفكرته؛ جعله حماسُه ينتقل بقوّة من طلبه الاستعدادَ للجهاد، إلى وجوب حضور المعركة الفاصلةِ، التي لا يُعذر أحدٌ بالتخلّف عنها.

(٥٤) وهل يُغني عن الأغنياء أن يدفعوا زكاةَ أموالهم، دونَ أن يَبذُلوا من أموالهم؟

(٥٥) وهل يُنجيهم ذلك عند الله، إذا لم يقاتلوا بأنفسهم، وهم من غيرِ أصحابِ الأعذارِ المذكورين؟

(٥٦) وما معنى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠- ١١].

ألا يوحي هذا بأن العذاب واقعٌ، أو سيقعُ إن لم تجاهدوا، وأن النجاةَ من العذاب [إنما تكون] بالجهاد؟

(٥٧) وإذا كان السلاحُ في أيامنا لا يستطيع استعمالَه في القتال إلا المتدربون؛ فهل يكون التدرُّبُ [على السلاح] فرضاً، إذا كان القتال فرضاً؟

(٥٨) ثم ما المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

(٥٩) ثم أليس من الأفضل لهؤلاء الأغنياء الذين رَضُوا بأن يكونوا من الخوالف بقعودهم عن القتالِ؛ ألا يَتفلسَفوا، وألا يتحذلقوا[٩١] ويتظاهروا بالفهمِ، ويأتوا بالحُجَجِ الإبليسية؛ ليُثَبِّطوا هِمَمَ المجاهدين، وهم لا يفقهون؟! إنهم لا يفقهون بصريح الآية!

(٦٠) فليحذر المؤمنون أن يسمعوا لأقاويلهم، ولو كانوا من الكبار! ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِين رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾

[التوبة: ٨٦ – ٨٧].

---

(٩١) التحذلق: ادّعاء الإنسان أكثرَ مما يمتلك من صفات. القاموس (حذلق).

ثم مَن هُم الذين ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[التوبة : ٩٥] (٩٢).

أليسوا هم القاعدين عن الجهاد، الراكنين إلى الحياة الدنيا، المتخاذلين عن نصرة دين الله الذين يقول الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ إنهم نَجَسٌ؟

إنّهم كالجيفة النتنة بين الأحياءِ، ومأواهم جهنّم، وساءت مصيراً؛ لأنهم رَضُوا بالذُلِّ والهوانِ في الدنيا(٩٣).

(٦١) وإذا كان رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ يقبل أن يَخرُجَ معه للقتالِ؛ من كان في سِنِّ الخامسةَ عشْرَةَ، فبأيّ سِنٍّ من العمر كان يُعفيهم من القتال؛ علماً بأن القتالَ كان بالسلاح الأبيض، وهو من أشقِّ وأصعب أنواعِ القتال؟

هل كان يُعفي من القتال من بلغ الأربعين عاماً، أم الخمسينَ، أم الستينَ، أم السبعين؟

(٦٢) وكم كان عُمُر رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في آخر غزوةٍ غزاها؟ ألم يكن فوق الستين عاماً؟

---

(٩٢) لم تُذكر الآية بتمامها في الأصل، ورأينا إثباتها أولى.

(٩٣) يلاحظُ هنا أنّ الشهيد مروان يَحمل الآيات الواردة في المنافقين؛ على المؤمنين القاعدين عن القتال! مع أنّ الله تعالى يقول: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[النساء : ٩٥] ويبدو لي أنّ في هذا الحَمْل نظراً؛ لأنّ دعوةَ الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ الناس للقتال؛ لا تشبهها دعوةُ أحدٍ غيره، وهذه الآيةُ صريحةٌ في أنّ من المؤمنين مجاهدين، ومنهم قاعدون عن الجهاد! فما لم يكن الجهادُ فرضَ عينٍ؛ لا يصحّ الاستدلال بالآيات الواردة في المنافقين على غلط المؤمنين..ومَنْ مِنْ علماء الأمة المعاصرين؛ يُقرّ للشهيد مروان بأنّ جهاد الحكّام فرضُ عين، حتى يصح الاستدلال بتلك الآيات الكريمة؟

(٦٣) وكم كان عمره صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في معترك القتال، في غزوة حنين، وقد تراجع عنه أصحابه[٩٤] وهو يقول: أنا النَبيّ لا كَذِب أنا ابنُ عبدالمطلب؟

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله!

(٦٤) وسؤالي إليك أيها القائد: بأي حُجّة تُعفي نفسَك من القتال، وترغبُ عن مواقفَ وقفها رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في مقارعةِ الكفّار والمشركين؟

والله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١].

(٦٥) هَل معنى أن يتعمّمَ أحدُنا، ويُطلقَ لحيتَه، ويتعلَّمَ، ويتفقّهَ في الدين؛ أن يُعفيَ نفسَه من القتال؛ بحُجّة حِفْظِ العلمِ، وتَفقيهِ الناس في دينهم؟

أمْ إنّ من واجبه أن يقودَ الناس في المعارك، ويُحرّض المؤمنين على القتالِ؛ أسوةً برسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ سيّدِ العلماءِ والفقهاء والمجاهدين؟

(٦٦) وبأيّ وجهٍ تلقَوْن الله، وتُقابلون رسولَ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ إذا سُئلتم يوم القيامة عن قعودكم عن قتالِ الكفارِ، ورُكونكم إلى الظالمين؟

هل تقولون: إننا كنا ضعفاءَ، أو كُنا لا نجد النصير؟

فها نحنُ نَدعوكم للتعاون معنا على قتال أعداء الله، ونحن الأقوى بالله!

(٦٧) فلا تُسوّلْ لكم أنفسُكُم بأنكم معذورون، بل حَكّموا كتاب الله بينكم وبين أنفسِكم، وزِنوا أنفسَكم بميزانه، ثم أجيبونا على أسئلتنا بصدقٍ!

---

(٩٤) في هذا السطر تقديم وتأخير؛ ليستقيم المعنى، من دون إضافةِ، أو حذف شيءٍ!

(٦٨) ومن المعلوم الواضحِ أنّ الإنسان كلما تقدم في العُمُر؛ كلما اقتربَ أجلُه، فلماذا تَحرَصون على الدنيا، ولا تُبيّنون حُكمَ الله، أو تجاهدون عند اقتراب أجلكم؛ لتفوزوا بالشهادةِ، ورِضوان الله؛ عِوضاً عن أن تموتوا على فُرُشكم؟

(٦٩) وماذا يملك أعداءُ الله أن يفعلوا معكم، إن كنتم مع الله؟ هل يستطيعون تقديم آجالكم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤].

(٧٠) هل يستطيعون قَطْعَ أرزاقِكم، والله تعالى يقول:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُون (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(٢٣)﴾[الذاريات].

وصدق رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في قوله: (لا تسبطئوا الرزقَ؛ فإنه لن يموت العبدُ حتى يَبلغَه آخرُ رِزقٍ هو له، فأجملوا في الطلب: أخذِ الحلالِ، وترك الحرام)[٩٥].

(٧١) هل يصيبكم إلا ما كتب الله لكم؟ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون)[التوبة: ٥١].

(٧٢) وبأيِّ حالٍ، أتجدون أجرَ الله ومثوبَتَه ورضوانَه بإغاظة الكفارِ، ومحاربتِهِم؛ أم برضائهم عنكم، والذلة لهم؟

(٧٣) فكروا قليلاً بعقولكم، كم تخسرون إذا غضب الله عليكم، ورضي الكفار عنكم، وكم تربحون إذا رضي الله عنكم، وغضب الكفار؟

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(٩٥) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٣٩) وآثرنا نقلَ الحديث من صحيحه بحروفه؛ لأننا نعلم من حال شيخنا الشهيد مروان أنه كان يكتب من ذاكرته.

إن الخسارةَ؛ ليست خسارةَ المالِ، وليست خسارةَ الوظيفةِ، وليست خسارة الدنيا بأكملها، إنما الخسارةُ؛ أن تخسرَ نفسَك وأهلَك يوم القيامة!

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٥-١٦].

(٧٤) إن أخشى ما أخشاه عليكم: إذا بدأ عبادُ الله بقتال أعداءِ الله؛ أن تَقفوا مَوقفَ المتفرِّجِ، ولا تقاتلوا! فتكونَ النتيجةُ أن يَسحقَكُم أعداءُ الله وأنتم في بيوتكم، ثم تذهبون بعدها إلى النار، وغضب الجبار؛ لأن الله أمركم بالقتال؛ فلم تستجيبوا، وأسلمتم إخوانكم المجاهدين لأعداءِ الله؛ يقاتلونهم وأنتم قاعدون!

والله سبحانه قد اشترى منكم أنفسَكم وأموالكم مُقابلَ الجنة!

(٧٥) والشرط في هذه البيعة؛ أن تُقاتلوا، فَتَقتُلوا، وتُقتَلوا! لا أن تتقاعسوا، وتستسلموا للقَتلِ كالنعاج!

(٧٦) أمّا إن كنتم من المستضعفين الذين ذكرهم الله ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

فمن واجِبِكم أن تنصروا المقاتلين بعواطفكم، وتشجيعكم، ودعواتكم، وبأموالكم إن كنتم من أهل المال، لا أن تُثبِّطوهم عن القتال!

والرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ يقول: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا)[٩٦].

---

(٩٦) من حديث زيد بن خالدٍ الجُهنيّ رضي الله عنه؛ أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣) ومسلم في الإمارة (١٨٩٥).

(٧٧) أما إذا بدأ القتالُ وأنتم لم تَستعدّوا، لا بالسلاحِ، ولا بالتدريب؛ فهل أنتم معذورون عند الله، ألم تقرؤوا في كتاب الله؟

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفال: ٦٠].

فهل أنتم معذورون، أو تُقبل حجتُكم عند الله، أم إنّكم لا تصغون لهذه الآيةِ، وكأنها لا تَعنيكم؟

ولعلكم كنتم تقرؤونها في صلاتِكم، ولعلكم كنتم تُفيض لها دموعُكم؛ دون أن تشعروا أنكم مطالبون بالعمل بها!

(٧٨) يا معشر العلماء، ما معنى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[الفرقان: ٧٣].

وبعد أن تُبَيّنوا لنا معناها؛ تذكروا معنى الآيات الآتية:

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٦ – ٣٨].

(٧٩) يا معشرَ العلماء، ويا قادةَ الفكر والجماعاتِ، ويا أهل التربية والسلوك، هل تظنون أنّ القعودَ عن الجهادِ، وقتالِ أعداء الله؛ ذَنبٌ صغير؟

اسمعوا إن شئتم: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٣ –٨٤].

(٨٠) فلْنَتُبْ جميعاً إلى اللهِ من ذنوبنا وتقصيرنا وقعودنا عن الجهاد ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

(٨١) ولْنبدأْ بالاستعدادِ للقتال؛ فبأسُ الكفارِ واقعٌ بنا لا محالة! وليس أمامنا إلا أن يبدأَ كلٌّ مِنّا القتالَ، ويحرّضَ المؤمنين!

(٨٢) وهل من طريقٍ إلا أن يُكلّفَ المؤمنُ نفسَه، ويحرض إخوانَه، والله تعالى يقول: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾[النساء: ٨٤].

(٨٣) وهل هناك مجالٌ للاختلافِ على الجهادِ وقتالِ أعداءِ الله، والآياتُ بيناتٌ واضحاتٌ؟

(٨٤) وما هي نتيجةُ الاختلافات بعد أن جاءتنا البينات؟

اسمعوا إن شئتم قول الله تعالى، وهو يحذركم:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٥ – ١٠٧].

(٨٥) إننا ندعوكم للقتال معنا؛ لإعلاءِ كلمةِ الله، وإقامة دولتِه في الأرضِ، وامتثالِ أمر الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

(٨٦) وسوف نبدأُ القتالَ من حيث أمرنا الله أن نبدأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

(٨٧) فمِن كان يَخشى على رأسِه؛ فليخرُجْ من البلادِ، إن كان الخروج مُنجيَه! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٣- ٢٤٤].

وأنّى للفِرارِ أن يُنجي من الموتِ، أو القتل؟ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وأنّى للقعودِ أن يُنجي من القتل؟ ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران: ١٥٤].

(٨٨) وكونوا على حَذَرٍ من أن تَتولَّوْا، أو تقولوا ما يقوله الكافرون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾[آل عمران: ١٥٦].

(٨٩) فالله الله يا معشرَ العلماءِ والقادةِ والمربّين! بيّنوا حكمَ القتالِ لإخوانِكم، وأعدّوا أنفسَكم ومن معكم للقتالِ، قتالِ أعداء الله، الكفرةِ الحاكمين.

(٩٠) ولْيكن بيننا التعاونُ والتشاوُرُ لنقاتلَ في سبيل الله؛ صَفّاً واحداً، وبآن واحد، ولْنترك الخلافَ جانباً.

(٩١) لِنتّقِ اللهَ؛ فإن في الخلاف معصيةَ الله تعالى، والذلَّ والهوانَ في الدنيا، والعذابَ الأليمَ في الآخرة.

(٩٢) وإن من صفات «حزب الله» ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وإن الله يقول على لسانِ نَبيّه مُحَمّد سيّد المجاهدينﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِين﴾ [آل عمران: ٣١ – ٣٢].

(٩٣) وإنا على طريق رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ سائرون، نُفدي إخوانَنا كلَّ المسلمين من أقصى الأرض إلى أقصاها؛ نفديهم بدمائنا، وأرواحنا في سبيل الله!

(٩٤) نَتقرّبُ بحبهِم، والذلَّةِ لهم، والرحمة بهم إلى الله تعالى.

(٩٥) ونُعلنُ العداوةَ والبغضاءَ والحربَ على الكفّارِ وأعوانِهم، ولا نُسْلِمُ أنفسَنا أو إخواننا لأعداءِ الله، ولا نُعطي الدنيّة في ديننا.

(٩٦) ولْيَشعُرْ كلٌّ منكم في قَرارةِ نفسِه أنه الأعلى، والأعزُّ بالله عز وجل:

﴿وَلا تَهِنُوا ولاتَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩].

(٩٧) فيا أيها المسلمون: اِستعِدّوا لقتالِ أعداءِ اللهِ؛ فُرادى وجماعاتٍ، فقد آن لنا أن نخلعَ ثوبَ الذُلّ عنّا، ونَعيشَ في الدنيا كراماً في ظل نظام الإسلام!

أو نلقى الله شهداءَ، وهو راضٍ عنّا، وإنها لإحدى الحسنيين: نصرٌ، أو شهادةٌ!

(٩٨) ألا هل بلغتُ؟ اللهم فاشهد!

(٩٩) والله أكبر﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

****

قال عداب: هذا بيان الجهاد الذي صدّره الشهيد مروان رحمه الله تعالى في بداية شهر حزيران، عام (١٩٧٥م) ويلاحظ أنه بيانٌ قويّ مُحكمُ البُنيان، لكنّ تنزيلَه على واقعنا السوريّ خاصّةً، وعلى أقاليم الأمة عامّةً؛ يحتاج إلى لجنة من العلماء، من شتى التخصصات الشرعية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية؛ لأنّ فيه أحكاماً ظاهرة الدلالة على أنّ هدفَ الشهيد مروان؛ هو المواجهة الشاملة بين المجتمع السوريّ والنظام الحاكم.

وهذا في نظري يقود إلى كوارثَ، اللهُ وحده العالمُ بنتائجها، وآثارها المدَمّرةِ[٩٧].

---

(٩٧) كتبت تعليقاتي هذه على منشور الجهاد في عام (١٩٨١م) فانظر إلى واقع سوريا الأليم، المثقَل بالكوارث، وإنا لله وإنا إليه راجعون!؟

الملحق الأول

الأمراض الحركية لدى الجماعات الإسلامية السياسية

لا يخفى على أحدٍ ما مرّت به سورية الحبيبة من نكبات، وقد أدمى الصخورَ ما ارتطم على ساحات مدينة الفداء «حماة» من الظلم والجور والعسف، وما تكبدته هذه المدينة من خسائر جسيمة في شهدائها، هي أعزّ ما لديها، بعد إيمانها المتين بالله تعالى.

وإن حركة الإخوان المسلمين؛ هي مقياسُ التقدم والتراجع في سلّم القرب من الله تعالى أو البعد عنه، في بلادنا الحبيبة، قبل الثمانينات.

ولقد مرّت حركة الإخوان المسلمين في منحنيات ضيقةٍ، أُلجئت إليها، أو دَفعت نفسها أحياناً في مزالقها، وجَنَت من وراءِ هذا وذاك الشوكَ والقذى!

فكم أدمت من قلب، وأدمعت من عين، وحطّمت من آمال!

وهي هي، ما تزال في نظري، وأنظار الكثيرين «الحركة الأم» التي إن خسرت في ميادينَ مئاتٍ من كرامِ أبنائها؛ لكنها لا تزال أماً لأبناءَ كثيرين غيرهم، إضافة إلى أنها أمٌّ فتية، قادرةٌ على الإنجاب، وإمداد الساح بأبناء آخرين، قادرين على الكفاح والعطاء والجهاد، وبذل الروح في سبيل الله القدير.

وإذا أردتُ استعراضَ تاريخ حركة الإخوان المسلمين في سورية منذ بدايتها إلى اليوم؛ فإنني سأخرج عن القصد، من غير كبير إضافةٍ على ما هو معروف من تاريخها.

ولكنني سأشير إشارات طفيفةً، بعضها مما سمعته من أوثق المصادر الإخوانية الشهيد مروان حديد رحمه الله تعالى، ومُعظمُها مما شاهدته، أو شهدته منذ عام ثلاثةٍ وستين وتسعمائة وألف، إلى يومنا هذا.

وغرضي من ذلك كله أن أرصدَ مواضعَ الخلل في خط سير هذه الجماعة «الأم» ثم أَصف العلاجَ الذي أراه مفيداً وشافياً بإذن الله تعالى.

مُنطلقاً في ذلك من فهمي لكتاب الله وسنة رسوله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ.

ثمّ من تجربتي الطويلة في صفوف هذه الحركةِ، التي يشرفني أن أدين لها بالتربية والإعداد وإيضاح الفكر الإسلامي العام.

وأرجو ممّن يقرأ هذه السطور ألا يعجل عليَّ، وألا تأخذه العزة بالحزبية! فإنني ابن هذه الدعوة البارّ، لكنني ابنُها المطّلع، الذي تعلّم ألا يُغمضَ عينيه على القذى، واعتاد أن يقول الحقّ، ولو كان مرّاً.

وإذا كنتُ منذ عام تسعة وستين وحتى هذه الساعة؛ لم أنتظم في خطّها السياسي العام لآراءَ لي في ضعف قيادة هذا الخط، أبديت بعضَها للمسؤولين آنذاك؛ غير أنني منذ ذاك الحينِ؛ ملتزمٌ بخط الحركة الجهادي الذي كان ينظمه، ويدعو إليه، ويجتهد في كماله شهيدُ الحركة الأكبر في بلادنا سوريا الشيخ «مروان الحديد» رحمه الله تعالى.

وهذا يَعرفُه كلُّ من عاش في حماة، هاتيك الفترة الحرجة، من تاريخ الحركة الإسلامية الجهادي.

وإذا كانت الأحوالُ، كما يُشاهَدُ؛ فإنه لا شفاء من المرض العضال الذي يجتاحنا جميعاً، إلا بالتشخيص الصحيح، دون ما اعتدناه من المجاملات، والمزايدات، وعبودية الذات، وجموحِ الجانب النظري في كل شيء.

وكنت قد جعلتُ هذا الملحقَ هو الفصلَ الخامس من الباب الثاني (منهج الشهيد مروان في الدعوة إلى الله تعالى).

بيد أنّ عدداً من الإخوة رأوه بعيدَ الصلة عن جسم الكتاب، خصوصاً وأن صياغته توحي بأنه من تشخيصي أنا، وليس هو من تشخيص الشهيد مروان، رحمه الله تعالى.

فجعلته الملحقَ الأوّل في هذا الكتاب؛ رجاءَ أن ينتفع بما فيه إخواني المسلمون من جهةٍ

وعرفاناً مني بأن كثيراً من تشخيصاتي؛ ليست أكثرَ من توضيحٍ وشرحٍ لما كان يقوله شيخنا الشهيد مروان؛ خاصّاً، وعامّاً، رحمه الله تعالى.

– إن أول أمراضنا الحركية: فقدان توازن الحركة الفكري:

وأعني به من دون تطويل؛ غلبةُ الجانب النظري السياسي، والفكري المجرّد، والعاطفيّ المثبّط، والحماسيّ الهشّ، على خطة العمل، وفكر الجماعة، وسلوك الأفراد.

ولقد عشتُ فترة سبعِ سنوات في صفوف الجماعة، لا أذكر أبداً أنني تركت لقاءً «أسرتي» الأسبوعيّ متعمّداً.

كما لم يفُتْني من دروس الشيخ مُحمّد الحامد في تلك السنوات كلّها إلا فترةُ المرض!

ولقد انخرطنا في هذه الحركة، وكلنا حماس، ولهفة، وشوق إلى معرفة الإسلام، والتزود من العقائد والقرآن والحديث والفقه والسلوك، إلا أن ما كان سائداً هو جموح الجانب الفكري المجرّد!

فكان الواحد منا قويّاً في مقارعة الفكر الشيوعيّ والرأسماليّ والديمقراطيّ والوجوديّ والعلمانيّ... إلخ، إلا أن جمهورَنا عاجز عن إحسان تلاوة كتاب الله تعالى، ويندر وجود مجازٍ مأذون، ولو برواية حفصٍ عن عاصم.

ويمكنك أن تمسك قادةَ الإخوان المسلمين اليوم فمن دونهم، فإنك واجد (٩٠٪) منهم لا يحسنون تلاوة كتاب الله تعالى، وتجد (٧٠٪) منهم لا تتجاوز معرفتهم الفقهية أحكام

الطهارة والصلاة، وبعض أحكام الصيام! كما أن بين مجموع أبناء الحركة وبين حديث الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ وسيرته هُوّة سحيقةٌ.

وإذا قرؤوا شيئاً من ذلك؛ فإنما هو تطوعٌ للبركةِ، وليس للتدبر في كثير من الأحيان.

كما أن آمال الشباب كانت منصبةً على إقامة الدولة الإسلامية، ويوهم الكبارُ الصغارَ بأن هناك خططاً مرحلية، وخططاً عامة لإقامة الدولة، وحقيقةُ الأمر؛ أننا كنا نسير على غير هدى، وليس لدينا أيةُ خطة مرسومة، وكل امرئ يعمل بحسب وجدانه!

وقل مثل ذلك عن جموح العاطفة، وفقدان التثبت، وطغيان الحماس الذي ذهب بالكثيرين إلى ردود أفعال، كانت الجماعةُ في غنىً عنها(٩٨).

ولا أريد أن أدخلَ في التفاصيل، فكل من عاش هذه الفترة، يعرف كم عانت الحركة من نقصٍ في الجهاز التربوي والتكويني خاصّةً! وكم كان من الحرية لكل مُوجِّه أن يتصرف بمحض اختياره واجتهاده!

ولا أزال أذكر بكل الأسى عام ثلاثة وسبعين، حين جاءني الأخ الشهيد عمر مرقة بعد اعتقال الشيخ سعيد حَوّى، واختفاء الشيخ مروان، وغيرهما من الكبار في حماة وقال لي: يا أخي نحن بحاجة إليك، هذه الدعوة دعوة الإسلام، وأنت ابنها، فاختر أي عَملٍ تربوي توجيهي خاص لنُعطيَك إياه، إن شئت ثانوية كذا، أو ثانوية كذا، أو طلاب المرحلة الثانوية، أو الإعدادية، أو الصناعة، أو العمال؟

---

(٩٨) علّق الدكتور رشيد العيسى على ما تقدّم بقوله: «الحقيقة أنّ هذا الكلام مبالَغٌ فيه، فقد كان هناك مناهج موضوعة، ومقرّرة، وإن لم تطبّق؛ بسبب توالي الأحداث، كما أنّ هناك خطة شاملة موضوعة للعمل في سوريا، وإن لم تطبق. وهذا ما قرأته عام (١٩٧٨م) ونشره الأستاذ عدنان سعدالدين في كتبه محرّفاً».

قال عداب: تجد الردّ عالياً بعد عِدَّة سطور!

فقلت له: والمنهج؟! قال: ضع المنهج الذي تريد، وحدّد الخطة السنوية التي تريد، فنحن ليس عندنا ما نعطيك، وليس عندك ما لا نريد.

فقلتُ له: يا أخي! أنا أضع خطة عمل سنوية؟ أم القيادة؟ قال: اتركني من القيادة، اعْمَل كما تشاء، لكن اعمل!

فقلت: هاتِ الخطة الموجودة عندكَ، حتى أناقشك بما فيها، أما وَضْع الخطط؛ فليس من صلاحيات الموجّه!

وهذا إن دَلّ على الثقة التي يوليني إياها هذا الأخ الشهيد، ومن كلّفه بهذه المهمة، إلا أنه يَدلّ على نقص كبيرٍ في الكادر التربوي والقيادي المفكّر، إن لم يدلّ على ندرته ...!

٢) والمرض الثاني من أمراضنا الحركية «فقدان الثقة» بين القاعِدَة والقيادة:

إنه لا يخفى على أحد أن ثقة الجندي بقائده؛ لا تتولد من مجرّد كونه قائداً، بل لعل كونه قائداً يجعل بين الجندي والقائد حاجزاً نفسياً بادئ الأمر، ثم يتكاثف هذا الحاجزُ، أو يزول، بحسب مبادرات القائد الإيجابية المتنوعة، أو العكس.

وهذه القاعِدَة التي لا يختلف فيها اثنان؛ تنطبق على واقع حركتنا أتمّ انطباق.

لقد عوّدنا الموجهون في جماعة الإخوان أن ما يأتي من القيادة أمر شرعي ملزم، لا يجوز مناقشته، ونحن الصغار؛ ليس من قدراتنا الذهنية والفكرية محاكمتُه ومناقشتُه!

ومرت برهةٌ من الزمن ونحن على ذلك، إلى أن صرنا نسمع أشياءَ، ونشاهدُ تصرفات؛ لا يمكن أن تتصرفُ بها إدارة مصنع صغير، فضلاً عن قيادة جماعة إسلامية!

«ولما رحنا نبحث عن ذلك؛ وجدنا أن القيادة غير جادّة في خدمه هذه الدعوة بوجهٍ عام، وقد أوكلَتْ كثيراً من مهامها إلى عناصر ضعيفة، شابة، وجلست هي بعيداً تتعرّف من هؤلاء

عن أحوال الجماعة، وتوكل إليهم، أو يدّعون هم أنّ القيادةَ أوكلت إليهم حلَّ مشاكل الجماعة آنئذ.

ومنذ العام (١٩٦٧م) وحتى العام (١٩٦٩م) بل وبعده، وقيادات مركز حَماة أشبه بالنساء اللواتي يتصايحن في حمّام «الدرويشية!» وقد كان بعضهم يعرّي بعضاً في جلسات الشباب، حتى أصبح لكل واحد من هؤلاء الثلاثين قائداً تقريباً؛ ملفٌّ عند كل عنصر من عناصر الإخوان، مضى على انتسابه إلى الدعوة شهرٌ واحدٌ، أو شهران!»[٩٩].

أمام هذا وغيره؛ ضعفت قيمةُ القادة جميعاً في أنظار الشباب، وراح الشباب يتلفتون يمنة ويسرة، لعلهم يجدون شخصية متساميةً يلتفّون حولها، فوجدوا شخصية الشيخ مروان حديدٍ الموثوقِ لدى الشباب، والذي لم يتدخّل في مهاترات أبناء جيله بكلمة سوءٍ واحدة، فالتفّوا حوله.

بيد أن كثيراً من القادة في مركز حَماة، كانوا يحذّرون من الذهاب إليه، ويهددون العناصرَ بالفصل، أو العقوبة إذا خالفوا.

أضف إلى هذا وذاك أن الشيخ مروان، حتى ذلك الحين؛ كان وحده، ولم يكن أحد من القادة يتعاون معه تعاوناً جاداً، وإن كان يلقى تعاطفاً من بعضهم، في بعضِ الأحيان!

---

(٩٩) علّق الدكتور رشيد العيسى على كلامي المحصور بين هلالين « » بقوله: هذا الكلام غير صحيح!

وأقول: كنت في الصفّ العاشر في أسرة يوجهها الأخ «مخلص زهور عدي» وكان معي في الأسرة الشهيد مُحمّد عجعوج رحمه الله تعالى... وفي جلسة من الجلسات ذَكر لنا أحدُ الحاضرين أمام الموجه الكريم أنّ واحداً من قياداتِ الإخوانِ كان يلعب بورق الشدّة على «جبل عرفات» وآخرُ كان يسبح في البحر بسروال «سليب!» وحين أنكرت ذلك؛ قال الأخ مخلص: لماذا تستغرب؟ هناك ما هو أطمّ، لكنّ الله أمر بالستر! فتركت الحضور عنده بعد تلك الجلسة المقيتة!

وعدمُ وجود أحدٍ من القادة في صفِّ الشيخ مروان ظاهراً؛ أدّى إلى تشكك بعض العناصر بمقدرة الشيخ مروان وحركيته، خاصةً وأن بعض أعمال الشيخ وتصرفاته في تلك الأثناء؛ كانت تنطلق من منطلق الشعورِ بعدم مسؤوليته عن شيءٍ؛ إذ لم يكن الشيخُ من وجهة نظرِ نفسه، أكثرَ من عنصر عادي مفصولٍ من جماعة الإخوان.

ولطالما حدثتُه في أثناء تلك الفترة في بعض تلك الأمور، وذكرته بأنه قائد في الحركةِ، وأنه قدوةٌ، فكان يقول لي: أنا قائد نفسي، ولا أرى نفسي قائداً إلا عليك!

ويضحك رحمه الله تعالى.

ولا يخفى أن تصرفات الإنسان حين يكون فرداً من الأفراد، تختلف عنها يومَ يكون مسؤولاً عن أمة، أو جماعة!

والخلاصة هي أنّ الحركة كانت تعيش أحلك أيام حياتها، وما كان جمهرة الشباب فيها يقيمون وزناً لكبيرٍ.

واستمرّ الحال السيّئ هذا، إلى أن عاد الشيخ سعيد حَوّى، رحمه الله تعالى، من السعودية، وكان قد كَبُر في الأنظار كثيراً، خاصة بعد إصداره عدداً من المؤلفات الماتعة في المنهج، التي رآها الشباب يومئذ نصراً للدعوة، وفتحاً مبيناً!

فالتفّ حولَه كثيرٌ من الشباب، وصار الرجل يعطيهم مما آتاه الله من علم وفكر.

وراح يسعى جادّاً للمّ الشمل المبعثر، وأرهق نفسه كثيراً في تربية جيلنا من الشباب الذين يُعدّون الجيلَ الثالث في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

وقد صارحني في جلسة طويلةٍ أنه لا يعوّل كثيراً على أبناء جيله الذين يعيش أكثرهم على عقلية المشيخة، والسبقِ الزمني في الدعوة!

كان بين الشيخ سعيد والشيخ مروان جفوةٌ لأسباب متعدّدةٍ، سيأتي ذكرها قريباً!

وكنتُ ممن تملّك قلبَه مثلُ هذه الجفوة تجاه الشيخ سعيد!

وحين رغب الشيخ سعيد بلقائي، بعد فراقٍ استمرّ سبعَ سنين؛ اعتذرتُ عن ذلك اللقاء، لكنّ الشيخ أصرّ، وطلب من الأخ فارس الشعار أن يبلغني بأنه قادم لزيارتي بعد صلاة العشاء!

قال الأخ فارسٌ: وليس من المعقول أن تَطْرُد ضيفاً، هو لك شيخٌ على كلّ حال!

فاستحييت على نفسي! وأبلغته أنني قادم لزيارته بعد صلاة العشاء!

لكنّ الشيخ أرسلَ إليّ بين العشاءين أن يكون الموعد في الساعة الحادية عشرة ليلاً لأنه مشغولٌ حتى تلك الساعة!

وصلتُ إلى منزل الشيخ قبل ربع ساعةٍ من الموعد، فاضطررت إلى قرع البابِ؛ لعدم مناسبةِ البقاء في شارع بيته، أمام أهل الحيّ!

فتح لي البابَ أخوه الشيخ محمود، وكان بيننا صداقة طيبة، واستأذن لي على الشيخ وحين دخلتُ؛ وجدت عنده مجموعةً من جيلنا، يحضرون عليه ختام كتاب «أصول العقائد» للأستاذ عبدالله عرواني.

أذكر منهم الإخوة الأفاضل: مروان حمدون، وعهد برازي، وعبدالغني زينو، وعبدالكريم فخري، هذا ما أذكره، وربما وهمت في بعضهم.

ألقيتُ تحيّةً خافتةً، وجلست حيث انتهى بي المجلس؛ لأنّ لمجلس العلم آداباً، منها أنه لا يُقطع حتى بإلقاء السلام، فضلاً عن المصافحة، بله المعانقة المناسبة لفراق سبع سنوات من عمر الزمن!

انتهى المجلسُ، وقام الشيخ سعيد للسلام عليّ، فعانقني، وشدّ على يديّ بحرارة، وقال: أخونا الشيخ عداب من الأحباب القدماء، وأنا أحبه خمسَ مرات!

مرّةً لأخوّة الإسلام، ومرّة لأنه ابن دعوتنا المباركة، ومرة لأنه من آل بيت رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، ومرّةً لتميّزه بالجرأة والشجاعة، ومرّة لأنه صاحب موقفٍ ورأي!

كنتُ والجميعَ نعرف أنّ الشيخَ يجاملني بهذه الكلماتِ التي يجد في كلّ واحدٍ من الحاضرين خمساً يحبّه لأجلها خمسَ مرات!

ثم أراد أن يضفي على المجلس جوّاً من المرح، فقال: تعرّفت إلى الشيخ عداب في غرفة ثانية من منزلنا هذا، في صباح يوم عيد الفطر، من عام (١٩٦٣م) وكان بعضكم حاضراً فيما أظنّ!

يومها تعرّفنا إلى الشيخ، ونقلت له بيتين تتناسب مع اسمه «عداب» فقلت له:

عذابه فيك عذب...وبعده منك قربُ

أنت مني كروحي..بل أنت منها أحبُّ

حسبي من الحبّ أني..لما تحبّ؛ أحبّ

ثم التفت إليّ وقال: نحن مازلنا نحبك كذلك يا شيخ عداب!

استأذن الشباب وانصرفوا، وقبل أن نتكلّم بكلمة واحدةٍ، مما جئتُ من أجله.

استأذنني الشيخ سعيد؛ ليستريحَ ربعَ ساعة؛ لأنه مرهق جدّاً، فاستأذنته أنا أن أقلّب كتاب «أصول العقائد» الذي حضرتُ خاتمتَه على الشيخ فقط!

علا غطيطُ الشيخ، فأشفقتُ عليه من التعب، وقلت في نفسي: لن أوقظ الشيخ حتى أُنجز قراءةَ الكتاب؛ لأنني لم أكن قرأتُه من قبلُ!

وحين مضى ربعُ ساعةٍ من الزمن؛ التفتّ فإذا الشيخ جالسٌ على سريره، وهو يقول: لا إله إلا الله مُحَمّد رسول الله..الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور.

إيْ يا شيخ عداب! لنبدأ بما اجتمعنا من أجله، فالوقت قصيرٌ، وأمامنا ملفات كثيرةٌ عالقةٌ، عمرها سبع سنوات!

قدّرت أنه حاقن، ويحتاج إلى الحمّام، فرجوته أن يذهب ليتوضّأ، ثم يعود؛ لأنني لن أفتح أيّ ملفٍّ قبل ذلك، وقلت له: ألم تُعلّمونا أنه لا رأي لحاقن؟!

توضّأ الشيخ بأقلّ من عشر دقائق، ثم رجع وأنا أطالع في الكتاب، فقال لي: كتاب لطيفٌ لغير المتخصصين، الشيخ عداب لا يلزمه مثلُ هذا الكتاب!

رغبتُ أنا بفتح الملفّ الماليّ الشخصيّ أوّلاً، فدافع الشيخ عن نفسه، وأقنعني بصواب رأيه في موقفه تُجاهَ مسألة طباعة كتبه، وحقوق الطبع.

وقال لي: يا شيخ عداب! أنت تعرف أنني لست ماديّاً، أنا عملت في السعودية ستّ سنوات؛ لم أوفّر منها ما يبلّغني حيث المقام!

فَهمتُ منه أنه لم يأت بمالٍ يكفيه إلى نهاية حياته التي يتصورها قصيرة؛ فقلت له: أطال الله لنا بعمرك في الخير والبركة!

ثمّ قرأت في مذكراته بعد ذلك أنّ والده هو الذي دفع أجرة السائق الذي أوصلهم إلى المنزل، حين عادوا من السعودية!

حين انتهينا من هذا الملفّ؛ قلت للشيخ: أنا أستطيعُ أن أسمع منك كلّ ما تقوله لي أما لو فتحنا أيّ ملفٍّ قبل ذلك؛ فلم تكن تجد لديّ أذناً صاغية!

بين الشهيد مروان والشيخ سعيد حَوّى رحمهما الله تعالى.

(١) كان الشيخ مروان عاتباً على الشيخ سعيد لسفره إلى السعودية؛ لأنه لن يؤثر في السعودية شيئاً يذكر، بينما كان يصنع العجائب في ستّ سنواتٍ في سوريا.

وكنت بالتأكيد موافقاً للشيخ مروان فيما ذهب إليه.

(٢) كان الشيخ مروان عاتباً على الشيخ سعيد في موقفه من انشقاق الجماعةِ، وانحيازه إلى صفّ الشيخ عبدالفتّاح أبو غدّة، مع أنّ «عصام العطار» أفضل من الشيخ أبو غدة وأنشط دعويّاً، وهو لم يرتكب شيئاً يُعزل من أجله!

وموقف الشيخ سعيد هذا؛ شقّ صفّ مركز حماة نفسه، وصار الشباب شيعاً وأحزاباً وتناولوا حتى أعراضَ بعضهم!

وكنت أنا عدابٌ أميل إلى موقف الشيخ سعيد؛ لأنّ الشيخ عبدالفتاح عالم، وذاك مثقفٌ، والعلماء هم الذين يجب أن يقودوا الحركة الإسلامية، وليس المثقفون!

(٣) كان الشيخ مروان يرى أنّ على الشيخ سعيد أن يقف بجانبه على طول الخطّ، ولا يجوز أن يعارض، أو يتريث في تبني الجماعة خطّ الجهاد.

وكان الشيخ سعيد يرى أنّ جمع شباب حماة في صفّ واحدٍ، تحت قيادة واحدةٍ، وأن يخضع الشيخ مروان نفسه لهذه القيادة، وأن تتماسك الجماعةُ، وتنبذ خلافاتها؛ أمورٌ يجب أن تسبق أيَّ حديثٍ عن الجهاد والصراع مع الدولة.

وكنت مع الشيخ سعيد في هذا، بكلّ تأكيد!

(٤) كان الشيخ مروان يرى أنّ على مركز حماة أن يكون دائماً غير منحازٍ، وأن يسعى الشيخ سعيد بذاته إلى توحيد معسكر حلب مع معسكر دمشق، وأن يجد حلاًّ لهذا الانشقاق الخطير، وكان الشيخ سعيد يرى أنّ بعضَ مَن حول الأستاذ عصام، لا يتنازلون على الاستئثار بأمور الجماعة، وكأنّ جماعة الإخوان هي جماعةٌ دمشقيةٌ، وما على بقية المراكز إلا السمعُ والطاعة، وما دام الأمر كذلك؛ فالزمن هو الذي يحلّ هذه المشكلة؛ لأنّ تجديد الخوض فيها سيعيد لديهم التمسك بموقفهم بصورة أشدّ، ولن نحقق من وراء ذلك شيئاً!

(٥) حين أعاد الشيخ سعيد هيكلة نظام «مركز حماة» وأحياه من جديد، ووحّد قيادته، وأجرى مصالحةً كبيرةً فيه، بمساعِدَّة الشيخ مروان وجهوده المتواصلة؛ لم يضعوا الشيخ مروان في أيّ مَوقعٍ، سوى موقع موجّه، والشيخ مروان في نظر تلامذته أكبر وأصدق من الجميع!

(٦) كان الشيخ مروان يرى أنّ القيادات السابقة في مركز حماة عاجزة، ولا بد من قياداتٍ شابّة، تكون جميعها من الجيل الثاني «جيل الشيخ مروان والشيخ سعيد».

وكان الشيخ سعيد يرى أن قياداتِ الصف الأول تاريخية، ولا بد من الاستعانة بها، كما لا بدّ من تطييب خواطرها؛ لأنها تملك من القدرة على التأثير ما يزعزع صفّ الجماعة من جديد.

(٧) وكان الأمرُ الأخير؛ هو سببَ حرص عداب وإصراره على تكوين الشيخ مروان جماعةً مستقلّة، ليس لها صلةٌ تنظيميّة بالإخوان المسلمين، وأن يكون جميع رموز الجماعة بعيدين عن الجماعة الوليدة؛ لأنّ عداباً لا يثق بقدراتِ واحدٍ منهم، ولا يرى فيهم واحداً أهلاً لجهادٍ، أو إعدادٍ، وعدابٌ ليس على استعدادٍ ليكون شبابُه ضحايا وقرابينَ ومراقيَ يرقى عليها قادة الجماعة؛ ليسودوا عليهم بالباطل!

ناقشنا هذه الملفّات كلّها، وانتهينا منها عند أذان الفجر، وكان مما قلته للشيخ في آخر اللقاء: أنا لا مانع لديّ من العمل معك شخصيّاً، لكن ليس لي ثقة بأن أحداً من قيادتكم يستحقّ مثلَ تلك الثقة مني.

أنا على استعدادٍ للعمل معك، على شريطة أن يكون رأيي هو الصوابَ، حتى تثبت لي خطأه، أما أن تقول لي: قالت الجماعة، والجماعة ترى؛ فأنا لا أرى جماعةً أصلاً، ولا أرى فيها أحداً يستحقّ أن يكون قائداً على عداب، ولا أن يكون رأيُه الضعيف ملزماً لي في شيءٍ، بكل صراحة!

أنا على استعدادٍ للعمل معك، إذا كان هناك خطّة عمل، ولو لسنةٍ واحدة، نناقشها ونلتزمُ جميعاً بها!

أنا على استعدادٍ للعمل معك إذا كنت تعتقد أنّ على الجماعةَ أن تربي قادةً متخصصين، لا أن تربي جنوداً من العبيد المنفّذين!

إنّ عدد عناصر الإخوان في حماة، بجميع اتّجاهاتهم؛ لا يصل إلى ألف عنصر، وعدد سكان حماة يزيد على مائة ألف نسمة!

فإذا لم يتربَّ هؤلاء العناصر على القيادة بمراتبها المتباينة؛ فلن نستطيعَ التأثير في البلد فضلاً عن قيادتها.

أنا على استعدادٍ للعمل معك، إذا كنت تقرّ ابتداءً بأنّ الجهادَ؛ هو السبيل الوحيد لإزالة هذا النظام الطائفيّ الكافر، وأن الجماعة تتبنى خطّ الجهاد في الوقت المناسب، على ألا يبقى الوقتُ المناسبُ مفتوحاً إلى ما لا نهاية!

أنا على استعدادٍ للعمل معك، إذا استطعت أن تُقنع الشيخ مروان حديد بالعمل معك، وأن تزيح من نفسه عتبَه عليك، فأنا أرى الشيخ مروان أكثرَ الجميع حقّاً، وأفضل الموجودين للقدوة!

وكان مما قاله لي: أثلجت صدري يا شيخ عداب! لقد حدثني الشباب كثيراً عن حدّتك، وشدّتك، واعتدادك برأيك، وكنتُ بعيداً عنك سنوات، فكنت أسمع منهم وأسكت، حتى ألتقيَ بك؛ لأنّ ظني بك كان على غيرَ ما يرون!

يا شيخ عداب! إني والله أعشق العملَ مع أمثالك!

والله إني أعشق العمل مع أمثالك!

كم نحن بحاجة إلى شباب عارف بربه تبارك وتعالى، عارف بدينه، واثقٍ من فكره وعلمه وعمله وقدراته ونفسه!

توكّلنا على الله يا شيخ عداب، توكلنا على الله، إن شاء الله، نعمل معاً، ويكون من وراء ذلك الخير الكثير لدعوتنا، التي هي دعوة الإسلام بدون شكّ!

أنت ستُطلعُ الشيخ مروان على نتائج هذا اللقاء المبارك إن شاء الله تعالى، وسترى ردّة فعله على ما جرى، وإذا كان يرغب في لقائي؛ لننسق للعمل سويّة؛ فأنا حاضر في أي لحظة، وأنت كفيلي في ذلك!

أنا أعرف أن الشيخ سعيداً عبقريّ داهيةٌ، وأعرف أنه يوظف كلّ كلمة يقولها فيما يريد، وأعرف أنه يريد أن يجمع الجميع في قبضته الواحدة، وأنا شخصيّاً لم يكن لديّ أيّ مانعٍ في أن أكون جنديّاً صغيراً من جنوده، إذا كان في الجماعة انضباط، ولها أهداف، ولديها وسائُلها المشروعةُ للوصول إلى تلك الأهداف!

التقيتُ الشيخ مروان في مساء ذلك اليوم، وكان يومَ جمعة، وانتظرتُ حتى خفّ زحام الضيوف من غرفته في المسجد، فهمست في أذنيه أنني أريده في كلام خاص!

جلسنا في المسجد، وشرحت له باختصار الساعات الطوال التي قضيتها مع الشيخ سعيد، وأوضحتُ له ما الذي اقتنعتُ به من كلامه، وما الذي علّقتُه على أسبابه!

فلم يكن الشيخ مروان متحمّساً كثيراً للقاء الشيخ سعيد؛ لأنّ الأخير في نظره؛ لا يتنازل قِيدَ أُنملة عما يريده، مع أنه يُفهمك بتنازله الكبيرِ، حتى يحقق الذي يريد، ثم يلزمك بما يريد، وحين تريدُ إلزامَه بما فهمتَ أنه التزم به؛ أوضح لك بأيسر الطرق أنك فهمت كلامَه خطأً!

وقال: الشيخ سعيد طاقةٌ هائلة جبارة، ليس في قدرة الجماعة الهشة أن تحتمل طاقاته هو يريد أن يحمل الجماعة وحده، وما على الجميع إلا السمعُ والطاعة!

أعجبني قول الشيخ مروان: الشيخ سعيد طاقةٌ هائلة جبارة، ليس في قدرة الجماعة الهشّة أن تحتمل طاقاته!

فقلت له: إذا كنتَ تُقرّ بهذه الطاقات للشيخ سعيد؛ فلماذا لا نسلّم له زمام أمورنا ونسير وراءه؟

قال: هذا لا يجوز شرعاً؛ لأن ديننا دين الشورى، وفي حوار الأفراد فوائدُ تجنيها الجماعة، ويجنيها الفرد الذي يرى لنفسه التفوقَ على الجميع!

أما حَدَثَ معك أنك كنتَ مقتنعاً بأمرٍ ما قناعةً تامّةً، فلما حاورتَ فيه غيرك؛ أيقنت أنك كنت على خطأ، أو على الأقلّ؛ كنت على خلاف الأولى؟

قلت: بلى والله! حدث هذا كثيراً معي، لكن أنا لست في مقام علم الشيخ سعيد وفكره وطاقاته التي تحدثتَ عنها!؟

قال: كلّ الناس جبلّة واحدة، وجميعهم بحاجة إلى الحوار؛ لتتوضح أمامهم الحقائق!

ورجوت الشيخ مروان أن يجتمع بالشيخ سعيد، وليكتبوا ما يتوصلون إليه من اتّفاقات كتابةً، وليصوغوها صياغةً محكمةً، لا تحتمل إلا معنى واحداً، يلتزم به الجميع!

كنت في تلك الأثناء أُدرِّسُ في «ثانوية وادي العيون» في جبال العلويّة، وكنت أداوم من السبت إلى الأربعاء، ثم أنزل أحياناً إلى حماة، وأحياناً لا أنزل، خصوصاً في أيام الثلج حيث يصعب التدريبُ الرياضيّ الذي كنت أقوم به مع مجموعتي الخاصة في كلّ يوم جمعة!

لكنّ الشيخَ سعيداً أصرّ أن أحضر يوم الأربعاء، وضرب معي موعداً بعدَ العشاء من اليوم نفسه؛ ليلزمني بالحضور، وحضرتُ.

حين وصلتُ إلى حماة؛ أوصلت زوجتي إلى بيت أهلها في حيّ «باب القبلي» وواصلت طريقي إلى جامع السلطان، فبصرت بالأخ الفاضل «فارس الشعّار» هناك فحدّثني أنّ

الشيخين سعيد ومروان التقيا مرتين في هذا الأسبوع، فسعدت جدّاً بهذا الخبر ثم صلينا المغرب في جامع السلطان، وتابعنا سيرنا إلى مسجد الشيخ مروان، فوجدناه وحده، يُصلّي نوافلَ ما بعد المغرب، مع أنّ العشاء قد اقترب.

أخبرته أنني جئت للسلام عليه، وأنني سأقابل الشيخ سعيد بعد صلاة العشاء، فإن كان لديه شيءٌ بخصوص هذا اللقاء؟

فأطرق قليلاً، وهو صامت ثم قال: والله لا أدري ما الذي أصاب شيخَك سعيداً هذا في السعودية؟

قلت: ما له؟

قال: هل تذكر قول عليّ رضي الله عنه: (كنا إذا احمرّ البأسُ، ولقي القومُ القومَ؛ اتقينا برسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، فما يكون منا أحدٌ أدنى من القوم منه!)[١٠٠].

كان الشيخ سعيد فينا كذلك، كنا في ثانوية ابن رشدٍ معاً، وكنّا إذا أراد الاشتراكيون الخروجَ في مسيرة، ونحن لا نريد ذلك؛ لا يستطيع أحدٌ أن يخرج من باب المدرسة، وإذا أردنا الخروج في مسيرة؛ لا يستطيع أن يردّنا أحدٌ، إذا كان الشيخ سعيد معنا!

كان إذا اعترضه أحدٌ؛ لا يلبث أن يضربه بكلتا يديه ضربةً واحدةً، فيطيح به أرضاً!

ودائماً كان في صدر المواجهات!

فقلت: إذاً الشيخ سعيد ليس جباناً، كأكثر أعضاء القيادة الذين تصفهم بالجبن!

إذاً يا سيدي يجبُ أن نبحثَ عن سببٍ آخر لمواقفه تلك!؟

قال: وما السبب في نظرك؟ قلت: نسأله، فلا بدّ أنّ له أسباباً، لا سبباً واحداً لتصلّبه الذي تذكره!

(١٠٠) من حديث عليٍّ رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٩).

حان وقتُ لقائي مع الشيخ سعيد، فاستأذنت الشيخ مروان بالانصراف، وسألته: هل تأذن لي أن أسأل الشيخ سعيد عن أسبابه؟

قال: وهل هذا يحتاج إلى إذن؟ أنت حرّ، تسأل ما تشاء لمن تشاء!

قلت: لا يا شيخنا، نحن جرى بيننا حديثٌ حيال موقف الشيخ سعيد، فهذا يبقى بيننا فقط، إلا إذا أذنت أن أسأله أنا من عند نفسي عن موقفه، أو أن أستدرجه للكلام في هذا الموضوع؟

قال: افعل ما تراه مناسباً، فنحن لسنا حريصين على نشوب خلاف جديد بين الشباب، فكلّ خلافٍ يُعيدُنا إلى الوراء خطوات!

وحين التقيتُ بالشيخ سعيد؛ نقلت إليه سلام الشيخ مروان، والأخِ فارس الشعّار، فردّ التحية، ودعا لي ولهما دعاءً كثيراً، ثم قال لي: لا بدّ أنك علمتَ أنّ الشيخ مروان وأنا التقينا مرّتين في غيابك، ولا بدّ أن الشيخ مروان أطلعك على أهم ما جرى فيهما؟

قلت: علمتُ من الأخ فارس باللقاءين، أما الشيخ مروان؛ فلم يخبرني بشيءٍ مما جرى بينكما، وليس من عادتي أن أسأل شيخي عن مثل هذه الخصوصيات، إذا لم يُفصح لي هو عن شيء!

قال: ربما لم يحدثك لأن ثالثاً كان موجوداً بينكما، على كلّ حالٍ أنا أختصر لك المهمّ مما جرى.

(١) الشيخ مروان يرى أنّ التدريب على العمل الجهادي؛ يجب أن يبدأ فوراً، ونحن أمامَنا مشكلاتٌ عديدة، منها مشكلة الدستور الجديد، التي يمكن أن تجتاحَنا جميعا، ولو أننا ركزنا اهتمامنا على هذه المسألة؛ فربما قدمنا لديننا وبلدنا شيئاً!

(٢) الشيخ مروان يرى أنّه لا بدّ من أن يكون نصفُ أعضاء مركز حماة من الصفّ الثاني، وهذا أمرٌ لا ترضى به القيادة أبداً!

ونحن في طور لململة الشمل، وما صدّقنا كيف صالحنا الإخوة في القيادة، وبدأنا بترتيب أمور المركز.

(٣) الشيخ مروان يصرّ على أن يكون واحدٌ على الأقل من شبابه من أعضاء مركز حماة؛ ليطّلع من خلاله على تطورات عمل القيادةِ، أو تراجعها.

والقيادة لا ترضى أن يكون الشيخ مروان نفسه من أعضاء قيادة المركز؛ لاعتقاد الأكثرين أنه سيحوّل أعمالَ القيادة كلها إلى نقاشات في مسألة الجهاد، التي لا يؤمنون بها في الظرف الحاضر.

والشيخ مروان يظنّ أنني أنا أيضاً لا أوافق على العمل الجهاديّ، وهذا غيرُ دقيقٍ، لكنني كنتُ أحاوره من خلال نظرة القيادة وتوجهاتها؛ لأنني على اطّلاع على آرائهم.

(٤) الشيخ مروان يصرّ على أن تُخصّص ميزانيةٌ مالية للعمل الجهادي، من أجل تكاليف الدورات التدريبية، ومن أجل الشروع في التسلّح، وهذا أمر مرفوضٌ من القيادة وأظنه سيبقى مرفوضاً لسنواتٍ قادمة، فالقيادة لم تستوعب بعدُ ضرورةَ فتح هذا الباب!

(٥) الشيخ مروان يُصرّ على برنامج عسكريّ وتربويّ وسياسيّ، تُحدَّد فيه أهدافُ الجماعة البعيدة والمتوسطة والقريبة، والقيادة تتحسس من طرح مثل هذه الموضوعات؛ لأنه ليس فيها مَن يستطيع الكتابة إلا فردٌ أو فردان، فطرحُ مثل هذا الموضوع؛ يثير حساسيات متعددة.

وقد قلت للشيخ مروان: أنا وضعت خطّة لإزالة هذه الحساسية، وفي ضوئها نُشرك جميع جيلِ القيادة والجيل التالي في مقترحات، ضمن أسئلة محددة تطرحها القيادة!

(٦) والشيخ مروان يرى أنّ مَن لا ينكر ذاته؛ لا يجوز أن يكون في القيادة أصلاً، يريد جميعَ أعضاء القيادة أن يكونوا مثلَ الشيخ مروان! وهذا غير موجودٍ، ولن يوجد!

قاطعتُ الشيخ سعيداً قائلاً: شيخي الكريم:

وما حاجتنا نحن إلى قياداتٍ جاهلةٍ، أثبتت فشلها على مدى ثلاثين عاماً؟

ما حاجتنا إلى قيادةٍ حريصة على المناصب المتوهّمة، فنحن لسنا جماعةً ذاتَ كيان سياسيّ قويّ أصلاً، على ماذا يتنازعون، وما قيمةُ أن يكون أحدهم رئيسَ مركز حماة، أو لا يكون؟ أنا مع الشيخ مروان، سيدي! نحن لا نريد قيادةً كهذه!

لو أنك أنت وحدك وافقتَ الشيخ مروان على مطالبه؛ لانتهت المشكلة!

فنحن نشكّل قيادةً لمركز حماة، ممن يوافق على أهدافنا وسبيلنا، ونفرضها على مكتب المراقب العام!

فضحك الشيخ سعيد، وقال: هذه قياداتٌ لها تاريخها في الدعوة، ولا تصلح عمليةُ الانقلابات في العمل الإسلاميّ السياسيّ.

سألت الشيخَ سعيداً عما إذا كان ثمّةَ أشياء يريد أن يقولها لي؛ فقال: لم يبق شيء ذو بال، لكنني أريد أن أسمع رأيك!

قلت: كلامك كلّه مُسوَّغ لديكَ في الجملة، لكنّني على رأي شيخي الشيخ مروان في كلّ ما قال، ولا أرى بنا حاجةً إلى هذه القيادة الضعيفة، حتى إذا لزم الأمر أن نكوّن جماعةً جديدةً، فجماعة الإخوان ليست جماعةً مقدسة، ولا هي الجماعة التي لا يمكن الاستغناءُ عنها كلّها، فأنا لا أرى فيها شيئاً كبيراً في أيّ اتّجاه، سوى السمعة المشوّهة لدى كثيرين في بلادنا!

هنا أطرق الشيخ سعيد طويلاً، والحزن بادٍ على وجهه، ثم قام وأحضر الشايَ، وسكبه وقدّم إليّ كأسا منه، وراح يشرب من كأسه بسرعة، من دون أن يتكلّم بشيء!

فهمت من الموقف أنّ عليّ الانصرافَ، وأنّ كلامي الأخير أزعجَ الشيخ كثيراً، لكنه ليس عنده شيء مضاف!

استأذنت بالانصراف، فأذن لي، وقال: على كلٍّ، نحن لا نزال عند كلامنا الأول يا شيخ عداب، نحن نرغب أن نعمل معاً، ففي عملنا معاً خيرٌ كثير، لا يتوفر إذا عمل كلّ منا في جهة، والخوف من أن نصبح جماعتين؛ لأن هذا سيوجّه طاقاتِنا للصراع فيما بيننا!

أرجو أن تضعوا هذا الأمر في حسابكم؛ لأنكم إذا لم تفكروا أنتم بالصراع؛ فغيركم قطعاً سيفكّر فيه، والإخوان لن يسمحوا أبداً بقيام جماعةٍ أخرى تحمل أفكارَهم ذاتها، وتعتمد على استقطاب شبابها أنفسهم، ثمّ تسكت!

فهمتُ من اللقاء أنّ الشيخ سعيداً يوافقنا على كلّ آرائنا، لكنه لا يرى الوقت مناسباً بسبب الدستور المرتقب صدوره، ولا يرى القيادةَ مهيّأة لتقبل فكرة العمل المسلّح، والصراع الدموي مع السلطة.

ناقشتُ مع الشهيد مروان مسألة الدستور المؤرقة للشيخ سعيد، فما رأيت لديه حماساً لأن يصرف الشيخ سعيد وقته وطاقته في هذا الاتّجاه؛ لأنّ واجبنا إزالةُ هذه السلطةِ الغاشمة جملةً، فما فائدةُ أن نشغلَ أنفسنا في جزئيةٍ، لا تقدم ولا تؤخر بالنسبة إلينا شيئاً؟!

اقترحتُ على الشيخ مروان أن يتابع اجتماعاته مع الشيخ سعيد، ولم أنقل إليه تفاصيلَ ما جرى، فاجتمعا فعلاً عِدَّة مرّات تالية، واتفقا على نقاط عديدة، وأخذ العمل مساراً جديداً، كان يبشّر بخير كبير.

لكنّ حوادث الدستور التي قادت إلى سجن الشيخ سعيد، واختفاء الشيخ مروان وعددٍ من الكبار؛ أعادنا إلى الزعزعة السابقة، والتي لم تزل آثارُها في النفوس بعد.

وههنا أحبّ أن أسجّل نقطتين:

الأولى: أنّ الشيخ سعيداً شكرني بحرارةٍ على أنني لم أبلّغ الشيخ مروان بما جرى بيني وبينه، وقال: أنت فعلاً طالب حقّ، وراغبٌ في العمل، ولو أنك أوصلت إلى الشيخ مروان ما دار بيننا، وهذا متوقّع جدّاً؛ لأنك عضُد الشيخ مروان كما حدثني هو؛ لما كنتُ توصّلتُ مع الشيخ مروان إلى نقاطِ التقاء.

والثانية: اعتقال الشيخ سعيد حَوّى رحمه الله تعالى.

عقب أحداث الدستور؛ سيطرت الأجهزة الأمنية على الوضع في حماة، وصار كلّ طالبٍ مطالباً بالرجوع إلى مدرسته، وصار كلّ معلّم مطالباً بالعودة إلى عمله!

وكنت قد تخاصمتُ مع إدارة «ثانوية وادي العيون» العلمانية الطائفية الملحدة، فجاءني الأستاذ السنيّ الوحيد في الثانوية معي، وقال لي: إنّ البعثيين في المدينة خطّطوا لاغتيالي فغادر وادي العيون؛ حذراً، من غير الطريق العام!

بعد مغادرته؛ ناديت على واحدٍ من تلامذتي المخلصين، الذين تأثّروا كثيراً بي، وكان حزبيّاً، وعضو اتّحاد الطلبة، فسألته: ما لديك من الأخبار؟

قال: أنا حزبيٌّ، هذا صحيحٌ، لكنك أستاذنا الذي علّمنا خيراً كثيراً، وفتح أبصارنا على واقعنا البائس، ورأيي يا شيخي أن تغادر الآن قبل أن يأتي الليل، وفي نهاية الأسبوع أجمع لك جميعَ أغراضك في البيت، وأوصلها إليك في حماة!

ضحكت، وتجاهلت أن يكون لديّ علمٌ بشيءٍ، فقلت له: ولماذا تريدني أن أغادر، مم تخاف عليّ.

قال: يا أستاذ! الجماعة في الحزب والمدرسة اتّخذوا قراراً بتصفيتك الليلةَ، وأظنهم حصلوا على موافقةٍ من جهاتٍ عليا!

قلت: أنا لا يُهمّني هذا الأمر، لكن يُهمّني مَن يوصل زوجتي إلى حماة، حتى أريهم قيمتهم في ديارهم!

قال: يا أستاذ بالله عليك، وبحق جدك الرسول، وجدك الإمام علي؛ لا تعرّض نفسك لغدرهم ولؤمهم، فلن تستطيعَ فعلَ شيءٍ معهم، سوى مناوشةٍ يسيرة، ثم يقتلونكَ ونبقى نحن تلامذتك في حسرةٍ دائمة!

وبالتأكيد، سيكون لهذا أثره الكبير على العلاقة بين وادي العيون وحماة!

يا أستاذ هم والله حمقى؛ إذ لم يعرفوا قدرك وقيمتك، فكن أنت العاقل الناظر بمصلحته، ومصلحة تلاميذه، ومصلحة وطنه.

قلت له: خيراً إن شاء الله، سأحاول فعلَ ما يرضيك!

خرجت إلى سوق وادي العيون الصغير، فلم أشاهد شيئاً خلافَ المعتاد، وزرت جاري السابق «أبو نَبيّل» في دكّانه، وكان يُكنّ لي كلّ احترام، فسقاني كأساً من الشاي، وقال لي: أستاذ أبو محمود، أنت تعرف كم أنت عزيزٌ عليّ، وكم بنتي زوجتك عزيزة علينا جميعاً؟

وتالله، وبالله، ووالله عليك؛ تقوم الآن تسافر إلى حماة؛ لأنّ الجماعة الذين ضربتهم وأذللتهم أمام بعضهم، وأمام الطلاب في عقر دارهم؛ لم يسكتوا، يريدون أن يردّوا اعتبارهم، ويأخذوا ثأرهم منك الليلةَ، فاخرج إني لك من الناصحين!

في هذه اللحظة نادوا عليه من خارج الدكان، فإذا بسيّارة شاحنة تحمل شحنة «اسمنت» يريد سائقها أن يفرغوها له بسرعة!

نظرت إلى السائق، فرأيت كأنني أعرفه، فسلّمت عليه، وسألته عن اسمه؟

فقال: أنت الشيخ عداب؟ أنا أعرفك! أنا ابن عمّ صهرك عبدالعزيز، أنا فارس الفارس!

فدعوته إلى البيت، وأشرتُ إلى «أبو نبيّل» أن يخبرنا متى انتهوا من تفريغ الحمولة!

حين أخبرته بالذي حصل؛ انتخى وقال: يخسأ الكلاب، والله لا يصلون إليك ما دمت على قيد الحياة!

قلت له: أخبرني بذلك ثلاثةٌ منهم أبو نَبيّل، فماذا ترى أنت؟

قال: أرى أنهم يريدونك أن ترحل من بينهم، فأنت تعكرّ عليهم عيشتهم، وهذا المكان والله لا يناسبك يا ابن العمّ، أرى أن تجهّز نفسك، وتنْزل في السيارة معي!

واستأذن، وتركني لأتمكن من اختيار الضروري من أغراض البيت، وانصرف ليتابع تفريغ حمولة السيارة.

ناديت على تلميذي المجاور لي، فقلت له: أرسل أختك وخطيبتك لمساعِدَّة زوجتي في تهيئة حاجياتنا للسفر.

وهيأت أنا كتبي التي هي أعزّ شيءٍ في ذلك البيت عليّ.

وحين انتهى العمال من تفريغ السيارة؛ طلب منهم أن يغسلوها بالماء، ففعلوا، ثم أحضرهم إلى بيتنا، فحملوا الأغراض، وودعنا بعض كرام الحيّ، وانصرفنا إلى حماة من دون أيّ إعاقةٍ، أو اعتراض!

بعد نزولي من الوادي بأيام جرت حوادث الدستور، وعقب انتهائها؛ رُحتُ إلى مديرية التربية في حماة، وقابلت مدير التربية أستاذي الفاضل عبدالكريم عطري، رحمه الله حيّاً أم متوفى.

الذي أطلعني بدوره على التقارير الكثيرة التي رفعتها إدارة وادي العيون حيال نشاطي الدعوي في الوادي، وإلزام الطالبات النصيريات بالحجاب في دَرْسَي الدين واللغة العربية اللذين كنت أدرّسهما.

وقال لي: أنجاك الله منهم يا عداب، والله لو بقيت عندهم؛ لاغتالوك؛ لأنهم في غيظ شديدٍ منك، وأنت لا تمتلك المسايرة ولا المجاملة، الله يسامحك!

ثمّ قال لي: عندنا شاغر في «كفر زيتا» مدينة سنيّة، أهلها طيّبون، ما رأيك؟

قلت: على بركة الله!

ناولني ورقة محوّلة إلى الأستاذ إبراهيم حمشو، رئيس قسم التعيينات في مديرية التربية بحماة، واتّصل به هاتفيّاً، وقال له: ولدي الأستاذ عداب تكلفه بـ«١٨» ساعة لغة عربية في «كفر زيتا» وإذا عندك ساعات أخرى من موادّ أخرى؛ فأنت وشأنك، وأنت تعلم أن تقارير الأستاذ عداب ممتازة، فهو أستاذ ناجح!

حملتُ الورقةَ، ودخلتُ غرفة الأستاذ إبراهيم حمشو، فرأيت عنده أربعةَ مراجعين أو خمسة، فألقيت السلام، ووقفت جانباً أنتظر دوري!

ردّ الرجل السلام، وابتسم لي، وقال: دقائق فقط أستاذ عداب، تفضل استرح!

وقفتُ بجانب باب الغرفة، ولم أشأ أن ألفت نظر أحدٍ إلى أنني ذو خصوصية!

وما هي إلا لحظاتٌ، حتى دخل أربعة رجالٍ، يظهر الغضبُ في وجوهِهِم، ومن خلال حديثهم؛ فهمت أنهم من الأجهزة الأمنيّة!

سألوه عن عناوين الإخوة الأساتذة:

الشيخ سعيد حَوّى، والشيخ نافع علواني، والشيخ عبدالحميد أحدب، والشيخ عبدالمنعم الرياحي، هذا ما أذكره من أسمائهم.

حاول الرجل أن يصرفهم، وامتنع عن إعطائهم عناوينهم، إلا بطلبٍ من مدير التربية فصرخ فيه أحدهم: أعطني عناوين مدارسهم فوراً، وإلا أحمّلك المسؤولية كاملة!

راح الأستاذ إبراهيم يبحث عن عنوان الشيخ سعيد حَوّى، ثم قال لهم: الشيخ سعيد حَوّى نُقل من محافظتنا، هو الآن تابع لمحافظة إدلب، ولا أدري في أيّ مدرسة عيّنوه فكتبت أنا على ورقة عندي: المطلوبون بشدة: الشيخ سعيد حَوّى.

فقال له كبيرهم: الشيخ نافع العلواني؟ فذهب بهدوء يفتّش عن عنوانه حتى وجده فكتبت أنا: الشيخ نافع العلواني.

فقال كبيرهم: الشيخ عبدالحميد الأحدب؟ فذهب إبراهيم يبحث عن عنوانه ببطءٍ شديد، حتى وجده، فأعطاهم عنوانه، فكتبت أنا: الشيخ عبدالحميد أحدب.

قال كبيرهم: عبدالمنعم الرياحيّ؟ فذهب إبراهيم يبحث عن عنوانه ببطءٍ شديد، حتى وجده، فأعطاهم عنوانه، فكتبت أنا: الأستاذ عبدالمنعم الرياحي.

ثمّ خرجوا مسرعين، فلما قدّرتُ أنهم غادروا المبنى؛ خرجت من الدائرة مسرعاً حتى وصلت إلى منزل أستاذي فارس المليّ، وكان هو مسؤول الدائرة الإخوانية التي أنتمي إليها من جهة السكنى، فخرج إليّ مشمّراً عن ساقيه، كاشفاً عن ساعديه، يلبس «قبقاب» الوضوء، فأعطيتُه الورقة التي كنتُ كتبتُها، وشرحت له القصة بتفاصيلها.

فقال: سأتوضّأ الآن، ثم أصلي الظهر، وأتغدّى، ثم أذهب فأبلّغهم!

قلت له: شيخي! هل قضيتَ حاجتك؟ قال: نعم!

قلت: من أجل الله تعالى، يكفي دروشة! اذهب الآن فبلّغهم، ثم ارجع، فتوضّأ، ثم تَغدَّ، ثم نَمْ إلى قبيل المغرب، إن شئت!

أراد أن يتعلّل بتعبه، لكنني ذكرته الله تعالى بصفته مسؤولاً عن منطقتي أن يبلّغ ما وصل إليه من معلومات! وأعطيته رقم إبراهيم حمشو في الدائرة؛ ليتأكّد من صحة كلامي!

قال: أعوذ بالله! هل إبراهيم حمشو أوثقُ عندنا منك؟ ثم هو لن يجرؤ على قول كلمة واحدة؛ لأنّه يخاف من هؤلاء المجرمين.

قلت له: أنا أنتظرك على الباب حتى تلبس وتخرج!

فلبس الرجل، وخرج، فبلّغ الأربعةَ المطلوبين، ومرّ بي في البيت، فطمّنني أنه بلّغهم جميعاً، وأبلغني تحيّاتهم.

استجابَ جميعهم لرجائي بأن لا يداوموا، فنجوا من الاعتقال، ثم استيقنوا من إداراتِ مدارسهم في اليوم التالي أن أجهزة الأمن جاءت لاعتقالهم!

لكنّ الشيخ سعيداً؛ لم يستجب! لا أدري لِمَ! فذهب في اليوم الثاني إلى معرّة النعمان لأنه سيجري لطلابه امتحاناً، كما قال لي فيما بعد! فوجد أجهزة الأمن في انتظاره فاعتقلوه، وأمضى في معتقله قرابةَ خمس سنوات.

عاتبته في مكّة المكرّمة على هذا، وقلت له: أما قال لك الأستاذ فارس إنني أنا شهدتُ ذلك بنفسي، وتركتُ أمر تعييني، وجئتُ لأبلغكم في الوقت المناسب؟

قال الشيخ وهو يضحك: بلى والله أبلغني الشيخ أبو أحمد، وقال لي: عداب يقول لي: أجّل وضوءك وصلاتك وغداءك، حتى لو فاتتك صلاةُ العصر وصلاة المغربِ، وبلّغ الجماعةَ؛ ليأخذوا حِذرهم، وليختفوا!

قلت: إذاً لماذا لم تنفّذ، وتلتزم بذلك؟

قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً؛ لأنام في السجن خمس سنين! لكن لعلّ في ذلك خيراً، فقد تفرغنا للعبادة، وكتبتُ في السجن عدداً من المؤلفات!

قلت له: أنا قلت للأستاذ أبو أحمد: «من شان الله بلا دروشة!».

وما كنت أتوقعُ أن تكون الدروشةُ منك يا شيخ سعيد، وأنت الذي تنظّر للحذر والحيطة، والأخذ باحتمال الأسوأ، إلا إذا كنتَ لم تر المبلِّغ ثقةً!

فقال: أعوذ بالله! لقد سألت الأخ أبا أحمد: من بلّغك هذا؟ قال: الشيخ عداب!

قلت له: أخ ثقة ناصح أمين، أما قال لك ذلك؟ قلت: بلى! ولكنّ عدم استجابتك لنصيحتي آلمتني منك قليلاً، وعليك كثيراً!

الذي أردتُ قوله من سياقة هذه القصة؛ أن الحسّ الأمنيّ لدى بعض قيادات الإخوان كان ضعيفاً، وربما كان للشيخ سعيد مسوّغاته الخاصة!

فجماعةُ الإخوان المسلمين حتى تلك الأثناء؛ لا أعلم أنها ساعدت أحداً من عناصرها بشيءٍ ماديّ، وكانت تتقاضى من كلّ فردٍ شيئاً يسيراً، وبالتالي فهي جماعةٌ فقيرة، لا تستطيع أن تَصرفَ لهؤلاء المطلوبين رواتبَهم، فيما أتوقّع!

والشيخ سعيد بالتأكيد؛ هو أكثرُهم فقراً، ولم تكن أسرته من العائلات الغنية، ولا من العائلات المتكافلة، كما كان من العيب عندنا أن يقبل الداعية أو العالم مساعِدَّة من أحد بل إنّ العائلات الفقيرة؛ هي تنتظر العونَ من مثل الشيخ سعيد!

فأنت تلاحظ أنّ عِدَّة عوامل ساهمت في اعتقال الشيخ سعيد حَوّى خاصّةً!

بينما كان الباقون أقدرَ منه على احتمال الانقطاع عن وظائفهم، فغلّبوا الجانب الأمنيّ، ولم يفكّروا في المسألة الماديّة المترتبة على الانقطاع عن الدراسة، فلم يتحمّلوا قهر السجن سنين، والله تعالى أعلم.

بعد سجن الشيخ سعيد، وهروب أكثرِ القيادات الإخوانية من حماة، واضطرار الشيخ مروان للتخفّي؛ غدا الشباب في فراغٍ قاتل، وصاروا يتخبّطون في أمور أنفسهم تخبّطاً شديداً!

فترةُ ضياع وتخبّط:

عقب اعتقال الشيخ سعيد؛ رجعت إلى الأستاذ إبراهيم حمشو، فصدّر قراراً بتعييني بقرية «كفر زيتا» وكلّفني باثنتين وعشرين ساعة تدريسيّة.

حملت كتاب التكليف، وذهبت إلى بيتي، على أمل أن أسافر في اليوم التالي إلى القرية المذكورة؛ لأباشر عملي!

حين وصلت إلى البيت؛ قالت لي الوالدة: جاءك هاتف من التربية، فاذهب إلى بيت أختك، فاتّصل بالأستاذ عطري!

اتّصلت به، فأبلغني أنّ قراراً صدر عن وزير الداخلية «علي ظاظا» يقضي بعدم توظيفي، أوالتعاقد معي في أيّ مؤسسة، أو دائرةٍ حكومية!

أُسقط في يدي، ووضعي الماديّ بالتأكيد أسوأ من وضع الشيخ سعيد، لا لأنّ والدي فقير، ولا لأنّ أسرتي فقيرة، وإنما لأنّ والدي لا يعجبه أسلوبي في الإنفاق؛ إذ إنّ مرتبي كان يتجاوز (٤٠٠) ل.س غالباً، وكان هذا المبلغ كبيراً في بلدنا، ودائماً ليس في جيبي منه شيءٌ!

رجوتُ والدي، ووسّطت له بعضَ وجهاء الأسرة والحيّ أن يمنحني عشرة دونمات من مزرعته أعمل فيها، لعلّ الله يرزقني منها خيراً!

وأخيراً، استجاب الوالد، فمنحني (٣٤) دونماً لسنةٍ واحدة! وكانت تجربةً فريدةً في عالم الزراعة، أوضحتُ تفاصيلها في مكانٍ آخر!

جاءني في مزرعتنا ثلاثةٌ من الأخوة أحدهم مدرس ثانوي، والآخر موظف إداري والثالث يَدرُس في كلية الطب، وبلغَني أن الأخير انحرف عن منهج الدعوة فيما بعد.

فقال أحدهم بلسانهم: يا أخي لا يجوز لنا البقاء بدون عمل، وهذا الشيخ مروان لا نعرف أين أرضُه، والشيخ سعيد في السجن، والقيادة مرتبكة، فعلينا أن نضع خطة ننقذُ بها الوضع المتردي.

ورحنا جادّين في وضع خطة العمل المرحلية، إلى أن كدنا ننتهي من أعمالنا على مدى أيّام، ففوجئت بأحد هؤلاء يقول: فكروا لنا في الاسم الذي نطلقه على الحركةِ، وفكّروا لنا في اختيار قائدٍ من بيننا.

ومع أنني كنتُ المهيأَ للاختيار، والله أعلم ساعتئذ؛ إلا أنني صُعقت من هذا الكلام وقلت ما معناه: كل الذي في ذهني أننا نضع خطة نعرضها على إخواننا للإفادة منها، أما تشكيل جماعة جديدة؛ فهذا عجيب! أعوذ بالله العظيم!

فقال أحدهم، وهو خيّر عندي: لا تحزن يا أخي إننا فقدنا الثقةَ بجماعة الإخوان كلها وعما قريب ترى شباب الإخوان كلّهم معنا!

وساعتها تذكرتُ بعض الكلمات التي مرّت في محاضر الجلسات!

ومنها: محاولة استقطاب جميع العناصر الفعّالة، والخيّرة عند الإخوان المسلمين من الكبار والصغار! فالثقة فُقدت من الجماعة بكاملها، وليس من القادة، أو بعضهم.

عندها قلت لهذا الأخ: ألا تعلم أنني على صلة دائمة بالشيخ مروان، وتعرف ما أقوم به من أعمال؟ فأقل ما يجب عليكم التفكيرُ به؛ هو الانضمامُ إلى شباب الشيخ مروان وإقناعه بخطة العمل هذه، فقال: عملُ الشيخ مروان وعملكم على الرأس والعين، وهو جزء من عملنا الكبير، فأشرت برأسي مستنكراً، رافضاً متابعتهم، فانصرفوا، وانتهى الأمر! وأصحاب هذه الحادثة هذه أحياء جميعاً! (كتبت هذا الكلام عام (١٩٨١م).

ولعل الحادثة الآتية أبلغ في الإشارة إلى فقدان الثقة.

في يوم من أيام صيف (١٩٧٣م) جاءني ثلاثةٌ من الشباب المردِ يركبون على دراجتين فيما أذكر، ويسمعون عني مجرد سماع، ولا أعرف إلا واحداً منهم معرفةَ تحيةٍ ليست غير.

فاستأذنوا وجلسنا، فقال كبيرهم، وهو الآن يعمل في دول الخليج: يا أخي أبا محمود نحن قصدناك لأمر عظيم، ليس له إلا أنت.

فقلت: خير وبركة إن شاء الله، الله تعالى يفرّج كل كرب، فتكلم كثيراً عن ضعف الجماعةِ، وأنهم أناس كذابون، ولا يريدون أن يعملوا، ويحاربون الشباب الذين يريدون الجهاد، ويمنعون كلّ أحدٍ من المجيء إليك، أو إلى أحد من شباب الشيخ مروان، إلى آخر الأسطوانة الإثاريّة المعروفة، ثم قال: فنحن الآن حوالي سبعين شاباً تقريباً! ولدى الكثيرين منا سلاح، وكثير منّا دّربهم تلاميذك، فلان وفلان، وضحك!

والذي نرجوه منك أن تتسلّم قيادةَ هذا العمل، فأنت قادر على ذلك، والشباب كلهم يثقون بك، وأنت تعلم أنه لا بد من إقامة عمل عسكري جديد؛ لأن الجماعة ترفض فكرةَ الجهاد من أساسها.

سرّني حماسُهم، وآذاني في الوقت نفسه أن يكون مثل هؤلاء الزغب طامحين إلى هذا الحدّ، فرحبّت بهم، وشكرت حماسهم إلى أن شربنا الشاي، ثم قلت لهم: جماعةُ الشيخ مروان قائمة، فلم لا تنخرطون فيها، وتكونون عندئذٍ تحت إمرتي بطبيعة الحال؟

قالوا: الشيخ مروان؛ ليس عنده عملٌ تنظيميّ، وقد زاره فلان، فقال له: نحن فصيل من الإخوان المسلمين، ونحن ليس عندنا ثقةٌ بجماعة الإخوان الفاشلة!

فقلت لواحد منهم: الاسم الكريم، فقال: فلان.

وكانت الساقيةُ جاريةً بماءٍ أحمرَ عَكِرٍ، فقلت له: هذا الماء طاهرٌ، أم نجسٌ، إذا أراد الإنسان أن يتوضأ منه؟ فاحمّر وجهه، وقال: طبعاً نجس!

فقلت له: يا فلان، أرجو أن تعدد لي أركان الوضوء التي لو أخَلّ المرءِ بشيء منها؛ كان فاقدَ الطهارة، ومن ثمّ فلا صلاة له؟ فازداد احمرارُ وجهه، ولم يجب!

فقلت لهم: يا إخواني إنني أشكر غيرتكم وحماسكم، إلا أن دعوتنا هذه؛ دعوةُ دين، فما لم نتعرف إلى هذا الدين، ونتعلم أحكامه، ونطبقها في واقع حياتنا؛ فإن حماسنا هذا؛ لا يفيد شيئاً؛ لأن الله لا يؤيد إلا الصادقين المخلصين الملتزمين بشريعته علماً وعملاً.

وإن الشباب في مثل سنّكم؛ مطالبون بأن يتعلموا القرآن، والعقيدة، والفقه، وأن لا يشغلوا أنفسهم فيما لا يمكنهم الخوض فيه.

٣) وثالث أمراضنا الحركية فقدان المنهج العلمي:

فترى الجميع يقولون بأن منهج الحركة العملي يتواجد جلّه في مجموعة رسائل الشهيد البنّا، رحمه الله تعالى، وهذا يعني أن رسالة العقائد، وما يدور في فلكها ومنهجها هو الذي يجب أن يتربى عليه أبناء الحركة، ليصاغوا صياغة واحدة من حيث الاعتقاد.

ويعني أيضاً أن منهج الحركة الفقهي، هو المنهج الواضح الأصيل الذي رسم ملامحه الشيخ البنا في رسائله أيضاً، وجسّده الشيخ سيّد سابق في فقه السنّة!

وهو يعني كذلك أن مبدأ النظام الداخلي، والعلاقات الحركية الخارجية؛ إنما تصاغ وفق منهج هذه الرسائل، وتدور في فلكها.

غير أن الواقع الذي عشناه، ولا تزال تعيشه الحركةُ حتى اليوم؛ هو عدم وجود الفكر العقدي الواحد، والمورد الفقهي الواحد، والنظام الداخلي السليم، ووضوح كيفية التعامل مع الآخرين.

فرسالة العقائد للشيخ البنا تنهج المنهج الأشعريّ التفويضيّ في الاعتقاد والتوحيد، وتناقش المناهج الأخرى، وتعذر أصحابها، لكنّ رسالة العقائد؛ لم تتناول إلا قسم الإلهيات، فتبقى بقية أقسام العقائد، إما غير معلومة لدى الشباب، أو أنّ كلّ موجّه يختار ما يراه مناسباً!

وقد مضى على دعوة الإخوان المسلمين ردحٌ من الزمنِ، لا تدرس ولا تعلّم العقيدة في حلقاتها، إلا من خلال معالم في الطريق! وهو كتاب يمثل جانباً، أو جوانب كلية في الفكر الإسلاميّ، وليس في جوانب العقيدة الإسلامية المتعددة.

والشيخ البنا يقول: ينبغي للأخ المسلم أن يكون له مذهب يتبع فيه إمامه، ليسهل عليه التعرف إلى أحكام المذهب والعمل بها، حتى إذا صار أهلاً للنظر في الأدلة؛ رجّح!

أما أبناء الدعوة في سورية، وخاصة في حَماة، فإنهم لم يدرسوا رسالة العقائد للشيخ البنا على موجّهيهم، وإنما درس بعضُهم «أصول العقائد» للأستاذ عبدالله عرواني، أو «رسالة المعرفة» أو شرح «جوهرة التوحيد» للباجوري!

وهذه الكتب كلّها؛ تخالفُ ما عليه الأخوة الدمشقيون، والأردنيون، وجمهرة المصريين، والسعوديين وأهلِ الخليجِ، الذين ينهجون منهج السلف في الاعتقاد، مع بعض القيود.

ولا أزال أذكر جلسة جمعتنا مع بعض الأخوة في أواخر عام (١٩٧١م) أو أوائل عام (١٩٧٢م) حين كنت أعمل مدرّساً مكلّفاً في محافظة الرقة.

جاء بعض الإخوان المسلمين من أبناء المنطقة التي كنا نعلّم فيها يرجون أن نتعاونَ معهم في حقل الدعوة هناك، واجتمعنا في مَنْزل كبيرنا المهندس أبي كاظم رامي العلواني وكان من جملة الحاضرين الأخ المهندس رياض جعمور، رحمهما الله تعالى.

وكان يظهر على الإخوة الضيوفِ الاتّجاهُ السلفيّ غير المتشدّد، فتناقشنا في مسائل عديدة إلى أن وصلنا إلى المسلك الفقهي الذي نتحاكم إليه، لا الذي نطبقه في حياتنا اليومية؟

فقال المهندس رياض: كل واحد ومذهبه!

فقال واحدٌ من الإخوة الرَقِيّين: وإذا اختلف مذهبي ومذهبك في الحكم؟

قال رياض: ما دام للمسألة وجهٌ شرعي على مذهب من المذاهبِ؛ فلا نقف عندها.

فقال له هذا الأخ: إذن لن نستطيع محاسبة أحد على شيء؛ لأن كل أمر يوجد له مخرج عند بعض المذاهب، وخاصة في أقوال المتأخرين من علماء المذاهب.

فقال رياض: إذن نجعل المذهبَ الحنفيَّ للتَحاكم! فقلت أنا: ولماذا لا يكون مذهبَ الشافعيّ، واختلفنا!

وقصدي آنئذ أن مثل هذا الكلام لا ينفع في التحاكم؛ وإن نفع في الأعمال الفردية!

قال الأخُ ابنُ البلد: أحب أن أسألكم سؤالاً يقطع هذا الجدال بيننا: لو جاءكم حديث صحيح عن رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ أتأخذون به، أم بقول المذهب؟

فقلت أنا على الفور: بل بحديث رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ لأن المذاهبَ بمجموعها، مع استبعاد الاختلافات التي لم توافق السنة؛ جميعها تكوّن الشريعة الإسلامية وليس مذهبٌ من المذاهب يدّعى له أنه الشريعة.

فقال المهندس رياض: بل نأخذ برأي المذهب؛ لأننا لسنا أعلمَ من أصحابِ المذهبِ ونحن لا نعلم ما وجهة نظرهم في هذا الحديث، فهل تتوقعون أن هذا الحديث فاتهم معرفته؟

وهذا القول؛ يبعد كل البعد عن منهج البنا في الفقه، وعن منهج الإخوان كحركة.

٤) والمرض الرابع من أمراضنا الحركية: فقدان المنهج التربويّ الإسلاميّ:

ولا أريد أن أذهب بعيداً في أبعاد التربية الإسلامية، وإنما أقصر هذا البعد على الاستقامة والتثبت والتقوى، وحسن المعاشرة، والنقد الذاتي الموضوعي.

ولو استعرض ناقدٌ تربويٌّ شباب الإخوان المسلمين، وقارنهم بغيرهم؛ فإنه سيجد نسبةَ الاستقامة فيهم أعلى من معظم شبابِ الجماعات الإسلامية غيرهم، إذا أخذنا باعتبارنا المفهوم الشامل للاستقامة، والذي يضم بين أحنائه الصدقَ، والوضوحَ، والتجرد، والمواظبة على الطاعات، واجتناب المنكرات.

إلا أننا إذا أردنا أن نزنهم بميزان الشريعة؛ فإننا واجدون لديهم كثيراً من الانحرافات الأخلاقية والسلوكية والفكرية!

ولعل أخطرَ ما تجده عند شبابنا؛ ضَعفُ الصلة بالله تعالى، والخَواءُ الروحيّ والعلميّ الشرعيّ، وكثيراً ما تجدُ الواحد منا؛ لا يتورع عن كيل التهم لإخوانه جزافاً، يختلق ذلك من

بنات أفكاره، أو يردده دون تثبت، فيبقى الذي يَذكر عيوب الناس بما فيهم أقل سوءاً من هؤلاء، وما أكثرهم!

على أن مما ينبغي التذكيرُ به أنني أرى أن الذين أجرموا في حق هذه الدعوة؛ لا حرمةَ لهم أصلاً، ولا ضير على الإنسان أن يُحذّر الناس من جرائمهم، ويوضح للناس جهلهم أو غباءَهم، أو أنانيتهم، أو ارتماءهم، إذا لم يكن ذلك على طريق التشفي الشخصي لأحقادٍ خاصة، ليس لها صلة بالعمل الإسلامي.

كما أن ثمة ظاهرةً تضرب أطنابها في صفوفنا، وهي عدم اكتراث شبابنا بصلاة الجماعةِ، على كثرة الأحاديث الواردة في التحذير من تركها.

فترى كثيرين منّا يجلسون على شرب الشاي، والمسجد بجوارهم، ثم ينفضّون أحياناً دون تأديةِ الصلاة جماعة في البيت، فضلاً عن المسجد، وما أكثر الذين ينامون عن صلاة الفجر منّا؟!

كما أن صيام النفل، وقيام الليل تطوعاً، والتضرع إلى الله في جنح الظلام؛ يكاد يكون معدوماً بيننا، ولا أزل أذكرُ المرات الكثيرة جداً، يوم كنا نسمر ونسهر مع الشيخ مروان رحمه الله، فكنا نتحدث ونتناظر، ونتصايح حتى يمل رحمه الله، فينادي: كفّوا كفوا، نريد أن نقرأ جزءاً من القرآن، أحضر المصاحف يا فلان، وما أن تُحضَر المصاحف، حتى ينفض نصف المجلس، ونصف الباقين غير متوضئين، ينتظرون أن تنتهي القراءةُ؛ لنعود إلى الكلام؟!

ولذلك كان يقول لهم رحمه الله: لا تحسبوا أن أمثالَكم يُعتمَد عليهم في تحكيم شريعة الله في الأرض، أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم؛ تَقُمْ على أرضكم.

ثم ينادي: من يصلي معي ركعتين، وكنا نعرف صلاته التي لا يطيقها سواه، فهيهات أن يتشجع اثنان أو ثلاثة!

فيقوم ويصلي معهم هاتين الركعتين، حتى تكاد أرجلهم تتقصف، فإذا قيل له: يا أبا خالد: لو جعلتهما أربع ركعاتٍ، أو ثمانيَ ركعات؛ بدلاً من ركعتين فيقول: تعلموا الصبر!

من لا يقوى على الوقوفِ بين يدي ربه ساعةً في الصلاة وهو آمن، فكيف يقوى على الوقوف أمام عدوّه في المعركة، وهو خائف؟! هذه بتلك!

أضف إلى هذا وذاك انتشارُ الغيبةِ والنميمة بين صفوفنا انتشاراً رهيباً، وذلك بسبب فقدانِ عنصر الاستقامةِ والمحاسبة، ومع فَقْد هذا العنصرِ؛ تكثرُ الذنوب، وتكبر العيوب فتنطلق الألسنة متشفيةً أو متألمة، إلا أنها في كلا الحالين آثمة؛ لأنها لم تنهج المنهج الصحيح في النصح، وليس هذا كل ما يقال عن أمراضنا التربوية، فعندنا منها الكثير والكثير.

٥) وخامس أمراضنا الحركية: اختلال الموازين الصحيحة للتقويم:

سواء كان هذا الخلل في تقويم الأشخاص واختيارهم، أو كان في تقدير جهودهم وإمكاناتهم، أو كان في تربيتهم وتوظيفهم الحركي، أو كان في نفاذ كلمتهم، وهيمنتهم على الدعوة والحركة.

وعندنا عِدَّة موازين هزيلة توزن بها الأشياء: القدم، الغنى، أو الجاه، الشهادة؛ الطواعية!

والقِدم وحده قد يفيد في حالة توفر الغنى، أو الجاه، أما في حالة تفرّده؛ فإنه نادراً ما يفيد، وكم من أخ لا قيمة لرأيه، ولا يعبأ به، إما لفقره، أو آرائه الجريئة، أو عزة نفسه!

والذي يريد أن يتنكر لهذا؛ فلينظر كم من الأمكنة الحساسة يشغلها أناس غير أكفاء لها، وقد يكونون أكفاءَ في أماكن أخرى، وليس لهم من المؤهلات سوى الشهادة المصحوبة بالغنى، أو الغنى المصحوب بالطواعية، أو الجاه المصحوب بالمجاملة!

ومن المعلوم أن دعوة الإخوان المسلمين؛ دعوة شرعيّة، وبالتالي فإن موازينها يجب أن تكون شرعية، وقياداتُها يجب أن تستمد أوصافها من الصفات التي وصفتها الشريعة واشترطتها في

القائد، وإن أيسر هذه الصفات أن يكون القائد عالماً شرعياً، لأنه الحكم بين أبناء الحركة إذا اختلفوا.

ولكنه لم يمّر على تاريخ الحركة في سورية عالمٌ، بعد الشيخ السباعي رحمه الله!

والأيام التي تسلّم بها القيادةَ الشيخُ عبدالفتاحِ؛ لا تُحتسب في تاريخ الحركة، إذ هي كانت عمليةَ تمريرٍ، بين مرحلة وأخرى فقط!

علاوةً على ذلك؛ فقد كان المتنفذون حول الشيخ عبدالفتّاح، أكثرهم ليسوا من المتخصصين الشرعيين، والشيخ نفسه ليس له ناقةٌ ولا جملٌ في القيادة؛ فقد كان منكبّاً على تحقيقاته التي كان يعتقد أنها تخدم الإسلام، وتجلب له السمعةَ العلمية العاليةَ، والمال!

أما الشيخ سعيد حَوّى؛ فقد كان رأيه يضيع بين آراء الأكثرية، على الطريقة الديمقراطية، فللشيخ سعيد صوتٌ واحدٌ، وللخبّاز، ومُصلّح السيارات مثلُ صوته!

ولا أزال أذكر مثالاً يحيرّني، وهو أن المهندس الشيخ مروان حديد، حين شكّل مجموعاته المقاتلة، ورفضت الجماعةُ التعاونَ معه؛ استقّل بنفسه عَمليّاً، وكان هو القائد الأعلى للحركة الجهادية!

ولما خشي أن يحدث له طارئ؛ عيّن على عمله العسكريّ خليفةً له، والرجلُ المعيّنُ ممن نحسبه عند الله صالحاً وذكياً، إلا أنه ليس رجلَ حركةٍ، ولا حربٍ، ولا قيادة!

لا لشيء، سوى شدّة حساسيته وعصبيته، وانفعاله لأدنى الأشياء، وورعه الشديد.

ولما قُلتُ للشهيد مروان: كيف تفعل هذا يا أبا خالد؟ قال: من أضع سواه، وهو موجود في البلد، وأكثركم خارجَ البلاد؟

ثم هو الشيخُ فلانٌ بنُ الشيخِ فُلانٍ، ومكانتُه في البلد كما تعرف، وهو بخطبة واحدة على المنبر؛ يفعل ما لا يستطيعُ فَعلَه ألوفٌ غيرُه!

عجبتُ والله من صنيع الشهيد مروان، ولا يزال العجب يحيّرني؛ إذ إنّ خليفته المحترم هذا فعلاً بخُطبةٍ واحدةٍ؛ خرّب العملَ كلّه، وكانت خطبتُه الناريّةُ؛ السببَ المباشرَ الذي أيقظَ السلطة المجرمة، ونبّهها، مما قد يكون عجّل باعتقال الشهيد مروان، واستشهاده، من غير قصدٍ منه طبعاً، فهو أتقى لله وأورع.

ولما دقّت ساعةُ العمل؛ لم تحتمل هذا الأخَ الفاضلَ أعصابُه، ولم يَعرف ماذا يفعلُ، فترك البلاد والعباد، وغادر إلى خارج سوريا!

وقد التقيتُه بعدَ ذلكَ في طرابلس لبنان، وبقيتُ معه أياماً عديدةً، في بيتٍ واحدٍ، أفيدُ من ورعه وأخلاقه وطاعاته، وهو أستاذي بكلّ المقاييس.

وفي واحدٍ من تلك الأيام؛ قمت أحضّر طعامَ الغداء، فتبعني ليساعدني في تحضيره فسألته، ونحن في المطبخِ، وقلت: أنت خليفة الشيخ مروان يا شيخنا، فكيف تترك شبابَه بلا راعٍ، وتَخرجُ، وما سببُ خروجك؟

فالتفت إليّ بحدّة، وقال: وما سببُ خروجك أنت، ألستَ أنت شيخَ شبابِ الشيخ مروان؟

فتبسّمتُ، وقلت له: إذا كان الحوارُ يُغضبكَ؛ فأعتذر وأسكت، فأنا حريصٌ جدّاً على محبّتك ومودّتك! قال: وأنا كذلك والله!

وتابعَ: أسباب مغادرتي حماة؛ عديدة، وليست سبباً واحداً.

السبب الأول: إصرارُ مشايخنا، وخصوصاً آل مراد على مغادرتك ومغادرتي، حتى لا نقود البلدَ إلى كارثةٍ، كما قالوا لي ولك.

والسبب الثاني: أنت أرسلت إليّ رسالةً تقول لي فيها: إنّ الظرف الآن غيرُ مناسب للصِدام مع الدولة، وإمكاناتُنا لا تسمح بذلك، ويجب أن نضرب عدوّنا في ساعةِ قوّة منّا وعدم توقّعه أننا سنضربه.

والسبب الثالث: قد أخرجتُ معي مبلغاً من المال، أظنه قال لي: اقترضتُه، ولم يبق منه إلا القليل، وأنا أرفض رفضاً قاطعاً أن ينفق عليّ أحدٌ، فلذلك أنا أبحث عن عمل، وعسى أن يتيسّر قريباً**!**

هذا ما أذكره من الحوار، منذ أربعين سنة تقريباً**!**

قال عداب: فتصرّف شيخي الشهيد مروان في جعلِه هذا الرجلَ الشاعرَ المرهفَ الحساسية خليفةً له؛ غيرُ مقبولٍ، وقَبولُ هذا الرجل أن يتسلّم قيادةَ عَملٍ عسكريّ، وهو غير أهلٍ له؛ غير مقبولٍ، وأنا لا أزال لا أصدق ذاكرتي في الذي قاله لي الشهيد مروان من سبب اختيار خليفته الصالحِ هذا.

وإن كنت لم أستغرب أو أستنكر شيئاً مما قاله لي خليفته؛ لأنه تربى على الورع الشديد والفردية المطلقة في الحياة، ولا يستطيع أن يرجّح المصلحة العامة في حاجة الناس له، على مصلحته الشخصية، في استمساكه الصارم فيما تربى عليه، حفظه الله وبارك لنا في حياته**!**

وقولي: إنه غير أهلٍ لقيادة عملٍ عسكريٍ أو سياسيّ؛ لا يعني أنني أكثر أهلية منه أبداً.

فكلّ إنسانٍ حادِّ المزاح، سريع الانفعال، سهل الإثارة والغضب؛ لا يصلح للقيادة في نظري وهي وجهة نظر، قد أكون مخطئاً فيها، والله المستعان.

الملحق الثاني

الشهيد مروان حديد بأقلام معاصريه

ربما كان هذا الملحق أهمَّ فصول هذا الكتاب؛ لأنه يعكس الصورةَ الحيّة لشخصيّة الشهيد مروان رحمه الله تعالى، في نفوس معاصريه، على الرغم من أنّ أكثرهم لا يوافقونه على خطّه الجهاديّ.

وقد كنت أرغب أن أحصلَ على شهاداتٍ أكثر، لكنّ تفرُّقَ معارفِ الشهيد وأحبابه في البلاد، ووفاةَ كثيرين منهم، وضعفي عن التنقل والارتحال؛ جعلتني أقتصر على هذه الشهادات المحدودة، وهي ستَّ عشرَة شهادة، تضافُ إلى شهادتي التي هي بقيّة هذا الكتاب.

ومن عادتي أن أستشيرَ عدداً من إخواني وتلامذتي في الأمور المهمة، بخصوص أيّ كتابٍ أريد إصداره من كتبي.

وبخصوص الشهادات الواردة في هذا الملحق؛ فقد رأى بعض هؤلاء الأفاضل أن أنهج في تصنيفها الترتيب الموضوعي، فما كان مشتركاً بينها؛ فلا حاجة إلى تكراره؛ لعدم الفائدة من التكرار من جهة، وحتى لا يسأمَ القارئ من حجم هذا الملحق، الذي هو نافلةٌ في الكتاب، كما رأى أولئك الأفاضل!

ورأى بعضُهم أن أُفيد من هذه الشهادات في صلب الكتاب، إذا لزم الأمر، ثمّ أودعها كلها في هذا الملحق كما هي عليه؛ لتحقيق عِدَّة أهداف:

الهدف الأول: الحفاظ على هذه الوثائق، بصورتها التي وضعها أصحابها؛ أداءً للأمانة وحفظاً للتاريخ؛ لأننا إذا مزّقنا كلّ شهادةٍ في تضاعيف الكتاب؛ لم نمكّن القارئ من قراءة الشهادة، كما هي عند صاحبها.

الهدف الثاني: أن صاحب كلّ شهادة؛ نظر إلى الشهيد مروان وحدةً موضوعيةً واحدة، فأعطى عنه شهادةً بهذه الصفة، ومن المحال أن تكون الجزئيات المقتطعة من الشهادة تؤدي هذا الهدف.

الهدف الثالث: إن بعض أصحاب الشهاداتِ، من شيوخ الشهيد مروان، وبعضهم من أقرانه وزملائه، وبعضهم من تلامذته، فمن الممكن أن يرغب قارئ بمعرفة صورة الشهيد مروان في نظر شيوخه، أو زملائه، أو تلامذته.

ومن الممكن أن يرغبَ أحدُ القرّاء بأن يتعرّف على موقفِ شخصٍ واحدٍ من هؤلاء، من الشهيد مروان.

فرجّحت الخيارَ الثاني، لكنني أقللتُ من الاستشهاد بمضمون هذا الملحق، إلا في مواضع لا بدّ منها في صلبِ الكتاب.

وبما أنّ كتابنا هذا؛ ليس كتاباً منهجياً تدريسيّاً، فيمكن للقارئ الكريم أن يقرأ في كلّ يومٍ واحدةً من هذه الشهادات، ويتعرف إلى الصلة الروحية لصاحبها مع الشهيد مروانَ، وهو ليس مضطراً إلى قراءة جميعها؛ لتأدية اختبارٍ بمضامينها!

وقد راعيت في ترتيبها كِبَر السنّ، فإن اتّفق صاحبا شهادتين في السنّ؛ قدمت شهادةَ من كان أعرفَ بالشيخِ، وأقربَ إليه من الآخر، في تقديري، وأنا أعرفُ ذلك تماماً، إن شاء الله تبارك وتعالى.

وقد صوّب، أو علّق بعضُ من قرأ هذه الشهاداتِ، على بعضٍ ما ورد فيها، فلم أر من حقي حذفَ الخطأ، وإثباتَ الصواب، وأنما أثبت التعليق كما هو في الموضع المؤشّر عليه. ولم أرَ الإكثار من التعليق على هذه الشهادات؛ لئلا تفقد بعضَ قيمتها، إلا ما رأيت ضرورةً إليه!

لكنّ من يقرأ الكتاب؛ فأرجو أن يجدَ الجوابَ الصحيح على كلّ جزئيةٍ، لم يرها صواباً في هذه الشهادات، إن شاء الله تعالى.

(١) شهادةُ الشيخ وهبي سليمان الغاوجي:

الشيخ وهبي الغاوجي؛ ألبانيّ الأصل، مثلُ الشيخ شعيب الأرناؤوط، والشيخ ناصر الألباني! بيد أنّ الشيخ وهبي والشيخَ شعيباً كلاهما حدّثاني أنّ الشيخ الألباني ليس أرناؤوطيّاً من قبيلتهما، وإنما هو من قبيلة أخرى.

وقد زرته في منزله في المدينة المنورة، على صاحبها أزكى التحية والسلام مراتٍ عديدة، وفي واحدة منها؛ دار الحوار بيننا حيالَ الشهيد مروان حديد، فكان مما قاله لي:

«لقد تعرفت على الشهيد رحمه الله في جنازة المرحوم السباعيّ (١٩٦٤م) ثم افترقنا بسبب الزحام، ولكنني أذكر للشهيد حادثة حدثت أمامي وهي:

دخلتُ المسجدَ الجديد في حماة، ودخلتُ إلى غرفة «آل المراد» فيه، فوجدت الشيخ مُحَمّداً الحامدَ، والشهيد مروانَ حديدٍ رحمهما الله تعالى.

وكان الشهيد مروان يتحدّث عن فكرة إقامة جمعة واحدةٍ، يجتمع فيها المسلمون جميعاً في حماة؛ ليتَلَقّوا فكراً واحداً، وليطبقوا السنة.

فلم يَرتَضِ الشيخ مُحَمّد هذا الرأيَ، وكان مما قاله: إن هناك أئمةً وخطباءَ يتألّمونَ، ويظنون أن الأمر ضدهم، وكأن الشيخ الحامد خشي أن تكون الفكرة التي راودت الشهيد مروان سلفيةً! كما أن هناك أموراً أهمَّ، علينا الالتفاتُ إليها.

واحتدّ الشيخ الحامد على الشهيد مروان، ولكن الشهيد مروان ازدادت حِدّتُه وقال:

إذا كان هذا هو الإسلامَ في نظركم، يعني المحافظةَ على وظائف الخطباء! فلا نريد هذا الإسلام؟ إننا نريد إسلامَ أبي بكر وعمر وصحابةِ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ.

وسألتُه عن خُلق مروان وسجاياه، فقال جملة مختصرة: كان رحمه الله عُمريَّ النَزعة؛ إذا بدا له الحقّ؛ فإنه لا يعرف غيره! كان عمري النَزعة، فإذا بدا له الحقُّ؛ فلا يبالي من خالفه فيه، كان رحمه الله عمريَّ النَزعة؛ لكنه أتعب من بعده!

رحمه الله رحمة واسعةً، لقد كانت زوجته في بيته ولم يقربها! أي رجل هذا؟ لقد كان رحمه الله يشعرُ، وكأن بيته جبهةُ قتال!

قلت يقولون: إنه كان يقسو على العلماء، ولا يحترمهم كما ينبغي؟

فقال: إن صح هذا؛ فهم يستحقون أكثر من هذا؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم حقَّ القيام، ولقد كان على حقٍّ في كلّ ما فعل.

قلت له: لقد حدثني الشهيد قبل اعتقاله بيوم أنه أرسل إليكم خطاباً، كما أرسل مثله إلى العلماء فكان جوابكم له: إن ما قلتَه هو الحق والصواب، ولكنني أعجز عنه.

فقال الشيخ وهبي: نعم هذا صحيح. وكان الشيخ وهبي يردد: لقد أتعب من بعده.

قلت: يقولون إنّه عصبيّ، أحمق، مُتهوّر؟

فقال: كان رحمه الله عمريَّ النَزْعة، وكفى!

ثم قال: لقد قاسى كثيراً رحمه الله، وعانى في سبيل الله، فرحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في الفردوس الأعلى».

قال عداب: قبل اعتقال الشهيد بعِدَّة أيّام؛ أرسل عِدَّة رسائل لعددٍ من علماء دمشق، وأرسل مع رسائله بيان «الجهاد» وكان ممن أرسل إليه خطاباً الشيخُ وهبي سليمان الغاوجي، والدكتور مُحَمّد سعيد رمضان البوطي!

أما الدكتور البوطي؛ فوبّخ حامل الرسالة إليه الأخ الشهيدَ «عربي جوهر» أشدّ التوبيخ وشتم الشهيدَ مروانَ شتائمَ مُقذعة، أذهلت الشهيد مروان، واستغرب أن تصدر عن مثل

الدكتور البوطي في مقامه العلمي، وتربيته الصوفيّة عند والده مُلا رمضان وشيخه حسن حبنكة!

وأما الشيخ وهبي، فأرسل إليه يقول: «ما تقوله حقّ، وما جاء في البيان حقّ، ولكنني أَجْبَن من أن أتحمّل ذلك، وأقوم به، أعانك الله ونصرك».

هذا ما قاله لي الشهيد مروان، وقال: انظر بالله عليك كم الفارق بين كلام هذا الرجل الصالح، وبين كلام شيخِك البوطي؟

والله أنا أرى الشيخ وهبي من أشجع الخلق؛ إذ قال الحقّ في تقويم البيان، واعترف بأنه لا يقوى على تحمّل مثلِ هذه المسؤولية، فهذه قمّة الشجاعة، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسعها!

جَزاه الله عني خيراً، فكلامه طمأنني إلى صواب ما كتبتُ؛ لأنه عالم جليل.

يا عداب: أريدُك أن تحمل لي خطاباً للدكتور البوطي، وتحاوره فيما سيقوله لك، فإن حاولَ إهانتَك كما أهان الأخ عربي؛ فبرّح به، لكن إياك أن تقتُلَه، فلا يجوز قتلُه!

فأخذت الخطابَ من الشيخ، وغبتُ عن البيت ساعةً، ثمّ عُدتُ، فسألني:

هل ذهبت إلى الدكتور البوطي؟ قلت: لا!

قال: ظننت أنك لن تفعل! قلت: لمَ؟

قال: أنا أُكبر فيك احترامَك للعلماء، وخاصّةً شيوخَك! قلت: ألستم مَن علّمنا هذا؟

لو قلتَ لي: اقتُلْه؛ كنتُ حاورتُك حتى أقتنعَ بجواز قتله، ثم ذهبتُ فقتلتُه!

أما وقد قلت لي: إياكَ أن تقتلَه؛ فكلامك يعني: تنفيساً عن قهرِ نفسكَ منه، ولهذا قررت من اللحظةِ الأولى أن أستلمَ الخطابَ منك، ولا أذهبَ إلى الشيخ البوطيّ.

****

(٢) شهادة الأستاذ عدنان سعدالدين

المراقب العام الأسبق للإخوان المسلمين في سوريّا

الأستاذ عدنان سعدالدين «أبو عامر» من أسرة حمويّة، ترجع إلى أصولٍ كردية، وقد حدثني هو مرّةً أنهم يرجعون إلى الأكراد الأيوبيين.

ولعلّه لهذا؛ كتب كتابه «مملكة حماة الأيوبية» الذي اعتمد في كتابته على كتابٍ بهذا العنوان للأستاذ المؤرخ «غسان سبانو».

حدّث هو عن نفسه أنّ أسرته كانت من العائلات الفقيرة، كأكثر عائلات حماة؛ إذ كانت الطبقة الغنية؛ هي طبقة ملاك الأراضي الزراعية والبساتين.

وقد توفي والده وهو صغير، بعد أن ترك أسرةً كثيرةَ العدد، سبّبت له رهقاً جسديّاً ونفسيّاً.

كان الأستاذ عدنان سعدالدين ذكيّاً، طموحاً، ذا علاقاتٍ واسعة مع الناس، منذ باكورة حياته، وإلى أن توفي.

والأستاذ عدنان سعدالدين يذكر في كتابه عن «الإخوان المسلمون في سوريا» أنه بقي شيخاً مرشداً للشهيد مروان أربع عشرة سنة (١٩٥٠- ١٩٦٤).

ويذكر الدكتور أحمد جوّاد في شهادته؛ أن من حسن طالع مروان أنّ الأستاذ عدنان كان مُرشدَه وموجِّهَه أكثرَ من عشر سنوات!

وقد صحبتُ الشهيد مروان من الشهر العاشر من شهور عام (١٩٦٣م) وحتى (٣٠) حزيران (١٩٧٥م) قبل اعتقاله بأقلّ من نصف ساعة، ولم أسمعه مرّةً واحدةً ذكر أنّ من شيوخه في الدعوة الأستاذَ عدنان سعدالدين.

وحتى عام (١٩٧٤م) لم أكن أنا شخصيّاً سمعتُ الشهيدَ مروان، ولا غيره يذكر الأستاذ عدنان على لسانه قط، لأنّ أبا عامرٍ كان يعيش خارجَ سوريا، وليس له وجودٌ ظاهرٌ على أرضِ الواقع الدعويّ في سوريا!

وفي ليلةٍ من ليالي هذا العام؛ كان الشهيد يروي لنا نحن تلامذته نماذجَ تدلّل على عدم وضوح الرؤية الفكرية للإخوان المسلمين، فذكر عِدَّة حوادث، منها موافقتهم على حلّ جماعة الإخوان المسلمين، عندما أصدر عبدالناصر أمراً بحل جميع الأحزاب والجماعات.

وكان عاتباً على الأستاذ عدنان سعدالدين؛ لحرصه الشديد على ترشيح الإخوان المسلمين إياه في انتخابات «الاتّحاد القوميّ».

وحين سألته قائلاً: «من عدنان سعدالدين هذا» ولم أكن سمعتُ به من قبل؟

غَضبَ الشهيدُ مروان غضباً شديداً؛ ظنّاً منه أنني أستهين به، وأقلّل من شأنه، وقال: «مَن عدنانُ سعدالدين؟ إذا كان في الإخوان المسلمين خمسةٌ من السياسيين؛ فواحدٌ منهم عدنان سعدالدين!

إذا كان في الإخوان ثلاثةٌ من السياسيين؛ فواحدٌ منهم عدنان سعدالدين!

إذا كان في الإخوان اثنان من السياسيين؛ فأحدهما عدنان سعدالدين!

لا يجوز يا أخي التقليل من شأن أحدٍ من إخوانك، حتى لو اختلفنا معه، أو انتقدنا موقفاً خاطئاً له».

فأوضحتُ له أنّ سؤالي استفهاميّ، وليس تحقيريّاً، فأنا لم أسمع إلا تلك اللحظة بهذا الاسم مطلقاً، فعذرني الشهيد، واستغرب من عدم سماعي بعدنان سعدالدين، وهو من الجيل الثاني منَ الإخوان المسلمين في سوريا، على حدّ قوله.

وقد كنتُ أنا «عداب» على خلافٍ مستمرّ مع الأستاذ عدنان في سلوك حياته الشخصيّ، أو في توجيه أبنائه إلى الدراسات الدنيوية، مع أنهم من الأذكياء الذين لو درسوا الشريعة؛ لأفلحوا في دراساتهم أكثر ممن هم دونهم في الذكاء، أو في منهجه «البراغماتي» في السياسةِ الإخوانية، أو في تسلّطه الواضح على إخوانه...إلخ.

حتى قال لي بعض إخوانه الذين كانوا معه في دولة الإمارات، في مكة المكرمة عام (١٩٨٢م): إنه يتدخّل حتى في خصوصياتِ بيوت إخوانه!

وقال لي أخوه الأستاذ عبدالغني أبو سعيد: أنا أعذرك في خلافك مع أخي «أبو عامر» فأنت رجل مفكر عالم، وأخي متسلّط دكتاتور!

قلت له: حتى أنت تقول هذا؟

قال: هذه هي الحقيقة، ولعلّ لهذا أسبابَه الكثيرة، فقد عاش طفولته وشبابه يكدح ويتعب لهذه الأسرة الكبيرة التي خلفها والدي، فكأنه تأثر بذلك الواقع، فتعوّد على الاستبداد!

وسألته ماذا كان يعمل؟

قال: كان يعمل في صناعة الأحذية «كندرجي» وإذا أردتَ أن يصنع لك حذاءً جيّداً؛ فهو بارعٌ جدّاً... وضحكنا.

فقلت له: كنتُ لا أرى لأخيك مكرمةً، إلا أنه يؤدي العبادات الشرعية، فأنت الآن أخبرتني بأكثرِ من مَكرُمةٍ له، جزاك الله خيراً.

فقال: الله يصلحه ويهديه، هو له حسناتٌ كثيرة، فهو من قَلبه يَتَحرّق على نصرة الإسلام، ولكن كما يراه هو، ولا يَقبل مخالفةً له في ذلك!

قال عداب: لكنّ لشهادته في الشهيد مروان أهميّتها؛ لأنه لم يكن في ساعةٍ واحدةٍ من حياته راضياً عن منهج الشهيد مروان الجهادي، وكنتُ أشعر أنه يتضايقُ من كثرة محبي الشهيد وكثرةِ الذين يثنون عليه!

قال الأستاذ عدنان تحت عنوان «**مروان حديد شيخ الشباب المجاهد**»:

«عزمت اعتماداً على العون الإلهيّ؛ أن أسجّل ترجمةً موجزةً للمجاهد مروان حديد رحمه الله رحمةً واسعةً، من فيض الخاطر، وبما رأيته وعرفته عنه باتّصالٍ وثيقٍ معه عبرَ أربعة عشر

عاماً، بدأت في عام (١٩٥٠) وانتهتْ بالقبضِ عليه، وقتله في سجن الظالمين، عام (١٩٧٥م)[١٠١].

وقال: «كان مروان طالباً في المدارس المتوسطة في مدارس حماة، في نهاية الأربعينات كشأن أبناء المدينة، وكانت عائلته تسكن في حارة البارودية من حيّ الحاضر، الملاصق لحارة الشرقية التي وُلدت ونشأتُ فيها.

وعندما انتقل إلى المرحلة الثانوية، عام (١٩٥٠م) كنت قد عزمت على الالتفات لتوجيه الأسر الإخوانية، والاستغراق في الأجواء التربوية والتوجيهية في صفوف الجماعة؛ فعَمِدت إلى تشكيل أُسرةٍ من عشرة أعضاء، كما أَلِفْنا ذلك في أن تضم الأسرة سبعةً إلى عشرة أفراد من التنظيم.

فرشّح أحدُ الأعضاء رفيقَه في الصفّ «مروان حديد» ليكونَ في عداد هذه الأسرة فتردّدت قليلاً؛ لأن مروان يعيش في أسرةٍ يؤيّد أفرادُها الحزبَ العلمانيّ الذي أسسه، ويقوم على قيادته أكرمُ الحوراني.

ولكن سرعان ما تلاشى ذلك التردّد بشهادة عدنان الزعيم الذي رشّحه وزكّاه قائلاً: «هو رفيقي في الدراسة، ونحن في صفٍّ واحدٍ، وإنني ألمسُ منه حماسةً وغيرةً على الإسلام ظاهرتين.

كان ذلك في عام (١٩٥٠م) عندما كان رحمه الله في الصف الأول الثانويّ»[١٠٢]

---

(١٠١) قال في موضع آخر: إن إشرافه على الأسرة الإخوانية التي كان فيها الشهيد مروان حديد استمرت من (١٩٥٠م) وحتى (١٩٦٤م) وهو مراده، لكنه بقي على صلة عامة به حتى اعتقاله في عام (١٩٧٥م) واستشهاده في عام (١٩٧٦م).

(١٠٢) الإخوان المسلمين في سوريا لعدنان سعدالدين (ص: ٥٤٥) فما بعد.

ثم تكلّم الأستاذ عن رحلة الشهيد مروان إلى مصر، وتأثّرِه بما رأى من ظلم الطغاة فيها كلاماً عامّاً، لا يدلّ على أدنى اطّلاع على تلك الفترة الخصبة من حياة الشهيد مروان والتي امتدت من عام (١٩٥٦م) وحتى نهايات عام (١٩٦٣م).

تلك الفترة التي يزعم الأستاذ عدنان أنه كان الموجّه والمرشد للأسرة الإخوانية التي كان الشهيد مروان أحدَ عناصرها.

ثم يتابع حديثَه فيقول: «عاد مروان من مصر بعد أن أكمل دراسته، يحمل «البكالوريوس» في الهندسة الزراعية؛ ليجد أن الوضع السياسيّ والأمنيّ في سوريا قد آل في الجيش والأمن والوزارات والدوائر إلى حكم طائفيّ...

باشر المجاهد مروان نشاطه الدعويّ في المساجد والقرى والأحياء؛ مستنهضاً الجماهيرَ على حماية الإسلام الذي يتعرض لخطرٍ حقيقيّ، والمسلمين الذين يصمّم البغاة المتسلطون على سحقهم، وتبديل دينهم وعقيدتهم وأخلاقهم وأعرافهم، والانتقال بهم إلى مجتمع آخر في معتقداته وأخلاقه ومقومات حياته.

لم ينقطع مروان عن الإخوان، وعن الأسرة التي شبّ وترعرع في كنفها، وتشرّبت روحه من أجوائها النقيّة، ومن توجيهاتها.

غير أنّ ضبطَه كان عسيراً؛ لأنّ قلبه لا يحتمل ما يراه من انتهاكٍ لحرمة الإسلام وكرامة المواطنين.

وكانت الصلةُ القديمةُ والوثيقةُ معه؛ تتيح لي أن أوجّه النصائح له، والحديث الشديدَ معه أحياناً، لعلّه يُسيطرُ على تحركاته وخواطره، ولم يدخل قطّ معي في مشادّة...

رحم الله مروان؛ فإنه كان مع شجاعته التي لم نرَ لها مثيلاً، وجهاده الذي لم نسمع عنه في جيله شبيهاً؛ كان مؤدّباً لطيفَ المعشر، عفّ اللسان، مهذّب النفس، نقيّ الضمير والقلب،

زاهداً في الدنيا، كالذي قرأناه عن حسن البنّا، الذي خرج من سلطان الدنيا، ولم يلتفت إلى أيٍّ من زينتها، أو إغراءاتها.

فكان اللقاءُ المنتظر مع الله؛ يملأ عليه قلبه وعقله، وكان اليومُ الآخر نصبَ عينيه، وكأنه يَسمعُ زفيرَ جهنّم، ويتنسّم عبير الجنان.

وهذا ما زهّد مروانَ بالزواج، وحمله على العزوف عن الدخول بالزوجة التي عقد عليها...قائلاً: لا أودّ أن أشغل الزوجة والأهل بتربية الأيتام من بعدي!

ما هذا الإنسان العجيب، والمجاهد الغريب، والشجاع الذي لم يُعرف عنه تذمّرٌ، أو نحيب!

لو كان في كلّ ألفٍ مروانُ آخرُ؛ لما استطاع الطغاة أن يتحكّموا في رقابنا، ويبيعوا للصهاينة بلادَنا بصفقاتٍ مهينة»[١٠٣].

هذه هي شهادةُ الأستاذ عدنان سعدالدين في الشهيد مروان، والذي ينعم النظر فيها؛ يراها لا تدلّ على معرفةٍ حقيقيّة، وقريبةٍ من الشهيد مروان.

وألفاظُ الإطراء التي وَصفَ بها الشهيد؛ معروفة مبذولة، لا يجهلها صديقٌ، ولا خصمٌ، وكنّا نطمح أن نسمع شيئاً أعمق من شيخ الشهيد مروان، كما يدعي!

ولي على هذه الشهادة الملاحظ الآتية:

الملاحظة الأولى: ذكر الأستاذُ عدنان سعدالدين في غير موضع من الكتاب أنّ الشهيد مروان حديد كان أحد أفراد الأسرة الإخوانية التي كان يديرها الأستاذ عدنان، وأن ذلك استمرّ من عام (١٩٥٠) وحتى عام (١٩٦٤م).

مع أنه ذكر في المجلد الأول من كتابه عن الإخوان (ص: ١٣٦) أنه منذ عام (١٩٤٨م) كان مدرساً في قرية «هجين» من قضاء «البوكمال» ولم يخبرنا متى عاد من تلك القريةِ، ولا

---

(١٠٣) الإخوان المسلمين في سوريا لعدنان سعدالدين (ص: ٥٥٠) فما بعد.

ماذا علّم في حماة، ومتى؟ حتى يكون على صلة بالشهيد مروان، ويكون موجّهه أربعةَ عشر عاماً؟

الملاحظة الثانية: من المعروف لدينا أن الأستاذ عدنان سعدالدين؛ درس في مصر من بداية عام (١٩٥١م) وتخرّج منها عام (١٩٥٥م).

ثم تعاقدَ مع إحدى دولِ الخليجِ في عام (١٩٥٧م) ولم يعد إلى حماة منذ ذلك العام وإلى تاريخ وفاته، إلا زياراتٍ معدودةً في إجازة الصيف، فهل كان يوجّه مروان المقيمَ في مصر للدراسة عبرَ الهاتفِ أم المراسلة؟

أما أنا فلم أسمع من الشهيد مروان عن أيّ صلةٍ تنظيمية له بعدنان سعدالدين.

الملاحظة الثالثة: كان الشهيد مروان مِلءَ سمع مصر وبصرها، وكان لدى المخابرات المصريّة معرفةٌ أكيدةٌ أن هناك جماعةً تدعى جماعة مروان حديد.

وشهادة الأستاذ عدنان؛ ليس فيها أدنى إشارة إلى جهوده الدعوية في مصر، مما يدلّ على بعده عنه في تلك المرحلة الطويلة!

الملاحظة الرابعة: إذا كان الإخوان قد حلّوا الجماعة في أيام الوحدة، وكان منهم عدنان سعدالدين، وطلب ترشيحَه للاتحاد القومي.

وضرب الشهيد مروان بقرار الجماعة عُرضَ الحائط، واستمرّ في عمله الذي كان يشرف عليه من بُعد، يشاركه في ذلك الإخوة الأفاضل: نافع علواني، وحسن عصفور وغسان حمدون، ومُحَمّد علي المصري، وغيرهم.

فكيف يكون الأستاذ عدنان مرشداً لأسرةٍ في جماعة محظورة، قد رضي هو وهي بحلّها؟

وعليه فيكون قوله السابق «لم ينقطع مروان عن الإخوان، وعن الأسرة التي شبّ وترعرع في كنفها، وتشرّبت روحه من أجوائها النقيّة، ومن توجيهاتها» هو مدحاً لذات الأستاذ عدنان، الذي أضفى على تلك الأسرة الخيالية أجواءً نقيّة، وغمرها بتوجيهاته الرشيدة المزعومة؟!

الملاحظة الخامسة: قولُ الأستاذ عدنان: « غير أنّ ضبطَه كان عسيراً» ترجمه بعبارةٍ أوضحَ من هذه في الكويت، عندما قال لي في منزل الأخ «أبو حسن البارودي»: «إي والله ما عرفتْ جماعةُ الإخوان المسلمين في تاريخها فوضويّاً مثلَ مروان».

وهو في الحقيقة يردّ على هذا الاتّهام بقوله: «لأنّ قلبه لا يحتمل ما يراه من انتهاكٍ لحرمة الإسلام، وكرامة المواطنين».

وقد قال لي الشهيد مروان مرّة: إنّ قيادة مركز حماة جبناء! وأشجعهم المهندس رامي العلواني «أبو كاظم» والشيخ فارس مليّ!

صحيح التفاهم معه صعب شويه، لكنه من أشجعهم!

فالشهيد مروان ليس فوضوياً، ولا قليلَ الانضباط، في نظري!

غير أنه لم يكن في جيله، ولا في جيلنا من بعدهِم من يستطيع احتواءَ طاقاته، ويخفّف من حرقته، وينظّم من انهماكه إلى مِشاشه في الدعوة إلى الله تعالى! فهو عالَمٌ وحده، أو كما قال شيخنا وهبي الغاوجي: «الشهيد مروان أمة وحده، وقد أتعب من بعده!» وشهادته هي أوّل شهادةٍ في هذا الملحق.

الملاحظة السادسة: يرى الأستاذ عدنان أنّ «اللقاءُ المنتظر مع الله؛ يملأ عليه قلبه وعقله، وكان اليومُ الآخر نصبَ عينيه، وكأنه يسمع زفيرَ جهنّم، ويتنسّم عبير الجنان» هو«ما زهّد مروانَ بالزواج، وحمله على العزوف عن الدخول بالزوجة التي عقد عليها...قائلاً: لا أودّ أن أشغل الزوجة والأهل بتربية الأيتام من بعدي!».

وهذا تحليلٌ من كيسه!

فأنا آخرُ الحمويين الأحياء لقاءً به، ولا أظنّه يُصارح أحداً في الدنيا كما كان يصارحني.

دخلت مَنْزل الشهيد مروان بناء على دعوته ورغبته؛ عصرَ يوم السبت (٢٨) حزيران، من شهور عام (١٩٧٥م).

جلست معه في صالة المنْزل، ودخلتْ زوجتي إلى مخدع زوجته.

وجرى بيني وبينه حديثٌ مطوّل عن المصروف والنفقات، لا حاجة إلى ذكره، وفي أثنائه؛ علمت أنه مضى على وجود زوجته عنده برهةٌ من الزمان!

فقلت له: هل أكرمكما الله بحمل؟

فضحك ضحكة خفيفة، وقال: من أين يأتي الحمل؟ أنا ما بنيت بها حتى الآن؟

قلت: سبحان الله! والله يا شيخي لكل مسمى من اسمه نصيب! وكيف احتملت هذا، وإن احتملتَ هذا، فكيف تُحمّل هذه المسكينةَ ما لا يُطاق؟

يا شيخي بالله عليك! خلّينا نعملْ لك عرساً الليلة، وابنِ بها، لعلّ الله تعالى يرزقك منها ولداً يحملُ اسمك!

قال: كيف تستحلفني بالله، وأنت أعرف الناس بسبب إعراضي الحقيقيّ عن البناء!

وهب أننا تجاوزنا ذلك؛ فلماذا أجني على هذه المرأة، وهي في ريعان شبابها؟ منَ الممكن أن أُقتل غداً، فتتزوج هي، ويكون أفضلَ لها!

أما إذا حملت بولدي، ووضعته؛ فسيقال لها: هذا ولد مروان، عيب عليك تتزوجي بعده.

ثم لمن أتركُ ولدي؟ أنت عارف كلّ شيء!

هذه الأمورُ هي خلاصة حديثٍ طويلٍ دار بيننا، وهناك أمور أخرى، لا تعكّر على ما سبق، بل تؤيّده.

ونحن لم نر عدنان سعدالدين التقى مع الشيخ مروان من عام (١٩٦٤م) وحتى لحظة اعتقاله عام (١٩٧٥م) فالتحليل الشخصيّ؛ لا يثبت أمام التصريح!

الملاحظة السابعة:

قوله: «ومن الجدير ذكره، والواجبِ إثباتُه؛ أنّ الجماعةَ استمرّت على النهج التربويّ الذي بدأته في الأربعينات والخمسينات والستينات والسبعينات، ثم بدأ الضعف ينتابها، والتراجعُ يظهر جليّاً في مجال التزكية والسلوك والتوجيه والتربية على سيرها، وفي الطابع العام لمعظم أفرادها، بل غلب عليها في أنشطتها الطابع السياسيّ والثقافي، ولا سيما في الثمانينات والتسعينات، وفي مطلع القرن الحادي والعشرين.

وكان ذلك على حساب الجانب الروحي والتعبدي.

الأمر الذي دعاني لرصدِ هذه الظاهرة، والعكوف على دراستها، وتشخيص هذه الحالة، ووضع منهاجٍ لعلاج هذا التراجع تحت عنوان «في التزكية والسلوك» صدر في مطلع العام (٢٠٠٦م) ويقع في (٥٤٠) صفحة[١٠٤].

قال عداب: في هذا الكلام نظر من جهات:

الجهة الأولى: إنّ من المناسب القولَ بأن الأستاذ عدنان سعدالدين تسلّم منصبَ المراقب العام في عام (١٩٧٦م) ومنذ ذلك العام غدا هو يغلّب الجانب السياسيّ على جميع الجوانب الأخرى، وكان يتصرّف في السياسة بطريقة (براغماتية– ميكيافيلية بحتة).

حتى قال لي بعض إخوانه في الإمارات: إنه يشتم بعض مخالفيه شتائمَ قبيحة.

وقال آخر: إنه والله يتدخل حتى في شؤون أعراض إخوانه، ونسائهم!

فالتراجعُ الروحيّ الحاصل؛ هو واقعٌ فعلاً، لكنه هو أسهم في النصيب الأوفى منه!

---

(١٠٤) الإخوان المسلمين في سوريا للأستاذ عدنان سعدالدين (١: ١٥٩).

وأذكر مثالاً واحداً على (ميكيافيليته):

في صيف عام (١٩٧٨م) زارنا في الكويت، وكان مسؤولَ الإخوان المسلمين السوريين فيها الأخ أبو أيمن الطحّان.

فقال للأخ طارق عدي، والأخ علي البارودي، وأربعة آخرين معهما، وأنا أسمع:

«اتركوكم من أبو أيمن الطحّان، هذا رجل لا نعرف أصلَه، هو يقول: إنه من «تلّ القَصَب» لكن من يَدري، فربما كان من السلميّة!».

يريدُ: ربما كان أبو أيمن من الطائفة الإسماعيلية الباطنية!

وتابع: المهم مسؤولكم من الآن فصاعداً؛ هو الأخ أبو حسن علي البارودي، واقطعوا أيّ علاقةٍ لكم مع أبو أيمن، حتى ندبّر له تصريفة، أو قال: حتى ندبّر أمره.

وحين التقى في مساء اليومِ نفسِه بأبي أيمن في مكتب «أبو بدر المطوّع» أفهمه أنه هو المسؤول عن الإخوان السوريين في أيامه، حتى انتزع منه البيعة، وأطلعه على ما شاء من أمور الكويت!

ثمّ لا أدري ما حلّ بالرجل بعد ذلك!

الجهة الثانيةُ: دعواه أنه رصد ظاهرةَ التراجع الروحي، وكتب لأجلها منهاجاً؛ فغير صحيح البتّة أيضاً!

فأنا أعرف عدنان سعدالدين عن قرب منذُ عام (١٩٧٦) فلم أكن ألحظ لديه ذرّةً واحدةً من روحانية، ولم يكن يتورع عن السباب واللعن لمخالفيه، بل كان يتغيّرُ كلامه في المجلس الواحد مراراً في مسألة واحدة، ومن المحال أن يكون هذا شأنَ الروحانيين.

وكاتب مناهج الإخوان المسلمين على الحقيقة؛ هو الشيخ سعيد حَوّى رحمه الله تعالى.

وقد رَصدَ هذه الظاهرة، قبل أكثر من عشرين سنةً من صدور كتاب عدنان سعدالدين، وأنشأ ما سمّاه «مدرسة إحياء الربانية» التي كان أوّلَ وأكبرَ محاربيه فيها؛ هو عدنان سعدالدين، كما حدّثني بذلك الشيخ سعيد، وأولاده من بعده.

وقد كتب الشيخ سعيدٌ بخصوص التزكية الروحية الكتب الآتية:

١) تربيتنا الروحية..أصّل فيه لمفاهيم التربية الروحية، وعلّمه في مدارس إحياء الربانية، وانتشر في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً قبل عام (١٤٠٥ هـ).

٢) المستخلص في تزكية الأنفس، وهو كتاب منهجيّ رائع في بابه، أدخلتُه في مناهج جامعةِ صدام للعلوم الإسلامية، يومَ كنتُ رئيس اللجنة العلمية في كلية أصول الدين فيها.

٣) مذكّرات في منازل الصديقين والربانيين، وهو سفر ضخم، لو طبع طبعةً أنيقةً؛ لجاء في ألف صفحة، شرح فيه الحكم العطائية شرحاً موجزاً مركّزاً عميقاً رائقاً.

٤) أخلاقيات وسلوكيات تتأكّد في القرن الخامس عشر الهجريّ.

٥) إحياء الربّانية.

٦) السيرة النبوية بلغة الحبّ والشعر.

كانت هذه الكتب والدراسات كلها مطبوعةً قبل سنة (١٩٨٦م) أي قبل عشرين سنةً من طباعةِ الأستاذ عدنان كتابَه المنهج!؟

وشهادتي على الأستاذ عدنان سعدالدين أبي عامر؛ أنه في أواخر عمره؛ بات أقربَ إلى الروحانيات والعبادة، ربما بعد أن اكتشفَ أنه مصابٌ بالسرطان، وأنّ موته قريب!

لكنّ تصنيف هذا الكتاب بعينه فيما يبدو لي؛ كان غيرةً من الشيخ سعيد حَوّى الذي يَعُدّه تلميذَه، ورغبةً في ألا تكون كتبُه هي كتبَ الروحانيات الوحيدة في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا.

وربما لأنّه يرغب أن لا يموتَ من دون أن يكون له عددٌ من المؤلفات يُذكر بها، وكانت الكتبُ في هذا الجانب كثيرةً بين يديه، فيمكنه تأليفُ كتابٍ، لا يحتاج فيه إلى علمٍ مبتكَرٍ، ولا إلى فقهٍ يفتقدهما!

فقد حدّثني الأستاذ فارس ملّي، وحدثني الدكتور مُحَمّد سعيد حَوّى أنّ أبا عامر قال: لقد أصابَ الشيخَ سعيداً إسهالٌ في الكتابة «والعِياذ بالله»!!

ولقد قرأتُ كتابَه هذا؛ فلم أجد فيه روحانيةَ الشيخ سعيد، ولا إحاطته، ولا عمقه، ولا تجربته الروحية؛ لأن الشيخ سعيد ذو تجربة روحانية ربانية، ليس للأستاذ عدنان سعدالدين مُسحةٌ واحدةٌ منها، بل هو لم يكن صوفيّاً قطّ، والله تعالى أعلم.

****

(٣) شهادة القاضي مصطفى الخالد

القاضي الشيخ أبو عبدالرحمن مصطفى الخالد، قاضي المحكمة الشرعية في حماة.

وأخوه الفاضل المحسن الحاج رسلان الخالد، كان رمز الإحسان والسهر على مصالح الضعفاء والمحسنين في الكويت، وهناك تعرّفت إليه، وكان بيننا مودّةٌ طيبة، طيّب الله ثراه.

والقاضي مصطفى الخالد أصل أسرته الفاضلة من مدينة السلمية، شرقيّ حماة.

وتشتهر مدينة السلمية بأنها مدينة الطائفة الإسماعيلية التاريخية، وهذا صحيح!

بيد أنني زرت السلمية مع جماعة الدعوة والتبليغ في عام (١٩٦٣م) وبقينا فيها مع شيخنا الحاج محمود الروّاس ثلاثة أيام، وسمعته يقول: إنّ أكثر من ثلث المدينة من أهل السنة، وكثيرٌ من العائلات، بعضُهم إسماعيلية، وبعضهم من أهل السنة، ونحن نجتهد مع الجميع، ونسأل الله التوفيق.

تعرفتُ إلى القاضي في أواخر عام (١٩٦٨م) في غالب ظني، في زاوية الشهيد مروان، وقد جاء يدعوه إلى طعام عشاء؛ لوجود ضيوفٍ عنده قادمين من دمشق الشام.

وحيث إنني بدويّ؛ فعزّ عليّ أن أكون تبعاً لأحدٍ في الدعوة، فاعتذرت!

وكان ولده الشيخ الدكتور عبدالعزيز، من زملائي في جامعة «أم القرى» في مكة المكرمة، وكان من أذكياء الطلبة، ومن المسارعين دائماً في قضاء حوائج إخوانهم؟

وفي إحدى السنوات؛ زار مكّة المكرمة القاضي الفاضل الشيخ مصطفى الخالد، فرجوته أن يشرفني في بيتي، واستجاب، وأفادني بهذه الشهادة التي ضاعت منها الورقة الأولى كاملةً وللأسف!

قال رحمه الله تعالى: «في أثناء الانشقاق الذي حصل في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا في أواخر الستينات، كان موقف مروان؛ هو الوقوفَ على الحياد، ريثما يستبينُ الحقّ!

وقال لنا في لقاء بهذا الخصوص: لا يُهِمُّنا مركز حلب، ولا مركز دمشق، إنما يهمنا مركز حماة أن يقف على الحدّ الذي يرضاه الله، ومن بعد ذلك يكون هذا الحدّ الفاصل!

فإن اتفقت الأطراف، وإلا فقاتلوا المعتدي.

عليكم أن تجتمعوا كمركز حماة، وفيه إشارة إلى تنفيذ الحكمِ، بعد حكم القاضي.

لقد استطاع مروان أن يزرع في نفوس الشباب شيئاً واحداً هو: أنه لن يعز الإسلام إلا الجهاد، ولن يحب الجهاد رجلٌ في قلبه ذرةٌ من حب الدنيا.

المشايخ كانوا يشيعون عن مروان:

١ – مجنون.

٢ – متهور

٣ – مخرب

أما الأولى: ما قالها أحد من العلماء العاملين، أمثال الشيخ الحامد، إنما قالها المتخاذلون وأذناب السلطة.

وأما الثانية: فقد قالها كثيرون؛ وإن هذا التهوّر؛ واجبٌ وجوده ولو في واحد من الأمّة، يَرُدّ عنها شرَّ الأعداء.

قال الإمام علي: «رُدّوا الحجر من حيث جاء؛ فإن الشر لا يدفعه إلا الشرّ»[١٠٥].

وأقصد بالتهوُّرِ إلقاءَ نفسه، دون نظرٍ إلى العواقب.

فالجبان يقول: إنه متهور! ومن عادة الناس: إذا خسر إنسانٌ في النهايةِ؛ قالوا: متهور، أما إذا انتصرَ؛ فإنهم يمدحونه!

ومَثَله في ذلك؛ مثال أحمد ابن حنبل يوم محنته.

---

(١٠٥) نهج البلاغة– حكمة (٣١٤).

فلا بد من تهورٍ يَصعق أولئك المعتدين، ويعيد الثقة في النفس بأن الإسلام لا يموت.

وما أدرك هذه الخاصة إلا اثنان من مصر، هما الشيخ البنا، وسيد قطب.

وأما الدكتور السباعيّ؛ فقد قاد الكتائب في فلسطين، وقتل معه من قتل!

وكان دائمَ التخطيط لمقابلة الإيذاء بمثله، من قبل الأحزاب المناهضة للإخوان على مستوى الإعلام للحركة، وعلى مستوى مقابلة الإيذاء، وردّ الأذى.

فإذا ما خلا الجو من الذين يدفعون أذى المؤذين؛ أصبحت دعوة الإخوان نظريّةً شأنها شأنُ الكِتاب، ربما جاء عدوٌّ، وألقاه في المرحاض؟!

ولم يسبق الشهيد مروان في فهم العمل الإسلاميّ، الموحي بثقة المسلمين بإسلامهم والتجديد لأمر هذه الأمةِ، على درجة أقلَّ، إلا هؤلاء الثلاثة.

هذا على مستوى حركة الإخوان طبعاً.

ومن أقوال الشهيد مروان: «لئن لم تحملوا السلاح معنا، وتقاوموا الشر راغبين، فستحملونه راغمين، أو ليَعُمّنَكم العذاب، ولتعمنّكم اللعنةُ في الدنيا والآخرة!».

قال القاضي: «فمن أصابه ما أصابه؛ لا نأسى عليه كثيراً، ومروان قد حذّرهم، وهم جَبُنوا عن قول كلمة الحق.

فقد كان للشيخ هَدْيُ مَن سبقه من الإخوان وغيرهم، وهدفه في ذلك ليس النصرَ، واستلام الحكم، بدرجة (٩٠%).

وإنما هدفه إعادة الثقة للمسلمين بأن إسلامهم عزيز، وأن الله تعالى ليس عزيزاً عليه أن يُعزّ الإسلام، ولو برجلٍ ضعيف، ولتأكيد أن صوت الإسلام يُرعب الأعداء.

وروى القاضي قال: بعد ثورة آذار؛ ظهرت صور العقائد النصيرية السابقة عملياً وحركيّاً، وهذه بعض الأمثلة:

– صكّوا ليرةً سورية عليها مِشعل، وكتب عليها: الله– علي.

– أصدروا تقويماً، دعَوه: تقويم الإخاء العلوي.

– مفكرهم الملحد إبراهيم خلاص، كتب يقول: إنني أدعو إلى بناء الإنسان العربي الاشتراكي، الذي يؤمن بأنّ الله والرسل والأنبَيّاء والأديان والأخلاق؛ ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ.

– هتافاتهم في الحسكة والقامشلي: يلعن يومك يا حطين...والخاين صلاح الدين.

– وهتافاتهم في كلّ مكان:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له...وبالعروبة ديناً ماله ثان

لا تَسَل عني ولا عن مذهبي...أنا بعثي اِشتراكي، عربي

– تخريب المساجد: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة : ١١٤].

– إنشاء الحرس القومي، وكثرة مخازيه.

– قصة نزار عرواني المعروفة.

هذه الأمور الهمجية وغيرها كثيرٌ؛ أيقظت حسَّ الشهيد مروان إلى أنّ هذا النظامَ؛ لا يفهم لغة الحوار، ولا يقبل الآخر، ويريد أن يفرض باطله على أهل الحقّ بقوة السلاح!

قال القاضي: لقد تعرف مروان على رجل من البنغال اسمه: «شبير أحمد» وهو يدرس هنا في السعودية، فيحسنُ اللقاءُ معه، ويجب اللقاء مع الشيخ عبدالله الصباغ، والأخ مُحَمّد علي المصري، والأخ خالد حسون في الرياض، والأستاذ جودت سعيد، والشيخ سعيد الطنطاوي، والأخ علي البارودي، فعند هؤلاء الكثير الكثير عن الشهيد مروان.

رحم الله الشهيد مروان، وجمعنا معه في مستقر رحمته.

أملاه مصطفى الخالد

القاضي الشرعي في حماة

****

(٤) شهادة الشيخ نافع علواني:

الشيخ نافع العلواني من زملاءِ الشهيد مروان في الدراسة الثانوية، وإن كان يزيده من العمر سنتين، أو ثلاثَ سنوات، إذ هو من مواليد عام (١٩٣٢م) وهو رفيقُه في العمل الدعويّ، وكان من أكثر رجال تنظيم الإخوان في حماة توافقاً مع الشهيد.

ويشهدُ كلّ مَن يعرفه بأنه كان يتميّز بحسٍّ أمنيّ رهيف! [١٠٦].

وهذه الشهادةُ قد سطرها الشيخ نافعٌ في تقديمه ديوانَ الشهيد مروان تحت عنوان «التعريف بالشاعر» [١٠٧] قال حفظه المولى تعالى:

الحمد لله القائل في كتابه: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[الزخرف].

والصلاة والسلام على رسوله القائل: (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره، ونهاه، فقتله) [١٠٨].

---

(١٠٦) انظر شهادة الشيخ عبدالحميد الأحدب من هذا الملحق.

(١٠٧) انظر طليعة ديوان الشهيد مروان حديد (ص: ٩- ١٦).

(١٠٨) من حديث عبدالله بن عباسٍ رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبرانيّ في معجمه الأوسط (٤: ٢٣٨) وقال: لم يَرْوِ هذا الحديثَ عن عكرمة إلا أبو حنيفة، ولا عن أبي حنيفةَ إلا الحسنُ بن رشيد، ولا عن الحسن إلا سعيد بن ربيعة، تفرّد به أبو الدرداء عبدالعزيز المروَزيّ. وأورده الهيثميّ في المجمع (٧: ٥٢٤) وقال: فيه شخص ضعيف.

أما بعد: فإن الكتابة في عظماء الرجال شائكة، وذلك لتعدد وجوه العظمة!

فرجل تكمن عظمته في قول الحقِّ، والسيفُ على عنقه.

وآخر عظمته في جوده بالنفس والمال في سبيل عقيدته.

وذلك عظمته في وفاء يحمله على صدق القول والفعل، وعلى معرفة بحقوق الأخوة والإخاء.

وإنسان عظمته تكمن في ورعٍ حاجز، ووقوفٍ عند حدود ما شرع الله.

وإنسان.. وإنسان.

ولكنني، شهد الله؛ ما رأيتُ هذه الصفاتِ مجتمعةً فيمن عرفتهم على مدى ربع قرنٍ، إلا في أبي خالدٍ، رحمه الله تعالى، بعد شيخنا الجليلِ مُحَمّدٍ الحامدِ، رضي الله عنه.

قال الشيخ نافعٌ: عرفتُه سنةَ إحدى وخمسين وتسعمائة وألف في مدينةِ أبي الفداء حماةَ إحدى مدنِ سورية الصابرة.

لمست لأول وهلةٍ نُبلَ الأصل، وكرمَ المحتِد، وشممَ العرين[١٠٩] ولم يكن قد انخرط في سلك الدعوة بعد، فتذكرت حديث المصطفى ﷺ: (الناس معادن، خيارهم في الجاهلية؛ خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[١١٠].

ومن حديث جابر بن عبدالله الأنصاريّ رضي الله عنهما؛ أخرجه الحاكم في المستدرك (٣: ٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: «حفيد الصفار؛ لا يُدرى من هو!» وانظر طرق الحديث وشواهده في نصب الراية (٤: ٢٠٧) والخلاصة أنه حديث ضعيف من جميع طرقه وشواهده (عداب).

(١٠٩) قال عداب: قدّمت في ترجمتي للشهيد مروان أنه يرجع في نسبه إلى الشيخ حديدٍ الرفاعيّ الحسينيّ، فهو من سلالة سيدّنا الحسين بن عليّ رضوان عليهم أجمعين.

(١١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً؛ أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنَبّياء (٣٣٨٣) ومسلم في كتاب الفضائل (٢٣٧٨).

وكانت دعوةٌ، تلتها استجابةٌ رائعةٌ، فما كان الحق ليخفى على أصحاب القلوب الكبيرة، والعقول النيرة.

ثم أعقب ذلك اطّلاعٌ كثيفٌ ودقيقٌ على ما كُتِب في الإسلام والمعاني الإسلامية، ولم أشعر بتغيّرِ شيءٍ من أخلاقه وسلوكياته الرائعة، اللهم إلا اندفاعاً هائلاً في تيار العقيدة الحقة التي أدرك من معانيها؛ ما لم يدركه كثيرٌ من العاملين في حقل الدعوة.

فكان بحقٍ تلميذاً سبق أساتذته، وطالباً بزَّ أقرانه!

ولذلك كنتَ ترى أغلبَ أحاديثه وجلّ كلماته تدور حول: (لا إله إلا الله) وأنها منهج حياة، وأن الإسلام هو شريعة الله التي يجب أن تسود، وكان أشدَّ ما يَشُدّك إليه هذا التوازنُ الرائع في شخصيته، من حيث التطبيق المتوازن بين العبادة والجهاد، وبين الفهم والسلوك.

كان، رحمه الله صافياً، صفاء العقيدة التي يحملها، شهماً ذا مروءة عجيبة أصيلةٍ، حريصاً عليها حرصَه على كرامته، حتى لو كان الماء يفسد في مروءته؛ لما شربه[١١١].

كان عزيزاً، قَبلَ تعرّفه على الإسلام، فلما انخرط في سلك العاملين فيه؛ زاده إيمانه عزةً لا يخالِطُها كِبْر ولا استعلاء، عزةً جعلته يشعر أنه قادر على مقاومة الطغيان وحده.

كان مُتخفيّاً مرةً، فسأله سائل: كيف توفق بين موقفك هذا، وبين قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

فأيّ عزةٍ أنت عليها الآن، ولست تقدر على الخروج إلى المسجد؟

فتناولَ رحمه الله سلاحَه، وقال: سأريك عزةَ المسلم كيف هي!

وأراد الخروجَ إلى الشارع، ولكنهم أخذوا بحُجَزه ومَنعوه.

---

(١١١) أصل هذا القول للإمام الشافعيّ المطّلبيّ رحمه الله تعالى، وتمامه (الحمدُ لله.. لو أعلم أنّ الماء البارد يضرّ مروءتي في ديني؛ لما شربت إلا الماء الحارّ، حتى ألقى الله!) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥١: ٢٧٩).

عِزةً يَشعر بها المسلمُ، ولو كان في القيد!

سألته مرة: ما هي أجمل اللحظات التي مرت بك سنة أربع وستين وتسعمائة وألف؟

فقال رحمه الله: أجمل اللحظاتِ التي شعرتُ بها بعزةِ المسلم، يوم ألقي القبض عليَّ بعد حوادث جامع «السلطان» في حماة (١٩٦٤) ولقد صُبّ عليَّ البلاء صباً، حتى أُلقيت في السجن بين الموت والحياة!

إذا بضابطٍ عسكريٍّ كبيرٍ يَقترب مني ويقول: يا أستاذ مروان ماذا فعلنا لكم حتى نقمتم علينا؟

وأخذ يتذلل ويستعطف، فشعرت بعزّةِ المسلم، وأنا مُقيّد، وكان لحظتها أن اشتدّ إطلاقُ النار على «السراي» فظن ذلك الضابط أن المعركة قد انقلبت لصالح سكان «حماة» فأراد أن يتذلل ويستعطف الأخ مروان؛ ليحفظ خطّ الرجعة.

كان رحمه الله شجاعاً، والشجاعة أنواع، وكل أنواعها مجتمعٌ فيه، ولقد اعترف له بذلك العدو والصديق.

اعترف له بذلك مَن حاكموه، حتى كان بعضهم يقول: إذا أراد «صلاح الضلّي» أن يبرز شجاعته في المحاكمات، فلا يُبرزها على فلان وفلان، وإنما إن أراد أن يُدلّل أنه شجاع؛ فعليه أن يحاكم مروان.

وهذا القول قاله مسؤول سوري كبيرٌ، يتقلد الآنَ منصباً عسكرياً هاماً، وهو الذي تولى محاكمته رحمه الله تعالى.

كما اعترفَ له بذلك رئيس جمهورية سابق لسورية، وشهد له بها أثناء حكمه وبعده، وقد سمعت منه بالذات كلمة قالها في مروان، يمدح فيه شجاعته، لقد سمعته يقول: إنه أشجع من رأيت، وقوله: إنه لأشجع من عنترة.

كان رحمه الله قائداً يتحمل المسؤولية بأكملها، تَلمَس ذلك عندما كان يقول دائماً لمن حوله من الشبابِ، والذين كانوا كثيراً ما يقومون بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان، كان يقول: إذا سألكم المسؤولون: من فعل هذا؟ فقولوا: إن مروان هو الذي فعل هذا، وهو الذي أمر بذلك!

ما أعرف قائداً في زمننا أكثرَ منه تحمّلاً للمسؤولية، لا يتهرب، ولا يواري، ولا يداري، وكل من جاء بعده من قيادات السياسة والجهاد في الحقل الإسلاميّ؛ كانوا عالة عليه.

تبنّى الحركة الجهادية في سورية وحده أوّلَ الأمر، يوم كان تبنيها يُعَدّ جنوناً، عند من حسب الدعوة خطباً رنانة، وتصريحات طنانة، ويوم كان جلُّ همّهم تَصدّراً في مجلس نيابيٍّ، أو في منصب وزاري!

حتى إذا دخلوا المجلس؛ لم يبدوا فيه رأياً حازماً، ولا وقفوا موقفاً يعطي صورة الإسلامِ، وربما فَرّوا من بعض الجلسات، حتى لا يُحرَجوا في الإجابة عن القضايا المطروحة آنذاك.

وحتى إذا تصدروا المنصب الوزاريّ؛ كانوا تبعاً لإشارةٍ من هذا، ولرأيٍ من ذاك، إلا من رحم ربي، وقليل من هم.

أما أيام وحدة سوريا ومصر، ويوم أسرعَ من أسرع من طلاب الدنيا، فانخرط في سلك «الاتحاد القومي» وأيّد ما سُمِيَ في حينها بـ«رائد القومية العربية» والقومية بمفهومها الجاهلي منتنة، كما قال المصطفى صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ(١١٢).

---

(١١٢) يريد الشيخُ نافعٌ قصةَ خصومة مهاجريّ مع أنصاريّ، فنادى المهاجريّ: «يا للمهاجرين» ونادى الأنصاريّ «يا للأنصار» فقال الرسول صَلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ (ما باب دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥) ومسلم في البرّ والصلة (٢٥٨٤) فعدّ الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ استنهاضَ القبيلة؛ دعوى جاهليةً!

ويوم طُلب إلى الشبابِ في حينها أن يَعتبروا كلّ رابطة بينهم وبين القادة قد قطعت!

وكان ذلك في بيتٍ من بيوت أحدهم؛ التفتَ إليّ رحمه الله تعالى، وقال: هكذا يفهم جَماعتُك الإسلام؟ ثوبٌ يخلعه الإنسانُ متى شاء، ويلبَسه متى شاء؟

وتخلو الساحة في حينها من العمل الإسلاميّ، إلا منه رحمه الله، فجدّ في عملٍ دؤوبٍ وحافظَ على القاعِدَة الصلبة من الشباب، والذين أراهم، أو أرى بقاياهم الآن مُستمسكين بهذا الدين، لا يفرطون فيه، ولا بشبابه!

حافظ على القاعِدَة الصلبة التي أعادت لسورية وجهها الإسلامي فيما بعد!

كان رحيماً في قيادته لإخوانه، رحمةَ الشيخ الذي يرعى تلاميذَه، فلم يُفرّط بأنملةِ أحدٍ منهم، إلا في مكانها، وكان يجعل نحره دون نحورهم، ولا يسترخص دمَ أحدهم إلا في سبيل الله تعالى، وإرضاءً لذاته عزّ وجل.

لم يعرف رحمه الله الطبقية في قيادته، فلم يكن متميزاً عن إخوانه، ويشهد الله أنه كان يؤثرهم على نفسه في المال والطعام.

ولذلك تأثروا به، وهو القدوة التي ضربت المثل الأعلى في التضحية، إذ قدّم روحه أمامهم، في سبيل ما يعتقد أنه الحق.

كان قائداً إسلامياً إخوانياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فكان حريصاً على اسم الجماعةِ حرصَه على مبادئها، وكان يعتبر نفسه جندياً من جنودها، لا يستعلي، ولا يتكبّر بل كان الخادمَ الأمين لإخوته!

ولقد علمتُ أنّ مِن تلامذته في السجن من كان يغسل لإخوانه المسجونين جواربَهم وملابسهم، وهو منظورٌ منهم، قائداً من قادة الحركة.

كان أولَ قائد إسلامي في سوريا؛ أسس العمل الجهادي بخطوطه النظرية والعمليّة من إعداد وتدريب.

رغم أن السباعيّ رحمه الله قد شارك مع الإخوة في حرب فلسطين سنة (١٩٤٨م) ضد اليهود الصهاينة، ولكنه بعد عودته انتهى كل شيء، ولم تأخذ الحركة الجهادية وضعَها الصحيحَ إلا على يد مروان رحمه الله تعالى.

ورغم أن قيادات الإخوان بقيت في أخذ ورد حول ما فعله رحمه الله، إلا أنه مضى في طريقه رغمَ اعتراض المعترضين، ثم تبنوها وأيّدوها عندما بدأت تؤتي أُكُلَها!

أما في أوّل أمره؛ فقد عانى الكثير، وخاصةً عندما كان مُتَخفياً في دمشق؛ فقد بلغ منه الجَهْدُ أنه لم يملك ثمنَ طعامه، بل ولا أجرة بيته.

حتى إنه في ليلة من الليالي كان صائماً، ولم يكن عنده ما يَسُدّ جَوعته[١١٣].

رغم أن هذا طبيعي في الدعوات الربانية، إذ لا بد أن تعاني مثلَ هذا، ولا بدّ لكل جديدٍ على الناس أن يقسمهم إلى معسكرين: معسكرٍ يؤيده، ومعسكر يَخذله، إلا أنّ الذي عاناه رحمه الله تعالى؛ هو فوق تحمّل الإنسان العاديّ.

ومع كل ما لاقاه رحمه الله من بعض إخوانه؛ فقد كان ذليلاً لهم، رحيماً بهم، يحلم على سفيههم، ويتجاوز عن الخطيئات!

---

(١١٣) هذا الذي ذكره الشيخ نافع حفظه الله؛ لا يرضى أهلُه بقوله؛ لأنهم ما كانوا يقصّرون معه في شيء! لكنّ الذي حصل أنّ الإخوان المسلمين؛ خصصوا له مرتّباً شهريّاً يعيش منه؛ احتواءً للشهيدِ، فلما بلغهم أنه بصددِ الانفصال عنهم؛ قطعوا عنه مرتّبه، ورفضوا تسليمه المنْزل الذي كانوا استأجروه له قبل أيامٍ قليلة من اعتقاله، وكانت أخواته سيأتين إليه في اليوم الذي اعتُقل فيه؛ ليحضرن له مَؤونةً من حماة، والمتيسّر من المال لديهم، كما حدثني هو، لكن القدرَ كان سابقاً (عداب).

وأشهد أنه أدرك من معاني الدعوة في شهورٍ؛ ما لم يُدركه مَن تربّوا في أحضانها السنين الطوال، ولكن الناسَ معادنُ واستعداداتٌ، والله يؤتي الحكمة من يشاء.

أساء له أحدُ إخوانِه، غفر الله له، مَرةً على أثر استعداده للأمور الجهادية، وقال له كلمات أثّرت به في الصميم! ولا أريد أن أذكر العبارة؛ لأنّ بها مسيساً بعقيدته!

فلقيني رحمه الله، وقال: أسمعتَ ما قال فلانٌ، قلت: وماذا قال؟ قال: كذا وكذا.

قلتُ: لقد شَهِد فيك مَن هو خيرٌ منه، ألم يقل فيك الشيخ مُحَمّد الحامد رحمه الله تعالى ورضي عنه أمام هيئة الأركان العامّة السورية، في بيت الشيخ مُحَمّد رحمه الله؟

لما سُئل عنك من قبل الصحفيين الأجانب والعرب، وهيئة القيادة العامة جالسة تسمع؛ ألم يقل فيك رحمه الله تعالى: «إنك مخلصٌ، على شِدّة فيك»؟

ألم يقل فيك رحمه الله تعالى: «إنّ لك من مُسمّاك نصيباً، فمروان حديد، وأنت حديدٌ» وكفى بشهادة الشيخ شهادةً!

فسامحَ الشهيدُ الأخَ الذي أساءَ إليه، وعفا عن خطيئته، ولم يذكره بكلمة سوء!

كان رحمه الله حساس الشعور، صادق العاطفة رقيقَها، مُرهفَ الإحساس حَيِيّاً.

لذلك لا عجب إذا رأيته يَطربُ للشعر ويتأثر به، ولا عجب إذا رأيت له بعض الأشعار التي هي إلى الأهازيجِ والأراجيز أقربُ منها إلى الشعر!

وبإمكاني أن أسميَها إحساساتٍ جاشت في صدره، فقذفها على لسانه، فجاءت مُعبّرةً عن نَفسٍ تُحبُّ الإسلام وأهلَه، وتنأى عن الضلال وأهلِه.

وقد رغب بعضُهم في طبع هذه الأهازيج، وهذه الأشعار، وطلب إليّ أن أضع مقدمةً لها، أُعرّف بصاحبها!

وشهدَ الله إنّها كانت مُهمةً صعبةً؛ إذ كيف أكتبُ بالمداد، عمّن كتب بدمه خطوطَ عَقيدتِه على صفحات الوجود، حتى أصبحت كلماته، حين مات في سبيلها؛ حيّةً في كُلِّ قلب، وفي كُلِّ روح، وأبرزت إلى العالم جنوداً لم يشهد التاريخ لهم مثيلاً في بطولة وخُلُق!

لقد عايشته السنين الطوال، من سنة (١٩٥١م) إلى سنة (١٩٧٤م) حيث لم أره بعدها، رغم محاولتي ذلك!

ولكنه أرسل إليّ رسالةً يُكلّفني، رحمه الله، بإصلاح ذاتِ البينِ، بين زوجٍ وأهل زوجته، وكُلّلتْ بفضل الله بالنجاح، ولا زالت الرسالةُ عندي، وهي آخرُ ما خطّته يَدُه إليّ!

أتذكّره؛ فأتذكر الإخاءَ الصافي، في وقتٍ عزّ فيه هذا الإخاء!

أتذكره؛ فأتذكر وضوحَ المفاهيم، وسيادةَ المُثُل، في وقت اختلّت فيه المُثُل عند دعاتها وانحرفت فيه المفاهيم عند مَن هُم المسؤولون عن تصحيحِها، وضربِ المثلِ الصحيح فيها..

أذكرُك؛ فأشعر أنني أتفيّأُ ظلالَ دوحةٍ غنّاء، أَلمحُ تحتها أرواحَ الشهداء، الذين مضوا يَخطِرون مع النَبيّين والصديقين!

لقد اعتُقلَ، رحمه الله، اعتقالَه الأخيرَ، عام (١٩٧٥م) وبقي فيه إلى حين استشهادِه، عام (١٩٧٦م) فلما قضى نحبَه، رحمه الله، كنتُ كما قال الشاعر:

وكيف يَلَذُّ في عيشٍ خَليلٌ   تَغَمّد في الثرى عنه خَليلُ

لقد كان بودي أن أؤلف فيه كتاباً، حتى أبقى على صِلَةٍ بذكراه، إن شاء الله تعالى.

إنها صِلةٌ تَمَتَدُّ إلى ربع قرن تقريباً، أمضيتُها في صُحبتِه، ورأيت فيه خلالها مَثَلَ المؤمن الوفيّ، الصادقِ، الصدوق؛ فلما فارقتُه، رحمه الله؛ كنت وإياه كما قال الشاعر:

فلمّا تفرّقْنا؛ كأني ومَالكاً   لِطولِ اجتماعٍ؛ لم نَبِتْ ليلةً مَعا

فهنيئاً لك يا أبا خالد في الملأ الأعلى، وهنيئاً لك ألا ترى القومَ، وقد تساقطوا على الطريقِ، بينَ مَن عبدالدينارَ، وبينَ مَن شَهِد الزُورَ، وبينَ مَن باع دينَه بِعرَضٍ من الدّنيا قليل!

بينَ مَن لم يحفظوا للإسلامِ عَهداً، ولا راعَوا حُرمةً لدينٍ، أو ضَميرٍ!

ولكن ما حيلَتُنا، وقد جَمَحَت بنا الدنيا نافرةً، ورَمَتْنا مُوَلِّيَةً، فَمَلُح عَذْبُها، وخَشُنَ لِينُها وصِرنا نصبرُ على أمورٍ؛ ما كنا نحتملها!

وصدق مَن قال:

يُقضى على المرءِ في أيّامِ مِحنَتِه   حتى يَرى حَسناً ما لَيس بالحَسنِ!

هنيئاً لك يوم تبيضُّ وُجوهٌ، وتسودّ وُجوهٌ!

ومع كلّ هذا؛ فلنا في فَقْدِ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ أعظمُ العزاء:

وإذا أَتَتْكُ مُصيبةٌ تَشجَى بِها ... فَاذْكُر مُصابَك بالرسولِ مُحَمّد

فأسأل الله تعالى أن يَكشف الغُمة، ويُزيل الكربَ؛ فإن البلاءَ كبيرٌ، وطبيعة الإنسان تَكره البلاءَ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٧].

ولكنّ حِكمةَ الله قد تخفى، ونحنُ مُسلّمون له، راضون بِقضائِه على كل حالٍ!

فهو الرَبُّ، ونحن عَبيدُه، ولن يُضَيّعَنا، عَزّ وجَلّ، وإنْ قَلّ النَصيرُ مِن البَشَر!

عَناءٌ، ويَأسٌ، واشتِياقٌ وغُربَةٌ   وَهَجْرُ حَبيبٍ؛ إنّ ذا لَعَظيمُ

وأَيُّ امرِئٍ دامتْ مواثيقُ وُدّهِ   عَلى عُسْرِ ما بي؛ إنّه لَكريمُ

كما أسألُه تعالى أنْ لا يَحرِمَنا أجرَه، ولا يَفْتِنَنا بَعدَه، وأن يجعلَ خيرَ أيامِنا أواخرَها، وخيرَ أعمالِنا خواتيمَها، وخيرَ يَومٍ؛ يومَ لقائِه.

والحمد لله رب العالمين

كتبه نافع علواني

(١٩٨٢م)

****

(٥) شهادة العَلّامة الشيخ سعيد مُحَمّد حَوّى

«الشهيد مروان حديد السابق الصادق»

العَلّامة الشيخ سعيد بن مُحَمّد ذيب حَوّى؛ شخصية أشهرُ من أن تعرّف، وأعلى من أن يُكتب عنها سطورٌ، وقد كُتبت عِدَّة رسائل جامعية، وأبحاث علمية في التعريف بآثاره العلمية، ومناهجه في التفسير، والسيرة، والفكر، والحركة.

وقد أكرمني الله تعالى فتعرفتُ إليه في عيد الفطر، من عام (١٣٨٣هـ) واستمرّت العلاقة الطيبة بينا إلى ما قبل غيبوبته التي ما صحا منها إلا في روضة من رياض الجنّة، إن شاء الله تعالى، عام (١٩٨٩م).

كما أكرمني الله تعالى، فكنت مراسلاً بينه وبين الشهيد مروان في عام (١٩٧٢م) بعدما رجع الشيخ سعيد من المدينة المنوّرة، إذ كان يعمل هناك.

وقد حضرت ثلاثةَ اجتماعاتٍ طويلةً بينهما.

وكلّ كلمةٍ من كلمات الشيخ سعيد في هذه الشهادة؛ ذات دلالةٍ عميقةٍ خاصّة، فتأمّلها جيداً، واعلم أنها شهادةٌ من عالم بصيرٍ ناقد!

قال الشيخ سعيد في شهادته:

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله.

أتراه حَديداً فقط..؟ أم إنّه أشدُّ أنواعِ الفولاذِ صلابةً..؟

لقد كان شيخنا مُحَمّدٌ الحامدُ، رحمه الله، يَوَدُّ في الظاهر لو أن الشهيد مروان خَفّفَ من شِدّته، لكنّه، رحمه الله، قال لي مَرّةً يتمنى: لو كان عِندكُم ألفُ رَجلٍ مِن مِثْلِ هذا الرَجلِ الحَديديّ، مروان حديد!

وعَقِبَ انتفاضةِ «حَماة» عام (١٩٦٤م) وقد أخذ الشيخُ مُحَمّد، رحمه الله، على عاتقه إنقاذَ البلدِ، وإنقاذَ المحكومين والمعتقلين، وأنقذهم فعلاً؛ لامَهُ الشهيد مروان على هذا الإنقاذ؛ فقد كان مُستعجلاً لِلُقيا اللهِ شهيداً!

فحدثتْ جَفوةٌ بينَ الشهيد مروان، وبين الشيخِ الحامِدِ، فرئي رسولُ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وكأنه قادِمٌ لإصلاحِ ذاتِ البَينِ بينَ الطرفين.

لقد كان الشهيد مروان، رحمه الله، ولا زال، وسيبقَى أُسطورةً، يَفتخِرُ بالنسبة إليه مُحبّوه ويَدّعي النسبةَ إليه شانئوه ومبغضوه ومنتقدوه!

ومتى رأيتَ إنساناً هذا حالُه؛ فاعْلَم أنه قَد تَجاوَزَ حَدّ الرجلِ العاديّ!

كان، رحمه الله، أُمّةً وحدَه، لا يُبالي إذا استبان له الطريقُ، مَن وافقَه، أو خالفه!

وكان حَيّ الأملِ إذا يَئِسَ الناسُ، أُخرَويَّ القلبِ؛ إذا انتكس الناس، واثقاً بنصر الله مَهما ادْلَهَمّت الظروفُ، آمَن بالإسلام، وآمَن بجماعة الإخوان، آمن بها حركةَ مُواجهةٍ للطاغوتِ، فما بالى بفلسفة الفلاسفة، ولا بحكمةِ الجُبناءِ والمتخاذِلين.

فَدرّبَ، وأَرسلَ إلى رُبى فِلسطين، وفَجّر ثورةً ضِدّ النصيريين .

ولئن كان بعضُ الناسِ حَريصاً على تصفية هذه الثورة؛ فإنّ لهيب الحب للشهادة، ولهيب الكلمة الصادقة؛ سيحرق هؤلاء وأمثالَهم، ويُلقي بهم حيث تستأهله ذلتهم وجبنهم، وتبقى الثورة الإسلامية في سورية بإذن الله، حتى يأذن الله بنصره.

كان رحمه الله بصيراً بالحق وأهله، وبالباطل وأهله، فأحب الأوّلينَ بفطرته، وأبغض الآخرين بفطرته.

كانت عقيدُتُه عقيدَة أهلِ السنة والجماعة، ومذاهبُهم الفقهية مَحلُّ احترامه، ومن هنا كان حبّه للشيخ مُحَمّدٍ الحامد عميقاً، وكانت احتراساتُه على مَن خالفَ هذه التوجهاتِ كبيرةً.

لم يكن يُعرف عن الشهيد مروان الشعرُ، ومع ذلك جاء بالعجب العجاب، فالشعر عنده إلهاماتٌ تتدفق، وفيوضاتٌ يتفجر بها قلبه، وهو يخاطب أُمّةً غلب عليها اليأسُ والاستسلام، وهو يخاطب أصحاب دعاوي، لا يحاولون أن ينقلوها إلى ميدان الأعمالِ، ولقد استطاع هو ذلك على أقوى ما يكون.

كنت أتأمّل من جَذبَتْهُم روحه، فألقى بهم في أتونِ المعارك، فأعجبُ، كيف استطاع أن يَنتَزِعَ من قَلبِ الترفِ، ومن قِلبِ الكَسلِ، ومن قَلبِ الجُبنِ هذه البطولاتِ الخارقةَ، وهذا الصبرَ الهائل، وهذا التصميمَ العظيم؟!

كان ذلك، وحده، عندي آيةَ أنّ الأمّةَ الإسلامية تُنجِبُ الأفذاذَ.

تُرى هَلْ كان الشهيد مروان حديدٍ شعلةً وانطفأتْ، كما ظَنّ أعداؤه، أو كما ظنّ الشامِتون به، أو كما ظنّ الحاقدون عليه، أو كما يُريد أدعياءُ تراثه، أو كما يريد المتأمّلون من حَرَكته؟!

إنّ هؤلاء جميعَهُم واهمون، فعندما يصبح إنسانٌ ضميرَ مرحلة، ويتكلم عن واجب أمةٍ، ويقدم حياتَه ثمناً لرسالته؛ فإن كلّ سُدودِ الأرضِ؛ لا تستطيع أن تَحبِسَ حِمَمَ براكينه».

كتبه سعيد حَوّى

(١٩٨٣م)[١١٤]

****

---

(١١٤) وردت هذه الشهادة في تقديمه لديوان الشهيد مروان حديد (ص: ٣– ٥).

(٦) شهادة الشيخ عبدالحميد الأحدب

الشيخ عبدالحميد الأحدب[١١٥] الحمويّ المنبت والمنشأ؛ كان من شباب الإخوان المسلمين الناشطين في مدينة حماة.

وقد أزعجَ نشاطُه البعثيين منذ بداية حكمهم، عام (١٩٦٣م).

ومنذ بداية العام الدراسيّ (٦٣– ١٩٦٤) كان يدرّسني وزملائي مادة التربية الإسلامية في إعدادية أبي الفداء الوادعة على شاطئ نهر العاصي في منطقةٍ تدعى «باب النهر».

وتُطلّ على أكبر ناعورة في حماة، وتدعى «الناعورة المحَمّدية».

وقد أفدنا نحن الطلبةَ من توجيهاته الإسلامية، وترسخت في قلوبنا وعقولنا مبادئ الإسلام، وأخلاق الجيل الأول من المسلمين.

انزعجت السلطات الباغية من نشاطه الباهر الظاهر، في إقناع الطلاب بأنّ دينَ الإسلام؛ هو الحقّ، وأنّ السلوك الإسلاميّ؛ هو السلوك النَبيّل الذي يضمن سعادة الدنيا والنجاة يوم القيامة...

فنقلته مديريّة التربية في حماة، بإيعاز من السلطة الغاشمة، من مدارس الأولاد إلى مدارس البنات، ولعلّهم قدّروا أنّ هؤلاء الأولاد؛ يمكنه أن يَلتقيَهم في الجامع الكبير وغيره، من المساجد، لكنّ البنات؛ لا يستطيع أن يلقاهنّ خارج المدرسة، بل هو إذا رآهنّ في الشارع؛ غضّ طَرْفَه عنهنّ!

---

(١١٥) من المعروف لدى كثيرين أنّ آل الأحدب من السادة الحسينية، لكنّ الشيخ عبدالحميد تورّع أن أنسبه كذلك، وقال: نحن لا نمتلك شجرةَ نسبٍ، فأفضّل حذف النسبة. قال عداب: آل الأحدب في حماة مهاجرون من الموصل مثلما هاجر آل كنعان أهلي، وبعض ذريّة الشيخ صالح الأحدب في الموصل حدثني بنسبهم الحسينيّ، وبعض معارفي من آل الأحدب في لبنان؛ قالوا ذلك أيضاً، فالله أعلم.

بيد أنّ هذا ضاعفَ من نشاطه الدعويّ؛ لمزيد حاجة البنات المسلمات للتعرف إلى دينهنّ، وتسليحهنّ بالعقيدة الصحيحة، والأخلاق السامية.

وقد أثمر غرسه وأينع، فكان من تلميذاته نخبةٌ طيبةٌ صالحةٌ، في المدارس التي كان يدرّس فيها، منهنّ زوجتي «أمّ محمود» وزوجة الشهيد مروان «أم خالد» وزوجة الدكتور أحمد جوّاد «أمّ فارس».

وحين عقدتُ العزم على طباعة كتابي «الشهيد مروان حديد ومنهجه في الدعوة والجهاد» كان لا بدّ لي من استكمال شهاداتِ مَن بقي على قيد الحياة من أقران الشهيد المقربين؛ فاتّصلت بفضيلته؛ ليسمح لي بساعةٍ من وقته، وأعلمتُه بالهدفِ، فأذن مشكوراً.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من جمادى الأولى، من شهور سنة (١٤٣٣ هـ) الموافق للحادي والعشرين من نيسان، من شهور سنة (٢٠١٢م) صلّيت العصر في مسجد الصحابة رضوان الله عليهم، في قرية النخيل، إحدى ضواحي عمّان الأردن، واستمعتُ إلى درسه الفصيح الوجيز المفيد، بعد الصلاة، ثم اصطَحبَنا إلى حديقة مَنْزله جوار المسجد المبارك، وكان بيننا الحوار الآتي، بصورة السؤال والجواب:

أستاذي الفاضل:

- نبذة تعريفيّة للقارئ الكريم بأستاذنا الفاضل؟

قال: أنا الفقير إلى الله تعالى: عبدالحميد بن عبدالحسيب الأحدب، من مواليد (١٩٣٩/١/٢٠م) حصلت على إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، عام (١٩٦٠م) وليس لي من المؤلفات ما أذكره، لكنني راجعتُ عدداً من الكتب المؤلفة للشيخ سعيد حَوّى، وعفيف الزعبي، وغيرهما.

- بداية صلتكم بالإخوان المسلمين؟

قال حفظه المولى: كانت بداية صلتي بهم في الصفّ التاسع، عام (١٩٥٣م).

– بداية معرفتكم الكريمة بالشهيد مروان؟

قال: بداية معرفتي بالشهيد مروان، كانت في حدود العام (١٩٥٦م) عندما كنت في الصف الثالث الثانويّ، وفي هذا العام؛ حصلتُ على الشهادة الثانوية.

وأظنّ أني تعرفت إليه عن طريق حضورنا في درس شيخنا مُحَمّد الحامد رحمهما الله تعالى، وكان في ذلك العام حليقاً، لم يُطلق لحيته بعد.

– إذا كان الشهيد مروان من مواليد عام (١٩٣٤م) على رأي الدكتور أكرم الريّس ورأي الأستاذ عدنان سعدالدين، وأنتم من مواليد (١٩٣٩م) فكيف حصلتما على الشهادة الثانوية في عام (١٩٥٦م) معاً، وهو أسنّ منك بخمس سنين؟

قال: لا أدري، هناك عددٌ من إخواننا ضيّعوا سنين دراسيّة عديدة، ولكلّ واحدٍ منهم ظروفه، وبخصوص الشهيد مروان، فقد كان والده يعمل في الجزيرة السوريةِ، وكانت له مزرعة كبيرة هناك، فربما أخذه أهله معهم!

أنا لا أدري، لكن اسأل الشيخ نافعاً، والشيخ فارساً الملّيّ، فربما تجد لديهما جواباً.

– هل كان بينكم صلاتُ صداقة، في أثناء دراسة الشهيد في مصر؟

قال: نعم! كان يعود من مصر في الصيف، وكانت صلتنا الأساسية؛ عن طريق درس الشيخ الحامد، وفي عهد الوحدة عام (١٩٥٨م) انضممت أنا إلى جمعية النهضة الإسلامية أيضاً، وكان الشهيد مروان يزورها، وقد التقيت به كثيراً.

– هل لديكم من معلومات ذاتيّة عن صلة الشهيد مروان حديد بالأستاذ عدنان سعدالدين؟

قال: ليس لديّ معلوماتٌ، سوى ما ذكره الأستاذ عدنان في كتابه عن «الإخوان المسلمين».

– ماذا عن علاقة الشهيد بالشيخ مُحَمّد الحامد؟

قال: كان الشهيد مروان يحبّ الشيخَ الحامدَ كثيراً، مثلما كان الشيخ الحامد يحبّه كثيراً أيضاً!

– هل تذكر له موقفاً شخصيّاً لافتاً؟

قال: في بداية عام (١٩٦٤م) كانت خطبُ مروان في مسجد السلطان جريئةً جدّاً وكان يخطب في غيره من المساجد أيضاً.

– ماذا كان يهدف الشهيد مروان من اعتصامِه في ذلك الوقت، في مسجد السلطان وهجومه على النظام الباغي من إذاعة المسجد؟

قال: كان اعتصام الشهيد في مسجد السلطان؛ عَمَلاً إعلاميّاً، وليس عملاً جهاديّاً.

– من المعلوم أنه حصل صدامٌ مسلّحٌ بين المعتصمين في المسجد، والمهاجمين من جيش السلطة، وهذا يعني أنه كان لدى المعتصمين بعضٌ من السلاح، فكيف يتماشى هذا مع قولكم: إن اعتصام الشهيد كان دعائيّاً إعلاميّاً؟

قال: لا تنافي بينهما، فربما احتفظ المعتصمون ببعض السلاح، للدفاع عن أنفسهم، إذا فوجئوا بمهاجمة جيش النظام للمسجد، وهذا ما حصل بالفعل!

– بعد عودة الشهيد مروان من القاهرة، هل كانت لكم به لقاءاتٌ، وهل حصل بينكم نزاع؟

قال: نعم كنا نلتقي في درس الشيخ مُحَمّد وغيره، ولم يحصل بيننا نزاعٌ، وإنما كان هناك اختلافٌ في وُجهات النظر، فكنتُ لا أُقرّه على مواقفه العنيفة، ولا أقرّ مبدأَ التسلّح

والاستعدادِ للقتال، في ذلك الوقت؛ لأنّ الظروفَ المحيطةَ؛ غير مناسبةٍ!

وهذا رأي شيخنا الحامد، فقد كان يرى الشهيد متعجّلاً في ذلك!

وأضاف: من المناسب قوله هنا؛ أنني كنت منفيّاً من حماة إلى محافظة السويداء، ومعظم سكانها من الدروز! وظللتُ في المنفى من عام (١٩٦٦م) وحتى العام (١٩٧١م).

وفي عام (١٩٦٧م) اعتُقلتُ إحدى وثلاثين ليلةً في سجن «الشرفة» بحماة.

وأظنّ بداية الاعتقال كانت في (٦/٥) وخرجنا من السجن ليلةَ إعلان سقوط مدينة «القنيطرة» وليس عقب سقوط «القنيطرة» لأنّ الإعلان عن سقوطها كان قبل سقوطها الفعليّ بـ(١٧) ساعة، على الأقل!

وكان الشهيد مروان معتقلاً أيضاً، لكنه لم يكن معنا، وإنما كان في سجن تَدمر[١١٦] العسكريّ، وبعد عودتي من المنفى؛ غدتْ لقاءاتي بالشهيد مروان كثيرة.

وسألته: عندما خالف الشهيد مروان توجّه الجماعة في مسألة الإعداد للجهاد بتدريب الشباب على السلاح في معسكرات «الشيوخ» بمنظمة فتح؛ اتّخذ الإخوان المسلمون قراراً بفصله، وفصلوا ستين شابّاً كانوا معه، وكنت أنا من بينهم، فهل رجع الشهيد مروان إلى صفوف تنظيم الجماعة بعد ذلك؟

قال: أظنّه رجع، وكنّا نعامله كأخٍ في الجماعة!

– هل تذكرون حادثةً خاصّة بينكم وبين الشهيد، نفيد منها عبرةً أو عظة؟

قال: كان يكلّمني على باب منزلي في حيّ «الباشورة» أمام عيادة الطبيب الدكتور رشيد مسطو، فلحظت على طرف «غترته» البيضاءِ، المدارةِ خلف رقبته شعرةً طويلةً شقراء من لحيتِه، فأخذتها، ووضعتها عند الصفحة (١٠٠) في جزءٍ من أجزاء «في ظلال القرآن» من

---

(١١٦) علق الأستاذ حمدو حمشو على هذا الموضع: بل كان في سجن «القلعة» العسكري في حماة.

النسخة المجزّأة إلى ثلاثين جزءاً، ثم نقلتها إلى الصفحة التي فيها تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[التوبة : ١١١].

لأنّ هذه الآية فيما خطر لي؛ تنطبق عليه، وتوقّعت أن ينال الشهادةَ، فأتذكّره بها.

وسألته: سمعتُ شيخنا الشهيد مروان يقول: إنّ الأهل وخصوصاً الوالدة تلحّ عليّ بخطوبةِ فتاةٍ؛ لترتاح والدتي تجاهي، فالتقيت أخي الشيخ عبدالحميد أحدب، وكان يدرّس البنات، وهو مَن اختار لي زوجتي؟

فقال: نعم، التقيتُ بالشهيد، فقال لي: أنت تدرّس البنات، فاختر لي عروساً منهنّ!

فاخترت له أختنا تغريد الظريف، أخت أخينا علي الظريف!

كانت تلبَس جلباباً وتصلي، وكلّ من تلبس جلباباً وتصلّي؛ فهي أختنا.

- ما أبرز صفات الشهيد مروان في نظركم؟

قال: كانت أبرزَ صفاتِ الشهيد مروان الصدقُ مع الله، والصدقُ مع الناس.

ومن صفاته القوّةُ والشجاعةُ والرجولة والثباتُ، كان كلّه إخلاصاً!

ومع كلّ هذه الصفات الحازمة؛ فقد كان لديه موضع للنكتة والدعابة!

ففي السجن اجتمع مع بعض الإخوة في زنزانة واحدة، وحصل بين بعض الشباب نزاع؛ لأنّ السجن يضيّق الصدر، ويجعل الإنسان حادّاً نزقاً، فحاول الشهيد مروان إسكاتَهم، فقال لهم: «طوّلوا بالكم على بعض، قرّفتُمونا السِجنَ!».

ومما يمتاز به الإيثار، فقد حضرتْ زوجته إليه في مخبئه؛ وبقيت معه مدة طويلةً من الزمن، تؤنسه وتسهر على رعايته، وتبيت معه، ثم لا يدخلُ بها، ويقول لها: سأتركك بكراً لغيري، من أجل مستقبلك؟

هذا إيثارٌ عجيب، لا أستطيعه أنا، ولا أراه صواباً!

وكان مروان يأخذ بعزائم الأمور، ولا يميل إلى الترخّص، على خلافِ كثيرٍ من إخواننا الصالحين! اللهمّ أعلِ مقامه في الجنّة.

أملاه في عمّان الأردنّ بتاريخ (٢١/٤/٢٠١٢م) الفقير إلى الله تعالى: عبدالحميد بن عبدالحَسيب الأحدب الحموي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

****

(٧) شهادة الأخ الدكتور أحمد جوّاد:

الأخ الدكتور أحمد بن فارس جوّاد، من لِداتِ الشهيد مروان، وهو ثاني اثنينِ الأكثرُ عِشقاً لشيخنا مُحَمّد الحامد، والأول هو الأخ الدكتور سلمان النجّار.

الدكتور أحمد جوّاد؛ هو شقيق أخينا المهندس «عمر جوّاد» الملقّب « أبو بكر» الذي آلت إليه مسؤولية شباب الطليعة المقاتلة، في مدينة حماة، قبيل مذبحة حماة الشهيرة!

والدكتور أحمد من التقوى والورع على جانبٍ عالٍ، ومن التواضعِ الحبيبِ والأدب الجمّ على سدّة القمّة بين شبابنا الحمويين.

ولشهادته في الشهيد مروان حديد؛ قيمتُها البارزة؛ لأمرين رئيسين:

أحدهما: نظراً لقربه من الشهيد مروان في الصفاء والنقاء، وقربه في الجوار، سواءٌ في سوريا، أم في مصر، حيث كان زميله في الدراسة هناك.

والثاني: لأنّ إنصافَه الشهيدَ مروانَ في تلك الشهادة، مع اختلاف الأخير مع شيخنا مُحَمّد الحامد، الذي كان يعشقه الدكتور أحمد؛ دليلٌ على قدرته الفائقة على المواءمة بين الاختلاف في الاجتهاد مع الإخلاص والصدق، ومع الحبّ للمختلِفَيْن كليهما!

ومما أذكره عن عميق الصلة والثقة بين الدكتور أحمد جوّاد، والشهيد مروان أنّ الشهيد حين التقيته في بيته الأخير في دمشق– حي المزرعة، بتاريخ (١٩٧٥/٦/٢١م) أكّد عليّ أن أنزل إلى حماةَ لرؤية أهلي، وأن أجعل له قبل سفري إلى ليبيا ثلاثةَ أيّام على الأقل للمقام عنده.

ولما أخبرته بأنني سأصطحب معي زوجتي وطفلتي؛ قال: ممتاز! هذا أحسن، فزوجتي وزوجتك زميلتان، كانتا في صفٍّ دراسيّ واحد، وزوجتي لم تر عَتَبةَ باب الشقّة منذ مدة كذا وكذا، فتأنَس بها هذه الأيام.

وكأنه أحسّ بعدم رغبتي الأكيدة في اصطحاب زوجتي إلى بيته؛ منعاً للثقالة، بسبب الطفلة؛ قال: على كلّ حالٍ هذه رغبتي، ولك كامل الاختيار، لكنّ الأهمّ عندي أنني أريد أن أحمّلك رسائلَ إلى بعض الإخوة عندكم في ليبيا، منهم الدكتور أحمد جوّاد.

وحين قلت له: الدكتور أحمد؛ ليس في بنغازي؟ قال: إن شاء الله حتى يكون في الصحراء الكبرى، لا بدّ أن توصلها إليه بأسرع وقتٍ ممكن!

وعقب عودتي إلى بيته، ومعي زوجتي وابنتي؛ تلبيةً لدعوته الكريمة؛ سلّمني ثلاث رسائل:

إحداها للدكتور أحمد جوّاد، وقال لي: توصلها إليه حيث كان.

والثانية للدكتور محمود الخاني.

والثالثة للأستاذ سعيد الأفغاني، أو الدكتور محسن الشيشكليّ «أنا نسيت!».

فاحتفظتُ بها ثلاثتِها في محفظة ثيابنا، فسطت عليها الأجهزة الأمنية، كما سطت على ثيابنا، ومالِنا القليل، وجوازات سفرنا، ودواويني الشعرية التي تزيد أبياتها على خمسةِ آلاف بيتٍ شعريّ جزماً!

وليتني استأذنته في قراءتها؛ إذاً لكنت وجدتُ فيها كثيراً من منزلة الدكتور أحمد في قلب الشهيد مروان.

وقد كتب الدكتور أحمد مذكّرةً عن الشهيد مروان، بعنوان «الشهيد الشيخ مروان حديد– رحمه الله تعالى» تقعُ في (٤١) صفحة، كانت ترجمة الشهيد في (٦) صفحات.

بينما جعل بقية المذكرة تحت عنوان «أضواء على أحداث جامع السلطان» وتحت هذه الأضواء معلومات قيّمة كثيرة، قد لا توجد مجموعةً في غير هذه المذكّرة.

والمذكّرة منتشرةٌ بين أيدي إخوان الدكتور أحمد وأحبابه، وقد حصلت على نسخة منها.

أما ترجمة الشهيد مروان؛ فقد أودعتها كاملة في هذا الملحق؛ لأنها شهادته الكاملة، ولا أرى من حقّي أن أقتطع منها ما أشاء، وأترك ما أشاء.

أما حوادث جامع السلطان؛ فهي تاريخٌ لثورة، ولا تخصّ الشهيد مروان وحده؛ لذلك اخترتُ منها النصوص التي تخصّ الشهيد مروان، وأودعتها في مكانها من متن الكتاب.

قال الدكتور أحمد في شهادته:

«المهندس الشهيد الأخ مروان حديد، رحمه الله تعالى؛ رائد الجهاد، وداعيةُ الاسستشهاد للنصف الثاني من القرن العشرين.

بطلٌ لا تدانيه الأبطال، ورجلٌ ليس كمثله بين الرجال، قويُّ الشكيمة، ثابت العزيمة، عميق الإيمان، رابطُ الجَنان، دعا إلى الإسلام بقوّة، وتحدى الكفرَ والإلحاد ببسالة وفتوّة.

كلُّ مَن خالطه؛ يأنس إليه، ويحبه، ويُقبِل عليه؛ إنه فصيح اللسان، وواضح البيان، سريع البديهة، قويّ الحجة والبرهان، مُلتزم بكتابِ الله تعالى، وسنّةِ نَبيّه عليه الصلاة والسلام...

فهو مروان بن الحاج خالد حديد، من مواليد مدينة حماة لعام (١٩٣٤م) من حيّ «البارودية» ينتمي إلى أسرةٍ محافظةٍ، تعمل في الزراعة.

حباه الله وإخوانَه بسطةً في الجسم، ووفرةً في العقل، وذكاءً متميّزاً.

وهو الرجل الرابع بين إخوانه الخمسة، وكلهم متعلّم مثقّف.

وكانت له نزعةٌ اشتراكية في بداياته؛ مسايرةً لإخوانه الذين كان لهم حضور خاصّ على الساحة السياسية.

وفي (١٩٤٩/٢/١٢م) عندما أعلنت وكالات الأنباء العالمية نبأ استشهاد الشيخ حسن البنّا، مرشد الإخوان المسلمين، ولم تُخْفِ هذه الوكالاتُ فرحتَها وغبطتَها باغتياله وقتله؛ كانت هذه اللحظاتُ المنعطفَ في حياة الشابّ مروان حديد، حيث تحوّل كليّاً إلى جماعة الإخوان

المسلمين، وتبدّلت أنماط حياته كلّها، وأخذ الأمر بقوّةٍ، وراح ينهل من معين الدعوة الصافي، دون كللٍ، أو مللٍ[١١٧].

ولحُسن طالعه؛ كان موجهه في أسرته الإخوانية الأستاذ المربي، والسياسيّ المحنّك الشيخ عدنان سعدالدين، حفظه الله؛ لأكثر من عشر سنوات[١١٨].

وبدأ ظهوره على الساحة الإخوانية في رحاب جامع النوي «نور الدين الشهيد» في مدينة حماة، مع ثُلّة من إخوانه، كالشهيد حسن عصفور، والشيخ سعيد حَوّى رحمهما الله، والأستاذِ الشيخ نافع علواني، حفظه الله.

في هذه المرحلة من حياة بطلنا الشهيد؛ أقبل على كتاب الله يقرؤه بإمعان، ويتدارسه مع إخوانه، ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار.

وقد أُولع بتفسير الأستاذ الشهيد سيّد قطب رحمه الله «في ظلال القرآن» حتى كنت تظنّه نسخةً عن الأستاذ سيّد، عندما يحلّق بسامعيه، ويعيش معهم في ظلال القرآن.

نال شهادةَ الدراسة الثانوية من ثانوية ابن رشد في حماة– الفرع العلميّ، لعام (١٩٥٦م) وتوجّه إلى مصر ليلتحق بكلية الزراعة– جامعة عين شمس.

وقد حصل منها على شهادة «البكالوريوس» في العلوم الزراعية، لدورة يناير (١٩٦٤م).

---

(١١٧) علّق الدكتور رشيد العيسى على هذا الموضع بقوله: «في هذا الكلام نظر كثير؛ إذ لا يستقيم مع الواقع» وعلق الأستاذ حمدو حمشو على هذا الكلام بقوله: «هذا الكلام غير دقيق؛ لأنّ مروان انتسب إلى الإخوان في منتصف الخمسينات، والله أعلم» قال عداب: أذكر أنّ الشهيد مروان قال لي: إنه انتسب إلى الإخوان في منتصف السنة الثانوية الثانية، فيكون كلام حمدو أدقّ من كلام غيره، لكن الشيخ نافعاً يُرجع صلة مروان بالإخوان إلى عام (١٩٥١م).

(١١٨) تقدّم في شهادة الأستاذ عدنان سعدالدين ردّي على هذه الدعوى، فانظره ثمة.

وفي هذه المرحلة من حياته رحمه الله تعالى؛ التحق بحلقة العَلّامة المجاهد الشيخ مُحَمّد الحامد، رحمه الله، وطيّب ثراه، بدروس جامع السلطان في حماة، فأكسبه ذلك زاداً في المعرفة في الفقه والتفسير والسيرة والسنة واللغة، والمقدرةِ على اجتذاب الشباب، وتوجيههم وتربيتهم على الإسلام: من اعتقادٍ سليمٍ، وخلقٍ قويمٍ، والاعتزازِ بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين، والاستعدادِ لبذل الغالي والنفيس؛ فداءً للدعوة، ولدين الله.

عاش الأخ مروان مع هؤلاء الشباب كواحدٍ منهم حياةً عمليّةً حركية، بكلّ ما تتطلبه التربية من قدوة فاعلة حسنة، يبرهن على ما يدعو إليه بسلوكه قبل كلامه، وبسيرته النَبيّلة والتزامه، فأثمرت جهودُه ثمراتٍ يانعة ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

عاصر الدعوة في مصر بأحلك أيامها وأشدّها قسوةً، حيث كان الإخوان في غياهب السجون، تمزّق أوصالَهم سياطُ الجلادين، ويمارَسُ عليهم من صنوف العذاب، ما لو صُبّ على «الشحم الراوي؛ لجعلها دكات»[١١٩] تُدفنُ أشلاؤهم على سفح جبل المقطّم، بعد أن تُفيض أرواحهم إلى الله تعالى، دون أن يدري بهم بشر!

هكذا في سجون «أبي زعبل» و«السجن الحربي» وسجن «الواحات» أيامَ حكم جمال عبدالناصر السوداء.

ومضى مروان يبحث عن بقيّةٍ من الإخوان، ممّن لم تطَلْه يدُ الظلمة حتى ظفر بمطلبه، فكانت له صلاتٌ مع الشيخ الشهيد عبدالفتّاح إسماعيل رحمه الله، وغيرِه.

وفي هذه الحقبة استطاعَ بطلنا الشهيد مروان أن يكوّن مجموعةً من الإخوة المصريين كانت النواةَ والقاعِدَّة الصلبة التي قام عليها تنظيم الإخوان في عام (١٩٦٤م) تحت إشراف سيّد قطب رحمه الله، بعد خروجه من السجن.

---

(١١٩) هكذا في الأصل، ولعلها لو صبّ على الصخر الرويّ؛ لجعله دكّاً.

وقد بطش بهم عبدالناصر وزبانيته بإيعازٍ من قوىً خارجية، فأعلن الحربَ عليهم من فوق ضريح «لينين» في موسكو.

وذهب ضحيةَ هذه المحنة ابتداءً الأستاذ سيّد قطب، والشيخ عبدالفتاح إسماعيل، والأخ أحمد عبدالمجيد، وغيرُهم؛ بالإعدام شنقاً حتى الموت.

وزُجّ ببقيّة الإخوان في السجون ثانيةً حتى أُفرج عنهم في بدايةِ عهد السادات.

عاد الأخ المهندس الشيخ مروان حديد إلى بلدته حماة، وهي ترزح مع بقية القطر السوريّ تحتَ حكم حزب البعث؛ ممثّلاً بالطوائف الباطنية، وعلى رأسها الطائفة النصيرية، بانقلاب عسكريٍّ، كانت القوى الإمبريالية والصهيونية من ورائه.

فنَزل الأخ مروان إلى الساحة، ومن خلال التقائه بجماهير البلدة في المساجد؛ أحدث حركة شعبية جهادية، بعد أن خاطبهم بجرأة منقطعة النظير، وبمعانٍ روحية عالية، طالما غابت عنهم، بسبب الإلحاد الذي اعتُمد من قبل النظام الحاكم.

حتى كانت أحداث نيسان من عام (١٩٦٤م) الذي عمدت فيه السلطة الغشوم إلى هدم جامع «السلطان» بعد أن اشتبكت مع جماهير حماة المؤمنة.

وسقط نيجة ذلك سبعةٌ وخمسون شهيداً من أهالي هذه البلدة المنكوبة.

وتمّ اعتقالُ مروان مع مجموعةٍ من إخوانه، وأُحيلوا إلى الزنازين والمعتقلات والعذاب.

ثم حكمت المحكمة العسكرية التي عُقدت في حمص، برئاسة العميد مصطفى طلاس بالإعدام على واحدٍ وعشرين منهم، على رأسهم الأخ مروان حديد.

وكان لتفاصيل هذه المحكمة صدىً مدوٍّ من الجدير الاطّلاع عليه ونشره، فقد أعاد للأذهان محاكمة التابعيّ سعيد بن جبير رضي الله عنه، على يد الحجاج بن يوسف الثقفيّ.

وأخيراً تمّ الإفراجُ عن الجميع بوساطة الشيخ مُحَمّد الحامد رحمه الله، بعد جهودٍ مضنية مع السلطة، وبقرار من رئيس الدولة آنذاك، الفريق أمين الحافظ منفرداً.

عاود الأخ مروان نشاطه الدعويّ، ولم تزده السجون والمعتقلات وأحكام الإعدام إلا التزاماً بدعوته، وحماساً وإصراراً على العمل الجهاديّ، الذي نذر حياته بأكملها للسير في دروبه.

وزاد من تلاحمه مع الإخوان، وخاصّة الذين شاركوه أحداثَ جامع السلطان.

وفي هذه المرحلة؛ انتسب إلى جامعة دمشق- كلية الفلسفة، ونال منها شهادة «الليسانس» وقد تخلل هذه الفترة أكثرُ من اعتقالٍ في سجون البعث.

وفي عام (١٩٦٧م) اعتقل الأخ مروان مع نخبةٍ من إخوان سوريا وعلمائها الأفاضل وعلى رأسهم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله، وقد طوّفت سلطات البعث الطائفيّ بالأخ مروان على عِدَّة سجون، منها سجن «الحسكة» وسجن «تدمر» ثم أخيراً زجوا به في سجن المزة، حيث تمّ الإفراج عن جميع المعتقلين، بعد سقوط الجولان بيد اليهود الصهاينة، وهزيمة الخامس من حزيران، لعام (١٩٦٧م) بقيادة وزير الدفاع يومئذ الفريق الطيّار حافظ الأسد.

بعد خروجه من السجن، ومع تفاعله بالجهاد؛ التحق الأخ مروان حديد مع مجموعةٍ كبيرةٍ من الإخوان بالعمل الفدائيّ الفلسطينيّ، بقرارٍ من المراقب العام يومئذٍ الأستاذ عصام العطار، وذلك في معسكرات التدريب والقتال في جبال «إربد» حيث التقى رحمه الله بعددٍ من الإخوان المسلمين الذين التحقوا بهذه المعسكرات، من مختلف الأقطار العربية ومن أشهرهم، وعلى رأسهم الأخ الشهيد الدكتور عبدالله عزام رحمه الله، الذي أُعجب بشخصية الأخ مروان الفذّة أيما إعجاب، وصار يضرب به المثل لأيّ أخٍ يلمس فيه الصدق والتفاني في العمل الجهاديّ، فيصفه بأنه مَروانيّ النَزْعَة.

وكذلك التقى بالأخ المجاهد المدرّب الفريق[١٢٠] عبدالعزيز العلي أبي أسامة المصريّ الجنسية، وبأمثال الأخ الشهيد البطل إبراهيم عاشور، وبعددٍ من صفوة الإخوان في السودان، على رأسهم الأخ مُحَمّد طالب عمر «أبو معاذ» وزير التموين والثروة السمكية آنئذٍ في السودان، والذي استشهد لاحقاً في جزيرة «آبا».

ومنهم أيضاً الأخ السودانيّ عبدالرحيم ولد باهي، والأخ أبو القاسم الكاشاني.

مارس الأخ مروان في تلك الأيام الجهاد عمليّاً، وشارك إخوانه في عمليّات ناجحة في الأرض المحتلة، في الأعوام (٦٨-١٩٦٩م)[١٢١].

وقد استشهد من الإخوة الحمويين عددٌ منهم، كالشهيد مهدي الإدلبي، والأخ الشهيد زهير سعدو، والأخ الشهيد نصر العيسى، رحمهم الله تعالى.

وقد تأهّل أكثر من شهيدٍ من هذه المعسكرات، وتلك العمليات لمتابعة العمل الجهاديّ، وقتال مَن اغتصبوا الحكمَ في سورية الجريحة، والتي حكموها بالحديد والنار، وأورثوها الهزائم والذلّ والشنار[١٢٢].

ومن هؤلاء الشباب الشهداءُ الدكتور عبدالستّار الزعيم، والمهندس تميم الشققي، والمهندس عمر فارس جواد، وغيرهم، عليهم رحمة الله.

وفي عام (١٩٧٣م) ومع أحداث الدستور العلمانيّ الذي كبّل به حافظ الأسد الشعبَ السوريَّ، وحكمه بقانون الطوارئ، وحرم عليه أبسط الحريات، ونزع منه دين الدولة، وهو

---

(١٢٠) لم يكن الأخ الأستاذ عبدالعزيز العلي عسكرياً، بل كان مهندساً مدنيّاً فيما أعلم.

(١٢١) هذا الكلام غير دقيق، فالعمل العسكري الإخواني بدأ في بدايات عام (١٩٦٩م) وانفضّ في بدايات أيلول عام (١٩٧٠) والشهيد لم يتدرّب في المعسكرات، ولم يشارك في أيّ عملية عسكرية ضدّ إسرائيل، وإنما كان يرسل الشباب إلى تلك المعسكرات للتدريب؛ استعداداً لمعركته مع النظام الفاشيّ في سوريا.

(١٢٢) الشنار: أقبح العيب، كما في القاموس.

«الإسلام» قاد هذه الأحداثَ علماءُ سوريا الأفذاذ، وعلى رأسهم الشيخ سعيد حَوّى، رحمه الله تعالى.

لوحق الأخ مروان أمنيّاً، واختبأ لسنوات عِدَّة، في دمشق، يُعدّ العِدَّة من قواعده، ويتصل بالشباب والإخوان، فينظم صفوفهم، ويقوي عزائمهم ليومٍ فاصلٍ مع هذه الطغمة الطائفية الحاكمة.

وفي هذه الفترة الزمنية العصيبة؛ قال الأخ مروان شعراً يتفجّر حماسة ورقة على الإسلام، وما آل إليه حال المسلمين، ويثير بكلماته وعباراته الناريّة همم الشباب المسلم؛ ليجاهد ويدافع عن دينه وعرضه ووطنه، وقد جمعت أشعاره في ديوان مطبوعٍ.

وفي عام (١٩٧٥م) استطاعت السلطات السورية اقتحامَ منزله في دمشق، وتمّ اعتقاله واعتقال زوجته «التي بقيت عذراء، ولم يقترب منها حفاظاً على مستقبلها» واستشهاد أخوين كانا بضيافته، وهما: مأمون كاخي، وزكي صفدي[١٢٣] وربما استشهد واحدٌ فقط، والثاني اعتُقل[١٢٤].

انتقلوا بالبطل المكبّل إلى زنازين سجن المزة، حيث مارست معه عناصر الأمن القذرة والسجانون المتوحشون كلَّ أصناف العذاب والتنكيل، وهو صابر محتسب محارب؛ لينالوا من كبريائه وتعاليه عليهم، فلم يظفروا بلحظة ضعفٍ منه واحدة، رغم ما صبّوه عليه من العذاب صبّاً، ورغم التجويع الذي غدا بسببه عظماً وجلداً.

---

(١٢٣) في أصل الكراس «أحمد الصفدي» والصواب ما أصبتناه.

(١٢٤) الصواب أن الأخ زكي صفدي؛ استشهد في تلك المعركة، وجرح مأمون كاخي جرحاً بليغاً، عجز معه عن المقاومة، فاعتقلوه، ثم قتلوه في المعتقل.

وكانوا يقدمون له الطعام، بعد أن يقف السجان الوقح ليبول فيه، أو يخلطه بالفضلات البشرية «البراز» أمامَ ناظريه.

ادّعت السلطة المجرمة أن مروان قد أضرب عن الطعام، واستدعت أخاه المحامي الأستاذ أحمد حديد ليَثنِيَه عن ذلك، ونُقل رحمه الله إلى مستشفى «حرستا» العسكريّ حيث بدأت الحياة تدبّ في أوصاله شيئاً فشيئاً، وراح يستعيد شيئاً من قوّته الضائعة.

فعاجله الطبيب النصيريّ المشرف بأمرٍ من السلطات بالإجهاز عليه، فحقنه في عنقه؛ ليهبط ضغطه الدمويّ إلى «الصفر» ولتُفيض روحه الطاهرة إلى بارئها، تشكو ظلم الحكم الطائفيّ الممثَّل بإخوان القردة والشياطين، الذين اعتدوا على جنس الإنسان وحقوق الإنسان، وحياة الإنسان، بعد اعتدائهم على الحرمات والمقدسات والمساجد والأعراض والإسلام درب الخلق أجمعين.

هذا هو الأخ المهندس البطل الشهيد الشيخ مروان حديد، محرّك الجهاد والاستشهاد في قلوب الشباب المؤمن في كلّ مكانٍ من هذه الأرض الواسعة، حيث تدور معركة المصير بين أعداء الله من جهة، وبين المسلمين المضطهدين المغلوبين على أمرهم، من جهة أخرى.

أحيا الأخ مروان رحمه الله شعيرةَ الجهاد، وبعثها حيّةً مشتعلةً إلى يوم القيامة، بعزّ عزيزٍ، أو بذلّ ذليلٍ، لا تطفئها المؤامرات، ولا المؤتمرات ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾.

قال الشيخ مُحَمّد الحامد، رحمه الله وطيّب ثراه مَرّةً لمروان في جامع «الجديد» بحماة: «يا مروان، لو رآك الإمام الشهيد حسن البنا؛ لقرّت بك عينُه!».

عليهم جميعاً رحماتُ الله ورضوانه، وأنزلهم منازل الأبرار، مع ﴿النَبيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء : ٦٩].

والحمد لله ربّ العالمين

****

(٨) شهادة الدكتور رشيد العيسى:

الأخ الفاضل الدكتور رشيد بن «مُحَمّد خالد» بن رشيد العيسى.

ووالدته الفاضلة من آل «الملكي» بقايا ذرّية ملوك حماة الأيوبيين.

ولد الدكتور رشيد في حماة، حي الزنبقي، بنطقة الحاضر، بتاريخ (١٩/٣/ ١٩٤٦م) حصل على الشهادة الثانوية- الفرع العلميّ، بتقدير (جيّد جداً) وبنسبة (٨٠%) وكان ترتيبه الثالث على محافظة حماة.

وكانت مثلُ هذه الدرجة في سوريا عالية جدّاً، تؤهّل الحاصل عليها لدراسة الطبّ والهندسة، فما دونهما.

وقد التحق بجماعة الإخوان في عام (١٩٦٢م) وكان من المقربين جدّاً من الشهيد مروان، وكان الشهيد مروان حديد يفوّضه بالإشراف على كثيرٍ من نشاطات الشباب الذين ينتسبون إليه.

في السنة التمهيدية، التي كان تنظيم الإخوان يسلكها في حماة؛ لم أكن على علاقةٍ وطيدة مع كثيرين من الإخوان المسلمين، والذي أتيقّنه من تلك الفترة؛ صلتي القوية مع شيخي غسان حمدون، وأخويّ هاني الزين، ومخلص عمّار، اللذين دعواني في الصفّ السابع إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكانت إعدادية أبي الفداء حتى نهاية العام الدراسي (٦٢- ١٩٦٣م) جوارَ جامع الحسنين، وفيه كانت لقاءاتنا مع شيخنا الفاضل الدكتور غسان حمدون، في إطار التوجيه العامِ، والاختيار الذي كانت تتبعه جماعة الإخوان يومئذٍ.

وفي بداية العام الدراسي (٦٣- ١٩٦٤م) نُقلت إعدادية أبي الفداء إلى حيّ المدينة منطقة «باب النهر» وفي تلك السنة انتظمتُ في جماعة الإخوان المسلمين، وأُلحقت بإحدى الأسر التنظيمية.

وفي هذه السنة بالتأكيد تعرّفت إلى أخي الدكتور رشيد العيسى، لكنني لا أذكر أيّ موقفٍ واضحٍ عن تلك الفترة.

وفي عام (١٩٦٤م) وبعد عصر يومٍ من أيام الصيفِ، وفي صحن مسجد الأحدب؛ رأيتُ الشباب يهنّئون الأخ «رشيد العيسى» بنجاحه في الشهادة الثانوية، وتفوقه بهذا النجاح، وأظنّه كان أعلى معدّل في شباب الإخوان المسلمين لذلك العام!

لم يكن بيني وبين أخي رشيد في السنّ إلا أقلّ من أربع سنوات، ومعظم أقراني كانوا أصحابَ لحىً وشوارب، وخصوصاً زميلَنا الفاضل النَبيّل عبدالرحمن شيخ النجارين!

أما أنا فكنت أمردَ تماماً، وليس على شاربيّ، أو لحِيتي إلا زَغَبُ الشعر!

وحسب تربيتنا البيتية، ثم حسب تعاليم وتوجيه شيوخنا الأفاضل، وفي طليعتهم شيخنا الحامد؛ فإنه لا يجوز معانقة الأمردِ، ولا تقبيله!

فاقتربت من أخي «رشيد» ومددت يدي إليه مصافحاً، وقلت له: «مباركٌ لك إن شاء الله، نفعك اللهُ، ونفع بك المسلمين».

فأجابني على مباركتي له، ثم قال لي: «اكبر اكبر، أنت رجال، لكن شكلك طفل!» وضحكنا!

فقلت له: أخي رشيد: ماذا ستدرس إن شاء الله تعالى؟

قال: سأدرس الطبّ البشريّ، غير؟

قلت له: ما شاء الله عنك، زادك الله بسطة في الجسم، وأعطاك ذكاءً نادراً، فلماذا لا تدرس الشريعة، لعلّ الله يجعل منك عالماً متميّزاً؟

قال لي: أدرس شريعة؟ الشريعة لا تحتاج إلى دراسة جامعية!

فكتب الشهيد البنا، وكتب الشهيد سيّد قطب، وكتب الأستاذ مُحَمّد قطب، وكتب «أبو الأعلى» المودوديّ، وأمثال هذه الكتب؛ تكفينا في فهم الفكر الإسلامي!

ومن تفسير «في ظلال القرآن» نفهم كتاب ربّنا.

وهذا درس الشيخ مُحَمّد الحامد، نتلقى فيه السيرة والفقه والحديث والتفسير، فما حاجتنا إلى أن نتعب أنفسنا، ونحبسها في كلية الشريعة!

كنت صغيراً، فلم أحسن أن أردّ عليه بشيء، لكنني قلت له: «يا عميّ أنتم أُدرسوا طبّ وهندسة، واتركوا الشريعة للمتردّيةِ، والنطيحة، وما أكل السبع، اتركوها لمن يحصّل معدّل (٥٠%) و(٥١%) وهؤلاء «ما بيطلع معهم شيء!»».

قال وهو يبتسم: يعني أنت ستدرس الشريعة؟

قلت له: والله لو تفوقت، وكان يمكنني أن أدرس الطبّ؛ ما درستُ إلا الشريعة!

فقال: طيّب لماذا؟

قلت له: بمعادلة حسابية صغيرة: من يحصّل في الثانوية معدّلك؛ فتكون نسبة أخطائه أقلّ بكثير ممن يدرس الشريعة على معدّلٍ أدنى بالتأكيد! [الكلام هنا من الذاكرة بالمعنى]

فالتفت إلى الواقفين معنا، وقال لهم: أنا قلت لعداب: أنت رجال، لكن ما ذا أصنع له، هو ما راضي يكبر!

هذا الكلام كله استطرادٌ، صلته بموضعنا بعيدة، لكنني أحببت من عرضه التأكيد على أمرين:

الأول: بيان أن مذهبي في ضرورة أن يدرس الشريعةَ النابهون والأذكياء؛ ليس جديداً بل هو منذ ذلك الحين، بل ومن قبل ذلك!

والأمر الثاني: أنّ في هذا الكلام كثيراً من الفوائد التي قد لا أجد لها مكاناً في كتابٍ آخر من كتبي، فيُحرم القارئ منها، ولا أكون قمتُ بواجب الشكر والعرفان لأخ قديم كبيرٍ شجاع كريم.

ثم إنّ كتابنا هذا؛ ليس كتاباً منهجيّاً مدرسيّاً، وإنما هو إلى المذكّراتِ والذكريات أقربُ، وعليه فإن صدره يحتمل مثلَ هذه الاستطرادة التاريخية الماتعة في نظري .

في بداية العام الدراسي التالي؛ انتقل الدكتور رشيد العيسى لدراسة الطبّ في جامعة دمشق، وليس في ذاكرتي شيء عن الفترة الفاصلة بين هذا اللقاء، ورجوع الصلة بأقوى مما كانت عليه في عام (١٩٦٩م).

وكانت بداية رؤيتي إياه في هذه السنة، في أثناء تشييع جنازة سيدي شيخنا مُحَمّد الحامد، فقد كان هو مسؤولاً عن مسيرتها وحمايتها، فاقترب مني، وقال: انتبهوا للناصريين والاشتراكيين، نخشى أن يتركوا جنازةَ الشيخ تقع على الأرض.

وعقب حصولي على الشهادة الثانوية–الفرع الأدبي؛ كان التسجيل عن طريق «المفاضلة» فكتبتُ على هامش ورقة التقديم: «أنا ليست هذه الدرجاتُ التي أمامكم درجاتي، ولكنني كنت في مرض شديدٍ مُقْعِد» وسجّلت خياراتي على النحو الآتي:

الخيار الأول: شريعة، الخيار الثاني: شريعة، الخيار الثالث: لغة عربية!

فقُبلتُ في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وفي كلية الآداب بجامعة حلب!

في هذه الأثناء؛ كان الشهيد مروان؛ يهيئ الدفعة الثانية من الشباب؛ لإرسالهم إلى التدريب في معسكرات فتح.

وحين حان موعد السفر؛ أعطاني الشهيد مروان عنوان مَنْزل الدكتور رشيد في دمشق وقال لي: هل تعرف الأخ رشيد العيسى؟ قلت: وكيف لا أعرفه؟

قال: هو المسؤول عن تنظيم أمور السفر إلى الأردنّ، فكما يقول لك؛ تصرّفْ، من دون مناقشات.

وحين طرقنا باب مَنْزل الدكتور رشيد في حيّ البرامكة، جوار جامعة دمشق؛ فتح لنا الرجل الباب، ورحّب بنا، وبتنا عنده تلك الليلة، ريثما رتّب لنا أمور السفر.

منذ سفرنا في اليوم التالي، وحتى (١٤/١/١٩٧٠م) لم أر الدكتور رشيد، لكنني حين رجعتُ إلى الانتظام بدراسة الشريعة بأمر من الوالد القائد الفاضل القائد عبدالعزيز العلي المصريّ «أبو أسامة» وأمرٍ من الشهيد مروان؛ نزلتُ إلى دمشق، وقصدت مَنْزلَ أخي الدكتور رشيد، من دون أيّ حرجٍ؛ لأنه كان مَنْزلَ جميع الحمويين في دمشق.

وبعد عِدَّة أيام؛ استأجرت منزلاً في حيّ السويقة جوار جامع «النقشبندي» وكنت أزورُ الدكتور في مَنْزله بين الفينة والفينة، طيلةَ تلك السنة الدراسية.

فأنا بهذه المناسبة؛ أسجّل له عظيم شكري وامتناني، ويسعدني أن أقرّ بأنه واحدٌ من شيوخي الذين أفدت من نصحهم وخلقهم وفضلهم وكرمهم الكثير الكثير، جزاه الله خيراً.

وقد طلبتُ من أخي الكريم الدكتور رشيد شهادةً وجيزة بشيخنا الشهيد مروان وخصوصاً من المواقف والحوادث التي يظنّ أنّه انفرد بها معه، علاوةً على ما يخصّ أمور الجهاد، فهو أعرف مني، ومن الجميع فيما يخص فترة معسكرات التدريب.

فاستجاب جزاه الله خيراً، وأمتعنا بحياته، وقال لي حين اتّصلت به: هذا أقلّ الواجب علينا تُجاه شيخنا رحمه الله تعالى.

وحين زرته في مَنْزله بحي «أبو علندا» من مدينة عمّان الأردنّ؛ ناولني أوراقاً كان قد كتبها سابقاً بهذا الخصوص، وقال لي: «إذا رأيت فيها شيئاً يفيد بحثك؛ فضمّنه إياه».

فقلت له: إنني سأستفيد من كراسته في مواضع من الكتاب، لكني سأضعها جميعَها في الملحق الذي جعلته قبل خاتمة الكتاب، فأذن مشكوراً.

وهذا نصّ ما جاء في شهادته الماتعة المفيدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم..الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا مُحَمّد، وعلى آله أجمعين.

أما بعد: فقد استجبت لطلبكم؛ لمعزّة الشهيد مروان على قلبي، ولتسجيل بعض الأحداث التي عايشتُها، على الرغم من أنني لا أحبّ الكتابةَ[١٢٥] ولست من هواتها.

وسوف أتقيّد بالكتابة عن أحداثٍ عايشتها، أو سمعتُها منه مباشرةً.

وسأتناول ببعض التحليل أوالتفسير ما قد يرد من أحداثٍ حيث أمكن ذلك، أو تطلّب الأمر، وتستطيعون أن تأخذوا مما كتبت ما تريدون، وتدعوا ما تريدون.

تكوينه العلميّ والثقافيّ:

ليس عندي الكثيرُ حول ذلك، ولكني سمعت منه أنه عقب حصوله على الشهادة الثانوية العامّة؛ حاول السفر إلى إيطاليا للدراسة، كما ذهب كثير من زملائه.

وفي دمشق التقى بالشيخ «أحمد الحارون» وهو من أهل الكشف والكرامات، فأخبر الشهيد مروان أنّ أمر السفر إلى إيطاليا؛ لن يتيسّر، وبالفعل لم يتيسّر، وعاد الشهيد مروان إلى حماة.

---

(١٢٥) لم أناقش الدكتور رشيد في موقفه هذا من الكتابة، وسترد جُمَل مثلها عن عددٍ من أصحاب الشهادات وصف بعضُهُم الشهيد مروان نفسه بأنه كان لا يحب الكتابة.. وسبب ذلك في نظري أن تربيتنا في حماة كانت تقوم على تَعظيم المتقدمين، وأنهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين، وعليه فمن يريد أن يكتب؛ فإنما يكتب للشهرة وحبّ الظهور، والمنهج الصوفيّ؛ يقوم على الخمول والابتعاد عن العلو والرفعة، وهي تربية خاطئة، لكنها سائدة وللأسف!

ثم سافر إلى مصر للدراسة، ونال منها شهادة البكالوريوس «هندسة زراعية».

ومن زملائه هناك الدكتور سلمان نجار رحمه الله تعالى، وكان يدرس في مصر الطبّ البيطريّ، ولما عاد إلى سوريا عقبَ أحداث الانفصال؛ لم يكن في سوريا كلية للطبّ البيطري، فحوّلوه إلى كلية الطب البشري في جامعة دمشق.

وقد كان مرشد الإخوان المسلمين الحالي «مُحَمّد بديع» من تلامذة الشهيد مروان حديد، وتلامذة الدكتور سلمان النجار، وعلى أيديهما انتظم في جماعة الإخوان المسلمين.

ومن زملائه أيضاً الدكتور أحمد فارس جوّاد، وكان يدرس الطبّ البيطريّ، ومنهم أيضاً الدكتور نزار حمضمض، حيث زامله في كلية الزراعة.

وبعد أحداث حماة، عام (١٩٦٤م) انتسب إلى جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم الفلسفة، وحصل منها على الشهادة الجامعية الأولى (ليسانس).

وقد كان يرغب في الانتساب إلى كلية الشريعة، فلم يتيسر ذلك له.

وكان يحصل معه في أثناء دراسته في جامعة دمشق بعضُ الطرائف.

منها: أنه تأخّر مرّةً عن موعد دخول قاعة الامتحان ما يزيد على ربع ساعة؛ بسبب عدم استدلاله على قاعة الامتحان.

ونظراً لقيافته الفريدة، ومنظره المهيب؛ فقد قَبِل المشرفون على قاعة الامتحان إدخاله ليؤدي الامتحان.

وكثيراً ما كان يقرأ لامتحانات الكلية في اليومين، أو الثلاثة الأيام السابقة ليوم الامتحان.

وكان أحياناً يقرأ ربع الكتاب، ويعتمد على وجود الأسئلة الاختيارية.

ومن هذه الطرائف في امتحاناته بقسم الفلسفة بجامعة دمشق؛ جاءه سؤال يتعلّق بالجماهيرية، وحبّ الجماهير، وكيفية تشكّل الجماهير!

فكتب على ورقة الامتحان مقارنة بين جماهيرية أم كلثوم، وجماهيرية عبدالناصر!

ومرّةً كتب على ورقة الامتحان مبادئ الإخوان المسلمين، ودعا الأستاذ المصحح للانتساب إلى الجماعة، والالتزام بشرع الله.

ومن الملفت للنظر أنّ بعض المصححين كانوا يضعون له علامةً ينجح بها في الامتحان!

انتماؤه لجماعة الإخوان المسلمين:

لا أدري عن كيفية انتمائه للجماعة شيئاً مفصّلاً بسبب فارق السنّ، غير أني سمعت منه بعد تَعرّفي إليه؛ أنه فوجئ بأخيه أحمد، القياديّ في (الحزب الاشتراكيّ) وعنده فرحٌ وغبطة عظيمان، بسبب مقتل واستشهاد الإمام حسن البنا.

مما لفت انتباهه، وهيّأ البذرةَ لانتسابه للجماعة.

وهذا يذكّرنا بكيفية انتماء «سيد قطب» للجماعة، بعدما رأى فرح الصحافة والإعلام الأمريكيين باغتيال حسن البنّا رحمه الله.

ومن قصصه التي سمعتها منه عن تلك المرحلة: أنه كان يقوم بتوجيه أسرة إخوانية في مدينة حماة، ويزهّدهم بالحياة، ويحضّهم على ضرورة التقشّف.

وفي أثناء اجتماع الأسرة دخل عليهم الأستاذ «فريد الشققيّ» وهو من قيادات الإخوان في ذلك الوقت!

وبدأ الأستاذ فريد يقارن لهم بين الإسلام والأنظمة الدنيوية الأخرى، فمثّل لهم الإسلام بأنه مثل «الشعيبيات» وأن الأنظمة الأخرى مثل «الشنكليش»[١٢٦].

---

(١٢٦) «الشُعيبيّات» حلوى حمويّة مشهورة، تُصنع من الطحين الأبيض المعجون بالسمن البلدي، ويحشى في داخلها (الجوز) أو «القشطة» الحموية الفريدة. و«الشنكليش» ويدعى في دمشق (السوركا) هو جبن «القريش»

ثم التفت الأستاذ فريد فجأةً نحو الطلاب، وقال لهم: لو وُضع أمامكم شعيبيات و«شنكليش» ماذا تختارون؟

وحيث إنّ الطلاب كانوا ما زالوا تحت تأثير توجيهات الشهيد مروان حول الزهد والعزوف عن طيبات الدنيا؛ أجابوا جميعاً وبسرعة: نختار «الشنكليش!».

فأُسقط في يد الأستاذ فريد، وأُصيب بالإحباط، وذهبت مثلاً كما يقال!

أساتذته ومعلموه والشخصيات الإسلامية التي يعرفها:

سوف أكتب عن علاقته بالشيخ مُحَمّد الحامد، رحمه الله، وهو شيخُ حماة بلا منازعٍ، وشيخ الإخوان، ومربيهم، وعلى يديه تربى خيرةُ شباب الإخوان التزاماً وعلماً وخلقاً.

وكان مروان من تلامذته وخواصّه.

وكم كنت أشهد النقاشات التي كانت تدور بين الشيخ الحامد والأخ مروان، قبل أن يأخذ لقب «الشيخ» وقبل لباسه ذلك الزيّ الذي ميّزه بعد عودته من مصر.

كان مروان يحضر درس الشيخ الصباحيّ، في مسجد «الجديد» حيث كان درساً خاصّاً للشيوخ وطلاب العلم، وبعضِ شباب الإخوان.

وكم كان الشيخ الحامد يسرّ بمناقشات مروان وتمسّكه بضرورة الأخذ بالعزائم، ويقول له: آه!! لو كان عندنا اثنا عشر ألفاً من أمثالك.

وكان يمازحه، ويقول له: نريد أن نزوّجك حتى تخفّ عندك هذه الحدة والشدّة.

وكان الشيخ مُحَمّد يعتبره من أعزّ طلابه.

المصنوع من اللبن، وتضاف إليه أنواع عديدة من البهارات، ثم يوضع في إناء مقفل بحيث لا يدخله الهواء، حتى يتعفّن، ويستطيبه فقراء الحمويين، ويرونه أطيبَ من الجبنِ ذاته، لكنّ أبناء الطبقة المترفة؛ يقرفون منه، ويشمئزون من رائحته.

وكذلك كان الشهيد مروان، يقابله حبّاً بحبٍ، ويحترمه أشدّ الاحترام، وإن انقطعت الصلةُ المباشرةُ، أو فترتْ بُعيدَ أحداث حماة، عام (١٩٦٤م).

وإن أنسَ؛ فلن أنسَ أن الشهيد مروان هو الذي قام بتنفيذ عددٍ كبيرٍ من اللافتات وتنظيمِ شباب الإخوان، أثناء جنازة الشيخ مُحَمّد الحامد، رحمه الله.

وكان يتحرّك بشكل دائم، ولا يهدأ في ذلك اليوم الحزين، الذي خيّم على مدينة حماة كلها.

وبعد انتهاء مراسم الجنازة، ودفن جثمان الشيخ الحامد رحمه الله تعالى؛ استقبل الشهيد مروان عدداً كبيراً من المشاركين القادمين إلى مدينة حماة من خارجها في بيته، وقدّم لهم الطعام والشراب.

وبقي بيته يعجّ بالزوار القادمين من خارج حماة وداخلها أيام العزاء.

كما أنني أذكر أنه أرسل بعض شباب الإخوان إلى بيت مهدي استانبولي؛ للدفاع عن الشيخ مُحَمّد الحامد بعد وفاته، عندما أساء الاستانبولي للشيخ الحامد في بعض كتاباته السخيفة.

كان الشهيدُ مروان كثيرَ العلاقات مع الدعاة الإسلاميين، والإخوان، في شتى محافظات سوريا وخارجها.

فقد عرفت له ارتباطاً طيّباً بالدكتور أمين المصري رحمه الله، والأستاذ جودت سعيد.

ولم أره يبكي وتهطل دموعه إلا يومَ وفاة الأستاذ مصطفى الأعسر، في مستشفى المواساة بدمشق، والشيخ الأعسر من مدينة «بانياس» على الساحل السوريّ.

وكان رحمه الله يحرص على حضور صلاة الجمعة عند الشيخ مُحَمّد سعيد رمضان البوطي في مسجده في حيّ ركن الدين، بدمشق.

كما أنه كان يحترم الأستاذ عصام العطار، المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا.

كان رحمه الله، له بعض الملاحظات على بعض قيادات الإخوان في بداية الستينات؛ لعدم التزامهم بالمظاهر الإسلامية، كاللِحيةِ مثلاً! فضلاً عن تقاعسهم عن العمل الجهاديّ، وكان له رأيٌ في بعض الرموزِ، وميلِهم إلى حبّ الزعامة.

بعض صفاته الجسمية والنفسية:

كان الشهيد مروان رحمه الله؛ طويلَ القامة، شديدَ البنية، قويّ التحمّل، يلزم نفسه بالعزائم، كثيرَ الصوم والصلاة والقيام وقراءة القرآن، وكان يجهد نفسه بالسهر.

وكم واصل الليلة والليلتين، حتى يقع طريحَ الفراش.

وإذا رأيتَه مريضاً؛ فاعلم أنه واصل ليلتين أو أكثر، من دون نوم، أو بنومٍ قليل!

ومن صفاته الجودُ والكرم، فهذه كانت سجيةً من سجاياه، دون تطبّع أو تكلّف.

يعطيك ما بجيبه، أو يستدين لك ليعطيك، وكان بيته في حيّ «البارودية» مهوىً للزوّار من أهل المدينة وخارجها.

وكم اجتمعت فيه وفود الشباب والطلاب والمدرسين من «دمشق» و«حلب» و«دير الزور» والساحل.

كان ينفق ما في جيبه ويستدين، حتى أرهق أهله.

وأعتقد أنّ سرّ الأسرار في شخصيّته؛ هو الإخلاص؛ حيث إنه لم يكن يبتغي مركزاً تنظيمياً في الجماعة، كما يفعل معظم الدعاة في هذا الزمان؛ حيث ينظرون إلى المنصب أنه قربةٌ إلى الله، ويتنافسون عليه!

بل كان مقصودَه اللهُ وحده، يريد رضاه، ولا يُهمه سواه، وعلى حدّ قول الصوفية؛ فقد وصل الشهيد مروان إلى درجة «الفناء» بالله!

وإذا كان هذا حالَه في المناصب القيادية داخلَ الجماعة؛ فهو في التطلّع إلى المناصب السياسية أبعد!

كان رحمه الله شديدَ الولع والوله، بل العشق لدعوة الإخوان المسلمين، ومبادئها، التي هي الإسلامُ نفسه.

كان رحمه الله يحفظ أناشيد الإخوان وشعاراتهم بشكلٍ عزّ نظيره، كما أنه كان حافظاً ومتقناً لكتب الإخوان، وخاصّةً رسائل الإمام الشهيد البنّا، يدرّسها للشباب، ويقوم بالوظائف الإخوانية يومياً، كقراءة المأثورات، ملتزماً بالوصايا العشر للإمام الشهيد، حتى إنه كان لا يشرب الشاي والقهوة، من شدّة التزامه بتلك الوصايا.

وكان يردد شعارات الإخوانِ في كلّ مناسبة، ويحفظ أناشيدَ الجماعة، ويعلمها للشباب.

وتراه يذوب في تلك المبادئ، التي وضعها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى.

(الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا)

نعم! كانت غايتُه رضا الله، والفوزَ برضوانه وجنّته.

كان يلتزم بالأمور الشرعية والسنة النبوية؛ آخذاً نفسه بالعزائم، لا يترخص لنفسه، ولا يتزمّت مع غيره، ولا يكرههم على فعل أفعاله.

وقد سمعت منه رحمه الله تفسيراً فريداً للآية الكريمة:﴿لا يكلّفُ اللهُ نفساً إلا وُسعَها﴾

إذ كان يقول: إن الله تعالى؛ لم يكلفنا إلا ما هو في وُسعنا، ولا يقبل منا أقلّ من ذلك الوُسع، بخلاف من يفهم هذه الآية إلى الاستسهال والأخذ بالرخص.

كان يقرأ القرآن بكلّ خشوعٍ، حتى إنك تحسّ أن روحه تندمج بما يقرأ، وخاصة عند آيات الرحمةِ، وآيات العذاب، وآيات الجهاد والقتال!

كيف لا! والتزامه بالجهادِ نسيجُ وحده، ينام ويصحو مع الجهاد، وأفكار الجهاد؛ إذ لم تعد لغير تلك الفكرةِ في نفسه أيُّ متّسع، فهو يقوم بالجهاد باللسان والمال والنفس.

وقد كانت خطبه جريئةً، إلى حدٍّ أنّ كثيرين كانوا يخشون حضور دروسه التي كان يلقيها، من شدة صراحته، وجرأته في مهاجمة أعداء الله!

وكان أحياناً ينادي المخبرين الموجودين في دروسه بأسمائهم، حتى بات المعروفون منهم يخشون حضور دروسه.

«كان كثيرَ الحفظ والرواية لأحداث الإخوان في مصر، حيث إننا تعلمنا منه الكثير الذي قرأناه فيما بعد في كتبٍ، مثل: (الإخوان المسلمون: أيام صنعت التاريخ) لمحمود عبدالحليم.

ومنه رحمه الله عرفنا عن المرشد حسن الهضيبيّ، وعن الشيخ حسن الباقوري، كيف نكص على عقبيه، وانضمّ إلى عبدالناصر، ومنه عرفنا عن فتنة عبدالرحمن السنديّ الذي كان رئيس الجهاز الخاصّ، كيف أغراه عبدالناصر، وكيف اعتصم بالمركز العام للإخوان في القاهرة، وحاول إجبار المرشد العام حسن الهضيبيّ على الاستقالة.

وقد حدّثنا عن أحداثٍ كثيرةٍ، عن تعذيب الإخوان في السجون.

وبمناسبة ذكر المرشد الهضيبيّ رحمه الله؛ فقد قال لنا الشهيد مروان: عندما زار المرشد العامّ سوريا، في أثناء الفتنة على الإخوان في مصر، وأقام له الإخوان حفلَ استقبالٍ في حمص؛ كان الشهيد مروان شاباً صغيراً، فسافر الشهيد مروان ومعه بعض الشباب إلى حمص سيراً على الأقدام؛ لعدم توفّر المال اللازم للسفرِ مع طلّابٍ شباب!

تواصله وانفتاحه مع مجتمعه:

كان رحمه الله متفتّحاً، ومنفتحاً اجتماعياً، غير متزمّت، يتواصل مع الناس، حتى وإن كانوا غير ملتزمين، فكم قام بزياراتٍ للمضافات الشعبية في بعض أحياء حماة؛ للقاء أهل المدينة، وحضّهم على الالتزام بالإسلام، والدفاع عنه.

كما كان مجلسه ربما جَمَعَ بعض الشباب والرجال العاديين، من «الفتوّات» و«القبضايات» الذين كانوا يحبونه، وكان هو يأمل هدايتهم والتزامهم، كما كان يسعى في إعدادهم ليوم كريهةٍ في وجه أعداء الإسلام، وقد هدى الله على يديه كثيراً من أولئك «الزُكُرتيّة».

وقد كان بعض ضيّقي الأفق يلومونه على علاقته بهؤلاء، تلك العلاقة التي كانت تبدو طبيعية وعادية، حيث إنهم يمزحون ويلعبون بحضرته، فكان يبادلهم المزاح والنكات.

ولكنّ هؤلاء الشباب كانوا هم الرجال الذين دوّخوا النظام، في حين هرب المتزمّتون العقلاءُ، أصحابُ الحكمة!

ولا أعلم أحداً تمثّلت فيه الآية القرآنية الكريمة بشقّيها كليهما ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة : ٥٤] وبشكل قلّ مثيله، مثلما تمثّلت بالشهيد مروان.

والآية الكريمة أيضاً: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩].

فقد ترى بعضَ الناس أشدّاءَ في كلّ أحوالهم، أو ليّنين في كلّ أحوالهم، ويندر ذلك التزاوج بين الشدة على الباطل، والرحمة على أهل الحقّ!

محاولته السعي في طلب الرزق:

حاول رحمه الله أن يعمل لكسب الرزق، كما يفعل غيره، وفضّل العملَ الحرّ؛ لأنه لا يستطيع الارتباطَ بالوظيفة.

ومما أعلم أنه استأجر مزرعةً، وحاول تربية الحيوانات، وحاول افتتاح محلٍّ لبيع الخضار في «الحاضر» ولكنه خُلق لغير هذا! فقد هيّأه الله داعيةً مجاهداً، ولا يعيبه أنه لم يكن من أهل الدنيا، ولا حاول جمعَ حطامها.

ثورة حماة عام (١٩٦٤م) وأحداث جامع السلطان:

لأجل الحديث عن أحداث جامع السلطان، وثورة حماة عام (١٩٦٤م) لا بدّ من الحديث عن انقلاب (٨) آذار البعثيّ، عام (١٩٦٣م) الذي حصل في سوريا، وحمل ما يسمى بحزب البعث العربي الاشتراكي إلى الحكم، وسيطرة ما يسمى تآلف «عدس» (علوي- درزي- إسماعيلي) وحقد الطائفيين على مدينة حماة؛ منذ زمن بعيد.

وأسباب هذا الحقد متعددة:

فهو حقد طائفيّ دينيّ، حيث يُحيط بمدينة حماة قرى نصيرية، في الغرب، وقرىً إسماعيلية «آغا خانية» تتركز في مدينة «السلمية» شرقاً بوجهٍ خاص.

كما كان الدروز يحقدون على حماة، بسبب ما يزعمونه من قيام أديب الشيشكلي والعقيد فؤاد الأسود، عام (١٩٥٢- ١٩٥٤م) بضرب جبل الدروز أثناء حكم الشيشكلي.

وقد كان الشيخ مُحَمّد الحامد يردّد وقتذاك: إنّ حقد ألف سنة يحرّك الطائفة النصيرية ضدّ الإسلام والمسلمين.

وهناك حقد اجتماعيّ أيضاً، إذ إنّ معظمَ إقطاعيي المناطق الزراعية في قرى النصيرية؛ هم من أبناء حماة، ومن عوائلها، مثل: (العظم، البرازي، البارودي، طيفور، العاشق) وسواهم.

وقد كانت تنشأ بينهم خلافاتٌ كثيرة حول المحصول، وسواه.

كما أنّ بعض أهل حماة؛ كانوا يستخدمون بنات جبل النصيرية في بيوتهم.

ويذكر الكثيرون أثناء فترة الحصاد، عندما كان ينْزل أبناء الريف النصيري إلى المدينة ويريدون العمل «حواصيد» وربما كانوا ينامون في الشوارع، ويعانون من استهتار أبناء المدينة بهم!

يضاف إلى العاملين الاجتماعي والطائفيّ؛ العاملُ السياسيّ نتيجةً للعاملين السابقين؛ حيث إن الدولة العثمانية؛ كانت تُقطع بعضَ ضباطها الأراضي، في مقابل مواجهةِ الحركات النصيرية المتمرّدة.

ثم جاءت حركة أكرم الحوراني، ومعه «حزبُ الشباب» ثم «الحزب الاشتراكي» ثم تحوّل إلى «حزب البعث العربي الاشتراكي» وحاولت استقطاب الفلاحين المقهورين وشحَنَتْهم بالحقد على الإقطاعيين، ذلك الحقد الذي انسحب على أهلِ مدينة حماة كلّهِم.

بعد قيام انقلاب (٨) آذار، وانفلات الطائفية من عقالها، وتلبّسها لباس «العلمانية» وإعلانها أنها ضدّ الرجعية والدّين؛ ظهرت على السطح شعارات باطنية خطيرة، تتحدى مشاعر الأمة المسلمة.

وقد سمعت من الشهيد مروان أنهم في الجزيرة السورية «القامشلي، والحسكة» ردد بعض أدعياء القومية العربية وشوفينيّتها في بعض مظاهراتهم:

يلعن يومك يا حطّين .... والخائن صلاح الدين

وهناك أشرطة مسجّلة تثبت ذلك طبعاً؛ باعتبار أنّ صلاح الدين كان كرديّاً.

كما ردد بعض الجنود، وهم يجوبون بسياراتهم شوارع مدينة حماة:

مال المشمش على التفاح... دين مُحَمّد ولّى وراح

أما وسائل الإعلام الرسمية، ومكبّراتُ الصوت في احتفالات البعث؛ فكانت تصدح بأشعارٍ، من مثل:

آمنتُ بالله ربّاً، لا شريكَ له... وبالعروبة ديناً، ماله ثانٍ

وكان الشهيد مروان يقول في دروسه في المساجد: إنّ البعثيين لا يقبلون حتى بالله شريكاً لبعثهم!

كما أنّ مجلة «جيش الشعب» نشرت بقلم المدعو «إبراهيم خلاص» ما معناه:

«إنّ الله والرسل والأديان؛ ليست سوى دمىً محنّطة؛ يجب أن توضع في متاحف التاريخ!».

هذا هو الجوّ العامّ الذي كان سائداً في سوريا بشكلٍ عامّ، وفي حماة بشكلٍ خاصّ.

أما ما يمكن أن نسميه الأسباب المباشرة لأحداث حماة؛ فهو قيام السلطة بنقل الأخوين الأستاذين الشيخ نافع العلواني، والشيخ بشير الشقفة؛ نقلاً تعسّفيّاً، خارجَ محافظة حماة.

كما تمّ سجن طالب صغير، يدعى «نزار عرواني» لأنه كان قد كتب على أحد الجدران الآية الكريمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

أمام هذه التطوّرات؛ اتّخذ الإخوان قراراً بإضراب المدارس في مدينة حماة؛ احتجاجاً على السجن والنقل المذكورين، لكن قائد شرطة حماة العقيد شكري العنبريّ، وكان حينها «محافظَ حماة بالوكالة» وليس هو بعثيّاً؛ قام بمحاولةٍ للتخفيف من الضغط والتوتّر، فقام بإجراء حوار مع الإخوان، وزار الشيخ نافعاً العلوانيَّ في بيته، فأجّل الإخوان الإضراب.

ومن الطرائف أنّ العقيد العنبريّ نفسه؛ كان إذا التقى ببعض تجمّعات الطلاب؛ يقول لهم: إنّ الإضراب قد تأجّل!

أرسلت السلطةُ بعد ذلك عبدَالحليم خدّام محافظاً للمدينة، وطلب طلاب الإخوان لقاءَ المحافظِ، وتمّ اللقاء بين مسؤولي المدارس من الإخوان، مع عبدالحليم خدام، في مبنى البلدية، لكن اللقاء لم يؤدّ إلى إلغاء النقل، أو الإفراج عن الطالب.

وقرّر الإخوان حينئذٍ الإضرابَ من جديدٍ؛ يومَ السبت الواقع في (١٢/٤/١٩٦٤م) على حسب ما أذكر.

وكان مسئول الطلاب في حينها؛ هو الشهيد مروان حديد نفسه، حيث اجتمع بمسئولي المدارس في جامع السلطان يومَ الجمعة عصراً، وكانت التعليمات أن يتمّ الإضراب داخل المدارس، وعدم الخروج منها، حتى لا يصطدم الطلاب بالشرطة وقوات الأمن.

وطلب الشهيد مروان من الأخ مصطفى العبيسيّ الحضورَ صباح يوم السبت إلى ثانوية ابن رشدٍ؛ لظنّه أن الاشتراكيين، وهم موجودون فيها بكثرةٍ؛ سوف يعارضون الإضراب على العكس من ثانوية عثمان الحوراني، في منطقة الحاضر؛ فقد كان الإخوان فيها مسيطرين، وبالفعل فقد تمّ الإضرابُ في جميع مدارس حماة، بيُسرٍ وسهولة.

غير أن طلاب ثانوية عثمان الحوراني، وعلى رأسهم الأخ عبدالرحيم شومل، رحمه الله؛ نزلوا إلى الشوارعِ، وأسواق الحاضر، وحاولوا إغلاق المتاجر، فتأزّم الوضعُ، وحصل إطلاقٌ للنار، فاستشهد شابٌّ من آل «جوّاد» وتأزّم الجوّ في المدينة كلّها.

ثم علمنا أنّ الشهيد مروان؛ قد اعتصم في جامع «السلطان» هو وعددٌ يسيرٌ من الشباب، لكنّ العددَ بدأ يزداد في اليوم التالي.

وانتشر الخبرُ على مستوى المدينة، واستجاب الأهلون، وصار أهل الأحياء، والعوائل يتبارون في إمداد المعتصمين بالطعام والشراب.

وتصاعد الموقف، وأضربت المدينة كلّها، وصار الشهيد مروان يلقي الخطب الحماسية بعد كلّ صلاةً، مع نشرة الأخبار، على حسب وصفه.

وصار جامع «السلطان» مكان تجمّع مئات، بل آلاف الناس.

وازداد الإضراب رسوخاً، عندما جاء الشيخ عبدالحميد طهماز، وألقى خطاباً حماسيّاً شديداً، مساءَ يوم الثلاثاء.

وسمعت أنّ أعضاء لجان أحياء المدينة اجتمعوا بالشيخ سعيد حَوّى، والسيد عثمان الأمين، رحمهما الله، وغيرِهِم، في مسجد الشيخ زين بالحاضر، وقرّروا تنظيم الاعتصام والتحرّكَ بشكلٍ عامّ.

غير أنه في صباح يوم الأربعاء (١٦/٤/١٩٦٤م) قام بعض الناس بمحاولة قطع طريق (دمشق- حلب) وعلى إثر ذلك؛ قام الجيش وقوّات الأمن بمهاجمة جامع السلطان وقصفته بالمدفعية، وتمّ هدمُ مئذنته.

وقاوم بعض الشباب المتواجدين في المسجد، والمسلحين بأسلحة خفيفة، لا تتجاوز المسدسات الفردية في الغالب، واستشهد أربعةٌ من شباب الإخوان المقاومين في المسجد، وهم: (عبدالله المصري، ومنقذ صيّادي، ومحمود نَعيم، وتوفيق مدني) عليهم رحمة الله.

كما تمّ اعتقال عددٍ من الشباب والأهالي، ولما اعتقل الشهيد مروان؛ انهال عليه الجنود بالضرب والركل، والضرب بأعقاب البنادق، ثمّ تمّ نقله إلى دار الحكومة (السرايا).

وهناك قابله رئيس الجمهورية آنذاك «أمين الحافظ» وبدأ يشتم مروان بأقذع وأقبح الشتائم والسباب، فأجابه الشهيد مروان: «ولاك أمين خلّ خصومتك شريفة، أحسن لك».

فثارت ثائرة أمين الحافظ، وقال لهم: أخرجوه! وكانت النيّة إعدامَه بعد محاكمة صوريّة.

ولعلّ تدخّل وجوهِ وأعيان أهل حماة، وعلى رأسهم الشيخ مُحَمّد الحامد رحمه الله؛ حال دون ذلك.

وقد روى لنا الشهيد مروان رحمه الله أنه كان في «نظارة السرايا» عندما دخل عليه العميد «عزّة جديد» وشتمه، فقام الشهيد مروان بضربه على وجهه بكلتا يديه، وهما مكبّلتان.

ثمّ نُقل المساجين إلى السجن «البولوني» في حمص، ومنها نُقلوا إلى سجن «تدمر» الصحراويّ.

وتمّت المحاكمة الصورية في مدينة حمص، وكانت علنيّةً، فقال له رئيس المحكمة مصطفى طلاس: أنتم مأجورون، وقد قبضتم!

فقال له مروان: نحن لم نقبض، بل الذي قبض هو رئيسكم «ميشيل عفلق».

فقال طلاس: صحيح!

«هذا ما أحفظه من رواية الشهيد مروان، لأنني لم أحضر تلك المحاكمة بنفسي».

وتمّ الحكم على الشهيد مروان وبعضِ إخوانه بالإعدام، وعلى بعضهم الآخر بالسجن مُدَداً متفاوتة.

وكان شباب الإخوان المسجونون؛ قد اتّفقوا على أن يتظاهر الآخرون الذين لم يُحكموا بالإعدام بالحُزن؛ لأنّ الشهادة قد فاتتهم.

أوّل معرفتي بالشهيد مروان:

في عام (١٩٦٢م) ولم أكن وقتها ملتزماً مع جماعة الإخوان المسلمين، وقبل أن يتزّيا الشهيد مروان بزيّه الأبيض المعروف «عمامة بيضاء، وفوقها حطاطة بيضاء، ويلبس دشداشة بيضاء، وفوقها عباءة بيضاء» إذ كان قبل ذلك يرتدي بنطلوناً مع بانطو طويل ويضع على رأسه باكستانية.

أقول: رأيت الشهيد مروان يراجع مراكز الانتخابات، عام (١٩٦٢م) التي شارك فيها الإخوان بقائمة واحدة، مع بعض «الشخصيات المستقلة، والشخصيات الإقطاعية والنصارى» وكان عن النصارى نائب واحد فقط هو «أديب نصور» في مواجهة قائمة أكرم الحوراني الاشتراكية.

نجحت القائمة المؤتلفة «إخوان مسلمون– مستقلون– إقطاعيون» كاملةً في داخل مدينة حماة.

بينما نجحت القائمة الاشتراكية بزعامة «أكرم الحوراني» كاملةً أيضاً في ريف حماة، فلما ضُمّت أصوات الريف إلى أصوات المدينة؛ فازت القائمة الاشتراكية كاملةً على مستوى محافظة حماة «مدينتها وريفها» ولم ينجح من القائمة المؤتلفةِ، إلا عددٌ محدودٌ.

فغضب أهل مدينة حماة، وقامت مظاهراتٌ عارمةٌ، اشترك فيها النساء والرجال، لأوّل مرّةٍ في تاريخ المدينة، وطالبوا بفصل أصوات الريفِ، عن أصوات المدينة انتخابيّاً وكان الشهيد مروان على رأس تلك المظاهرات.

ولولا لطف الله في ذلك اليوم؛ لوقعت كارثة دُمّرت فيها المدينة، واستحرّ فيها القتل بين الأهل والجيران، ولكنّ الله سلّم!

ومن هنا نستفيد أن الشهيد مروان والإخوان؛ كانوا يؤمنون بالعمل السياسيّ، ويشاركون فيه، إذا أُتيحت لهم أسبابه.

غير أنّ قيام انقلاب البعث في (٨) آذار، عام (١٩٦٣م) واستئثارَهم بالسلطة، مع ما رافق ذلك من تجاوزات الحرس القومي، وإساءتهم للدين؛ جعل الشهيد مروان يفكّر بأن لا مجال للدفاع عن الإسلام إلا بالقوّة.

وبالفعل بدأ بُعَيد (٨) آذار يشجع الشباب على التدريب، وإتقان استخدام السلاح والتهيؤ ليوم الدفاع عن الإسلام.

في عام (١٩٦٨م) وبعد هزيمة حزيران (١٩٦٧م) انتشر العمل الفدائيّ، وبدأت منظمات العمل الفدائيّ باستقطاب الشباب الفلسطيني والعربيّ بشكلٍ عامّ.

وكان في مدينة حماة أستاذ فلسطيني، اسمه «مُحَمّد سعيد طروية» ويلقّب «أبو السعيد» وكان هو المسؤول عن حركة «فتح» في مدينة حماة، وكان ينشط لربط العمل الفدائيّ بفعاليّات حماة الشعبية، ومن رؤوس هذه الفعاليات الشهيد مروان حديد، والشيخ عبدالله الصبّاغ خطيب جامع الشيخ علوان، والدكتور مُحَمّد علي المصري.

وحيث إنّ هاجس الشهيد مروان الأوّل، وشغله الشاغل؛ هو تعليم شباب الإخوان فنون القتال، وتدريبهم على حمل السلاح، وتأمينه؛ فكان لا يترك باباً يستطيع تأمين هذه الأهداف عن طريقه إلا ولجه.

وفي ذلك العام نفسه (١٩٦٨م) طلب الأستاذ مُحَمّد سعيد طروية من الشهيد مروان أن يقوم بزيارة إلى الأردن، للقاء ياسر عرفات، وزيارة قواعد الفدائيين، برفقة الشيخ عبدالله الصبّاغ، والدكتور مُحَمّد علي المصري، فاعتذر الشهيد مروان، وأرسلني بديلاً عنه.

وبالفعل؛ فقد زرنا الأردنّ، وبقينا فيها ثلاثةَ أيّام، ونمنا في قواعد الفدائيين، والتقينا بالسيّد ياسر عرفات في بيتٍ قديمٍ في مدينة «السلط» وكان في هذا البيت «مركز الرصد الثوريّ».

وفي هذا العام أيضاً؛ قام الشهيد مروان، وأنا معه، بزيارةٍ إلى معسكرات ضاحية «الهامة» من ضواحي دمشق، والتقينا بالمدعو «أبو علي إياد» وكان هو المسؤول عن تلك المعسكرات، وعن تأديب المذنَبيّن والمساجين في حركة «فتح».

وكان شديدَ المراس، غليظَ الملامح والكلام، مصاباً في رجليه وعينه، وكان دائماً يحمل عصاً غليظةً يضرب بها المذنَبيّن، وهو في مقعده!

ودار حديثٌ بين الشهيد مروان وأبي عليّ هذا؛ فقال أبو عليّ للشيخ: إن الإخوان المسلمين جبناء، قضى عليهم عبدالناصر، ولم يفعلوا شيئاً!

فأجابه الشهيد مروان: لا يغرّنّكم ما أنتم عليه الآن، حيث إن للأنظمة مصالحَ ومآرب وغاياتٍ، في وجودكم ورعايتكم.

ولكن عندما تجتمع الأنظمة على ضربكم؛ فسوف نرى ما تفعلون.

«وقُتل أبو علي هذا في أحراش جرش، في أثناء أحداث أيلول، عام (١٩٧٠) في الأردنّ».

في بداية العام (١٩٦٩م) اتّخذ المكتب التنفيذي العام للإخوان المسلمين «وهو يمثّل المراقبين العامّين في الدول العربية» اتّخذ قراراً بالمشاركة في العمل الفدائيّ، بالتعاون مع منظمة «فتح» وتمّ افتتاح معسكر التدريب في قرية «العالوك» شمال مدينة عمّان في الأردنّ.

وكان مِمّن انتُدب للتدريب فيه الأخ مصطفى عبيسيّ «أبو نجيب» في ذلك الوقت، ثم «أبو غانم» وهو عسكريٌّ من مدينة حماة، وتمّت مراسلاتٌ بينه وبين الشهيد مروان، أطلعه فيها على ذلك الأمر.

غير أنّ قيادة الإخوان في داخل سوريا؛ لم تستجب لذلك القرار؛ بسبب الدواعي الأمنية، على الرغم من أنّ المراقب العام للإخوان في ذلك الوقت، الأستاذ «عصام العطّار» كان متحمّساً لذلك القرار، وموافقاً عليه، ولقد رأيته بنفسي فيما بعد، وأكّد لنا ذلك.

بعد امتحانات الجامعة السورية، في حزيران، عام (١٩٦٩م) أرسل الشهيد مروان إلى الأردن أربعةً من إخوان حماة، وهم «رشيد العيسى، وعبدالستار الزعيم، وغالب الكيلاني، وحمدي المدنيّ» وكان معم الأخ «فريد قدّاح» وهو من بانياس الساحل.

وحمّلهم الشهيد مروان رسالةً إلى الأخ «عبدالعزيز العلي» المصري، المعروف «أبو أسامة» وكان هو مسؤولَ المعسكر.

وفي مدينة «عمّان» صرنا نتنقّل من عند المراقب العام «مُحَمّد عبدالرحمن خليفة» إلى بعض قيادات الإخوان، مثل «إبراهيم زيد الكيلاني» ونطلب منهم قَبولنا في معسكر التدريب، وهم مترددون؛ لكوننا تجاوزنا الأعراف التنظيمية.

وأذكر أن الأخ المراقب العام «مُحَمّد عبدالرحمن خليفة» تهجّم بشدّة على قيادة إخوان سورية.

وبعد يومين، أو ثلاثة أيّام؛ تمّ قَبولنا، وانتقلنا إلى معسكر الإخوان في «العالوك»

وكان الأخ مصطفى عبيسيّ قد ترك المعسكر؛ لخلافه مع الأخ «أبو أسامة».

ووجدنا هناك المجموعة الأولى من الإخوان المتدرّبين، منهم: (عبدالله عزام رحمه الله، وأحمد نوفل، وإبراهيم المشوخيّ، وذيب أنيس، ومُحَمّد عويضة) وجميعهم من الأردن، ومعهم الأخ «عمر علي المير أبو مصعب» من إخوان السلميّة في محافظة حماة، وكان مقيماً في الكويت.

ثم غادر ذلك الفوج بعد أيّام قليلة إلى القواعد المتقدمة في قرى مدينة «إربد» وكنا نحن في قرية «الرفيد» وكان فيها قاعِدَّة «غزّة».

ومما شاهدته في تلك الرحلة؛ أنّ الإخوان كانوا يشرفون على المعسكر بشكلٍ كاملٍ من قيادته، إلى المدربين، إلى الإمداد بالتموين والسلاح.

وقد تدرّبت فيه أعدادٌ كبيرةٌ من إخوان الأردن، كانوا يتدربون لمِدَدٍ قليلةٍ، ثم يعودون إلى أعمالهم ووظائفهم ودراساتهم.

ومن أراد التطوّع والتفرّغ بشكلٍ كامل؛ يلتحق بعد فترة التدريب بالقواعد التي أصبحت فيما بعد ثلاث قواعد، تشكّل وحدةً كاملةً تابعةً اسميّاً لمنظمة «فتح» ولكنها إخوانية صرفة!

ويجب أن أذكر هنا أنّ إشراف «فتح» على معسكر التدريب؛ كان شكلياً؛ إذ كان يحضر ملازم، اسمه أبو «وديع» كلّ يومين، أو ثلاثة أيّامٍ إلى المعسكر، كان يجلس قليلاً، ثم ينصرف، من دون أن يطّلع على أسماء المتدرّبين، أو عددهم.

ماذا حصل في صفوف الإخوان في سورية:

التحق كثيرٌ من شباب الإخوان من دمشق وحمص وحماة وحلب والساحل في «معسكر التدريب» بالتعاون مع الشهيد مروان، وكان ذلك خارجَ إطار التنظيم الإخوانيّ الذي كانت قيادته تحاول وقف ذلك الالتحاق بشتى الوسائل.

كما تمّ فصل عددٍ من الشباب الذين ذهبوا إلى المعسكر من صفوف الإخوان، كما حصل في دمشق، وكان القائمون على التنظيم يحتجّون بالخلل الأمنيّ الموجود في المعسكر!

لذا يجب أن نفنّد ذلك الادّعاء؛ بالحديث عن الكيفيّة التي يذهب بها الشباب إلى الأردنّ، كما ذهب الشهيد مروان نفسه، من دون علم السلطة السورية على الحدود.

إذ كانت تتمّ الإجراءات على الشكل التالي:

كنا نحصل على أوراق إجازة خاصة بالكفاح المسلح، من مكتب «فتح» بدمشق بأسماء مستعارة، مثل: «أبو زيد» و«أبو عمر».

وعند الحدود مع الأردنّ؛ لا نمرّ من المكان المخصص للمسافرين العاديين، وإنما نمرّ على نقطة الكفاح المسلّح التي حصلنا إجازة المرور عليها من مكتب «فتح» بدمشق، وكنت أنا المفوّض بالذهاب إلى ذلك المكتب، واستلام الأوراق المطلوبة، وكان توقيعي معتمداً عندهم.

وكم سافرَتْ إلى المعسكر سيّارات «جيب» مغلقة، مليئة بالأشخاص، وسواهم من دون أن تمرّ إلا على مركز «الكفاح المسلّح» الفلسطينيّ.

واستمرّ التحاق الشباب بالمعسكر للتدرّب فيه، حتى أيلول، عام (١٩٧٠) حيث وقعت الأحداث المؤسفة بين العمل الفدائيّ، والسلطة والجيش الأردنيّ، ورفض الإخوان المسلمون المشاركة في هذه الأحداث، وآثروا الانسحاب.

ووصل عددٌ منهم، في حدود عشرة أشخاص، إلى دمشق، بكامل أسلحتهم وعتادهم ولباسهم الفدائيّ، وقد استلمها منهم الشهيد مروان، وبعض إخوانه.

وقد تغيّر مكان المعسكر من «العالوك» إلى «الأزرق» إلى «إربد» كما تغيّر المدرّبون أيضاً.

وفي تلك الفترة من التدريب، استشهد عددٌ من الإخوة الحمويين:

فاستشهد الأخ مهدي الإدلبيّ رحمه الله، في عمليّة فدائية، أطلق عليها (٥) حزيران، عام (١٩٧٠) وقد نُفّذت العملية في رابعة النهار.

واستشهد أيضاً الأخ زهير سعدو رحمه الله في عمليّة أُطلق عليها «سيد قطب» ومن الموافقات العجيبة أنها وقعت في اليوم الذي استشهد فيه سيّد قطب نفسه (٢٩) آب (١٩٧٠).

ونُقل جثمان الشهيد زهير سعدو إلى حماة، وكان برفقته الشيخ الشهيد عبدالله عزام رحمه الله، ونزل في ضيافة الشهيد مروان حديد.

وقد ذكر ذلك الشهيد عبدالله عزام في كتابه المسمى (حماس.. الجذور التاريخية والميثاق).

كما استشهد أيضاً، شقيقي نصر العيسى، رحمه الله، في أثناء التدريب في المعسكر.

وأُقيم له وللأخ مهدي الإدلبي حفلة تأبين ضخمة في مخيّم الفلسطينيين في «حماة».

اعتقالات الشهيد مروان رحمه الله تعالى:

الاعتقال الأوّل:

كان الاعتقال الأول فيما أعلم، في عام (١٩٦٣م) حيث كان الشهيد مروان يخطب في جامع «البحصة» في الحيّ الشرقيّ، من منطقة الحاضر، بعد استلام حزب البعث للسلطة، وكان جريئاً جداً، يهاجم تجاوزات السلطة على الدين.

وقد ذكرتُ سابقاً أنّ مما كان يقوله: إنّ البعثيين لا يقبلون بالله سبحانه وتعالى شريكاً لبعثهم! وإنّ البعثيين إذا جاءهم الملكان في القبر؛ أجابوا: «البعث ربي، وعفلق نَبيّي!» فتمّ اعتقاله بعد هذه التصريحات.

وفي أثناء اعتقاله؛ تدخّل بعض الوسطاء، ومنهم أخوه «أحمد حديد» وهو من قيادات الاشتراكيين، فاجتمع هو والمحافظ «وكالةً» العقيد شكري العنبريّ، مع الشهيد مروان، وكان الشهيد مروان لم يتخرّج بعد من الجامعة، فقال له العنبريّ: أنت ما زلت طالباً، فدع هذا للكبار، مثل الأستاذ عصام العطار، وسواه!

فأجابه مروان: ﴿لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء : ٨٤].

وعندها انسحب أخوه «أحمد حديد» من الجلسة؛ لما رأى من صلابة مروان، وأُسقط في يده.. ولكن بعد أيّام أُفرج عن الشهيد مروان.

الاعتقال الثاني:

كان في أثناء أحداث جامع «السلطان» وقد مرّ ذكر ذلك، واستمرّ اعتقاله من (١٦/٤/١٩٦٤م) حتى أوائل حزيران، من العام نفسه.

الاعتقال الثالث:

في عام (١٩٦٦م) اعتُقل الشهيد مروان في مسجده المجاور لبيته، وفي اليوم نفسه تمّ اغتيالُ السيّد عثمان الأمين، عند فجر يوم السبت (١٦) تموز وذلك عندما هاجمه رجال السلطة في مَنْزله، وتبادل معهم إطلاقَ النار، فقُتل، رحمه الله تعالى.

وأعلنت الصحف الرسمية في اليوم التالي أنه تمّ قتلُ مهرّبٍ كبيرٍ.

ومما أذكره عن ذلك الاعتقال أنه حضر رئيس الشرطة العسكرية في المنطقة الوسطى إلى حيث سُجن مروان في حمص، ودار نقاش بينهما، ولما يئس رئيس الشرطة؛ قال للشيخ مروان: لا فائدة منكم! إما نحن، وإما أنتم!

فأجابه الشهيد مروان: نحن إلى الجنة، وأنتم إلى النار.

وفي أثناء ذلك النقاش؛ قال له الشهيد مروان: نحن على استعدادٍ أن نعفو عنكم، إذا قاتلتم إسرائيل بصدقٍ وإخلاص!

وفي تلك الفترة؛ تمّ اعتقال قيادات الإخوان، ومنهم: الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، رحمه الله، وبعضِ السياسيين، ومنهم: ناظم القدسي، ورشيد كيخيا.

وقد حدثنا مروان بعد خروجه؛ أن السياسيين الذين في السجن يعتقدون أنّ مصيرَ سوريا؛ سيكون مثلَ تركيّا، حيث يتسلّم السلطةَ العسكريةَ والسلطة الأمنيةَ أبناء الطائفة النصيرية، ويُترَك الشعبُ يلهو بمظاهر ديمقراطية.

ولم يخرج الشهيد مروان والسياسيون، إلا بعد هزيمة حزيران، عام (١٩٦٧م).

تلك الهزيمة التي قال عنها إعلام النظام: «نحن ربحنا المعركة! إذْ أرادت إسرائيل إزالة النظام، وها قد بقي النظام! فقد خسرت إسرائيل كلَّ شيءٍ، وربحنا كلَّ شيء!».

الاعتقال الرابع والأخير: ومعلوماتي عنه قليلة![١٢٧].

ولعلّ من لطف الله ومَنّه وكرمه أن هيّأ لمجموعة الشهيد مروان بعد اعتقاله الأخَ الشهيد الدكتور عبدالستار الزعيم، الذي كان قويَّ الإيمان، شديدَ المراس، كثيرَ الحساباتِ، دقيقَ التنظيم، استراتيجيّ التفكير، لم يخلفه في قيادة شباب الشهيد مروان من بعده أحدٌ مثله.

ثقته بالله وإكرام الله له:

كان الشهيد مروان رحمه الله؛ شديدَ التوكّل على الله، إلى درجة أنه كان يهمل الأخذ بالأسباب أحياناً!

ومن التأييد الربانيّ الذي حصل مع الشهيد مروان؛ أنه كان مسافراً من دمشق إلى حماة في سيارة أجرة، ومعه في السيّارة ركّابٌ آخرون، وحقيبة سفره مملوءةٌ بالأسلحة.

وعند مَدخل حماة؛ كانت هناك دوريّة أمنٍ تفتّش السيارات، فأنزلوا الركاب، وطلبوا من سائق السيارة أن يفتح مخزن السيارة الخلفي.

ورأى رجال الأمن حقيبة الشهيد مروان؛ فسأله أحدهم: «شيخي شو فيها؟» فأجابهم الشهيد مروان على الفور، وبعفوية: سلاح!

فظنّوه يَتهكّم بهم، فقالوا له: عفواً منك، وبدؤوا يعتذرون منه، ومرّت الأمور بسلامٍ، وتابع سفره حتى وصل إلى مَنْزله.

ولعَمري! لئن كان هذا مقبولاً في الحياة الشخصية الخاصة؛ فإنه غير مقبولٍ عند الإعدادِ لقتال العدوّ ومنازلته.

---

(١٢٧) علق الأستاذ حمدو حمشو على هذا الموضع بقوله: «اعتقل الشهيد مروان في نهايةِ شهر حزيران، عام (١٩٧٠) وأفرج عنه بعد شهر تقريباً» قال عداب: هذا صحيح، وقد سمعت باعتقاله، وأنا أجهّز نفسي للسفر إلى الأردن، فتابعت سفري.

ومنذ أن تعرّفت إليه رحمه الله تعالى؛ كنت أسمع منه وجوبَ انتصار المسلمين، وليس إعادةَ فلسطين فحسب، وإنما استرداد الأندلس، وها نحن ممن يقول ذلك، والحمد لله رب العالمين!

كتبه الدكتور رشيد العيسى في عمّان الأردنّ، صيف عام (٢٠٠٤ م)

(٩) **شهادة الشيخ طارق عدي:**

الأخ الفاضل الشيخ أبو عليٍّ طارق بن علي عديّ من شباب الإخوان، من قبل الستينات، فهو أكبر منا بعدد من السنين. وكان الشيخ طارق حبيباً للشهيد مروان، وقريباً من قبله، مثلما هو حبيبٌ إلى قلوبنا، وكان يعجبه فيه أدبُه وصمتُه.

وحين زارني في مكّة المكرمة؛ طلبت منه شهادةً تتضمن صلته بالشهيد مروان فكانت منه هذه الشهادة.

سألته عن نسب الشهيد مروان، وعن تاريخ ولادته، وعن حياته في مصر؛ فأجاب بأنه لا يعرف عن هذه الأمور شيئاً.

وسألته عن بداية التحاق الشهيد بجماعة الإخوان؛ فأجاب: لا أعرف بالتحديد، لكنه التحق بصفوفها في المرحلة الثانوية.

وقال: كان بَدءُ نشاطه بين الشباب في سورية عام (١٩٥٨م) على وجه التقريبِ، وقد اجتمع حوله بعضُ الشباب، وكان نشاطُه في جامع السلطان.

وفي الحقيقة كان ثمرةَ نشاطه هذه التركيبةُ الجديدة للإخوان المسلمين، وكانت حلقات القرآن «تلاوة، وتجويد، وتفسير» تستمر حتى بداية درس الشيخ زاكي الدندشيّ، إضافةً إلى درس الشيخ مُحَمّد الحامد الصباحي.

وكانت الحلقاتُ تنشِط في فترة الصيف، أثناء وجود الشهيد مروان في سورية.

وكان الشهيد أبرزَ الشخصيات الرائدة للإخوان المسلمين في الفترة ما بين حل جماعة الإخوان عام (٥٨) إلى حوادث (١٩٦٤) وفي هذه الفترة بالذات بدأ التزامه الإسلامي يشتدُّ، ويترسّخ.

وكان أنشطَ الشباب في التطبيق العمليّ للإسلام، إذ إنه لم يكن يولي اهتمامه للكلام والتوجيه النظري والمحاضرات؛ بقدر اهتمامه بالتطبيق والتنفيذ العملي للأفكار والمعتقدات والمبادئ، فكان يجسد السُنّة العملية على الحقيقة.

أبرز ملامح هذه الفترة:

تركيزه على التطبيق العملي لتعاليم الإسلام، والتزام الأخ المسلم بتجسيد الإسلام!

فكان الوحيدَ الذي يحرص على قيام الليل، وهو أول شخص طبّق سنةَ الاعتكاف في حماة، وفي بعض السنوات؛ كان هناك برنامجٌ كامل لكل ليلة من ليالي رمضان، يتلخص فيما يلي:

– صلاة التراويح: عشرون ركعة.

– درس بعد التراويح، إما أن يلقيه هو، أو يطلب من أحد الشباب ذلك، لمدة نصف ساعة.

– أناشيد إسلامية حماسية لتنشيط الناس بعد الصلاة.

– حلقة قرآن كريم تلاوة مع التجويد مع وقفات على أبرز الآيات فيها.

– صلاة التسابيح في بعض الليالي.

– النوم إلى ما قبل الفجر.

– صلاة التهجد.

– السحور المشترك في المسجد.

– صلاة الفجر جماعةً في المسجد.

ملاحظة: كان الشهيد مروان يُحرج الشيخَ الحامدَ كثيراً، ويريد منه الصدعَ بالحق، وإزالةَ المنكر، ويذكره بحديث: (ما غُلب اثنا عشر ألف من قلة)[١٢٨] الذي سمعه للمرة الأولى منه.

فيقول له الشيخ الحامد: لو كان لي مثلك اثنا عشر ألفاً؛ ما قعدتُ ها هنا في هذا المسجد[١٢٩].

وقد حَدَث نقاش بين الشيخ الحامد والشهيد مروان، وكان يتعلق بإنكارِ منكرٍ، وكان الشهيد مروان يريد فتوىً عامّةً علنيّةً من الشيخ في درس جامع السلطان المسائيّ!

فغضب الشيخ الحامد منه، وطلب منه عدمَ إحراجه في مثل هذه المواقف، كما طلب منه عدمَ حضورِ درسه، إذا كان سيضطره إلى مثل هذه الأمور؛ علماً بأن الشيخ الحامد كان أفتى بمثل هذه الأمور من قبل، لكنه لم يجد في تلك الفترة مصلحةً في إعلانها.

وسألته عن أهم من أثر في تكوين شخصيّة مروان الفكريّة؟ فقال: لا أدري!

وسألته عن رأيه في شخصية الشهيد مروان أبي خالد؟

فقال: لقد كان الإنسانَ الذي يحرص كل الحرص، ويعمل بكل ما أوتي من جُهدٍ وطاقة لكي يرى دولة الإسلام قائمةً، والأمةَ الإسلامية عزيزةً كريمة، ولقد كان يألم لما حَلّ بهذه الأمة

---

(١٢٨) طرفٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً؛ أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣٨) وابن حبان في صحيحه (٤٧١٧) والحاكم في المستدرك (١٦٢١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والخلاف فيه على الزهري من أربعة أوجهٍ» وأخرجه الترمذي في جامعه (١٥٥٥) وقال: حسن غريب، قال عداب: بل هو ضعيف!

(١٢٩) الصدع بالحقّ لا يحتاج إلى اثني عشر ألفاً، ولا إلى ألف! وهل كان عند رسول الله اثنا عشر ألف رجلٍ حين كان يدعو الناس في مكة المكرمة، بل هل كان في جيل الصحابة كلّهم مائةُ رجلٍ مثلَ الشهيد مروان؟

وكان الشهيد مروان يتشكك في صحة هذا الحديث، ويقول: في جميع حروب رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ لم يكن معه اثنا عشر ألفاً، فكم سننتظر نحن حتى نحصّل هذا العدد؟ ثمّ إن الشيخ مُحَمّد الحامد يعرف تماماً أنه لو استنفر أهل حماة من أجل الصدع بالحقّ؛ لنفر معه ألوفٌ من الشجعان، رحمه الله تعالى» الكلام لمروان.

من الضعف والهوان، ويريد أن يأخذ بيد شبابها إلى طريق الخلاص مما هي فيه، من دون أن يكون له من وراء ذلك أدنى كسب شخصيّ، أو وجاهي، أو زعامة، بل كان حريصاً على جمع كلمة المسلمين جميعاً بمختلف اتجاهاتهم.

وكان يعترف بفضل الكثير من الدعاة والعلماء المخلصين، ويضع نفسه موضع التلميذ بين أيديهم.

وكان يلزم خطَّ الجماعة، وينضبط بأوامرها، إلا أن هذا لم يكن يمنعه من القيام ببعض المبادراتِ الشخصية، إذا كان يجد في ذلك مصلحة وخيراً.

وقد قَوِيَ هذا الاتجاه عنده في الفترة التي ضعفَ فيها سلطان الجماعة، وتعددت قياداتها، في الوقت الذي كان حريصاً فيه على لم شملها، ولم يعرف عنه أنه وقف بجانب فريق ضد فريق آخر قطّ.

وسألته عن موقفه من الانفصال عن الأستاذ عصام العطار؟

فقال: لقد كان مروانُ يَستنكرُ ما حصل من انشقاقٍ في صف الجماعة، ورفضٍ لقيادةِ الأستاذ عصام، ولكنه كان يلقي مسؤولية ذلك وتبعته على من كان خلفه في قيادة العمل في دمشق.

وقد بقي مخلصاً له، ومعترفاً بقيادته حتى تم توحيد الجماعة، واستشهد على ذلك!

ومن دون أن يَبْدُر منه أيةُ إساءة إلى عصام طيلة حياته، ويؤيّد ذلك لقاءاته به في عمّان، إبان مشاركته في العمل الفدائيّ، على الرغم من معارضة مكتب دمشق لتلك اللقاءات، واستنكاره لذلك.

فكان مكتب دمشق يحذّر من الاتصال بمروان، بينما كان مروان يتصل بعصام، وكان على وفاقٍ وتفاهمٍ معه، وعلى هذا يمكننا القول بأن الشهيد لم يكن له أدنى مسؤولية في تفرق

صف الجماعة وانشقاقاتها، بل لم يعرف له نشاط في هذه الفترة، إلا ما كان في سبيل الإصلاح، ولمّ الشَعَث، وتقريبِ وجهات النظر.

وسألته عن ثقافة الشهيد مروان، فقال:

على المستوى الفكري الإسلاميّ؛ كان عنده اطلاع جيد على «الإنتاج الفكري» لسيد قطب، وفكر الشيخ «أبو الأعلى» المودودي رحمها الله، إلى جانب هضمه الجيد لرسائل الإمام الشهيد حسن البنا وكتبه، وربما كان يحفظ بعضها بنصه، ويستشهد بها في كثير من المواقف والمناقشات والدروس.

وسألته عن علاقة مروان ومالك بن نَبيّ الجزائريّ؛ فأجاب:

لقد التقى الشهيد مروان بالمفكر مالك بن نَبيّ لقاءاتٍ عديدة في مصر، كما التقى به في سورية، وقد كنت حاضراً لقاءين، أو أكثر في دمشق، بعد عودة مالك من الحج عام (١٩٧١م).

ومما كان واضحاً لدى الشهيد مروان أن منهج مالك مغاير لمنهج الإمام البنا، والشهيد سيد الذي يقوم على مبدأ «تربية الفرد» بينما كان مالك يرى أن عنصر القيادة هو العنصر الأهم في تغيير واقع الأمة، وكان يضرب لذلك مثالاً بالطفل الذي يجر مائة جمل، لا عقل لها.

وقد كان واضحاً لدى الشهيد مروان أن المفكر مالك قد تلقى فكره الإسلامي من غير منابعه الأصلية، وبغير لغة القرآن.. وقد كان متأثراً كثيراً بالحضارة الغربية، وبنظرة الغربيين للمسلمين، وخاصة المؤرخ «توينَبيّ».

ولا أدلّ على ذلك من أن مالكاً كان في مناقشاته يكثر من إيراد أقوال «توينْبيّ» وغيره، في حين أنه لا يستشهد بآيةٍ أو حديث شريفٍ، إلا لماماً.

كما كان الشهيد على خلافٍ مع «جودت سعيد» رغم حبّه واحترامه له، وكان خلافه معه في موضوع «الصراع الفكريّ» خاصةً، إذْ كان جودت سعيد يعتبر أن الصراع الفكري هو الذي يُبقي الأفضل، ويُسقط المنهزم فكرياً.

وسألته عن منهج أبي خالد في الفقه والتشريع؛ فأجاب:

كان مروان شافعيّ المذهب من حيث المبدأ، لكنه إذا ظهر له حديث صحيح على غير ما استقر في ذهنه من حكمٍ؛ ترك ما لديه، واتّبَع الحديث.

ولم يكن يحب الخوضَ في الخلافات الفقهية خاصة، ويترك كلاً لما تعلمه من مذهبه، وما تعلمه من أقوال الأئمة.

مثال ذلك: أنه حين يكون مسافراً؛ فإنه يقصر ويجمع مع من أحبّ، دون أن يعيب على من يريد أن يترك الجمع.

وسألته عن موقف مروان من الصوفية بصفة طارقٍ متصوفاً، فأجاب:

كان يعجبه من الصوفية أدبهم وتواضعهم مع بعضهم، وكثرة أذكارهم، وينكر عليهم ما يبدو من مظاهر الضعف والذلة والمسكنة، كما ينكر عليهم تنْزيهَهُم لمشايخهم عن الخطأ، وينكر حلقاتِ الذكر التي فيها تغييرٌ للفظ الجلالة، أو التثنّي، أو الرقصُ، والقفز!

في حين كان يستحسن الإنشادَ ويسمعه، سواءٌ في ذلك الأناشيد الإسلامية الحماسية أمْ الأناشيد «الصوفية» التي فيها ذكرُ رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، أو تحبيبٌ بخلقه، أو بلده، وكان يحضر مجلس الصلاة على النَبيّ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ.

وكان ينكرُ كلّ ما يوهِم وحدةَ الوجود، وأن الرسول أصل الكون ومصدره، ولولاه ما خلق الله الخلق، ونحو ذلك.

مع عدم ارتياحه لكلماتِ «سلمى» و«ليلى» و«لبنى» تكنيةً عن الكعبة المشرفة.

كما كان ينكر إنكاراً شديداً استعمال كلمات «الخمر» و«السكر» و«الأقداح» في مقام ذكر المحبة والشوق الإلهي.

وسألته: بماذا تفسر عدم التزام الشيخ مُحَمّد بالإخوان المسلمين؟ فأجاب:

إن الشيخ على معرفته بالإخوان المسلمين، وصلته القوية بمؤلفات وتاريخ مؤسسها رحمه الله تعالى، وتوضيحه لكثيرٍ من إخوانه مبادئَ هذه الجماعة، وسمو غاياتها، ودفعهم وحثهم على الارتباط بها؛ فإنه، والله أعلم، كان يجد أن بقاءَه خارج صفها التنظيميّ؛ يجعله أكثرَ قرباً من بقية الفئات والجماعات الإسلامية التي كانت تجد فيه قائداً للعمل الإسلاميّ، ورجلاً له مكانته العلمية والاجتماعية في مدينته خاصةً، وسوريّا عامة.

وقد أيد ذلك لديه؛ ما كان من خلافٍ بين هذه الجماعة الناشئة، وما هو موجود على الساحة من الجماعات الإسلاميةِ، وخاصة العلماء.

****

(١٠) شهادة الدكتور أكرم الريّس:

الأخ الفاضل الدكتور أكرم بن عبدالقادر الريّس؛ هو ابن شقيقة الشهيد مروان، ولظروفٍ أسريّة خاصة؛ فقد عاش في بيت جدّه لوالدته، الحاج خالد حديد، والد الشهيد مروان.

فكانَ أقربَنا نحن تلامذةَ الشهيد مروان إليه، وأعرفنا بحياته الشخصية والبيتية.

وقد التقيته في مكة المكرمة، عام (١٩٨٢م) كما أحسب! وأفادني بهذه المعلومات فقال:

ولد خالي الشهيد مروان عام (١٩٣٤م) ولا تلتفت إلى المكتوب في جواز السفر.

وتاريخ التزامه الحقيقيّ بحركة الإخوان المسلمين، بين عام (٥١-١٩٥٢م).

وعن فترة حياته المهمّة في مصر؛ فليس عندك أهمّ من شهادة الأخ سعدالدين الدسوقي، فلديه معظم تاريخ حياته هناك.

وسألته عن دخل الشهيد مروان المالي؟

أنت تعرف أن خالي حاول أن يعملَ في أعمالٍ كثيرة، منها الزراعة، وكنتَ أنتَ والأخ صفي عديّ شريكيه في بعض تلك المزارع.

وحاولَ أن يتاجرَ بزيت الزيتون، وبيع الفاكهة، وخاصةً البرتقال في الشتاء!

وكان يَخسَرُ في كلّ تجارة يقوم بها، كما تعلم أنت، وليس السببُ في خسارته؛ عدمَ اهتمامه، أو عدم حرصه، أو عدم معرفته، أو عدم توفيقه، وإنما لكرمه غير المعقول، وعطفه على المحرومين من الناس، والقصص في ذلك كثيرة جداً، وأنت تعرف الكثير منها.

لكنّ والده وإخوانَه، كانوا لا يبخلون عليه بشيءٍ، حتى ولو كلّفَهم حياتَهم.

وكان أكثرَهم حباً له؛ أخوه أحمد.

كان خالي مروان يدير مع إخوانه الرجال النقاشَ والحوار حول المبادئ الإسلامية والاشتراكية عِدَّة سنوات، كلّما التقى معهم؛ لأنهم يعيشون خارج البلد.

مع مراعاة آداب الرجال والأخوة، وكان يأمل هدايتهم.

ولما تزوجوا، وسئم من هدايتهم؛ صار يأتي للسلام عليهم حين قدومهم، ويأتي للسلام عليهم حين الوداع فقط.

أما مع والدِه؛ فكان في منتهى الأدب، وربما حاول جَدّي الحديثَ معه في بعض الأمور، فكان يحاوره خالي مروان مع الاحترام التام، وخفض الجناح!

وإذا أُحرجَ في شيءٍ؛ كان يترك البيتَ ويخرجَ، حتى لا يَجرحَ والدَه.

وكان يحب والدته ويحترمها جداً، ولم تكن تناقشه في شيءٍ من أعماله وتصرفاته أبداً.

وكان أولَّ اعتقالٍ لخالي مروان سنة (١٩٦٢م) بعد احتفال المولد النبوي في المسجد الشرقيّ، وكان رئيس الشعبة السياسية حينذاك أنيس خير بك[١٣٠].

أرسل إليه يستدعيه، فرفض الذهاب لمقابلته، كما هو شأنه دائماً، فأرسل إليه سيارة من رجال الأمن؛ فاعتقلوه.

وكان قد بقي خمسةَ أيام في غرفة «النظارة» وطلبوا منه التنازل عن الحديث في السياسة، ووسطوا لذلك أباه وأخاه عدنان، ولكنه رفض بشدة، ووجّه إليهم بعض الكلام، ثم شكلوا له محكمةً مدنيةً في «السرايا».

حين أرادوا إدخاله إلى قاعة المحكمة؛ طلب إحضار مصحف، ثم دخل إلى المحكمة وهو معه، ولما سألوه عن سبب هجومه على الدولة؛ قال: احكموا بهذا حتى أجيبَكُم، فبرؤوه!

وقد باشر نشاطه الدعويّ في بداية العام الدراسيّ (٦٣– ١٩٦٤م) وكان مسؤولاً عن ثانوية عثمان الحوراني في الحاضر.

وحدثني خالي مروان أنّ الشيخ مُحَمّد الحامد التقى جمال عبدالناصر حين زار حماة مع وفدٍ من علمائها ووجهائها، فقدّم الشيخ الحامد له نصائح، فتقبّلها عبدالناصر، وتبسّم لكلام الشيخ الحامد، وقال له: أنتم تُصدرون الأوامر، ونحن نُنَفّذ.

قال الشهيد مروان: وكان الشيخ مُحَمّد عاطفيّاً جدّاً، فأثنى على عبدالناصر كثيراً، ثمّ قنت، ودعا له!

فغضب الشهيد مروان لذلك غضباً شديداً، وارتفع صوته أمام شيخه الحامد، وقال له: هذا حرام، هذه سذاجة! هذا رجل مجرم غادر، أنسيت ما فعل بإخواننا في مصر؟

---

(١٣٠) علّق الدكتور رشيد العيسى هنا بقوله: «هذا خطأٌ، وقد وهم أكرم؛ إذ إنّ أول اعتقال كان في زمن البعث عام (١٩٦٣م)» وتقدم توضيح ذلك في الباب الثالث.

ثمّ تراجع الشيخ مُحَمّد الحامد بعد ذلك، وخاطبَ عبدالناصر على المنبر قائلاً: أنت أضللتَ الناسَ، ومزقتَ وحدَتهم، وقتلتَ العلماء...إلخ!

وكان استشهاده في (٢٢) رجب (١٣٩٦هـ) الموافق (١٩) تموز، سنة (١٩٧٦م) وقد أمطرت السماء يوم ذلك.

قال د. أكرم: هذا ما أردت قوله فقط من أجل إلحاحك، وإلا فلا أظنّ عندي شيئاً مُهمّاً من حياة الشهيد، وأنت لا تعرفه».

(١١) شهادة الأخ السيّد أمير زكيّة رحمه الله تعالى:

الأخ السيّد أمير بن السيد سليم زكية «أبو نعيم» الحَسنيّ.

يرجعُ نسبُ والده إلى الإمام مُحَمّد بن عبداللهِ بن حسنِ بن حسنِ بن عليٍّ الهاشميّ الملقّب «النفس الزكية».

والسيّد أمير من مواليد عام (١٩٤٩م) ومن شباب الإخوان القدماء، ومن إخواني وأصدقائي الأحباب، منذ الطفولة.

كان موظّفاً بوظيفة «محضّر مختبر» في مؤسسة مياه حماة، في حيّ المحطّة.

اعتُقل في شهر تموز، عقب اعتقال الشهيد مروان بأيّام (١٩٧٥م) وأخلي سبيله في (١٩٨٠/٣/٨م) عقب استشهاد «بسام أرناؤوط» شقيقِ زوجته «أمّ نعيم».

وكانت صلته بالشهيد مروان قديمةً وخاصّةً، وكان يرغب أن يلتقيه منفرداً به، أو في مجلسٍ ليس فيه صغار السنّ؛ ليَحسن الحوار مع الشهيد في الأمور التي لا يَحسنُ طرحها أمام الصغار، أو ليس من الخواصّ.

وعقب اعتذاري أنا عداب الحمش عن متابعةِ العمل الخاصّ مع الشهيد مروان حديد في بداية شهر تشرين الثاني، عام (١٩٧٤م) تقريباً؛ لأسبابٍ ذكرتها في الفصل الخاصّ بالطليعة المقاتلة؛ تسلّم زِمام أمور مجموعتي الخاصّة في حماة، والتي كانت تتكوّن من الأبطال الشهداء: «بدر ذكرى، وهشام جنباز، وبسام أرناؤط، ومأمون كاخي» والأخ الفاضل أحمد عبدالسلام مدلّلة، رفع الله مقامهم جميعاً لديه.

وتكمن أهميّة شهادة الأخ أمير؛ لتفرّدها في الحديث عن فترة سجنه خاصّة، إذ كان معه في سجن المزة، في الزنزانة (١١).

حدّثني السيد أمير على الهاتف قال: تنقسم زنزانات سجن المزة على أقسام:

- زنزانة خارجية: وهي زنزانة منفردة، مساحتها (١٢٠× ٢٠٠ سم) وارتفاعها (٥- ٦ م).

- زنزانة داخلية: وهي قسمان:

القسم الأول: زنزانات منفردة، مساحة الزنزانة (١٢٠× ١٨٠ سم) وارتفاعها (٢ م) وفي داخلها حمام، وتشمل الزنزانات (١- ٦) والسرير فيها يشبه القبر؛ لأنه مبني من الحجر، ونحن كنا نطلق عليها اسم القبر، ومع هذا؛ في تعدّ أفضل الزنزانات، لكنها مليئة بالحشرات كالصراصير، والقمل، والفسفوس، والجرابيع.

والقسم الثاني: زنزانات تتسع لنفرين، وفيّ كلٍ منها سريران حجريان أيضا، وأبعادها (٢.٥× ٢.٥) وفيها حمامها، وتشمل الزنزانات (٧- ١٢) لكنّ السلطة المجرمة كانت تَحشُر في كلّ زنزانة خمسةَ سجناء.

وفي الزنزانة (١١) كان السيد أمير، ومعه الإخوة: الشهيد وضّاح جُنيديّ وعبدالرحمن نوح، وشخصٌ حلبي اسمه جميل مستو، وآخر دمشقي اسمه عبدالرحمن حيدر، لكنه ليس شقيقاً لأخينا عادل حيدر، وليس من قرابته أيضاً.

والزنزانة (١٢) كان فيها الإخوة: الشهيد مأمون كاخي، ومُحَمّد صادق عون والشهيد عصام أرناؤط، والشهيد أحمد خباز. ونسي السيد أمير اسم الخامس.

- زنزانة علوي: وهي على شكل مهجع كبير (٦× ١٢) وارتفاع (٢ م) وفي الداخل مقسم إلى زنزانات (١٤٠× ١٨٠) وارتفاع (٢ م).

وأرقام زنزاناتها، من (١- ١٩) وحماماتها، تأخذ مساحة زنزانتين، والزنزانتان (١٣- ١٤) وكانتا مغلقتين تماماً، لا تريان النور، ولا الشمس، وفيها سجن الشهيد وضّاح جنيدي عِدَّة

شهورٍ؛ حتى أصبحَ جسمُه أخضرَ من الفطريّات؛ فطلب طبيب السجن نقلَه إلى زنزانة ترى النورَ والشمس والهواء، ففي بقائه في تلك الزنزانة؛ هلاكه!

لكنّ السلطة الغاشمة نقلته إلى سجن تدمر، واستشهد في مجزرة تدمر الشهيرة.

ويتابع السيد أمير: أوقع الطغاة على الشهيد مروان ضغوطاً نفسية شديدةً جدّاً، وكان يشعر بعذاب ضميره؛ لأنه تسبب في سجن هذه المجموعة الكبيرة من إخوانه الذين يحبهم ويحبونه.

وكان الشهيد يرى أنه حتى في السجن؛ لا يحلّ أن يعطي المسلم الدنيّة من دينه، بل عليه ألا يطيعَ أوامرَهم، ولا ينفّذ رغباتهم، وإذا طلبوا منه الحضور إلى أحد كبرائهم؛ ألا يذهب طواعيةً، حتى يأتوا هم، ويأخذوه كرهاً عنه!

وفي هذا السياق، كانوا قد أحضروا له ملعقة طعامٍ مرّةً، فصار يسُنّها حتى صار حدّها كحدّ السكين!

وذاتَ يومٍ رأى من نفسه شيئاً من النشاط، وهو ضعيف نحيلٌ جدّاً، فطلب مقابلة مدير السجن، وخبّأ الملعقة تحت ثيابه، فلمّا رأى مدير السجن؛ هجم عليه يريد ضربه بتلك الملعقة السكين، لكنهم احتوشوه، ومنعوه، وزادوا في ضربه وتعذيبه.

قال السيد أمير: وقد رأيت أنا والشهيد وضّاح جنيدي، والأخ عبدالرحمن نوح الشهيدَ «مُحَمّد عجعوج» وكانوا قد طلبوه؛ ليقول شهادته أمام الشهيد مروان.

قال: أنا رأيت الشهيد مروان كتلةً زرقاء من التعذيبِ، وكان عارياً تماماً» انتهى.

وأخي السيد أمير يكتب منذ سنواتٍ في كتابٍ أسماه «حماة في قرن ونيّف» خصّص أكثرَ من مجلّد منه لرجال حماة، من بداية عام (١٩٠١) وإلى يومنا هذا.

وفي ترجمته للشهيد مروان، كان مما كتب فيه:

«اعتقل الشهيد مروان في حوادث حماة (١٤/٤/ ١٩٦٤م) واعتقل في (١٦) تموز (١٩٦٦م) وأفرج عنه في حزيران (١٩٦٧م) كما اعتقل في أواخر عام (١٩٦٨م) أربعةَ شهور، وطُلب إلقاءُ القبض عليه فيما يدعى بحوادث الدستور (١٩٧٣م) فاختفى مدة سنتين ونصف تقريباً، معظمها كان في دمشق، حتى اعتُقل في (٣٠) حزيران، عام (١٩٧٥م) إثر عمليّة مداهمة بيته المشهورة في حيّ العدويّ، بمنطقة المزرعة، بدمشق.

عذّب الشهيد تعذيباً شديداً، جسميّاً ونفسيّاً، وامتنع عن الطعام، حتى ذبلَ جسمه.

فاستدعت السلطات أخاه «أحمد» ليراه، لعله يثنيه عن إضرابه، فلم يفلح، حتى وعده أن يصلي، وبعد ثلاثة أيام؛ استطاع أهله أن يروه، وقد تحسّنت حالتُه.

وفي يوم آخر جاء أهله لزيارته، فأخبرهم أنّهم أعطوه حقنةً في عنقه، وذكر من حقنه بها أنها حقنة منوّم، وذكر لأهله أنها آلمته كثيراً، وأزعجته، وطرحت النوم عن عينيه.

وحاولت السلطات إعطاءه حقنةً أخرى، ورفض.

وفي إحدى الزيارات؛ جاء أهله، فوجدوه مغمىً عليه، فثاروا على المسؤولين، فأُجريت له عملية غسلٍ للمعِدَة والأمعاء، ولكنّ صحته تدهورت كثيراً في مستشفى حرستا العسكريّ.

وبعد أيّام وجدوه متوفىً ملقىً على الأرض، وليس على سريره، ووجد أهله كدماتٍ على صدره، وأخرى على ظهره...».

وكتب يقول: «وقد وُجد في زنزانته (٦) علوي، قصيدته «الشمس ستشرق من غدها» محفورةً على جدار الزنزانة، كما وُجدت وصيّةٌ بخطّه قال فيها «وصيّتي لمن يقرأُ وصيّتي: لا تعيشوا أذلاء، أُطلبوا إحدى الحُسنيين، مَن قُتل في سبيلِ الله؛ فهو شهيد، ومَن بقي حيّاً؛ فسينصُره الله ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم : ٤٧].

ووقع في أسفلها: الشهيد بإذن الله: مروان حديد.

ووُجد في زنزانته وصيّة أخرى كتبها على قطعةٍ من الصابون، كتب فيها: «أوصي أهلي بتقوى الله تعالى، والتمسّك بالإسلام، كما أوصيهم بوفاء ديوني، أو تحمُّلِها عني قبلَ أن أوضع في قبري.

أوصي إخواني بالوفاء بعهد الله تعالى، وأوصيهم بمعاملة الخصوم، كما أمرهم الله.

أرجو من الجميع الدعاء لي بالمغفرة والرحمة.

كم مات قبلي من أمم ..... منها الرسول المحترم

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠] أُسوتكم رسول الله، فتأسّوا برسولكم. جاهدوا في سبيل الله: غداً نلقى الأحبّة ... مُحَمّداً وصحبه

﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

«مروان».

(١٢) شهادة الشيخ حمدو حمشو:

الأخ الشيخ أبو البنا حمدو بن مُحَمّد حمشو النعيميّ، كان من تلامذة الشهيد مروان ومحبّيهم، منذ نعومة أظفاره، وكان من أقربِ أحبابِ الشهيد إلى قلبِه، وآثرِهم عنده.

وشهادته هذه؛ هي تعبيرٌ عن عواطفَ ومشاعرَ حزينة، كتبها الأخ أبو البنا بين لوعته وحرقته على فراق الشيخ المربي الحبيب، تلبيةً لطلبي، ونزولاً عند رغبتي.

ومما لا أشكّ فيه أنّ لديه من المعارف عن الشيخ أضعافَ ما كتبه في هذه الأوراق!

بيد أنّ الحدثَ إذا كان جللاً؛ انعقد اللسان، وارتجفت الأنامل، وأخلد التفكير إلى نوعٍ من الخدر المانع من المدد الغزير.

حين كان الشيخ حمدو قبل الثمانينات يحصّل درجةَ «البكالوريوس» في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية، في المدينة النبوية المنوّرة؛ زرته فيها، أو زارني في مكة المكرمةِ، وطلبت إليه أن يكتب عن شيخنا الشهيد مروان أبرزَ ما يظنّ أنه اختصّ به، فكتب الشهادة الآتية[١٣١]:

«أقف اليومَ بعد رحيلك يا أبا خالد، وقد طال زمن الفراق، لكن ذكراك حيّة متجددة في الضمير!

أتذكرك أيها الحبيب، وأتذكر تلك الأيامَ التي عشناها معك مُفعمةً بالحب والتقوى..

أياماً لن ننساها، ما بقينا على قيد الحياة!

شيخنا الشهيد مروان حديد؛ الهمّة العالية، العزيمة القوية، الاستقامة التي تكاد تكون نادرة في هذه الأيام!

---

(١٣١) لكنه سلّمني أربع ورقات بخطّ يده في ليلة الثلاثاء العشرين من شعبان (١٤٣٣ هـ) وطلب مني أن أضعها في مواضعها المناسبة، ففعلتُ على قدر الطاقة.

شيخَنا الحبيبَ أبا خالد! أستميحك العذر في الحديث عنك؛ فإنّي أجد كلماتي عاجزة أن تصفك!

وكيف لواحدٍ مثلي أن يصفك ويكتب عنك، وأنت القمةُ السامقة التي لا تطالها القمم.. القمةُ التي تتطلع إلى غايتها نفوس الأبطال العظماء!

أنتَ المنارةُ الشامخة التي تقصر عنها كلّ المنارات العالية في زماننا، والنفسُ الزكية التي تسمو دوماً تجاهَ المجد والكمال!

كنتَ أيها الحبيب الصيحةَ الملهِمَة التي تصكّ وجه الجاهلية الحديثة، فتدميه!

كنت الصرخةَ الصادقة التي أحيت مواتَ القلوب بالإيمان والعمل والأمل!

كنت المقاومةَ الشريفةَ في أمة مهزومةٍ، وكنت الأنموذج الجهاديّ القويم في مجتمعٍ سقيم!

كنت المشعلَ الوضّاء الذي أضاء للحيارى الطريق المستقيم!

كنت مزنةً نقيّةً يستشرف رُواءَها الظامئون، من هجير الجاهلية القاحل، وانحرافها البغيض!

كنت كذلك أيها الحبيب، وأحسبك كنت أمةً في رجل!

لقد كنتَ أكبرَ من سجن السجانين، وأقوى من قيود الأوغاد المجرمين!

أتأمل كمالاتِك، فأرى عظماءَ الرجال في عصرنا يتضاءلون أمام عزيمتك وثباتك!

أجل لقد كنتَ القدوةَ والرمز والمربي الفريد!

لا يضيرك أيها الحبيب إن أراد أعداؤك النيلَ منك؛ فإنهم لن يستطيعوا إثارةَ غبارهم على نعليك، كما لا يضيرك إرجافُ المرجفين؛ فإنهم هم الخاسرون!

إنّ كثيراً من الناس؛ يصعب عليهم معرفةُ شخصية الشهيد مروان على حقيقتها؛ لبعدهم عنه من ناحية.

والناحية الأخرى؛ هو عدم انصرافه رحمه الله إلى كتابة أفكاره ومنهجه في الدعوة والجهاد.

وهذان الأمران؛ يفسران أنّ الكثيرين يعرفون شخصية الشهيد سيد رحمه الله، وشخصية المجاهد سعيد حَوّى، وغيرهما من العلماء والمفكرين من خلال كتبهم؛ لأن الكتاب إذا كان من قلب مخلصٍ؛ فإنما هو يعبر عن شخصية الكاتب «لأن كل إناء بالذي فيه ينضح».

تعرّفت إلى الشهيد مروان حديد قبل أحداث جامع السلطان عام (١٩٦٤م) بيوم واحد وكنتُ وقتَها في الصف السادس الابتدائيّ.

وتمرّ الأيام مسرعةً، ويشاء الله أن أكون من المقربين لديه، بل ومن الملازمين له خلال الأعوام (١٩٦٨ – ١٩٧٥م) حيث اعتقالُه الأخير.

وفي أثناء هذه السنوات الطويلةِ، ولا بدّ؛ تكشّفت لي شخصية الشهيد مروان بغاية وضوحها وجلائها ونقائها.

إنني سأقدم دراسةً موجزة عن حياته من خلال معاشرتي إياه، وصلتي القريبة به.

وربما تكون هذه الصورة أصدقَ وأقوى؛ لأن المعرفة المباشرة، وبدون وسيلة أُخرى؛ تكون أوضحَ من غيرها.

سأسجّل في هذه الوريقات ما تسنح به الذاكرة، لعلّ في ذلك عبرة وذكرى، فهي بدون شكّ نِبراسٌ هادٍ لجيلنا لو تمثّلها، ولمن يأتي بعدنا من الأجيال.

ولا أدري ماذا أكتب عنه؛ لأن هذا الرجل أكبرُ بكثيرٍ من أن يُكتب عنه، ولكن ما هي إلا ومضاتٌ من خلف الذكريات، وقبساتٌ من مخزون الفكرِ، أكتبها على صفحة الورق، مستميحاً شهيدَنا العذر؛ لأنه رحمه الله كان لا يؤمن إلاّ بالعمل!

أما الكلام والكتابة؛ فهذا ليس من شأنه، وإن كان لا ينكرُ ذلك، ولكن ينكرُ الاقتصار على ذلك.

ولقد كان الشهيد رحمه الله، كما أرى وأشعر؛ أكبرَ من الطغيان، وأصلبَ من الرواسي، وأثبت من الشامخات، ولا أستطيع تفسيرَ ذلك؛ لأنه ربما يكون لشعوري بعظمة هذا الرجل؛ قربي منه، وتعايشي معه فترةً من الزمن، كانت أكثر «بركَةً» من قرون طوال!

ويؤيّد شعوري هذا؛ شعورُ كثير من عمالقة الفكر الإسلامي، وأصحابِ الباع الطويل في الدعوةِ، حينما يذكرون هذا الرجل بإجلالٍ وإكبار.

لكن عن أيّ جانبٍ عظيمٍ من جوانب شخصيته النادرة أتكلّم؟

أتحدّث عن أخلاق الشهيد؟ عن كرمه الفياض، عن شجاعته النادرة، عن تضحياته الفريدة، عن ثباته العجيب؟

سأتكلّم كلمات يسيرة عن أخلاقه هذه في بداية كلامي الوجيز عن تجربتي الحياتية معه؛ لتكون تمهيداً كاشفاً لما يأتي من كلام وجيز عن شجاعته السامقة!

ولادته ونشأته الأولى:

ولدَ الشهيدُ مروان حديد رحمه الله في مدينة حماة، سنة (١٩٣٥م) وتابع تعليمه فيها إلى أن حصل على الشهادة الثانوية، ثم التحق بجامعة عين شمس- كلية الهندسة الزراعية، ولقد كان هناك من أنشط شباب الدعوة، وتأثر تأثراً بالغاً بدعوة الإخوان المسلمين.

ولقد لوحق الشيخ مرات عديدة في مصر، وحققت معه الاستخبارات؛ من جراء نشاطه الدعويّ المتزايد.

أخلاق الشهيد مروان: كان الشهيد مثالاً للمسلم الملتزم بتعاليم الإسلام، فإذا نطق؛ فبالحقّ ينطق، ومن المحال أن تسمع منه كلمةً نابية!

ثقافة الشهيد مروان:

كانت ثقافته الإسلامية متنوعة، من تفسير، إلى حديث، إلى فقه، إلى عقائد، إلى فكر متنوع، إضافة إلى معرفته بالجماعات الإسلامية كافّة، فإذا سألته عن إحدى هاتيك الجماعات؛ أخذ يفصّل لك القول في أفكارها ومناهجها، وكأنه واحدٌ من مفكريها!

كما كان على درايةٍ واسعةٍ بما يجري في العالم من حولنا، فقد كان يحكم العالمَ في عصره نظامان: النظام الرأسمالي الغربي، والنظام الاشتراكيّ الشرقيّ.

وقد كان الشهيد يعلم عن خبايا هذين النظامين، ودقائق تمايزهما الشيءَ الكثير، مثلما كان يعلم مواطنَ الضعفِ الفكري والتطبيقي لديهما، ويجيد تفنيد ذلك كلِّه بالدليل والبرهان المقنع للسامع، الآسر بأسلوبه العلميّ الرصين.

عبادة الشهيد مروان:

كان الشهيد صوّاماً، قوّاماً، يأخذ نفسه بالعزائم، ولا يترخّص إلا القليل النادرِ، وخصوصاً إذا كان في مرض، أو على سفرٍ!

كرم الشهيد مروان:

كان الذي في حوزة الشهيد من متاع الدنيا؛ ليس له، ولا يضنّ بشيء معه على أحدٍ طلبه، أو احتاجه!

هذه معرفتي به، وأسوق هذه القصة مثالاً:

جئت مرّة إلى المسجد، فوجدت الشيخ منزعجاً، فقلت له: مالك شيخنا أبا خالد؟

قال لي: جاء إليّ أخٍ، لم يسمّه، يطلب مني خمسين ليرةً، فقلت له: تعالَ بعد العِشاءِ، وكان ذلك بعد صلاة المغرب!

فقلت له: وما ذا في هذا الأمر؟

قال لي: الخمسون ليرةً موجودة معي، وكان من الواجب أن أعطيه إياها مباشرة.

هذه قِصةٌ واحدة، وفي كنانتي قصص كثيرة كثيرةٌ، وهذا من شأن الشهيد مروان لا يخفى على أحدٍ من أحبابه.. هذا ناهيك عن إكرامه لضيوفه وزواره.

نشاط الشهيد مروان الدعوي، ومنهجه في الدعوة:

من المعروف أنّ الشهيد مروان كان لا يهدأ، ولا يفتُر في الدعوة إلى الله تعالى، وكان إذا اقتنع بفكرةٍ؛ كرّس كلّ وقته لتنفيذها وتطبيقها، ثم لا يبالي بعد ذلك إن وافقه عليها أحدٌ، أو كان وحده القائمَ على تنفيذها.

وكان لا يترك فرصةً تمرّ، من دون أن يستفيد منها في تعليم إخوانه أمورَ الدين والدعوة، سواء كانوا كباراً، أم كانوا صغاراً.

كنا ونحن صغارٌ نحتاج إلى أسلوب ميسّر سهل؛ لنفهم أمورَ الدين والدعوة، وكان الشيخ مروان يعرف هذا فينا، فكان من الأساليب التي يستعملها معنا أسلوب ألعاب الصِغار!

وكانت ثمة لعبةٌ معروفة لدى الصغار، تدعى لعبةَ «المحامي».

وصورة هذه اللعبة أن يشترك عددٌ من الصغار، يختار كلّ واحدٍ منهم اسماً لنفسه، يُخاطَب به في أثناء اللعبة (مُحَمّد، أحمد، عمر، علي ...إلخ) على أن تكون تلك الأسماء تطلق في الأصل على أُناسٍ موجودين في المجلس.

ثم يبدأ الشيخ بإدارة اللعبة، فيسأل يقول: يا مُحَمّد، ما أركان الإسلام مثلاً؟

فيردّ الذي اختار اسمَ مُحَمّد، أما إن ردّ من اسمه مُحَمّد في الأصل، فيعاقب؛ بأن يضرب ضربةً خفيفةً على يده.

وتستمر الأسئلة، ويدور النقاش حول مفرداتها، حتى يتحقق الشيخ مروان أنّ جميعَ الصغار قد حفظوا أجوبة الأسئلة، وربما استمر في طرح الأسئلة حتى يصل إلى مبادئ الإخوان المسلمين، وشعاراتهم، إلى غير ذلك.

كان يأمر الشباب بقراءة «المأثورات» للشيخ حسن البنا؛ عقبَ صلاتي الفجر والمغرب، وكان إذا وجد عدداً من الشباب داخل المسجد؛ ألقى عليهم موعظة، ونصحهم بأن لا يُضيع أحدٌ منهم شيئاً من وقته من دون فائدة، وكان يحثّ الشباب على قراءة القرآن الكريم وحفظه وتدبره.

فلطالما جمع الشباب، وبدأ يقرأ معهم، كلَّ واحدٍ صفحةً، ويصحح لهم أخطاءهم في التلاوة، ويوضح لهم معنى الكلمة المستغربة بإيجاز.

وعندما كنا في الصيف نخيّم على أطرافِ مدينة حماة في منطقة جميلة على ضفاف نهر العاصي، تدعى «الدوّار» كان في معظم الأيام يعقد لنا جلسات حوار، نتبادل فيها بعض الأمور المهمة في ديننا، أو في نشر دعوتنا.

وفي بعضها كان يشرع في شرح «رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» وكان يحفظ أكثرها غيباً.

وربما شرع يشرح لنا معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وكان يؤكّد على أنّ من أهمّ معانيها وخصائصها أنّ «الحاكمية» لله تعالى، وأنّ «التشريع» له سبحانه، فلا أحد ينازعه حاكميتَه، ولا يجوز لأحدٍ أن يحدث تشريعاً يخالف شرع الله.

جهاد الشهيد مروان وشجاعة:

تكون الشجاعة أحياناً استبسالاً في المعركة، وأحياناً تكون في المواقف، وأحياناً تكون في الصَدْعِ بالحقّ (كلمة حقّ عند سلطان جائر)[١٣٢] وما في معناها.

وقد كانت شجاعةُ الشيخ مروان قمةً سامقة في شتى مناحي الشجاعة وإطلاقاتها.

---

(١٣٢) من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في المسند (١١١٥٩) وأبو داود في السنن (٤٣٤٤) والترمذيّ في الجامع (٢١٧٤) وقال: حسن غريب.

وسأسجل هنا بعضَ المواقف الجهادية المعبّرة عن شجاعة الشيخ مروان، المستعلي بإيمانه، المستمسك بحبل ربه تعالى.

الموقف الأوّل:

في أوائل عام (١٩٦٤م) تخرّج الشهيد مروان من جامعة عين شمس بالقاهرة، وعاد أدراجه إلى حماة؛ ليتابع جهاده فيها.

وفي هذه الأثناء أصدرت الحكومة قراراتٍ فيها تَحَدٍّ وامتهانٌ لدين الله، فتصدى لها الشهيد مروان مع مجموعة من إخوانه، وحاولت الحكومة اعتقالهم، فاعتصموا في مسجد السلطان، وحاولت الحكومة بعدها مهاجمة المسجد؛ فتصدى لها الشباب، ودارت معركة غير متكافئة، استشهد فيها أربعة من شباب الإخوان، واعتقل الشهيد مروان، وصدر عليه الحكمُ بالإعدام، كما صدر على كثير من إخوانه أيضاً.

ولكن الله سلّم، وخرج من السجن كما يخرج الأسد من عرينه.

وهنا لا بد من ذكر واقعة حصلت للأخ الشهيد مروان عندما أخرجوه من المسجد، وجاؤوا به إلى دار الحكومة في حماة، وكان رئيسُ الجمهورية أمين الحافظ وقتها موجوداً فيها.

فقال له أمين الحافظ كلاماً لا يليق، فما كان جواب الشهيد مروان إلا أن بصق في وجهه، وقال له: (أمين الحافظ! لتكن خصومتك شريفة!).

ولقد اعترف بهذا الموقف أمين الحافظ منذ عِدَّة سنوات في العراقِ، حيث زاره أحد السوريين هناك!

وكان من جملةِ ما قاله عن الشهيد مروان: إنني لم أرَ رجلاً أجرأ منه في حياتي، فلقد قال لي كذا وكذا.. وذكر ذلك الذي قلته آنفاً.

وعندما تدخّل وجهاءُ المدينة من أجل إطلاق سراح الإخوة المعتقلين والعفو عنهم؛ كان العَلّامة الشيخ مُحَمّد الحامد رحمه الله؛ هو الذي أجبر أمين الحافظ وقتها على إصدار قرارِ العفوِ العامّ في سوريا.

وعندما ذهبَتْ وفودُ الناس من حماة إلى حمص ليستقبلوا المجاهدين؛ كان على رأسهم الشيخ مُحَمّد الحامد رحمه الله، وعندما سلّم على الشهيد مروان؛ قال له الشهيد مروان: «سامحك الله يا شيخنا، فلقد حرمتنا الشهادة في سبيل الله!».

فبكى الشيخ مُحَمّد رحمه الله وقال له: «والله لو رآك حسن البنا؛ لقرَّت عينه».

وعاد الشهيد مروان رحمه الله إلى حماةَ بين التهليل والتكبير، وأخذت جماهير الناس تتوافد على بيوت المعتقلين يهنئونهم بخروجهم من المعتقل سالمين.

ومن المناسب هنا أن أذكر نبذة عن موقفه الصلب في المحاكمة وأثناء التعذيب.

أما عن محاكمته التي جرت في مدينة حمص، فلقد نشرت جريدة العروبة، الحمصية، التابعة للسلطة في عددها رقم (٢٨٥) الصادر في (٣/٥/١٩٦٤م) أقوال البطل المؤمن الشهيد مروان حديد أثناء استجوابه أمام المجلس العرفي للمنطقة الوسطى، ورغم الحذف والتحريف لكثيرٍ من الأقوال؛ بغيةَ طمس الحقائق وإخفائها؛ فإنّ في الجزءِ اليسير المنشور في الجريدة دروساً خالدةً، تعلم الظالمين أنّ عقيدة الأمة أعزّ عليها من أرواحها وما تملك، وأن أمتنا آمنت بالإسلام عقيدة ونظاماً للحياة، ولن ترضى عن شرعة السماء بديلاً من شرائع الأرض، وأن العقيدة التي تستمد قوتها من الله؛ لا ترهبها قوة الظلم والطغيان، ولا تهاب أن تقول للظالم يا ظالم، وأن رجلَ العقيدة الربانيّ؛ لَيستخِفُّ بكل وعيد، ويستعلي فوق كل تهديدٍ، حين يعلن كلمةَ الحقّ، ويطلق صرخةَ الإيمان، ويقف في وجه الظلم والطغيانِ؛ غيرَ عابئ بما يتعرض له من سجن وتعذيب واستشهاد في سبيل الله تعالى.

وهكذا كان موقفه كما يصوره الجزء اليسير المنشور في الجريدة الحمصية «العروبة».

قالت الجريدة: «بدأت الجلسة باستجواب المتّهم الشهيد مروان حديد المتزعم للحركةِ، وهو من خريجي جامعة عين شمس، كلية الزراعة، وله دراسات استفادها من كلية الشريعة أيضاً:

ولقد سئل: لماذا اعتصمت في جامع السلطانِ؟

فأجاب: كنت أخطب في الناس، وأشرح لهم معنى «لا إله إلا الله» حيث إن أكثرية الناس يقولونها، ولا يفهمون معناها، وعندما سمعتُ من إذاعة دمشق قول المذيع:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له　　　وبالعروبة ديناً ما له ثانٍ

تألمتُ أشدّ الألم، وتكلمت عن ذلك في الجامع.

الحاكم: اخرس! هل أنت من الإخوان المسلمين؟

الجواب: إنني أعتبر نفسي من الإخوان المسلمين، وإنني ليشرفني الانتساب إليهم.

الحاكم: ما هي المطالب التي كنتَ تطالبُ بها في خطبتك؟

الجواب: عدمُ اضطهاد أساتذةِ الدين، وإطلاقُ سراح الطالب نزار عرواني «وكان قد اعتقل على إثر كتابة بعض الآيات القرآنية على جدران أحد المساجد[١٣٣] وهو من إخواننا».

الحاكم: كان من الواجب أن تُعلمَ المحافظ بالأمر.

الجواب: لقد أعلمتُه بذلك، ووعد بالإفراج عنه، ولكنه لم يَصْدق بوعده.

الحاكم: لماذا كنت توزع الأسلحة الحربية على الناس بالجامع؟

الجواب: كلّ واحد من أبناء الشعبِ؛ كان يدافع عن دينه.

الحاكم: هل لك أقوال تحب أن تقولها؟

الجواب: يجب أن يكون الحكم بشريعة الإسلام.

---

(١٣٣) الذي أحفظه أنه كتب ذلك على سبورة صفّه.

هذا ما نشرته جريدة «العروبة» الحمصية!

أما ما تجاهلته من وقائع هذه المحاكمة، كما سمعه الحاضرون، وشاهدوه بأعينهم وأصبح بعد ذلك حديثَ المنتديات والمجالس في حمصَ؛ فهو كما نشرته مجلة المجتمع الكويتية في عددها (٣١١) الصادر في ٧ شعبان (١٣٩٦هـ) أي بعد استشهاد الشهيد مروان رحمه الله، ومن ذلك:

الحاكم: سنريكم أنت وعصام العطار نهايتَكم، وكان وقتها عصام العطار المراقبَ العام للإخوان في سوريا.

الجواب: الآجال بيد الله، ولا يستطيع أحد تقديم أجل أو تأخيره، فالآية تقول: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤].

وإنني أتحدى أن يستطيع أحدٌ تقديمَ أجلي، ولو خمسَ دقائق.

الحاكم: أنت قابضٌ، وعصام العطار قابض..أنتم عملاء.

الجواب: إنني أتحدى كلَّ من يقول هذا الكلام؛ أن يثبت شيئاً منه، ثم قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

نحن لا نقبض، ولكن رئيسك ميشيل عفلق؛ قبض سبعين ألف جنيه، فأنتم العملاءُ، وأنتم القابضون، هل تستطيع أن تنكر هذا؟

الحاكم: اخرس.. اخرج.. ويهجم عليه شرطي عسكريّ؛ ليضربه بأخمص بارودته، وينهره الشهيد مروان، ويقول له: لا يحق لك بصفتك حاكماً أن تقول: اخرس، وإذا بدا لك أن ترفع صوتك، فأنا أرفع صوتي أكثرَ.

وأشار الشهيدُ إلى أحد أعضاء المجلس العرفيّ، وقال للحاكم: هذا الظالم الذي بجانبك، عذّبني، وقلع أظافري، وضربني على يدي حتى صارت إلى هذه الحال، وأشار إلى يده، وخاطب الحاضرين قائلاً: انظروا إلى أفعال هؤلاء المجرمين.

يريد الشهيد أن يقول: كيف يكون الخصم حكماً؟

الحاكم: أنتم تكفّرون حزب البعث، وحزب البعث مسلمٌ أكثر منكم، يريد أن يحقق الإسلام! فأجابه الشهيد مروان: نحن نقول كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤].

وكل من يدعو لنظامٍ غيرِ نظام الإسلام؛ فهو مُرتدٌّ، وخائن.

الحاكم: أنتم تثيرون الفتنة.

الشهيد مروان: بل أنتم الذين تثيرون الفتنة، ألم تقل إذاعتكم:

آمنت بالبعث رباً لا شريك له... وبالعروبة ديناً ماله ثان

ألم تقولوا: البعث ديني والعروبة مذهبي.

ألم يقل قائدكم: يجب تَجْميدُ القرآنِ؛ لأنه يُولّد الكبت؟

من الذي مزق القرآن في حمص؟

من الذي امتهن القرآن في السويداء، وألقاه على الأرض؟

إن رؤوس حكومتكم؛ هم الذين يجب أن يحاكموا؛ لأنهم يثيرون الفتنة!

إن الأَولى أن يحاكم مكاني محافظُ حماة، الذي لم يَحُلّ مشكلة الشعب، ولم يُلبِّ مطالبه.

الحاكم: لماذا اعتصمت بالمسجد، وصرت تذيع أموراً وأموراً؟

الجواب: إنني كنتُ مطارداً، فلجأت إلى بيت الله من ظلم الظالمين، وما كنت أظن أن أحداً سيجرؤ على ضرب المسجدِ، مهما بلغ به الكفر والضلال، فالفرنسيون لم يضربوا المساجد!

هكذا كان موقف الشهيد في محاكمته في حمص، ولقد سمعت منه هذا الكلام أكثر من مرة!

الموقف الثاني:

في عام (١٩٧٠م) أُنشئت عندنا في مدينة حماة حديقةٌ واسعة بديعة، أطلق عليها حديقةَ «أمّ الحسن» وتقع على نهر العاصي في منتصف المدينة.

وكانت الحديقة منقسمة على قسمين منفصلين: قسم للرجال، وقسم للنساء.

فأمر الحكام البعثيون، فجعلوها حديقةً مختلطة!

فما كان من الشيخ مروان إلا أن دعا عدداً من الشباب، كنت واحداً منهم.

وكان معنا في هذه المهمة الشهيد عمر جوّاد، والأخ الدكتور مُحَمّد الشوّاف وغيرهما.

قال لنا الشيخ مروان: ليأخذ كلّ واحدٍ منكم مصحفاً، واذهبوا إلى الحديقة، واقرؤوا القرآن هناك، فإذا أذّن المغرب، فأقيموا الصلاةَ، وصلّوا جماعةً، وادعوا الناس إلى الصلاة معكم، ثم عودوا وقت صلاة العشاء، وصلّوا أيضاً.

وإذا سألكم أحد: لماذا تفعلون هذا في هذه الحديقة؟ فقولوا له: قال لنا مروان حديد: افعلوا ذلك!

وحين بدأنا في اليوم الأول؛ كنّا أقلّ من عشرة، ثم غدا العدد في كلّ يومٍ يزداد!

وما مضى الأسبوع الأول حتى كنا قرابة ثمانين شاباً.

عندها بدأت السلطة بمضايقتنا، فأخذت تغرق العشب بالماء، حتى لا نصلي، فصرنا نصلي على الإسفلت المجاور لأحواض الحديقة.

وفي الأسبوع الثاني؛ أرسلت السلطة إلى الشيخ خالد الشقفة رحمه الله تعالى من أجل التوسط لدى الشيخ مروان، حتى تُحلّ المشكلة!

فكان جواب الشيخ مروان: افصلوا الحديقة إلى قسمين؛ ترجع الأمور كما كانت!

وبالفعل، فقد فعلوا ما أراد الشيخ مروان، رحمه الله تعالى.

هذا موقفٌ من المواقف التي شاركتُ أنا فيها.

وبعد خروج الشهيد من السجن في عام (١٩٦٤م) ظلّ الشهيد مروان يتابع مسيرته الجهادية، ولم يكن للسجن أن يَحُدّ من نشاطه، أو يثبّط همته وعزمه، بل أصبح أكثر من ذي قبل نشاطاً وحيوية، وفي عام (١٩٦٦م) عندما حاولت الحكومة تصفية القضية الفلسطينية؛ اعتقلت عدداً من علماء سورية، وكان الشهيد مروان حديد الوحيدَ من مدينة حماة، حيث إنّ الشيخ سعيد حَوّى كان في السعودية، وبقي في المعتقل سنة تقريباً، خرج على إثر هزيمة حزيران الأسود.

وفي عام (١٩٦٩) بلغ العمل الفدائي ذروة نشاطه، وكان هناك في الأردن مجموعة من الشباب المؤمن؛ عندها وقف الشهيد مروان داعياً إلى الجهاد، فجهّز الكثير من شباب سوريا، وأرسلهم إلى ميدان الجهاد، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر.

وقبل أن تُضرب الحركة الفدائية بالأردن بعِدَّة شهور؛ اعتقل الشهيد مروان، وبقي قرابة ثلاثة شهور في المعتقلِ، تنقّل خلال هذه الفترة إلى عِدَّة معتقلاتٍ، كان آخرَها معتقلٌ في شمال سوريا.

وفي عام (١٩٧٣م) وعقب أحداث الدستور السورية، حيث إن الإخوان كان لهم رأي في الدستور، وقامت على إثر ذلك المظاهرات التي راح ضحيتها عددٌ من المواطنين.

عندها اعتُقل الشيخ سعيد حَوّى، واختفى الشهيد مروان رحمه الله، وبقي مختفياً أكثر من سنتين.

ولقد حاول كثيرون إقناعَه بالخروج من سوريا، ولكنه رحمه الله كان يقول: لن أغادر سوريه حتى يحكم الله بيني وبين عدوي.

وشاء الله أن يُعرف مكانُه، فهاجمت مجموعات من الجيش والمخابرات بيته حيث كان مع زوجته، وبجانبه عدد من إخوانه، فدارت معركةٌ حاميةٌ، استمرت ثماني ساعاتٍ، قُتل فيها عددٌ من المهاجمين، واستشهدَ أحد الإخوان، وجرح أحدهم، واعتقل اثنان من إخوانه، واعتقل الشهيد مروان(١٣٤) وزوجتُه، وأودع سجن المزة العسكري، ولم يَخْرُج من مُعتقله إلّا إلى روضة من جنّاتِ ربه، إن شاء الله تعالى.

من صور التعذيب التي تعرّض لها الشهيد:

لقد حدثني رحمه الله الشيء الكثير عن التعذيب الذي تعرض له في سجون الظالمين!

فلقد بلغ به التعذيبُ في سجنه عام (١٩٦٤م) أن أغمي عليه عِدَّة مراتٍ أثناءَ الضرب، وكان لا يستسلم لهم ليضربوه، وإنما كان يقاوم حتى يُغلب على أمره، فيضربوه الضربَ المنكر، حتى إنّ لحم قدميه قد انتُزِع، ولم يبق شيءٌ من لحم قدميه!

---

(١٣٤) قد يُفهم من كلام الشيخ حمدو أن الشهيد مروان قاوم ثماني ساعات، والحقيقة هي أنّ اعتقاله كان مفاجأة؛ إذ خدعه الخائن مصطفى جيرو، وصار يحاوره عند باب المنزل، فباغته رجال الأمن، واعتقلوه، لكن الشهيدين مأمون كاخي، وزكي صفدي؛ هما مَن قاوم رجال الجيش والأمن، إلى ما بعد الساعة الثانية بعد الظهر، كما حدثتني زوجتي «أمّ محمود».

وبعد عِدَّة سنواتٍ؛ كانت آثار الضربِ ظاهرةً على رجليه، وكان على إحدى رجليه كدمة زرقاء من الأسفل، من أثر الضرب.

وفي سجن تدمر العسكري؛ تعرّض رحمه الله لصنوف من التعذيبِ، حتى إنه كان لا يستطيع المشيَ على إحدى رجليه من كثرة الضرب، ولكنه كان ثابتاً صابراً محتسباً.

وقد قال لي بعض الإخوة الذين سُجنوا معه: لقد كان الشهيد مروان أشدَّنا قوة وثباتاً!

كان يدخل من التعذيب، وهو كاظم ما به من ألم، وكان دائماً يزرع في نفوسنا روحَ الاستشهاد في سبيل الله!

قال: وعندما حاكمتنا المحكمة، وحكمت قسماً من الإخوان بالإعدام، وقسماً آخر بالسجن سنواتٍ متفرقة؛ كبّر الذين حُكموا بالإعدام، وكان على رأسهم الشهيد مروان، بينما أخذ الباقون بالبكاءِ؛ لأنهم لم يحصلوا على مرتبة الشهداء.

هذا الكلام قاله لي الشهيد مروان، وكثير من الأخوة الذين سجنوا معه.

وفي سجنه الأخير عام (١٩٧٥م) استمر تعذيبه على هذه الحالة سنةً وتسعة عشر يوماً، صبر فيها على العذاب المضني في سجن «المزة» حيث عرَّوْه تماماً من ثيابه، وكان الحياء يجلل محياه، رحمه الله تعالى، لذلك وجدوا ذلك نقطة من نقاط الضعف عند الشهيد؛ ليستطيعوا أن يعذبوه نفسياً وجسمياً، وبدون مقاومة.

وكانوا كثيراً ما يسمعونه أصوات التعذيب المنبعثة من أخته وزوجته وأقاربه وإخوانه، وكانت كلها حرباً نفسيةً لا أساس لها، وإنما من أجل أن تنهار أعصابه رحمه الله.

كما أنهم منعوا عنه الطعام عدداً من الأيام، وكانوا يعطونه خبزاً مكسراً مع كأس فيه ملح، إلى غير ذلك من أنواع التعذيب الشنيع، وهناك الكثير من أنواع التعذيب لم تصلنا حتى الآن، لأن المجموعة المعتقلة مع الشهيد مروان لا زالت رهن الاعتقال في سجن المزة العسكري، ولم

يخرج منهم أحدٌ حتى الآن، ولكنه رغم كل هذا لا بد أن أذكر موقفه الأخير وهو على فراش الشهادة، حيث تجمع حوله أهلُه، فقال له أخوه الكبير وهو لا يصلي: كُلْ يا مروان! وقدّم له بعض الطعام والشراب، لكن الشهيد مروان رحمه الله رفض حتى وهو في النَزْع الأخير، وقال له: إنك لا تصلي! ولا آكل من يدِ رجلٍ لا يصلي!

فتأثر أخوه تأثراً كبيراً، وأقسم بالله بأنه سوف يصوم، ويصلي، ويحجّ، وغير ذلك، عندها تناول الشهيد مروان الطعام من يده.

نُقل بعدها إلى المستشفى العسكري، وهنالك بدأت صحته في التحسن، ولكن ذلك ساء الظالمين، وأقلق الطغاةَ، فعاجلوه بحقنة مسمومة في رقبته؛ فارقت بعدها روحُه جسده في يوم الاثنين (٢٢) رجب (١٣٩٦هـ) الموافق (١٩) تموز (١٩٧٦م) وشيّع جثمانَه قلّةٌ قليلةٌ من أهله، تحتَ حراسةٍ مشددة من قبل سرايا الدفاع، بعد أن منعوا أهله من دفنه في مدينة «حماة» ومنعوا إخوانَ الشهيد مروان وتلامذته من تشييع جثمانه، وتوديعه الوداعَ الدنيويّ الأخير.

ترجّل الشهيد مروان شهيداً في سبيل الله، ولكنه ترك وراءه ملاحم من التضحية والثبات؛ جعلته نبراساً هادياً لمن آمن بالجهاد ضدّ الطغاة الظالمين في هذا العصر.

موقف آخر في نفس المكان:

دخل العقيد علي المدني، وهو من حماة، ومن أنصار الطغاة في سوريا، دخل غرفة الشهيد مروان، وكان موجوداً في الغرفة بعض الناس، فقال له شقيقُ الشهيد مروان، وكانتْ تربطه به صداقة قديمة: نشكرك يا عليّ؛ لأنك سمحت لنا أن نرى الشهيد مروان، فالتفت الشهيد مروان رحمه الله وهو غضبان، وقال له: لا تشكره، إنه جبان خائنٌ، لا يزال عبداً للنصيريين، وتكلم كلاماً غير هذا.

وأخيراً فاضت روحه بعد حياة حافلة بالجهاد والابتلاء والصبر والثبات.

قتله الطغاة في ظرف عصيب، كشّر فيه الذئاب عن أنياب الغدر، وتحالفوا مع الصليبيين واليهود الصهاينة، حتى ينفذوا مخططاتهم في إقامة الدولة العبيدية المجوسية.

قتل الباطنيون الشهيد مروان في الوقت نفسه الذي يقتلون فيه أبناء المسلمين من الفلسطينيين في تل الزعتر، وفي جسر الباشا، وفي مخيم نهر البارد، وكل حيٍّ، أو قرية إسلامية في لبنان.

قتلوه، وخاف الجبناء منه، وهو ميت؛ فمنعوا الناس من تشييع جثمانه، واستنفروا قواتهم لتحرس دمشق يوم دفنه، وصبّوا فوق قبره الاسمنت المسلح، ووضعوا الحراسة على قبره مدة من الزمن.

رحمك الله أيُّها الشهيد مروان، نحتسبك عند الله شهيداً إن شاء الله، ونسأله أن يسكنك الفردوس الأعلى[١٣٥].

رحمك الله يا أبا خالد رحمة واسعةً، وأسكنك فسيحَ جناته مع النَبيّين والصديقين والشهداء.

رحمك الله يا أبا خالد، لقد كنت نموذجاً حياً في مجتمع مريض، وكنت قوة رادعةً في مجتمع مهزوم!

رحمك الله يا شيخي لقد قضيت شهيداً في سبيل الله.

وإنها لأجمل كلمات وأطيب أنفاس يتنفسها شهيدنا وهو يعالج بقايا الحياة عندما كتب وصيته على قطعة من الصابون بأُظفره، ونشرت هذه الوصية مجلةُ الدعوة المصرية والمجتمع الكويتية، وكانت هذه الوصية آخرَ ما كتبه في هذه الحياة، وذلك ما يطمئن بأن شهيدنا ذهب

---

(١٣٥) عن مجلة المجتمع الكويتية (٣٣١) بتصرف.

إلى ربه وهو راض عنه، لم يحنِ للطغاة هامةً، ولم يتزلزل حتى لحظة الشهادة الأصيلة، وذلك فضل من الله.

وإنما وصيته تترجم ذلك الإيمان العميق الذي كان يحتضنه الشهيد مروان بين ضلوعه، إنها وصية من بعض دلالاتها؛ أنّ الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد، لقد قال في وصيته:

«هذه وصيتي أنا الفقير إلى الله تعالى ورضوانه الشهيد مروان حديد، أوصي أهلي بتقوى الله تعالى، والتمسك بالإسلام، ووفاء ديوني، أو تحمّلها عني قبل أن أوضع في قبري.

أوصي إخواني بالوفاء بعهد الله تعالى، وأوصيهم بمعاملة الخصوم كما أمرهم الله وأرجو من الجميع الدعاء بالمغفرة والرحمة.

كم مات قبلي من أمم ... حتى الرسولُ المحترم

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر: ٣٠].

أسوتكم رسول الله، جاهَدَ في سبيل الله؛ فتأسَّوا برسولكم.

غداً نلقى الأحبة ... مُحَمّداً وصحبه

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [آل عمران: ١٨٥].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» الشهيد مروان.

هذه وصية الشهيد مروان رحمه الله، ونرجو من الله أن يكون مع الأحبة في مستقر رحمته.

وإنني لأختم كلامي عنه بهذه الأبيات:

إن يقتلوك فخذها غير كاذبة ... هم الضحايا وأنت الحي في الأمم

ما زلت مقتحماً حتى عقولهم ... يخيفها منك صوت غير منكتم

يا رافع المثل الأعلى بنيت لنا ... من العقيدة ركناً غير منهدم

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) [إبراهيم: ٤٢].

هذه معالم موضحة سريعة، تلقي ظلالاً من الضوء على شخصية الشهيد الشهيد مروان.

أما الكتابة التفصيلية عن الشهيد مروان؛ فسأدعها لبعض الإخوة الذين بدأوا بالكتابة عن الشهيد، وربما يَصدرُ قريباً كتابٌ في هذا الموضوع.

هي لمحاتٌ عجلى مما عشناه مع شيخنا الشهيد مروان، وومضات من منهجه في تعامله معنا ومع إخوانه.

عليك رحمات الله يا من زَرعتَ في شباب مدينة حماةَ روحَ التضحية والفداء!

حتى غدوت مثلاً أعلى لشباب الإسلام المجاهد في كلّ مكان!

بعد أيّام قليلة من استشهاد الشيخ مروان؛ التقيت الشهيد عبدالله عزّام، رحمه الله تعالى، فقال لي: «إنّ الشهيد مروان؛ هو مثلي الأعلى!».

لقد تركتَنا يا شيخنا، ورحلت إلى جوار ربّك شهيداً مرضيّاً، كما نحسب، ولا نزكي على الله أحداً.

فسلام عليك أيها الحبيب حيّاً، وسلامٌ عليك شهيداً في الخالدين إن شاء الله تعالى

وإلى لقاءٍ قريبٍ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر!

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

****

(١٣) شهادة الدكتور خالد حسن هنداوي

الأخ الدكتور خالد؛ كان من القريبين من الشهيد مروان، وكان شريكَه في أحد مشروعاته التجارية، ومن المؤكّد أنه كانت له به انفرادات كثيرة، وقد زارنا في مكة المكرمة، وأدلى بهذه الشهادة عن الشهيد مروان.

حول إضرابه عن الطعام:

لقد أنكر هذا الأخ الكريم ما ورد على لسان بعض الإخوة من أن الشهيد مروان أضرب عن الطعام إضراباً عامّاً، وقال: إن مروان إنما أضرب عن طعامهم هم، لا عن مُطلق الطعام، حيث إن طعامهم قذرٌ نجس، وقد كان يُبال فوق الحِمّص الذي كانوا يأتونه به، بدل الزيت، وقد ذكر الشهيد لبعض أهلِه أنه رأى الغائط مع الطعام.

وكيف يُضرِب الشهيد مروان عن الطعامِ، وفي جَلسة لي معه، حين كان المطران «كابوجي» في سجن إسرائيل، وأذيع بأنه أضرب عن الطعام؛ قال مروان: لو كنت مكانه؛ لأكلت، ما هذا الرجل، أهو مجنون؟

وذلك لأنه لا يجيز مثلَ هذه الفِعال، وإنما تعليله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرا (٣٠)﴾[النساء].

وكان الشهيد يقول: أنا لا أقتل نفسي، ولا أعتدي عليها، بل هم يأتونني بالسمّ: البولِ والغائط.

حول أخلاقه وصفاته الشخصية:

- اهتمامه بالشبابِ، وتزويجهم حتى يكونوا مطمئنين نفسياً.

-كريم، سخيّ، شجاع، عفّ: لقد كان الإخوان يرسلون إليه مبلغاً من المال في كلّ شهر، فلما بلغهم عزمه على استمرار عمله العسكري؛ قطعوا عنه المال، حدثني هو بذلك رحمه الله.

أمطرت السماء يوم وفاته:

نزلتُ إلى ساحة الصالحية بدمشق، الساعة الثانية من صباح الثلاثاء، ووصلت مشارفَ حمصَ، حوالي الخامسة صباحاً، وإذ المطر غزير!

فذهبت إلى كراج السيارات، ومن هناك انطلقت حتى أرى الشيخ عبدالعزيز عيون السود، إذ كان عنده في ذلك اليوم درسُ تجويد.

فقال له بعض تلامذته: ما هذا المطر في تموز، فقال الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى:

«بلادنا لا تمطر في الصيف عادةً، وهذا المطر لا ينزل إلا لمصيبةٍ تحل بالمسلمين، أو توفي اليوم رجلٌ من الصالحين» وقد كُسفت الشمس بعد العودة من دفنه(١٣٦).

وقد كان أهم ما يتميز به عن أقرانه؛ الإخلاصُ، والتفاني في خدمة دعوة الله، وترسيخُ فكرة الجهاد في نفوس الشباب.

حدّثني خالد قال: حدثني الشهيد مروان في بانياس، قال: رأيت مناماً.

ثم قال: اليومَ شيخي رسولُ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وحدثني عن الجهاد.

قال: كنت جالساً في زورقٍ، وأنا مُتّجه إلى القبلة، ورسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ مُتّجه إلى مروان، وعن يمين رسول الله موسى، وعن شماله هارون، عليهما السلام.

---

(١٣٦) جاء ذلك توافقاً، مثلما جاء ذلك عقب وفاة السيّد إبراهيم بن الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ، وقد قال الرسول حين قال الناس: كسفت الشمس لوفاة إبراهيم: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؛ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا؛ فَقُومُوا، فَصَلُّوا) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٤١) ومسلم في الكسوف (٩١١).

ورسول الله يكلمه عن الجهاد، وبينما هم كذلك؛ إذ رجل على الشاطئ يريد أن يأخذ لهم صورة فوتوغرافية، قال: فغاب المركب.

قال الشهيد مروان: ومع ورود الأحاديث الصحيحة المطلقة في حرمة التصوير، فإنني كنتُ مَرِناً في عدم منع بعض الشباب من التصويرِ، إذا كان بِقِلّة.

أما الآن؛ فأرى حرمةَ التصوير آكد، ولا أسمح لأحد أن يُصوّرَني.

قال الدكتور خالد: وكل صورة أُخذت للشيخ مروان؛ فقد أُخذت له من بعض تلامذته، في غفلةٍ من الشهيد.

تربيته لإخوانه على حساسية الورع:

قال الدكتور خالد: لقد اشتغلت مع الشهيد مروان بتجارة الزيت شريكاً، وكنت قد ملأت الزيت بنفسي، فحين أُسأل عن جَودة الزيت؛ أقول: هو زيت جيّد، ملأته بنفسي، وأنا صادق، فيأتي الشهيد، ويأخذني جانباً، ويقول لي: تعال هكذا.

ثم يلتفت إلى السائل، ويقول: هذا عكر الزيت، فإن أحببت أن تشتري، وإلا فلك الخيار.

ويُذكر للشهيد في هذه المناسبة وقوفُه أمام عربة الخضارِ القابعة أمامَ الدكان التي فتحها في حيّ الحاضر، وتلميعُه التفاحَ والبرتقال!

ضرورة القوّة لنصرة الحقّ:

قال الدكتور خالد: كان الشهيد مروان يرى أن الحقّ لا يتحقق إلا بالقوة، ووجود الشيخ سعيد حَوّى داخلَ السجنِ؛ لا يخرجه تأليف ألف كتاب، والذي يخرجه من السجنِ؛ السيفُ، لا الكلام.

قال مروان: ونبقى بناتٍ، ما لم نُخرجْ الشيخَ سعيداً من السجن، وإن أي أخ مع الشيخ سعيد؛ مكانته عندنا كمكانة الشيخ سعيد نفسه.

قال خالد: ويُستدل بهذا على أن الشهيد مروان كان لا يُفضّلُ أحداً من إخوانه على أحد، كما لم يَكُنْ احترامُ أحدِ إخوانه؛ يمنعه من قول كلمة الحق له.

وكان يَخدمُ العلماء الذين يزورونه في مخبئه، كان إذا علم بقدوم أحد منهم؛ أمرَ بترتيب المنزل، حتى يُحسن وفادَتهم، واستقبالهم.

وكان يتصل بالعلماء خفيةً في الليل، حتى إنه ذهب وحده مرةً للقاء أحدهم، وهو الشيخ مُحَمّد عوض تلميذِ الشيخ عبدالكريم الرفاعيّ، وعقب عودته من لقائه قال: «لم يَنْزل في قلبي، سبحان الله!».

كان لا يبدأ بالطعامِ قبلَ أن يبدأ غيره، وكان يكون أوّلَ القائمين.

نمت عنده حوالي (٢٩) يوماً، فكان يكثر الصيام، وكان بعد منتصف الليل يقوم لله تعالى، فقلت له: في النهار صيامٌ ومناقشات مع الناس، وفي الليل قيامٌ وعدم نوم.

يتهمونه بعدم الاحتراس:

لقد كان الشهيد مروان رحمه الله قد أعطى إشارةَ تعارف، هي (٣) قرعاتٍ للجرسِ، فإذا قُرِع الجرسُ أكثرَ أو أقلَّ من ثلاثٍ؛ يُلقّم سلاحَه، ويُصوّبه جِهةَ الباب.

موقفه من الصوفية: كان يُهاجمُ الطرقَ الصوفيّةَ، ولكنّه لا يُهاجمها بحدّةٍ وعنف!

وكان يقول: أنا لست مستعداً أن أجلس جِلسةً معينة، وأضع لساني بوضعية معينة على حسب طريق «النقشبندية» في كيفيّة الذكر، وقد كان رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ؛ يذكر الله على كل حال، ويقول: (لا يزال لسانك رطباً بذكر الله)[١٣٧].

---

(١٣٧) من حديث عبدالله بن بُسرٍ رضي الله عنه؛ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨١٤) والحاكم في مستدركه (١٨٢٢) وقال: «حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه» والترمذي في جامعه (٣٣٧٥) وقال: «حديث حسنٌ غريب من هذا الوجه».

إلا أنّ الشهيد مروان كان يبتسمُ وهو يناقش الصوفيّة، حتى لا يخرج النقاش عن غايته وينقلب إلى تَعصّب وتحزّب، ولفظه الدائم في النقاش مع الجميع: «يا أخي».

ومن تواضعه: أنه إذا جلس مع أكبر قائدٍ، أو مع أصغر أخٍ من إخوانه، لا تَجِدُ كبيرَ فارقٍ، فهو يحترم هذا وهذا، مع مراعاةِ فارق السنّ، من دون شطط.

حدثني الشهيد مروان قال: إنهم كانوا في نقاش حول رأي الحنفية في المسكرات، فقال للشيخ ناصر الألبانيّ: هو مع السلفية المعتدلة: هو ضد البدع، وضد تقديس المشايخ وضد الحضرات التي لا يجري فيها ذكر الله كما يجب، إلا أنه لا يؤيد التنطع والجمود.

رأيه في الاحتفال بالمولد النبويّ:

كان يقول رحمه الله: نحن نستطيع أن نُحدثَ ثورة في المولد، وهؤلاء إخواننا السلفيونَ، يقفون عند ظاهر: «وَرَدَ» و«لم يَرِد!» ونحن لا نريد الاحتفال بالمولد لأنه مولد، وإنما نستغله لمصلحة شرعية.

بل إن الشهيد مروان كان يمرُّ على العلماء، واحداً فواحداً، حتى يَدْعُوَهم إلى المولد النبوي، وكان يطبع اللافتات كنوع من الدعوة إلى الله، لا للاحتفال بتلاوة قصة المولد الذي يتلوه المتصوفة.

لقاء مع المفتي:

لقد دعا الحزبيون مفتي حماة الشيخ بشير المراد، فاستجاب، وذهب إلى مقرّ حزبهم، وكان مقرّ الحزب أمام «سينما» حماة، فدخل المفتي، وحضر لهم احتفالية معينة!

فسمع الشهيد مروان بالقصةِ، فذهب إلى المفتي مع عدد من إخوانه، فقرع عليه الباب وكان المفتي نائماً، فطلب إيقاظه، وقال له: اسمح لنا بالدخول!

وجوهر ما جرى بينهما من حوار أنّ الشهيد قال له: أنت مسلمٌ، ومفتي البلد، وليس في صالحك، ولا صالح المسلمين أن تدخل مَقَرَّ الحزب؛ إذْ إنك قدوة، فإذا رأى العامة المفتي داخلَ الحزبِ؛ صاروا حزبيين، ويكونون برقبتك، ومن كثّر سواد قومٍ؛ فهو منهم.

فقال له المفتي: نحن نريد العيشَ، وأنا والله أكرههم من كل كياني، وأنا ليس حولي أحد! ثم وعده المفتي بأنه لن يذهب ثانيةً، ولو أصبح بائعَ برتقال.

صلته بجماعة الإخوان المسلمين:

قال الدكتور خالد: سمعت الشهيد مروان يقول: إذا كانت الجماعة تنهج المنهج السياسيّ، والاعتماد على النواحي الفكريّة؛ فإنها لن تصمدَ، إذا هَبّت ريحُ الباطل!

وإذا كانت رسالةُ الإسلام التي خطها في هذا العصر الشهيد حسن البنا أمانةً في أعناقنا؛ فإنه لن يحميَها، ولن يُمكّنَ لها إلا القوّةُ.

قال خالد: قلت: ألا ترى معي أن قوله تعالى: ﴿القويُّ الأمين﴾ يستأنس به على أن الصفات الشخصية الخاصةَ، تبقى منحصرة في صاحبها، ما لم يُمَكّنْ لها من التجسد بالقوة؟

وكان يرى أن في رسائل الشهيد حسن البنّا سرّ بقاء الجماعةِ، وأنها تصلح اليوم؛ لأنها كليات أساسية، بينما كانت الجماعة ترى تعديلها وتطويرها، في كلّ مرحلة.

وكان يتبنى منهج الشهيد البنّا، وكانت تعجبه أفكار سيّد قطب رحمهم الله.

وكان يقول: لقد اعتَقَل الطاغية عبدالناصر (٤٠) ألف أخ مسلم، فلو كان مع كل واحد منهم مسدسٌ؛ لحرّروا مصر والسودان! أمّا أربعون ألف كتابٍ؛ فإنها لا تحرر شيئاً.

وكان يرى أن نظام «الخليّة الإخوانية» يجب أن يكون على غير ما هو عليه.

فالقرآن الكريم؛ يمكن أن يقرأ في البيت، وكذلك كتب سيّد وغيره، أما النواحي الجهادية؛ فلا بد من التركيز عليها.

وكان من وسائل ترسيخه فكرة الجهاد في نفوس الشباب؛ المقايسةُ مع أهل الباطل!

فكان يذكر الأمثلة عن عددٍ من المقاتلين الشيوعيين، ونحوهم.

وكان يكثر من استدلاله بالآيات القرآنية في حثّ الشباب على تبني فكرة الجهاد، من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة : ١١١].

هل يمكن تغيير اسم الجماعة مع وحدة المنهج؟

لم يكن الشهيد مروان يرى الاستمساك باسم جماعة «الإخوان المسلمين» ضروريّاً، بعد أن كَثُر أعداؤها، فيمكن تغيير الاسم بأي اسمٍ مشروعٍ.

– اتهامه بأنه يريد فض الجماعة:

كانوا يقولون: كلُّ مَن مع مروان عشرة إلى خمسة عشر شاباً، فكان يقول: «الجماعة هي الحق، ولو كنت وحدك» فهو يريد فضّ الجماعة؟

علاقته بالأستاذ عصام:

كان الشهيد مروان يحب عصام العطار عاطفياً، وكان عصام يريد أن لا يخسر مروانَ، وإن كان يخالفه في كثيرٍ من آرائه.

قال خالد: كنت في اجتماع مع الشهيد مروان، وتوفيق بركات، وحسني عابو.

فقال حسني: إن بعضَ الإخوان في ألمانيا؛ قد تحللوا قليلاً، أو كثيراً من مبادئهم، حتى إن بناتهم صارت تكشف عن مفاتنها، ونحو ذلك!

فقال الشهيد مروان ردّاً على كلامه: كان الشيخ عبدالفتاح يناقش واحداً، فأراد توفيق بركات أن يتدخل، فقال المناقش للشيخ توفيق: تأدّبْ، فأنت في حضرة المراقب العام!

فأنكر مروان على الشيخ عبدالفتاح سكوتَه عن هذا الإطناب، كما أنكر على المعترض المناقش هذا الأسلوب المنافي لتربية الإخوان المسلمين!

فالشهيد يريد أن يثبت أن جماعة الشيخ عبدالفتّاح؛ ليست على حق.

فكان مروان مؤيداً لفكرة عصام، ولكنه لم يكن مع الدمشقيين الذين كانوا حوله، وكان يرى أن هؤلاء لا خير فيهم!

يتهمون الشهيد مروان أنه فوضوي، ولكن الحقيقة أن الذين يعارضونه، ويتهمونه بذلك؛ ثبت أنهم فوضويون أكثر منه.

كان مَروان يؤيّدُ العلنيّة، دون السرية في الدعوة، ويقول: في كل مكان دعوتنا، مهما نلنا في سبيل ذلك، ثم رأى أن العمل العسكري يجب أن يكون سرياً.

قال الدكتور خالد في ختام شهادته: لقد ربّى الشهيد مروان شباباً أبطالاً، من أمثال القائد الشهيد عبدالستار الزعيم.

كانت الجماعة ترفضُ ربطَ عبدالستار في خليّة من خلايا الإخوان!؟ ولكنه أثبت بجدارته أنه زعيم التنظيم العسكري في سورية!

وليعطونا شبابهم الذين ربّوهم في معزل عن الشهيد مروان؟ هل منهم هشام، أو بسام، أو حسني عابو، أو فيصل، أو بدر ذكرى، أو زكي صفدي، أو مأمون كاخي، أو فلانٌ وفلانٌ!

وكان الشهيد عمر مرقة على صلة بالجماعة، ثم استطاع أن يجبر الجماعة على انتهاج السبيل العسكريّ، بالتنسيق مع الشهيد عبدالستار، رحمهم الله تعالى.

****

قال عداب تصديقاً لكلام الدكتور خالد:

في أواخر عام (١٩٧٥م) زارني الشهيد عمر مرقة رحمه الله تعالى في طرابلس وكنت على صلة قوية مع تنظيم «جند الله» الطرابلسيّ، فقال لي: بأنّ شباب الجماعة يحتاجون للتدريب العسكريّ؛ لأنه لم يسبق لأكثرهم رؤيةُ السلاح، ونحن سنعتمد بعد الله عزّ وجلّ عليك في إدارة شؤونهم، والإشراف على تدريبهم شخصيّاً هنا»

ووضعنا خطة العمل المشتركة، وقال لي: في بداية الشهر سيصلك موفق عيّاش مع أول دفعةٍ منهم.

يا أخي أبا محمود: الشهيد مروان تحت رحمة الله تعالى، ونحن لا ندري عن مصيره شيئاً، وأنت تعلم أنّ الشهيد مروان كان يقول: «مهمّتنا تنتهي عندما تتبنى الجماعة الجهاد والعمل العسكريّ».

وها أنا آتٍ إليك من قِبَل الجماعة، وأحدثك باسمهم، وبناء على كلام شيخنا مروان؛ يجب أن تعودَ إلى صفوف الجماعة، وتبايع بيعةَ الجماعة، وأنا أحمل بيعتك إليهم، حتى يكون عملنا منتظماً، لا اعتراض عليه من أحدٍ!

إنّ شباب الإخوان سيكونون تحت إمرتك، فكيف يسمح الإخوانُ بهذا لرجل ليس من الإخوان؟

فأعطيته البيعةَ لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا، مشروطةً باستمرارها على خطّ الجهاد المبارك، وعدم إهمالها لشباب الشيخ مروان.

وقبل نهاية الشهر؛ جاءني خبرٌ مفاده أن موفق عياش قد اعتقل، ولم يتّصل بي أحدٌ من الجماعة، بعد هذا التاريخ.

****

(١٤) شهادة الأخ عادل حيدر الدمشقيّ:

الأخ عادل حيدر أبو عبدالرحمن، من إخوان الشهيد مروان الدمشقيين، وممن اعتقلوا سنواتٍ بهذه التهمة!

وعقب خروجه من السجن؛ قصد بيتَ الله الحرام؛ لأداء مناسك العمرة، فكان بيننا أكثرُ من لقاء، ومنها اللقاءُ الآتي:

بحضور شيخ قرّاء حماة شيخنا سعيد عبدالله الخالدي، والأخ عبدالرزاق علي القطان وخمسةٍ آخرين من الثقات؛ حدّثنا الأخ عادل قال: اعتقلتني المخابرات، وأودعوني في سجن المزة.

وفي (٢١) من أيّار من سنة (١٩٧٦م) قُرب الظهر، كان السجن في حركةٍ، وأبوابُ الزنزانات في فَتح وغَلقٍ، والمرءُ داخل الزنزانات لا يعرف شيئاً، حتى فُتح باب زنزانتي، ووقف رئيس الحرس يقول: أنت ما اسمك؟ وأنت ما اسمك؟ حتى وصل إليَّ، وقال: ما اسمك أنت؟ فقلت: عادل حيدر.

وكان معي اثنان: نَبيّل حُوّارة، ومُحَمّد جوهر، والزنزانة ضيّقة، فالتفت رئيس الحرس إليَّ قائلاً: حَضّر أغراضك كلّها، ولا تبقي شيئاً، حتى كأنه لا علاقة لك بالزنزانة نهائياً.

وحملتُ ملابسي، وتركت فراشي الذي سعى لي به أحد الجنود، ونزلت إلى أسفل، فرأيت هيئةَ السجن كلها مجتمعةً، من نائب رئيس السجنِ، وحتى الحراس!

فنادَوني، فجئتُ، وسألوني: ما اسمك؟

ثم قالوا: هل تعرف مروان حديد؟ قلت: أظن أنني رأيته؟!

قال أحدهم: الآن نريد أن ندخلك الزنزانة عنده، مروان مُضرب عن الطعام، وقد بقي له فترة لا بأس بها مضرباً، ونريد منك أن تقنعه بترك الإضراب، بشتى الأساليب.

وفعلاً أدخلوني إلى الزنزانة، وكان مروان في الزنزانة رقم (٥) وحده، وكان كالخيال!

كان معه نصراني من آل المانع من حوران، ثمّ نقلو الشهيد إلى زنزانة رقم (٩).

وكان في الزنزانة رقم (٨) الأخوة: غالب حداد، ومُحَمّد عجعوج، وعلي صليعي، وأحمد خبّاز، وغالب كلبونة.

كان في كل زنزانة خمسةٌ إلا زنزانتنا رقم (٩) فليس فيها إلا الشهيد وأنا.

وحين دخلت على الشهيد؛ دخلت بصورة أنني لا أعرفه، وقال: أهلاً ببياع البلور!

وذلك حين أنكرت معرفتي به؛ ادّعيت أنني ركّبت له زجاجَ النافذة في البرامكة، وحين سألوه عني؛ أنكر معرفتَه بي!

وحين قالوا له ما قلتُه أنا في شهادتي؛ اعترف بأن واحداً ركّب البلور لنافذة عنده، من دون معرفة.

وقالوا لي: هل أخذت ثمن البلور؟ فقلت : نعم.

حين دخلت عليه؛ رأيته نحيلاً جدّاً، وكنتُ أتصور أن وزنه في تلك اللحظة لا يتجاوز (٤٠) كيلو غراماً، وكان قد مضى عليه خمسة أيام بلا أكل وشرب، وكان قد أضرب عن الطعام والشراب.

وكان الحراس قد دخلوا معنا، وأحضروا لي بقية الأغراض، وتمسك الشباب ببعضها.

وكان الشهيد لا يستطيع الوقوف على قدميه، وإنما كان يحملونه حملاً.

وكان يتوضأ وهو جالسٌ، وحين قضاء الحاجةِ؛ كان يتعب كثيراً.

ولما خرج الحراسُ؛ جاء الدكتور طارق شيشكلي وفحصه، فكان ضغطه منخفضاً جداً (٧٠/٧٥) فأعطاه نقاطاً من أجل رفع الضغط، وترك له بعض الأدوية.

وطلبوا منه أن يأكل، فرفضَ، ولكنه رضي أن يشرب كل شرابٍ، والحليبَ.

وقال له الدكتور طارق: يا شيخ مروان: هم يريدون قتلك، وهم لا يطبّبونك لكي تبقى حياً، ولقد سمعت بأذني أن بعضهم يقول: لماذا لم نُخَلِّص عليه حين قبضنا عليه، فلا تساعدهم على قتلك! وكان الطبيبُ مُهتمّاً بشأن الشيخ الشهيد.

وبعد أن خرج الطبيب؛ سلمنا على بعضٍ سلامَ الأحباب.

كان الشيخُ متشوقاً لسماع أخبار البيت: ماذا جرى لزوجته، ماذا جرى لزوجة أخيه عداب، ماذا جرى لإخوانه في البيت، وقصصتُ عليه الذي جرى في البيتِ، حسبَ ما سمعنا من الأخ مأمون.

ثم سألته كيف تم اعتقالك؛ لأننا لسنا على معرفة بهذا الأمر، إذ تضاربت الآراء كثيراً!

فمن قائل: إنه قتل، ومن قائل: إنه سجن، ومن قائل: إنّه اشتبك مع المخابرات في معركة دارت عِدَّة ساعات.

فقال الشهيد: في حوالي الخامسة والنصف صباحاً؛ كنت على موعد مع «مصطفى جيرو» إذ كنت قد أعطيته «منشور الجهاد» المنشور الثاني؛ ليوزعه على علماء اللاذقية لأخذ آرائهم، وجاء مصطفى جيرو بعد الموعد بقليل، وفتحتُ له الباب، وكان قد اتفق معي على أن لا يعرفه الشباب، وأن أخْلُوَ به للحديث معه وحده!

فدخل مصطفى إلى غرفة منفردةٍ، وهي غرفة الاستقبال بالنسبة للبيت.

فسأله الشهيد مروان: ماذا جرى معك بالنسبة للمنشور؟

فكان جوابه: أنه أعطاه إلى آخر لتوزيعه على العلماء، فقال له الشيخ: يمكن أن يكون المنشور قد وصل إلى المخابرات؟ فقال مصطفى: ممكن ذلك.

فتنغص الشيخ وتألّم.

وفي تلك اللحظةِ؛ طلب مصطفى الخروجَ؛ معتذراً بأنه لا يريد تفويت بداية الدوام!

إذ هو مجنّد في الجيش!

فخرج معه الشهيد إلى الباب، وفتحه له، فأخرج مصطفى رجلاً، وأبقى أخرى متصنعاً أنه نسي شيئاً يريد أن يقوله للشيخ.

وفي تلك اللحظة دفع الباب اثنان، وأمسك كلٌّ واحد بالشيخ من طرفٍ، وجذباه إلى الخارج جذباً شديداً، وأرادا إغلاق الباب؛ فلم يتمكنا لأن الباب لا قفل له.

وبدأ الشيخ يقاومهما، فأطلق أحدهما الرصاص عليه، وضربه بفوهة المسدس ضرباً مؤلماً، وسحبوه على الدرج، وهو يصرخ «الله أكبر» ليسمع الذين في الداخل أنه قد اعتقل!

وحين وصل إلى الأسفلِ؛ كان شِبْهَ مُغمىً عليه، ووُضع في السيارةِ، وأُخذ إلى سجن المزةِ، فكانت اللجنةُ مجتمعةً للتحقيق معه فوراً!

وقال لي أبو خالد: ماذا جرى بالنسبة لأهل البيت؟

فقلت له: إن الأخ زكي قد استشهدَ!

فقال لي: لقد رأيته في المنام يقول لي: لقد أخذت مكانَك يا أبا خالد، والأخ أبو محمودٍ (عداب) تمكّن من الهرب من بين أيديهم، والبقية معتقلون.

امتناعه عن الطعام:

قال الأخ عادل: هناك قاعِدَة يعرفها كل سجين، وهي أنّ أفضل سلاح له؛ هو الإضراب عن الطعام، وأراد الشيخ أن يستخدم هذا السلاحَ؛ لأنه قد طلب عِدَّة أمور فلم يفلح.

– طلب مصحفاً، فرفضوا، فأضربَ، فأحضروا له ما طلب.

– في إحدى المراتِ، أحضروا له صحونَ الطعام، وعند الانتهاء منها؛ وضعها أبو خالد قُربَ الباب ليأخذها الجنديّ، ولما جاء الجنديّ؛ طلب من الشهيد أن يناولَه إيّاها، فلم يردّ

عليه، فضرب الجندي الصحون برجله، وتلفّظ ألفاظاً مؤذية، فحلف الشهيد أبو خالد أنه لا يلمس صحناً بإخراج، أو بإدخال!

وحاولوا إقناعَه بغير هذا بالإرهاب وبالترغيب، ثم نزلوا على رأيه.

السبب الثالث: أنه كلما دخل زنزانة وجد عشرين أو ثلاثين اسماً، وكلٌّ يكتب أن سبب اعتقاله أنهم اتهموه بأنه من مجموعة مروان، فكان يتألم لأنه لا يعرف كثيرين منهم، وطلب أن يكتب كتاباً لرئيس الجمهورية، ورفضوا، فأضرب عن الطعامِ، ثم أحضروا له قلماً وورقةً مسايرةً ، فكتب إليه عِدَّة مطالب، أهمها:

١ – الإفراجِ عن المعتقلين السياسيين.

٢ – إذا ثبت شيء على أحد يقدم للمحاكمةِ؛ إذ الاعتقال العرفي لا مبرر له.

٣ – حرية الفكر والدعوة في البلاد.

وقال: آخر موعدٍ لكم مدة شهر، فإذا أجيبت هذه الطلبات؛ وإلا فهو ممتنع عن الطعام، ولكن المهلةَ مضت، ولم يشعر بأي تجاوب، وكان ذلك بداية إضرابه الطويل الذي استمر ستين يوماً!

وكان لهذا الإضراب أثرٌ كبير على مَعِدته وجسمه، حتى قال له الدكتور الطبيب: «معدتك يأكل بعضُها بعضاً، وعما قريب ستصبح كقطعة الجلدِ اليابسة».

وبعد هذه الفترة وضعوه في زنزانته رقم (٥) ووضعوا معه رجلاً نصرانياً، علّمه التيمم حتى يقرأ له القرآن؛ لأنه كان قد خفّ بصره، فقرأ له حوالي (٢٥) جزءاً من القرآن.

وفي الخمسة الأيّام الأخيرة من زنزانة رقم (٥) أضرب الإضراب الكلي عن الطعام والشراب، وكان في هذه المدة الطويلة يصومُ، وفطوره وسحوره الماء فقط.

وكان قد أتمّ حفظ القرآن الكريم، وراجعه مرتين أو ثلاثاً حفظاً، حتى لقائي إيّاه في زنزانة (٩) داخلي.

وثمة سبب آخر كان حافزاً لامتناعه عن الطعام، وهو ما أسماه «مراقبة الفكر!».

إذ كان يشعر أن لديهم أجهزةً يسلطونها على الإنسان، يستطيعون بها التأثير على فكره، إذ كان يسمع زوجته تصرخ وهي تستغيث، ويسمع أصواتَ تعذيب، وأحياناً كان يسمع صوتَ نفسه بماذا يفكر.

فقلت في نفسي: إنّ الشيخ قد تأثر نتيجة التعذيبِ، والإضراب عن الطعام!

حتى إذا خرجتُ من عنده؛ علمتُ أنْ ليس الشيخ وحده بهذه الصورة، وإنما خضع لنفس التأثير عددٌ من الرجالِ، منهم:

الشيخ مُحَمّد علي مشعل الحمصيّ المعروف.

وجمال الصوفي، وكان وزيرَ التموين، وهو عقيدٌ بحريٌّ.

ومنهم شخص فدائي، حدثني أنهم كانوا يضعونه في زنزانة مظلمةٍ، فكان يرى خيالاتٍ وأصواتاً كأفلام السينما، تحكي صور زوجته، أو ابنته، أو أناس يهجمون عليه لضربه.

وقد كنتُ مَرّة سمعتُ صوتَ «صفير» فقال: اسمع! هذا صوتُ الجهاز قد شغّلوه.

وفي هذه الحالةِ؛ كان يحاول أن لا يتكلم بشيء مهمّ.

وهناك حادثة أخرى، كان الشهيدُ فيها مُهتمّاً جداً؛ إذ قد رأينا فعلاً بعضَ الأجهزة اللاقطة في فترة التحقيق الثانيةِ، حيث كانوا يُحصون أنفاسَ الشبابِ، ويعرفون دقائق ما يحدث بين الأخ وأخيه.

وقال لي: إنني أجلسُ ساعة أو ساعتين، أتكلّم معهم وأشتمهم، وكان يقول: إن جسمي محبوس، وعقلي محبوس!

وهنا سألته: أخي عادل: هل حصل للشهيد مروان اضطراب في فكره، من آثار التعذيب؟

فقال: لا، أبداً! كان حفظه جيداً وكنا نتناقش في بعض الأمور الفقهية، فكان واعياً تماماً، وقد أحضروا لنا الجزء الأول من تفسيرَ ابن كثير، وكتاب «الإسلام في الغرب».

وفي هذا الكتاب تعدادُ أسماء الأماكن، وتواريخُ فقط، فكان يحفظ حفظاً جيداً.

ولم ألاحظ أيّ خللٍ، بل على العكس كان في تمام الوعي والإدراك والتوازن، مما يُرجّح لديّ، بل لا بد من وجود مؤثر خارجي عليه.

وبرنامجنا اليومي: في النهار: نصلي الظهرَ، ثم أنام، فيوقظني لنصلي العصر، ثمّ نستمرّ حتى قبيل المغرب نقرأ المأثوراتِ، حتى يحينَ موعدُ الإفطار، إذ الصيام دائم، فنفطر.

وكان يشرب الحليبَ والسوائلَ، فتحسنت صحة الشيخ تحسناً ملموساً.

وبعد الفطور كنتُ أنام، فكان يوقظني قُرابةَ الساعة العاشرةِ، فنتوضأ، ونصلّي العشاء، ويبدأ البرنامج الليليّ:

- قراءة القرآنِ حتى التعب، قراءة ترتيلٍ، لا يسمح لي إلا بالترتيلِ، قُرابةَ ثلاثة أجزاء إلى خمسة أجزاء.

- صلاة القيام: حيث كنا نصلي ثماني ركعات.

- الذكر: لا إله إلا الله، وكان يكرّرُ أسماء الله الحسنى قُرابةَ ساعة: لا إله إلا الله الحي القيوم...

- الاستعداد لصلاة الفجر: وحين يكون قد قارب الفجرُ؛ أجهز له السحورَ، وهو كوبُ لبنٍ، أو حليبٍ، أو شوربة.

– صلاةُ الفجر: كنت أحاول أن يصلي الفجر إماماً بي، فكان كلّما صلّى؛ يبدأ القراءة بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران : ١٣٧].

بل إنه كان يطلب مني أن أقرأها حين يأمرني أن أصلي به إماماً.

ولما كان عندنا تفسير ابن كثير، فإنه لم يبدأ القراءة من أول التفسير، وإنما كان يقرأ مواضع محددة، ويؤكّد على مبحث خاص.

فلسفته في ترك الطعام

يقول الشهيد مروان: إن المسلم لا يُسلم نفسَه طواعيةً للكفار؛ مستنداً إلى حديث كان يردده كثيراً: (من أعطى الدنيّة من نفسه؛ طائعاً غيرَ مُكرهٍ؛ فليس مني)[١٣٨].

وعلى هذا؛ فقد كان يحمل في يده شيئاً يسميه «سلاحاً» مهما كان يسيراً، حتى ولو كان ملعقةً، فيبدأ يَسُنها حتى تغدو كالشفرة، وكان يحتفظ بها.

وفي إحدى المراتِ؛ طلبوه لمقابلة رئيس السجنِ، فأخذها معه، وما استطاعوا أخذها منه، إلا بصعوبة شديدةٍ، ولم يتركوا بعدها معه شيئاً.

وقد تناقشتُ معه حول الإضراب عن الطعام، وقلت له: قد يوصلك هذا إلى الموت فهل يجوز هذا؟

فأجاب: إذا نزلَ المؤمنُ لمجابهة الأعداءِ في معركة، وماتَ، فهل هذا يُعَدّ انتحاراً؟

---

(١٣٨) طرفٌ من حديث أبي ذرٍّ الغفاريّ رضي الله عنه، بنحوه؛ أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٤٧١) وقال: «لا يُروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد، تفرّد به يزيد بن ربيعة» وأورده الهيثميّ في مجمع الزوائد (١٧٨١٨) وقال: في إسناده يزيدُ بن ربيعة الرحْبيّ، وهو متروك.

والسجين ليس بيده سلاحٌ، إلا هذا السلاح، وهذا سلاح مشهور معروف لدى السجناءِ عامّةً.

فاتّخذَ الشهيدُ هذا السلاحَ، واعتبر نفسه في معركةٍ؛ ليدافع عن نفسه، ويجاهد به الأعداء.

فقلت له: أولاً: هذا اجتهاد خاص منك؟ فقال: طبعاً.

ثانياً: الناس بحاجة إلى إنسانٍ حَيٍّ يحمل هذه الفكرة؟

فقال: لا! أنا أشعر تماماً أن الشبابَ لن يتحركوا إلا بعد موتي، وإنني أرجو أن تكون وفاتيَ؛ هي الحافزَ للشباب المسلم حتى يبدؤوا العمل.

قال عادل: وكانت هذه الفكرة مسيطرة عليه تماماً.

امتناعه عن الطعام والشراب نهائياً:

ابتدأ امتناعه عن الطعام والشراب في (١) حزيران، عام (١٩٧٦م).

شكا في إحدى الليالي من وجع في بطنه، ثم تبين له أنه أصيب بحصر في البول، وانتفخ بطنه انتفاخاً ظاهراً، وبدا يتألم ألماً شديداً، حتى إنه كان يشعر أنه سيموت.

ومرةً دخل الحمّام، فكان يتشهدُ خشيةَ أن توافيه المنيةُ داخل الحمام!

كان ذلك بعد الساعة العاشرة ليلاً، وطلبنا له الطبيب، فقيل: إنه غير موجود، ولم يأت الطبيب إلا في ظهر اليوم الثاني.

ولما جاء الطبيب؛ وجد أنه مصاب بتصلبٍ في عضلات المثانة، فعالجه بإبرة بالوريد.

وجلست معه أنا حوالي خمسة عشر يوماً، وفصلوني عنه بعد خمسة أيامٍ من إضرابه النهائيّ عن الطعام والشراب، الذي استمر أكثرَ من شهر ونصف الشهر، واستشهد في (١٩) تموز (١٩٧٦م).

وسألته: أخي عادل: هل باح الشهيد بشيء للمخابرات؟

فقال: لم يَبُح بشيء إطلاقاً، حتى أتوه بالأخ مُحَمّد عجعوع على الزنزانة، فتكلم معه الأخ مُحَمّد تحت الضغط كلاماً غير لائق!

فقال له الشهيد مروان: سامحك الله، من أنت؟ فقال: أنا فلان!

فقال له: مَن فلان؟ متجاهلاً أنه يعرفه من قبلُ، وكان موقفه مثالاً للثبات والوعي وضبط الأعصاب.

وسألته: أخي عادل: هل حدثك بشيءٍ عن التعذيب الذي لقيه؟

فقال: نعم قال لي: كان عارياً تماماً في يوم اعتقاله، والدم ينزف من عِدَّة جهات من جسمه.

وفي فترة إضرابه الأول عن الطعام؛ كانوا يُرهبونه إرهاباً شديداً، فيأتون له باثنين من الملاكمين، فكان يتدربون بالشيخ، وكان الشيخ نحيلاً ضعيفاً، لا يقوى على الدفاع عن نفسه إطلاقاً.

وكان أحدُ الملاكِمَين من آل الجابي، عرفه المجاهدون، فقتلوه في سوق الحميديّة بدمشقَ فيما بعد!

وحين يُطلب إلى لجنة التحقيقِ؛ لا يذهب إليهم بنفسه، فيضطرون لحمله إلى مكان اللجنة المشؤومة.

جرأته حتى في لحظات الضعف:

- قال عادل: كانت إدارة السجن مجتمعةً، تريد إهانته، فما كان منه إلا أن قال لهم: شاهت الوجوه، شاهت الوجوه، شاهت الوجوه!

- قال الشهيد: كان مدير السجن فوق رأسي يسألني: كيف صحتك؟

فقلتُ له: تصور نفسك أنك ميّتٌ، لا حول لك ولا قوة، فماذا تفيدك مكانتك ومركزك؟ وهذه الرتب على كتفك؟

قال الشهيد مروان: فرأيت أمارات الرُعبِ والرَهَب باديةً على وجهه.

– حين بلغه أن مأمون قادمٌ؛ كانت قد أخذته حالةٌ من الحماس العجيب، حتى صار يضرب حائط الزنزانة، وينشد له «اسمعها يا خوي، اسمعها مني!».

كتب في السجن قصيدة «ربي خلقني» وقصيدة « الروح ستشرق من غدها».

وسألتُه عن وصيته:

فقال عادل: إن وصيته التي كتبها الشهيد مروان؛ هي التي نُشرت في جريدة النذير.

وسألته: هل كانت تصله هدايا أهله؟

فقال عادل: لم تكن تصله فلوس من أهله؛ لأنهم كانوا لا يقبلون.

قال عادل: وكان الشهيد يُثني على آل «عربي جوهر» ويوصي بهم خيراً.

وفي لقاء آخر حدثني الأخ عادل حيدر أبو عبدالرحمن: «قال حدثني عربي جوهر قال: أمرني الأخ الشهيد أبو خالد أن أحمل المنشور إلى الدكتور البوطي، فكانت مقابلة البوطي غريبة ذلك اليوم، إذ كان يتلقاني قبلَها بحرارة، ولم يُدخلني غرفةَ الضيوف في ذلك اليوم، وإنما استقبلني على مقعدٍ جانبِيّ في مدخل البيت.

قال عربي: فأعطيته المنشور، فقرأه الدكتور، وعندما انتهى من قراءته سأله عربي: ما رأيك؟

فقال الشيخ البوطي: هذا جنون، هذا جنونٌ، وكررها أكثر من مرة، فقال له عربي: اكتب هذا الكلام ووقع تحته. فقال البوطي: هو أنا مجنون؟ أكتب هذا الكلام وأوقع تحته؟

ورفض الإدلاء بأي كلام آخر!

قال الشهيد عربي: كان الشيخ حسن حبنكة رمزَ الصدق والاستجابة، فلما قرأ المنشور؛ سُرّ به جداً، وقال: «الله يقوي أبا خالد، الله يقويه».

فكان متجاوباً ومؤيداً للأفكار المطروحة في المنشور.

(١٥) شهادة الدكتور رضا معطي:

الدكتور أبو رشيدٍ، رضا بن نعسان من شباب حماة السلفيين، وهو بينه وبين الشيخ سعيد الجابي، شيخ الدعوة السلفية في حماة، قَرابةٌ عائليّة، ولدى الدكتور رضا تراث الشيخ سعيد الجابي المخطوط والمطبوع، وعنه تلقى والده الحاج نعسان الفكرَ السلفيّ.

وكان الشيخ ناصر الألباني إذا زار مدينةَ حماة؛ فلا بد من أن يزور الحاج نعسان!

وكان في كلّ مرة يزور الشيخ الألباني فيها حماة؛ يطلب لقاءَ الشهيد مروان حديد؛ لأنه عاش معه في عام (١٩٦٦م) مدّة من الزمن في سجن تدمر العسكري، وتوطّدت علاقتهما، مع اختلافهما فكرياً وفقهيّاً.

وشهادة الدكتور رضا؛ تؤرخ لبعض هذه الزيارات، التي شهدها بنفسه، ولم أشهد منها أيّ زيارة؛ لأنّ الشهيد مروان كان يتحاشى حدّتي، فكان يبعدني عن مواطن الاحتكاك!

قال أبو رشيد: في إحدى زيارات الشيخ ناصر إلى حماة، زارَ الشهيد مروان في زاويته في حيّ البارودية، وكنت معه، فسهرنا عند الشهيد مروان حتى الصباح، وكان معنا الإخوة: أكرم الريّس، ومُحَمّد الشواف، ومُحَمّد عون، وعبدالرحمن عبدالصمد.

ودار بين الشهيد مروان والشيخ ناصر حوارٌ في مسائل شتى، منها ما رجع فيه الشيخ ناصر إلى قول الشهيد مروان، ومنها مارجع فيه الشهيد مروان إلى قول الشيخ ناصرٍ، وهو الأكثر، ومنها ما بقي كلٌّ منهما فيه على رأيه!

وكان الشهيد مروان في كلّ ذلك على غاية الأدب والاحترام، فلم تصدر منه كلمةٌ محرجة تجاه الشيخ الألباني، كما لم يحتدّ في وجهه، بخلاف بعض الإخوة الذين أرادوا أن يشاركوا، فكان بعضهم يريد النيلَ من الشيخ الألباني، لكن الشهيد مروان؛ كان يمنعهم من ذلك.

قصة ينصر فيها الحق:

قال أبو رشيد: كنا عند الشهيد مروان، وكنت أتكلم على كتاب «باطن الإثم» للدكتور البوطي، فدخل الأخ غازي نيربية، وسمع كلامي، فغضب، فانبرى له الشهيد مروان وقال: إن ما يقوله حق، ولا بد من بيان الحق، والمكتبة الإسلامية بحاجة دائماً.

جرأته في الحق، وبعد أفقه:

كنا عند الشهيد مروان، وكان عنده الشيخ محمود الحامد، وأمين أصفر، فقام الشيخ محمودٌ، وشرح حديثَ (لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية)[١٣٩] وتعرّض فيه إلى أنّ لقاءَ العدوّ؛ ليس من أماني المسلمين، ولا هو رغبةٌ لهم، وبمقدار ما نستطيع تحاشي ذلك الصراعَ؛ فعلينا أن نفعل!

فانبرى له الشهيد مروان، وقال: أنا أفهم غيرَ هذا، هذا حين تكون كلمة الله هي العليا، أما ونحن في الذل، والإسلام في خطر؛ فلا يصحّ هذا الكلام.

قال الشيخ رضا: وكان الشهيد مروان قد زارنا في البيتِ مراراً، وليس عند قدوم الشيخ ناصر فقط!

قال عداب: وقد حدثني الشهيد مروان مرّةً أنه التقى الشيخ صالح النعمان، والشيخ بدر الفتوى، والقاضي مصطفى الخالد في مَنْزِل الحاج نعسان معطي!

([١٣٩]) طرفٌ من حديث عبدالله بن أبي أوفى الأسلميِّ رضي الله عنه؛ أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦) ومسلم في الجهاد والسير أيضاً (١٧٤١).

كما ذكر لي مثلَ هذا القاضي مصطفى نفسه أيضاً، فيما أذكر.

والشهيد مروان يختلف عن أكثر مشايخ حماة الصوفيّة الذين قد شيّدوا سدّاً منيعاً من الكره والبغضاء بينهم وبين الشيخ ناصر الألباني، إلى درجة أنهم كانوا في مجالسهم الخاصة يقولون: إنّ أصله يهوديّ، وبعضهم قال لي: جده الرابع هو اليهوديّ!

فقلت لأحدهم مرة: أنا مَن تعرف نسبي! ولا أعرف الشيخ ناصر الألباني أبداً، ولا أشعر أنني أحبّه قلبياً، لكن إذا كان جدّه الرابع يهودياً؛ فإنّ والد عمر بن الخطاب؛ كان مشركاً، ومات على الشرك! ومهما كان كفر اليهود؛ فهو أقلّ جرماً من كفر المشركين عبدةِ الأصنام، فهل ضرّ أميرَ المؤمنين عمر ذلك شيئاً؟!

أقول: سألت مرّةً شيخي مروان عن نسبه، فقال: وما يعنيك هذا الأمر؟ حتى لو كان أصلي يهودياً أو نصرانيّاً؟ فانقبضتُ من كلامه ذاك!

فقال: لماذا انقبض وجهك هكذا، ألم تعلم ما قاله الله تعالى في مؤمني أهل الكتاب؟

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[القصص: ٥٢- ٥٤].

فالقول بأنّ جدّ الشيخ ناصر الرابع أو الخامس؛ كان من «يهود الخزر» لا يضرّه أبداً لو صحّ، ما دام والده كان عندهم أنفسهم من الصالحين، ومادام الشيخ ناصر ممن أفنَوا حياتهم في خدمة السنة الشريفة.

واختلافنا معه في منهجه الحديثيّ، أو الفكريّ؛ لا يلغي أبداً حقّه في الاجتهاد الذي أدّاه إلى ما توصّل إليه، والله أعلم.

****

(١٦) شهادة الأخ المصريّ الفاضل، سعدالدين الدسوقيّ رحمه الله تعالى:

لم يكن الشهيد مروان رحمه الله تعالى يحب الحديث عن نفسه إطلاقاً، وإذا سألناه عن بعض ما نسمعه، فكان يجيب بالقدر الذي يوضح المراد، مع عدم إشعارنا بأنه ذو مكانةٍ عاليةٍ بين زملائه، وكثيراً ما كانت كلماته توحي بتحرجه أن يتكلم في مثل هذه الأمور.

ومع أنني أحفظ العديد من حوادث مصر، وأيامها؛ إلا أنني آثرت أن أترك أحد الأخوة المصريين الذين زاملوه ولازموه فترة طويلةً من حياته في مصر، ليحدثنا عن الشهيد رحمه الله.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ حياته في مصر تمتد من عام (١٩٥٦م) وحتى شباط (فبراير) من العام (١٩٦٤م) لكن من المعلوم أنه كان يرجع في العطلة الصيفية إلى سوريا، وكان نشاطه في العطلة مكثّفاً، وكان يرعى ما يغرسه في العطلة الصيفية في سوريا، وهو في مصر.

وإنما نبّهنا إلى ذلك حتى لا نوصف بالتناقض؛ لأنّ للشهيد مروان مواقف واضحة جريئة تجاه موقف الإخوان من قانون حلّ الأحزاب في عهد الوحدة.

كما أنه قد اعتقل في حماة، عام (١٩٦٣م) وكانت له مواقف عديدة في سوريا، بينما كانت دراسته في مصر!

كتب إلي الأخ الفاضل الوفيّ الأستاذ أبو مُحَمّد سعدالدين الدسوقيّ رحمه الله تعالى ثلاثَ رسائل مَلأَها بالمعلومات المفيدة عن الشهيد مروان، وسأنقلها بحروفها؛ مكتفياً بذكرها هنا، في ملحق الشهادات، وهي أوسع ما استطعت الوصول إليه من معلوماتٍ عن حياته في مصر (١٩٥٦- ١٩٦٤م).

الرسالة الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم

العَين في الأربعاء (١٩) جُمادى الأولى، سنةَ (١٤٠١ هـ) (٢٥) مارس، سنةَ (١٩٨١م).

الأخ الحبيب عداب...السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فأسأل الله الكريمَ أن تكون في خير حالٍ، وراحةِ بالٍ، وهدوءِ نفسٍ، وأن يجمعنا الله على طريق الحبّ والخير والإخاء.

أخي الحبيب.. أكتب إليك دون سابق لقاء، ولكن ما بيننا من حبٍّ في اللهِ؛ جعل أرواحنا تتلاقى مع كل عمل خيّرٍ، أو خطوة في طريق الجهاد!

فـ(الأرواح جنودٌ مجنّدة، ما تعارف منها؛ ائتلف، وما تنافر منها؛ اختلف) (١٤٠).

طلب مني الأخ عبدالعزيز الريّس أن أكتب لك مقتطفاتٍ عن حياة أخينا الشهيد مروان حديد، في أثناء فترة وجوده بمصر.

وقد ذكر الأخ عبدالعزيز أنه أخبرك بأنني أعلمُ كثيراً عن حياة مروان بالقاهرة.

واليومَ أمسكتُ قلمي؛ لأخط إليك رسالتي الأولى، وأسألك [كذا] فيها عن كل ما تريد؛ فأنا في الحقيقة كنت أعيش والشهيدَ مروان مع بقية الإخوان، ولكن الذي أعرفه عنه بالتأكيدِ؛ يَقِلُّ عمّا تعرفه أنت!

ولكنني على استعداد تامٍّ؛ لأن أقصّ عليك بعضَ ما تسعفني به الذاكرةُ التي فَقَدَتْ كثيراً من معلوماتها، بحكم طول فترة الاعتقال في السجن.

والحقيقة، يا أخي الحبيب؛ أن الأخ مروان منذ جاء إلى القاهرة، وخطُّه في الدعوة؛ لم يتراجع، وإنما كان في اطّراد.

في كل يوم كان يَكسِبُ المزيد من علاقاتِ الحبّ والتآخي مع براعم إسلامية جديدة، كانت تتفتح برغم التحديات.

---

(١٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً؛ أخرجه مسلم في البرّ والصلة (٢٦٣٨) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤) وأخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الأنبِيّاء، باب الأرواح جنود مجندة، عقب حديث (٣٣٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (عداب).

ولقد كان لمروانَ الفضلُ والنصيبُ الأكبر في صَهْرِ كثير من الشبابِ في بوتقة الرجولةِ، والجدِ، والدعوةِ إلى الله.

حتى إذا كانت تجربةُ السجنِ والعذابِ؛ ما ضَعُفوا وما استكانوا، وكانوا بِحقٍّ نماذجَ رائعةً لعَباهِلة الرجال(١٤١) وظلوا كذلك حتى خرجوا من السجن بعد عام (١٩٧٢ م) .

ومروان رحمه الله كان بسيطاً في حياته، كما تعرفُه، كريماً، ودوداً في تعايشه، عنيفاً على كل ظالمٍ مُتجبّرٍ، لا يؤمن بيوم الحساب.

كان نصيبُ الدراسة الجامعية لا يحظى منه إلا بالجزءِ العليل القليل!

حتى إن بعضَ مُذكّراتِه في أصعب الموادّ؛ كنت أفتحها له قبل الامتحان بليلة، أو ساعات، وبفضل الله كان ينجح.

أما شُغْلُه الشاغلُ؛ فكان للدعوة، والعملِ من أجل تحقيق النصر لدين الله.

ومن طرائفه أنّه كان يقيمُ الحدَّ على من يُخطئ بالكذبِ، أو يعترفُ بالسرقةِ، أو الزنا.

ومن غريب ما فعلَ؛ أن بعض الشباب اعترفوا له بجريمةِ الزنا؛ فقام بجلدِ كلٍّ منهم مائة جلدة أمام شهود(١٤٢).

وكان حديثُنا في الغالب الأعمّ باللغة العربية الفصحى، حتى إنه كان يضع لوحة بها بعض الأمور التي يجب على من يدخل الشقةَ فِعلُها.

---

(١٤١) عباهلة الرجال: ساداتهم المقَرّون على ملكهم، لم يُزالوا عنه. القاموس (عبهل) (عداب).

(١٤٢) لعل الأستاذ الدسوقيّ يقصد بالحدّ التعزيرَ، فيما لا يمكن إقامة الحد فيه في ظروف كمصر، بقرينة أنّ الكذب ليس فيه حدٌّ، وإنما فيه التعزير، لكن قطع يد السارق مشكلة كبرى، ولم يحدثنا الشهيد أو غيره من إخوانه أنه قطع يدَ سارق في مصر أو في سوريا!

وكُنّا معه على الطريقِ، نقضي معظمَ الليل في القراءة، وتلاوة القرآن، وقيام الليل والحرصِ على الصلاة في المسجدِ، مهما كانت الأسبابُ المانعة.

وكان لا يخشى الفقر، فكان يَصرفُ، ويُقرضُ، ويتصدّقُ بكل ما لَدَيه!

والحقُّ أنني لا أدري كيف كنا نعيش؟ فكان كل ما مَعنا يُصرف، وما أكثرَ أيامَ الصيام، وما أكثرَ مَن يفطر معنا في هذه الأيامِ، فكنا رغم ذلك نرى على موائد الإفطار في المغرب أصنافاً شهيةً، لا ندري من أين جاءت!

خاصة وأنني كنت في كثير من الأحيانِ؛ أقوم بطهي الطعام؛ حيث كانت لديَّ هوايةً في ذلك الوقت.

كانت لنا لقاءاتٌ شبهُ مُستمرةٍ مع بعض المفكرين المسلمين، وكنا نلتقي مع البعض منهم لقاءاتٍ عابرةً.

وأكثرُ ما كانت لقاءاتُنا مع الأستاذ مالكِ بن نَبِيّ، المفكّر الجزائريّ، رحمه الله.

وكان يحضرُ معنا في هذه الجلساتِ الأخُ الشهيدُ عبدالفتاح إسماعيل.

ومن طرائف مروان أنّ أخاه «كنعانَ» كان بمصر ملحقاً عسكرياً أيامَ الوحدة وعندما غادرها إلى «بانكوك» ترك شقّتَه بما فيها من أثاثٍ فخم، ومحتوياتٍ ثمينةٍ لأخيه مروان! ولكنّ مَروانَ رفض حتى الجلوس في الشقةِ، فتصدّق بكل ما في الشقة من أثاث[١٤٣].

وكان في قضية الإخوان في مصر عام (١٩٦٥م) جماعةٌ يُطلق عليها «جماعةُ مروان حديد» ومعظمهم صدرت ضِدّهم أحكامٌ وصلت أحياناً إلى (١٥) عاماً، وضد البعض

---

(١٤٣) ها هنا سطرٌ واحدٌ من هذه الشهادة، يتعلّق بالسيد كنعان حديد، الذي تابَ، ورجع إلى الله تعالى، وهو الآن من أهل الدين والفضل، فلكرامته علينا؛ رأيت حذفَ هذا السطرِ غير اللائق بجنابه اليوم.

(١٠) سنوات، وأنا ممن اعتقلوا بعد براءة المحكمةِ، وقضيت بالمعتقل مُدّةً حتى عام (١٩٧٢م).

وقبل سنة (١٩٦٥م) كنت معتقلاً في مصر، في نفس الوقت الذي كان مروان فيه معتقلاً في سورية (١٩٦٣م).

والتقيتُ معه في القاهرة عام (١٩٦٣م) عند ما جاء ليؤدي الامتحان التكميلي لمادةٍ بقيت عليه «بالبكالوريس» وكنتُ أيضاً مُفرَجاً عني من السجن قبل وصوله إلى مصر بأربعة أيام فقط!

هذه مقتطفاتٌ بسيطةٌ أذكرها لك، وإن كان هناك المزيدُ من الطرائف، يذكرها لك الكثير من الشبابِ المسلم السوريّ، والبعضُ ممّن كانوا يقيمون معنا، أمثال: محمود الزعيم، وماجد الشقفي، ووليد الزين، وعبدالصّمد عطيّة، وطارق كيخيا، وعادل كوجان.

فبعضهم كان يتّصل بنا، وبعضهم كان يقيم معنا.

وأما الغالبيةُ العظمى من الشباب المسلم، والذي كان في قلبه حبُّ الدعوة يزداد يوماً بعد يومٍ؛ هُم من الشباب المصري، وأغلبهم كان يحبّ مروان حباً خالصاً لله، حتى إنهم كانوا جميعاً في السجن عام (١٩٦٥م).

في الختام لك سلامُ الأخ عبدالعزيز الريّس، والأخ صفيّ عديّ، والأخ عبدالرزاق بكرو، وهو زميلي في المدرسة، وأرجو ألا تنسانا من الدعوات، وأنت بجوار الحرم الطاهر.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك في الله: سعدالدين الدسوقيّ».

****

الرسالة الثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم

في (٢٣) جمادى الثانية سنةَ (١٤٠١ هـ) الموافق (٢٧) إبريل، سنة (١٩٨١م)

الأخ الحبيب عداب...السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

لقد وصلتني رسالتك بتاريخ (٢١) جمادى الثانية، وحاولت جاهداً أن أسترجع بعضَ ما طلبتَ مني كتابتَه عن أخينا الشهيد.

وما أكثرَ الذكريات التي واتَتْني تترى! وذلك لأنها ذكريات غالية، وخاصة لأنني يوم عشتُ هذه الذكرياتِ؛ كنت أعيشها بكل الصدق والوجدان؛ لأنني كنت أعرف أنها ستصبح ذكرى فيما بعد.. بل وربما تصبح تاريخاً! ومن كان مثلَ الأخ مروان؛ فإنه جَديرٌ حقاً بأن يساهم في صنع تاريخنا نحن المسلمين.

أُعذرني عن عدمِ الاستفاضة في الكتابةِ؛ بسبب مرضٍ أصابَ عيوني، فلم أعد قادراً على كتابةِ كلّ ما أريد.

وجاءتني هذه الإصابةُ بعد كتابةِ رسالتي الأولى إليك، وأنا الآن في مرحلة علاجٍ طويلةٍ أسألك الدعاءَ بالشفاء؛ لأنني حاولتُ الكتابةَ، فلم أستمرّ أكثرَ من دقيقتين، أو ثلاث وتصبح الورقةُ أمامي بيضاءَ تماماً، لا أدري تمييزاً لما أكتب فيها.

وربما يتسبّب هذا في تأخير الردّ عليك لبضعة أيّامٍ، حتى أكتب رسالةً إليك، وأجيبَ على جميعِ تساؤلاتك.

معي بالمدرسة عبدالمنعم رياحي، وعبدالرزاق بكرو، والحقيقة أن الأخ عبدالرزاق يمتاز بحركته السريعة، وشدّة غيرته على العمل للإسلام.

وأمّا عن اتّصالي بالإخوين: عبدِالعزيز، وأكرم الريّس؛ فلقد حاولتُ الاتّصال تلفونيّاً بهم اليوم، وربما أتمكّن في الأيام القادمة من الحصول على إجابتهم؛ لأنني لم أتمكن من محادثتهم اليوم.

أعود فأجيب على ما طلبت بخصوص الأخ الشهيد:

أوّلاً: الفكرة العامة التي كان يدور حولَها عمل الشهيد في القاهرة، من حيث الجوهر: العمل للإسلام، ومن حيث الشكل: الدراسة في الجامعة، حيث كانت دراسته في الجامعة لا تأخذ منه إلا أيامَ الامتحان فقط.

وأذكر أننا في يوم من أيام الامتحان الخاص بالأخ الشهيد حصلنا على عدد جديد من مجلة «المسلمون» فترك مذاكرةَ المادة التي سوف يُمتَحن فيها بعد ساعات، وأخذنا ندرسُ ما جاء بالمجلة.

ومن ناحية وضوح هذه الفكرةِ؛ فإنها واضحة وجلية عند كل من تَعرّف على الأخ الشهيد.

ومن أمثلة ذلك: أنه كان يبذل قصارى جهده في قضاء وقته مع الإخوان، وكان يقوم بتدبير حاجاتِ بعضهم مادياً ومعنوياً!

كان يقيم آنذاك مع محمود الزعيم، ووليد الزين، وذلك بشقة في بنايةٍ بشارع شريف في مصر الجديدة، ثم انتقل بعد ذلك ليشاركنا حياتنا في شقةٍ بحدائق القبة، في مَنْزل رقم (٢٣) شارع المتنَبيّ.

وكان هذا في أواخر عام (١٩٥٨م) وكنت أنا، وسميرٌ الهضيبيُّ، وأحمد رائف، ومُحَمّد الغنّام، نقيم مع بعضنا في هذه الشقة، وانضمّ إلينا مروان.

وكان يتنقّل في الشقق الأخرى التي كان يحرص على أن يكون بكلٍّ منها واحدٌ من الإخوان الراكزين[١٤٤] عقليّاً وخُلقيّاً.

---

(١٤٤) يريد: الرَزين الوقور، فليس في العربية: فلان راكز!

ثانياً: من ناحية نشاطه الحركي: فمنذ التقيت به كان شُعلةً من الحركة والنشاط والدعوة في سبيل الله، ففي العام الدراسي (٥٨ -٥٩م) أصدر مجلةَ حائط بعنوان «البعث» وكتب في حكمة العدد (أفضل الجهادِ؛ كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر)[١٤٥].

وكنت واحداً ممن ساهمَ في تصميم تلك المجلة، ولكن المجلةَ مُزّقت بعد يوم من عرضها، من جانب الشيوعيين بالكلية «كلية الزراعة، جامعة عين شمس، بسراي القبة» حيث كان يدرس الشهيد مروان، فكان لهذا العمل عنده ردّ فعل غريب؛ إذ أصرَّ الأخ الشهيد على إعادة المجلة، وكتابتها بأسلوبٍ أشدَّ وأقسى مما كان.

وفي الجامعة التفَّ حولَه عددٌ من الشباب الذين ساروا معه على الطريقِ، حتى انتهى الأمرُ ببعضهم إلى السجن خمسَ عشرةَ سنة، أو عشر سنوات.

وتعرّف وهو بالكليّة على كلٍّ من:

(١) سمير سليمان الهضيبيّ، وهو ابن شقيق الأستاذ المرشد، رحمه الله، وهو الآن في الكويت، ويحمل «بكالوريوس زراعة» واعتُقل من عام (١٩٦٥- ١٩٧٠).

(٢) مُحَمّد مُحَمّد حسين الغنّام، زوج أختِ سمير، وهو يحمل «بكالوريوس زراعة» والآن طيّار مدني، بشركة مصر للطيران، واعتُقل من أغسطس (١٩٦٥م) وحتى ديسمبر (١٩٧٠م).

(٣) يحيى أحمد حُسين، يحمل «بكالوريوس زراعة» وهرب من مصر في (٢٤) أغسطس، عام (١٩٦٥م) عندما علم بانكشافِ أمر التنظيم، فهو طيار مدني بشركة مصر للطيران[١٤٦].

---

(١٤٥) من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه؛ أخرجه أحمد في المسند (١١١٥٩) وأبو داود في السنن (٤٣٤٤) والترمذيّ في الجامع (٢١٧٤) وقال: حسن غريب.

وكان يومها عنده رحلة إلى السودان، فترك الطائرة بالسودان، وطلب حقّ اللجوء السياسيّ، وهو الآن يحمل الجنسية الأردنية؛ لأنه حُكم عليه بالسجن غيابيّاً.

(٤) أحمد حسن دعّار، وهو الآن دكتور، أستاذ بكلية الزراعة، اعتُقل سنة (١٩٥٤م) ثم اعتقل في سنة (١٩٦٥م) وحتى (١٩٧١م).

(٥) فاروق الصاوي، وكان قد حكم عليه بالسجن لمدة (١٥) سنة!

(٦) طاهر عبدالعزيز، وكان قد حكم عليه بالسجن لمدة (١٥) سنة!

وهناك بعض الأشخاص الذين كانوا معنا على الطريق، ولكنهم في أثناء الاعتقال؛ انحرفوا عن الطريق، من شدّة التعذيب!

وتعرّف مروان بالأستاذ أحمد رائف، وهو كاتبٌ إسلاميٌّ تلفزيونيّ الآن، وصديقٌ حميمٌ لسمير، حيث زارَ سميرٌ وأحمدُ مروانَ بحماةَ أيّامَ الوحدة.

وأنا كنتُ أيّامها أعمل مدرّس ابتدائيّ، ولم أكن انتهيتُ بعدُ من دراستي بـ«كلية التجارة– جامعة عين شمس» حيث أتممتها فيما بعد؛ فإنني اعتُقلت في عام (١٩٦٣م) دونَ إخواني السالفة أسماؤهم، وهي نفس الفترة التي اعتُقل بها مروان في سجن «المزّة» وحدثت بها أحداث «حماة» ومسجد السلطان.

وعندما أفرج عني في نهاية عام (١٩٦٣م) التقيت بمروان الذي كان قد أفرج عنه هو الآخر، وحضر للقاهرة لأنه كانت عنده مادّة إكمال «البكالوريوس»[١٤٧].

---

(١٤٦) علّق الدكتور رشيد العيسى هنا بقوله: «تعرّفنا على هذا الأخ في معسكر العالوك في الأردن، وكان من جملة أقواله التي أحفظها: «ليس على وجه الأرض بقعة إسلامية محمية بقوة السلاح، إلا هذه البقعة» يريد معسكر العالوك!

(١٤٧) اعتقال مروان في صيف عام (١٩٦٣م) غير اعتقاله بسبب أحداث حماة، عام (١٩٦٤م) وقد غادر لتأدية امتحان مادةٍ كانت متبقية عليه، وبعد عودته؛ لم يغادر سوريا إلا لأداء فريضتي الحجّ العمرة.

ثم اعتُقلت ثانيةً في (٢٥) أغسطس (آب) سنة (١٩٦٥م) وأفرج عني في (٥) فبراير (شباط) سنة (١٩٧١م) حيث أكملت «البكالوريوس» في سنة (١٩٧٢م).

وخرجت من مصر إلى «أبو ظبي» في (٢٨) فبراير، سنة (١٩٧٤م).

طبعاً..هذه الأسماء التي تُسعفني بها الذاكرة، وهناك الكثير من الأسماء والشخصيات التي كان مروان يتصل بها دون علمي.

هذا في محيط من كان يعيش معنا من الشباب، ولا أدري عن رغبتهم في كتابة أسمائهم، أو عدم رغبتهم شيئاً، فأنا أروي لك ما أعرف، ولك الخيار.

كانت لنا لقاءات كثيرة مع الأستاذ مالك بن نَبيّ، حيث كنا نحب أن نستمع إليه كثيراً، وكما يقول هو: كان يرى فينا أمل الإسلام، وكانت لمروان لقاءاتٌ فردية معه.

ولقاءات أكثر كانت لنا ولمروان مع الشهيد الأخ عبدالفتاح إسماعيل، حيث كان يأتي لزيارتنا، ونقضي سوياً الليلَ دون نومٍ، نتدارس حال المسلمين.

ولا شك في أن لمروان لقاءات مع مُحَمّد قطب، والله أعلم بذلك؛ لأنني لست متأكّداً وعلى كلٍّ مُحَمّد قطب بالسعودية، ويمكنك الاستفسار منه.

وأما عن الإخوان السوريين؛ فقد كان الأخ الشهيد لهم بمثابة الأخ الأكبر، يتولى شؤونهم، ويرعى مصالحهم، ويدبر حاجياتهم، وكان ينتقل بين القاهرة والإسكندرية وأسيوط.

ثالثاً: بخصوص التقاء الأخ الشهيد بأحد تلامذة الشهيد البنا، فلا أعلم شيئاً، اللهم إلا إذا كان الشهيد عبدالفتاح إسماعيل نفسه، فقد عايش الشهيد البنّا لفترة بسيطة.

رابعاً: بخصوص صور من نشاطه ودعوته، فإنه كان كثيراً، بل وكان بانتظام؛ يضع برنامجاً لكل الشباب الذين يتصل بهم، ويشرف بنفسه على تنفيذهم للبرنامج، فمثلاً:

كان معنا، حيث يقيم معظمَ الوقت، فصيام الاثنين والخميس، والأول والثاني والثالث، والليالي القمرية من كل شهر عربي، ثم دعوة أكبر عدد من الشباب، حتى كان يصل العدد في بعض الأحيان إلى ثلاثين أو أربعين شاباً في شقة واحدة، ونتناول طعام الإفطار بعد صوم.. ثم الحديث في أمور الدين حتى ساعة متأخرة من الليل.

صورة أخرى: كان لزاماً على جميع من يقيم معه أن يصلي الفجر في المسجد، وقبلها صلاة الليل، وإذا كان أحد الأخوة مُتعباً؛ كنت ترى الأخ الشهيد يأتي إليه وهو نائم ويضع في فمه حلوى ليوقظه بها، بعد مداعبة لطيفة، حتى ينشط الأخُ، ويقوم لصلاة الليلِ، ثم لصلاة الفجر في المسجد.

وفكرته في العمل الحركي كانت هرمية، حيث يترك على كل مجموعة واحداً منهم، ثم يفرز من نفس المجموعة واحداً يترأس مجموعة أخرى، وهكذا.

خامساً: بالنسبة لي؛ فمن الأفضل إذا أردتَ، وكان لا بدّ من أن تكتب اسمي؛ فأفضّل أن يكون اسمي «أبو مُحَمّد» حيث عندي مُحَمّد الآن، وعمره عامان؛ فاذكره دائماً وإياي وأمّه بالدعاء في الحرم الشريف.

هذا الآن! أما إذا تحسّنت الأحوال، وجعل الله لنا من أمرنا يسراً؛ فلا مانع من ذكر الاسم فيما بعد.

سادساً: أما عن موضوع اعتقال الأخ الشهيد في مصر؛ فأنا لا أذكر أنه اعتُقِل بالقاهرة، ولكنه كان يُستدعى للسؤال في مركز المباحث، ولكنه كان يرفض.

وأذكر أنه كان يصرّ على ذلك، حتى جاء إليه في يوم من الأيام مُفتّش مباحث القاهرة «أحمد راسخ» وحضر إلى الأخ الشهيد في بيته آنذاك، في برج الصفا بمحطة كلية المعلمين

بمنشية البكري، فرفض مروان أن يقابله، إلا بعد أن طلب منه الوضوء والتطهر، واستجاب مفتش المباحث لطلبه.

سابعاً: أبرز ملامح بيته: لم يكن له بيت؟! بل كانت كل الشقق سكناً له، ولكني أحدثك عما كان عليه سكننا عندما كان يقيم معنا فترة (١٩٥٨م).

كان بسيط الأثاث، أشبهَ ما يكون بخلية النحل، كانت هناك لوحة عليها الوصايا العشر للإمام حسن البنّا، يلتزم بها كلُّ من دخل الشقة، وكان الشهيد مروان يذكرنا دائماً بأن نتكلم العربية الفصحى، كان السكن دائم الضيوف، والخير فيه ما كان به الأخ الشهيد.

ثامناً: أبرز العلاقات التي أعرفها في حياة الشهيد، هي في حدود الأسماء التي سأذكرها الآن.

وطبعاً وبدون شك كانت له علاقات لا أعرفها، خاصة وأننا لم نسكن معاً إلا العام الدراسي (٥٨ – ١٩٥٩م) ثم كانت لقاءاتي به بعد ذلك أسبوعية على إفطار صيامٍ، أو حديثٍ خاص بأمور الدعوة.

وطبعاً أنا لستُ في حلٍّ من أن أقول لك: أُكتبها أو لا تكتبها؛ لأن هذا الأمر يرجع لأصحابها فقط!

أبرز معارف الشهيد مروان في مصر:

سمير سليمان حسن الهضيبيّ.

مُحَمّد مُحَمّد حسين الغنّام.

أحمد رائف مُحَمّد عبدالحميد.

محمود حلمي مُحَمّد عبدالحميد، وهو شقيق أحمد رائف، ويعمل مهندس.

مراد مُحَمّد علي.

يحيى أحمد حسين، طيّار، وهو هارب الآن!

أحمد حسن دعّار، دكتور بالجامعة.

أحمد رمزي، وهو دكتور بالجامعة.

أحمد إسماعيل «بكالوريوس علوم» مُدرّس.

حمدي إسماعيل إبراهيم.

حسين عبدالعال أبو العينين.

فاروق الصاوي.

مُحَمّد بُدير.

طاهر عبدالعزيز سالم.

ماجد عبدالعزيز سالم.

صلاح عبدالحقّ.

مجدي عبدالحق، طبيب عيون.

بدر حسن خالدي الأردنيّ، كان شابّاً صغيراً في عام (٥٨- ١٩٥٩م) متحمساً لأمور الدين، ووالده كان يعمل في السلك الدبلوماسي الأردنيّ، وذهب الشاب نفسه إلى جامعة «أدنبره» ليدرس الطبّ، ولم أعرف عنه شيئاً للآن.

محمود عبدالحميد عزّت، حكم بالسجن عشر سنوات، وهو طبيب.

إسماعيل عبدالغني.

ضياء الطوبجي، حكم بالسجن لمدة (١٥) سنة، وهو طيار، زميل مُحَمّد الغنام، وزميل يحيى حسين.

مصطفى مُحَمّد أبو زهرة، نجل الشيخ مُحَمّد أبو زهرة، طبيب أسنان.

إبراهيم يوسف مُحَمّد، رقيب في الجيش، أصيب بهوس ديني، كما يقولون، فيقول: إنه رأى الله في منامه، وفي كلّ ليلة يقول: كنت مع مُحَمّد وعيسى، ويقصد الأنَبيّاء صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن الطريف أنّ الأخ الشهيد أراد أن يختبر صوابَ هذا الأخ، فاتّفق معي، ومع سمير الهضيبيّ، ومُحَمّد الغنام، وأحمد رائف، وطارق كيخيا «سوري» بأن يدخل طارق كيخيا بلباسٍ أبيضَ كلِّه على الأخ إبراهيم يوسف.

وقبل أن يظهر طارق على الأخ إبراهيم يناديه، ويقول له: يا إبراهيم، أنا الخضر!

وفعلاً عندما ناداه طارق؛ هاج إبراهيم وماج، ودخل عليه مروان؛ فقال له إبراهيم: أُخرج يا مروانُ، فأنا الآن في حضرة الأنَبيّاء موسى والخضر!

وأخذ إبراهيم يصرخ في جوف الليل؛ حتى أيقظ سكان البناية التي نحن بها.

ثمّ ركض إلى الشارع، وأخذ ينادي على الأنَبيّاء والرسل بأسمائهم.

تاسعاً: من ناحية اهتمام المسئولين بدعوته، فقد كان ذلك واضحاً من أن المباحث العامّة؛ كانت تجنّدُ له جيشاً من الطلبة في الجامعة، وشرذمة غير قليلة من المخبرين يحيطون بالمنزل وبه، أينما سار.

فكان الأخ الشهيد يَرثي لحالهم في ليالي البرد، وخاصة عند الخروج لصلاة الفجر، وكثيراً ما كان يعطف عليهم، ويخبرهم بتَفَهّمِه لوضعهم، فكان أن تأثر الكثيرون منهم، ولكنني لا أعرف مُسميّات بعضهم.

عاشراً: من ملامح أُخوّتِه؛ أنه كان يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر، فكان في اليوم الثاني من حضوره لمصر بعد زيارته لحماة؛ كنتُ تراه يتصدق بكلّ ما لديه من ثياب جديدة، حملها من سورية، وكذلك بكل ما لديه من نقودٍ على الإخوان الذين يعانون ضِيقَ العيشِ.

ومن الطريف في ذلك أننا كنا نسير في أحد شوارع العباسية ليلاً؛ فوجدنا طفلاً في حدود العاشرة من عمره، ينام على الرصيف في برد الشتاء، فأيقظه مروان، وحملناه معنا بسيّارة إلى البيت، فكان رثّ الثياب.

وذهب سمير الهضيبيّ إلى منزله، وأحضر له بعض ثياب أخيه؛ لأنه كان في مثل جسمه، وقمت أنا بتسبيح هذا الغلام وإطعامه، وأعطاه مروان نقوداً، ووعده بأن يبقى معنا، وسوف يدبّر له مروان أمر معيشته، ولكننا في الصباح وجدنا الطفل قد اختفى، وذلك لأن الطفل يجد في تسوّله راحة عن الهدوء والسكون في بيت يعمل فيه.

حادي عشر: أمر إقامة الحدود؛ لم يكن لدى الأخ الشهيد فيه إلا النص الشرعي والنص: متى اعترف الزاني أمام العدد الكافي من الشهود؛ وجب إقامة الحد عليه من جانب من يملك إقامة الحد عليه، وهذه كانت مسؤولية الأخ الشهيد، ولا أستطيع أن أتكلم في هذا الموضع.

وأعتقد أنني بهذا الشكل أكون قد أجبت بصورة مقتضبةٍ على جميع ما سألتَ.

وإذا كانت لديك أيّ استفساراتٍ جديدة، ولديّ عليها إجاباتٌ؛ فلا تتردد في أن تكتب لي.

اتّصلتُ الآن بالأخ عبدالعزيز تليفونياً، فأبلغني أن أخاه أكرم وصلته رسالةٌ منك تظهر فيها غضبك منه، ولكن الأخ عبدالعزيز وعدني بأنه سوف يكتبُ لك.

ومني أنا، ومن عبدالرزاق الشيخ بكرو، وعبدالمنعم الرياحي سلاماتٌ خاصة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوك: سعدالدين الدسوقيّ».

****

الرسالة الثالثة والأخيرة: « بسم الله الرحمن الرحيم

السبت في (٥) رجب، سنة (١٤٠١ هـ) (٩) مايو، سنة (١٩٨١م)

الأخ الحبيب عداب..سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد:

فأسأل المولى الكريم أن تكون بخير وعافية، وأن يكتب لنا العملَ بما علّمنا من كتاب الله، وأن يجعل الفجر الجديد على أيدينا.

أخي الفاضل: اتصلت تلفونياً بالأخ أكرم الريّس، وأخبرتُه بما قلتَ لي!

فوعدني بأنه سوف يفعل خيراً، وكذلك الأخ عبدالعزيز الريّس[١٤٨].

ورغم أنني لم يحدث لي لقاءٌ بالأخ نافع علواني[١٤٩] من قبل؛ فإنني قمت بالاتّصال تلفونياً به في الفجيرة، وأخبرته عمّا تنتويه من تبييض كتابك عن أخينا الشهيد.

فأخبرني الأخ نافع بأنكَ كتبتَ لواحدٍ من الإخوان معهم في الفجيرة، وأنه، أي نافع عَرفَ ما تريد.

ولما أكّدتُ له حرصك في الحصول على ما لديه من معلومات بسرعة؛ أكّد لي أنه سوف يكتب لك سريعاً.

ثمّ إنه اطّلع على نسخةٍ من كتابٍ جديدٍ عن الأخ الشهيد، في أثناء وجوده ببغداد في الأسبوع الماضي.

ثم قال لي: بأنّ ديوان الأخ الشهيد؛ قد تمّ تنقيحه، وهو معدٌّ للطباعة.

وإن كنت تحتاجُ إلى أيّ معلوماتٍ إضافية؛ فيمكنك أن تتصل به، وتخبره بها.

---

(١٤٨) الدكتور أكرم الريّس، والأستاذ عبدالعزيز الريّس شقيقان، وهما ابنا شقيقة الشهيد مروان حديد.

(١٤٩) الشيخ نافع علواني حفظه الله تعالى؛ كانَ من أنشط شباب الإخوان في الدعوة إلى الله تعالى، وكان رفيقَ الشهيد مروان منذ أيامه الأولى، ومن أكثر قيادات الإخوان موافقة له، أمتع الله ببقائه.

في الختام..أرجو أن تذكرنا بدعواتٍ وأنت في البيت الحرام، فخير ما يقدّم المسلم لأخيه من ظهر الغيب؛ دعاء.

فأرجوك ألا تنسانا، وتلحّ في الدعاء بأن ينصر الله الإسلام والمسلمين.

وختاماً.. لك سلام الأحبة جميعاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخوكم: سعدالدين الدسوقيّ»

****

هذا نصوص ثلاث رسائل وصلتني من الأستاذ المصري أبي مُحَمّدٍ سعدالدين الدسوقيّ، أخبرنا فيها عن بعض ما عرفه عن الشهيد مروان، وعايشه بنفسه.

ومما يُذكر عن حياته في مصر؛ ما أورده الدكتور رشيد العيسى في شهادته حين قال: «ومن زملائه هناك الدكتور سلمان نجار رحمه الله تعالى، وكان يدرس في مصر الطبّ البيطريّ، ولما عاد إلى سوريا عقب أحداث الانفصال؛ لم يكن في سوريا كلية للطب البيطري، فحوّلوه إلى كلية الطب البشري في جامعة دمشق.

وقد كان مرشد الإخوان المسلمين الحالي «مُحَمّد بديع» من تلامذة الشيخ مروان حديد، وتلامذة الدكتور سلمان النجار، وعلى أيديهما التزم «بديعٌ» في جماعة الإخوان المسلمين.

ومن زملائه أيضاً الدكتور أحمد فارس جوّاد، وكان يدرس الطبّ البيطريّ، ومنهم أيضاً الدكتور نزار حمضمض، حيث زامله في كلية الزراعة».

وقد أورد الدكتور أحمد جوّاد في شهادته نبذةً عن حياة الشهيد مروان في مصرَ، ليس فيها إضافةٌ على ما ذكره الأخ سعدالدين الدسوقيّ، رحمهما الله تعالى.

ونحن لا نريد تأريخاً لهذه الفترة من حياة الشهيد؛ لأنّ هذا يتطلّب وقتاً وجهداً وسفراً إلى مصر؛ للقاء من تبقى من تلامذة الشهيد مروان وإخوانه هناك، وهذا ما لا نستطيعه الآن.

وإنما أردنا إلقاءَ ضوءٍ على هذه المرحلة المهمة؛ منبهين إلى أن الأخ المسلم يمكنه أن يعمل لإسلامه متى، وأين كان، وفي أي ظروف طرأت، إذا كان يملك بعضَ ما ملك الشيخ من إيمان عميق، وعقيدة صافية، وفكرٍ مستنير، ورجولة فتية، وعزيمة صادقة.

ولقد حرصتُ على نقل هذه الرسائل على الصورة التي جاءت بها، رغم وجود بعض التكرار فيما بينها؛ حتى تؤدي المقصود منها كما صوّره من عايَشَه، وتأثّر به، وخطّه بقلمه.

وأظن أن ما سبق ليس بحاجة إلى تعليقٍ، فهو واضحٌ، يسيرٌ، عميق، سهل عزيز!

ولكن أين مثلُ الشهيد مروان؟

عَجَزَ الزمانُ بأن يجودَ بمثلِه   إنّ الزمانَ بمثله لضنينُ

والله تعالى أسأل أن تنير هذه الشهاداتُ للقراءِ السبيلَ القويمَ لنهضة المسلمين، وسلوك طريقِ الجهاد في سبيل الله، المنظّم، على قدرِ الطاقة والوُسع، اللذَيْن لا يقبلَ الله من عباده أقلَّ منهما، على حدّ قول شيخنا الشهيد مروان.

وأسأله جلّت قدرته أن يكون لدينا الجرأةُ على قول الحقّ، حتى ولو على أنفسنا، فلا ندفع في صَدرِ الحقّ، إذا عجزنا عن احتماله، وأن نكون شجعان كراماً، كما قال شيخنا المفضال الشيخ وهبي الغاوجي: «ما يقوله الشيخ مروان حقٌّ، لكنني أعجز عن احتماله».

****

خاتمة الكتاب

الحمد لله تعالى في البَدْءِ والخِتامِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا مُحَمّد البدر التمام، وعلى آله الأبرار، وصحبه الكرام.

أما بعد: فهذا كتاب (الشهيد مروان حديد، ومنهجه في الدعوة والجهاد) بين يديك أخي القارئ الكريم، أقدمه إليك في صورته النهائية الممكنة، على مَشارفِ الغروب.

كتبت مسوّدته في عامَي (١٩٨١– ١٩٨٢م) يومَ كانت الذاكرة يَقظةً، وكان العَهدُ بالشهيد قريباً، وكانت الوقائع لدى جيلنا معروفةً.

إنّ هذا الكتابَ شهادةٌ، أضعها بين يدي الشباب العامل في الدعوة والتغيير الاجتماعيّ والسياسيّ، وهو في الوقتِ ذاته؛ تحليلٌ لبعض الحوادث والوقائع والتصرفات؛ ليستفيد هذا الجيلُ من تجربة الشهيد مروان، بشقّيها الشخصيّ والدعويّ، فهو في شخصه قدوةٌ حسنةٌ في زمانٍ غمرت الدنيا القلوب، وطغت على النفوس، ولم يعد للتضحية سوى اسمها، ولا للفداء سوى استحضار شخوص الفدائيين.

كان الشهيد مروانُ متقدّماً في العمل الحركيّ الدعويّ على أبناء جيله بعشرة أجيال، إذا عددنا الجيل العلميّ خمسَ سنوتٍ!

لقد نهض الشيخ مروان ضدَّ باطلِ الطاغوتِ عبدالناصر في مصر منذ العام (١٩٥٧م) فأيقظَ شباباً، وقاد حركةً دعوية التزامية في أشدّ ظروف مصر قسوةً ضدّ (جماعة الإخوان المسلمين) في مصر، ونهض ضدّ باطل طاغوتِ (حزب البعث) في سوريا منذ العام (١٩٦٣م) بينما استُجرّ علماءُ سوريا إلى مواجهة الباطل في العام (٢٠١٢م).

نهض الشيخ مروان بعملٍ جهاديّ يقودُه هو، ويؤسس لبناته الأولى الصغيرةَ، واحدةً بجانب الأخرى، وفوقهما، من دون أيّ ارتباط بدولة، أو مُساهمةٍ من حركةٍ!

وأشهدُ الله أننا كنا نشتري قطعةَ السلاح الواحدةِ بالدَين، نسدّد قيمتها على أقساطٍ ميسّرة، كان يقبل بها تجّار السلاح احتراماً للشهيدِ، وثقةً بأمانته ووفائه!

كان الشهيد مروانُ يرفض رفضاً قاطعاً أيّ ارتماءٍ في حضنِ دولةٍ عربيةٍ، أو غير عربيةٍ، قد يكون لها مصلحةٌ في إسقاط النظام في سوريا، ويقول: كل هذه الأنظمة عميلةٌ يجب أن تُسقَط، ونحن لا يجوز لنا أن ندنّس شرفَ الجهاد الإسلاميّ بقَبول مساعِدَّة ماليّةٍ، أو عسكريةٍ ممن لا يمتلكها، وإنما هو لصٌّ سارقٌ، أو مغتصبٌ مالَ وطنه!

الشهيد مروان حديد يومَ السبت في (١٩٧٥/٦/٢٨م) لم يكن يمتلك رغيف خبزٍ في بيته، بعد أن قطعت جماعة الإخوان مرتّبه الشهريّ، وتأخّر أهله في القدوم إلى دمشق ليسعفوه.

وأنا لا أقول هذا تقليلاً من شأن أهله الكرام، الذين وقفوا معه في السرّاء والضرّاء وقفةَ الكرامِ الأوفياء، على اختلافهم معه في توجهه ومواقفه، لكنه حين استصرخهم؛ لم يكونوا يتصورون أنّ ابنهم العظيم وزوجَه؛ يبيتان على الطوى.

كما لا أقول هذا غَمْزاً بقناة الأخوان، فالإخوان لا يخجلون من هذا، ولا من أمثالِه، فهم جماعةٌ حزبيةٌ (براغماتية) تدوسُ كلَّ من لا ينصاع لأوامرها، ويلتزم بتعليماتها، سواء كان الشهيد مروان، أو الشيخ سعيد حَوّى، أو عدنان عقلة، أو غيرهم.

بعد قراءة الأخ الفاضل الدكتور (رشيد العيسى) كتابي هذا؛ سلّمني تقريراً تقويمياً للكتاب، ليس بيد يديّ الآن، وأنا أكتب خاتمة الكتاب في تركيا، جاء فيه:

(إن هذا الكتاب هو مسؤولية الأخ عداب، فأكثر ما ورد فيه من معلوماتٍ؛ لا أعرفها)

وجوابي على ذلك: هذا صحيحٌ، فالكتاب بمنزلة (مذكراتٍ وذكرياتٍ) كتبته من الذاكرة عن أحداثٍ قديمةٍ وقعتْ، أكثرها يعلمه الدكتور رشيد.

والذي يجهله ممّا في شهادتي؛ شأنه في ذلك شأن شهادة الدكتور في الشهيد مروان، فهو يتحدث عن حوادث وقعت له، كثيرٌ منها لا أعرفه، وبعضها أحفظه بطريقة مخالفةٍ بعضَ الشيء لسياقها عند الدكتور رشيدٍ!

وهذه المدة الزمنية (١٩٧١- ١٩٧٥م) لم يكن للدكتور رشيد أيُّ صِلَةٍ بالشهيد مروان، ولا بجماعة الإخوان؛ لأنه كان يتخصص في مستشفى حماة الوطني (القديم) وكان طبيباً مقيماً فيه، وكان منشغلاً بتخصصه، وبأشياء أخرى نعرفها، ويعرفها هو أيضاً!

وربما كنتُ أنا أكثرَ من رآه من شباب الشهيد مروان، حيث كنت أزور المشفى بين الفينة والأخرى للعلاج، فكنتُ أمرّ به، وبالدكتور سلمان النجّار، وأسلّم عليهما!

وقد صدفتُه قدراً، واقفاً على (موقف الباص) أمام دائرة التجنيد بمنطقة الحاضر، فلم أنتبه إليه؛ لأنه كان حَليقَ اللحيةِ جزماً، وحَليقَ الشاربِ أيضاً فيما أظنّ، فناداني، فالتفتّ إليه وسلّمت عليه، فعاتبني بحزن وقال: هكذا الأخوّة يا أخي! لنفرض أن أخاكم أخطأ، وقصّر هكذا تتركونه، وتسلمونه لنفسه وشيطانه؟ (الرواية بالمعنى).

قلت له: حقّك علينا، لكن أنت اعتزلتَ، وانشغلت بأمورك الخاصة، فلم نُردْ أن نعكّر عليك سعادتك!

أقول هذا فقط لوضع النقاط على الحروف، حتى لا يَظنّ ظانٌّ إذا سمع بكلام الدكتور رشيدٍ؛ أنّ لقوله هذا مِصداقيةً واقعية، مع كامل احترامي لفضله ونبله.

وإنّ أبرز ما أحبّ تسجيلَه في خاتمة هذا الكتابِ (الأمانة) التوصياتِ الآتية:

الأولى: إنّ وثائقَ هذا الكتاب؛ هي أبرز ما فيه، وإنّ من توفيق الله لي أنني استكتبتها من الشاهدين فيما بين عامي (١٩٧٩- ١٩٨١) يومَ كنت مقيماً في مكة المكرمة، وهي بالتالي

أقربُ عهداً بتاريخ الشهيد مروان من زماننا هذا بكثير، ما عدا أربع شهاداتٍ منها، فهي حديثة التاريخ، وعند كلّ شهادة تاريخ كتابتها.

والثانية: صلب هذا الكتابِ جميعه؛ كتبته في عام (١٩٨١م) وقد كنت أريد نشره في ذلك التاريخ، بيد أنّ عدداً من الإخوة أقنعوني أنّ في نشره ضرراً على نفسي وأهلي وإخواني، فأحجمت عن نشره؛ لأنني في سائر شؤون حياتي؛ لا أعاند في أمور الدنيا.

والثالثة: هذا الكتابُ؛ لا يمثّل الحقيقةَ كلّها، ففي صدري حقائق كثيرةٌ، ربما يأتي الوقت المناسب لنشرها عن تلك الشخصية الفريدة، وعن تاريخ تلك الحقبة البائسة من تاريخ جماعة الإخوان المسلمين.

والرابعة: قرأتُ للشيخ السيّد نافع العلواني، أطال الله بقاءه، ومتعه بالعافية، وسمعت من الدكتور مروان حمدون قديماً، ولا أعرف اليوم عنه شيئاً، وسمعت عن عددٍ من الإخوة خلال الأربعين سنةً الماضية؛ برغبتهم في تأليف كتبٍ ودراساتٍ عن الشهيد مروان حديد، فعسى أن يكون كتابي هذا حافزاً لهم، أو لبعضهم على تكميل ما بدؤوه، أو نشر ما كتبوه، فربما أموت أنا، ولا أستطيعُ البوحَ بأكثر ممّا بُحتُ به من حقائق في هذا الكتاب.

والخامسة: لدى أبناء عمّي الشيخ سعيد حَوّى رحمه الله تعالى وثائق تاريخية في منتهى الأهمية والخطورة، وكتابه (التجارب والذكريات في جماعة الإخوان المسلمين) كان عليهم نَشرُه منذ ربع قرنٍ على الأقلّ، لكنّ ضعفنا واحدٌ، ومصابنا واحدٌ، وأبناء الشيخ سعيد؛ ليسوا في مستوى مُصادمةِ رغبات الجماعة؛ لظروف كثيرة، يعرفها القريبون.

وتأتي أهميّة ذاك الكتاب، وتلك الوثائق من كون الشيخ سعيد رحمه الله تعالى نائبَ المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين في فترة الثمانينات، ومن كونه أحدَ أعضاء قيادة الجماعةِ في سوريا، ومن أمانته في التوثيق، ثم من عبقريته في تحليل الأحداث، ورصد آثارها.

والخامسة: مَن يريد أن يرسمَ ملامح شخصيّة الشهيد مروان المتكاملة؛ فعليه أن يقرأ مقدمة هذا الكتاب، ثم خاتمته هذه، ثمّ ملحق الأمراض الحركية، ثم ملحق الشهادات.

ويحاول تسجيلَ القواسم المشتركة بين هذه الشهادات جميعاً، ثم يفرز مفاريد الشاهدين ثم يفرق بين ما هو منقولٌ، وما هو من رؤاهم الشخصية، ثم يرصد كثرةَ الحوادث التي سجّلتها هذه الشهادات؛ ليَعرفَ أيّ رجلٍ كان مروان!

وقد كان يَسعُني فعلُ ذلك كلّه، إلا أنني عزفتُ عنه، حتى لا يُقال: استغلّ تلك الشهاداتِ لتضخيم كتابه، وتركها خاويةَ المضمون، ونحن الحمويّين من عجائب الكونِ، في سوءِ الظنّ، والتحليلاتِ الأنانيّة!

بعد ذلك كلّه؛ تعود إلى قراءة شهادتي؛ لأني في قراءتي الأخيرة للكتاب؛ حاولت حذف كثيرٍ من معلوماتِ شهادتي، إذا رأيتُها موجودةً في شهادةٍ لسوايَ، خصوصاً تلك الشهادات التي تغطي الفترةَ التي كنت فيها صغيراً، وكانوا هم أضبطَ لها مني.

ولو لم تلتزم أخي القارئ بما اقترحته؛ فلن تعدمَ فوائد في هذه الطريقة، أو تلك.

أما أبرز النتائج التي تمخّض عنها كتابي هذا؛ فأوجزها بما يأتي:

أوّلاً: يجتمع الجميع القريب والبعيد والصديق والعدوّ والخصم والمنافسُ على أنّ الشيخ الشهيد مروانَ؛ له شخصيّة آسرةٌ، محبّبة إلى نفوس عارفيه، فيحبه من خالطه، ويهابه من كان بعيداً عنه، ويحترمه حتى خصومه؛ لأنه من أنبل الشخصيات الإنسانية التي عاصرناها شرفاً في الخصومة.

فهو مهما غضب من خصمٍ أو عدوٍّ؛ لا يقذفُ، ولا يشتمُ، ولا يتّهم، ولا يقتربُ من العرض بحالٍ من الأحوال.

ذات مرّة تحدّث أحدهم في حضور الشهيد، وحضورنا عن مهانةِ وحقارةِ والدة أحد رموز الأعداء الكافرين في نظر الشهيد مروانَ، وكأنّ هذا المفتري أراد أن يَتقرّب إلى شيخنا مروان بفريته هذه، فما كان من الشهيد إلا أنْ صارت شفتاه ترتجفان، واهتزّ كلّه اهتزازاً شديداً، وقال بحَنَقٍ وعصبية نادرة من الشيخ: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

هل أنت تعرف والدته؟ هل أنت من جيرانها بيت بيتَ، هل أنت ممن فعل بها ما تفرتيه!

قم توضّأ، قم توضّأ، وصلّ لله تعالى ركعتين على نية التوبة من مثل هذا الافتراء.

قام الرجل وتوضّأ، ودخل حرم المسجد، وصلى، ثم انصرف خارجَ المسجدِ، من دون أن يعود إلى مجلسنا، فقلت للشهيد: انصرف أخونا!

فقال: وأنتَ استغفر الله عشر مرّات! مثل هذا الـ...؛ ليس أخانا، ولا نتمنى أن يكون في إخواننا من أمثاله، لقد دعوت الله تعالى أن لا يريني وجهه بعد هذه الساعة!

ثانياً: يجتمع الجميعُ وحتى أصحاب الشهاداتِ على عفّة الشهيد مروان، وحيائه ولطفه وشجاعته، وجرأته، وكرمه، ورحمته بالمرأة والضعيف والفقير.

وفي تضاعيف الشهادات، وفي كتابي (الشهادة) نماذج قليلةٌ من كثير برّه وكرمه.

كان الشهيد مروان رحمه الله تعالى؛ لا يرتاح للحاج (أكرم الحدّاد) لما يراه من تشدّده، وعناده، ورغبته في الانفراد، وعدم التعاون الجماعيّ، فجئت إليه ذات مرّة، والدنيا صقيعٌ، وأناملي متيبّسة من البرد، فوسّع لي جوار المدفأة الصغيرة، فما أن شعرت بشيء من الدفْء؛ حتى انفجرت ببكاء شديدٍ، من شدّة ألم البرد.

فأشار رحمه الله إلى مَن كان معه في الغرفة بالانصراف، وبعد أن هدأتُ؛ سألني: ما بك؟

قلت له: كنت مع الحاج (أكرم الحداد) في توزيع موادّ الإعاشة للفقيرات والأرامل؛ لأنه رفض تأجيل ذلك إلى يومٍ آخر، وقال: ربما كنّ هنّ وأولادهنّ في أمسّ الحاجة إلينا، فكيف يجوز لنا أن نؤخّر عنهنّ حاجاتهنّ، من أجل قليلٍ من البرد، علينا أن نحتمل، والله المستعان؟

فتحاورنا حيالَ هذا الموضوع، وأوضحت له أنّ الحاج أكرم الحداد يَعولُ عشراتِ العائلات الفقيرات بسخاءٍ، والله!

فدمعت عينا الشهيد مروان، وقال: سبحان الله! ما أعظم هذا الدين، الحمد لله، أمتنا على خير.

واستأذنني ربع ساعة، ثم عاد، فقال: اتصلت بالحاج أكرم، وشكرته على جهودِه، وضربت معه موعداً لزيارته بمعيّتِك... وزرناه في المساء.

كان رحمه الله تعالى صاحبَ رحمةٍ وعطفٍ على النساء خاصّةً، وكان لا يردّ امرأة جاءت على باب مسجده، من دون أن يستوثق ما إذا كانت صادقة، أم غير صادقة، كما يفعل الأكثرون.

ومنه ولله الحمدُ؛ استفدت هذا الخلق، فأنا لا أسأل طالبَ العونِ، وخصوصاً النساءَ أيَّ دليلٍ، أو برهان يؤكد صدق ما تقول، ويعيبني كثيرٌ من إخواني بهذا، لكنْ هكذا هي مروءة الشهيد رحمه الله، وتلك هي مروءتنا.

ثالثاً: يجتمع الجميع أنْ ليس في جيل الشهيد أشجعُ منه، ومع هذا؛ فلم يكن يثأر لنفسه إذا تطاولَ عليه أحدٌ من إخوانه، بل يحاول أن يتحقق قولاً وفعلاً بقول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وكان يسامح إخوانه حتى لو لم يعتذروا إليه.

رابعاً: لقد تلقيت العلم على (١٦٤) شيخاً في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والحجاز ومصر والعراق، فكان أكثرُهم أوسعَ دائرةً، وأشملَ علماً من الشهيد مروان رحمه الله تعالى.

لكنه يأتي في طليعة الركبِ أدباً وأخلاقاً وسلوكاً وغيرةً على الدين، وحرقة على الدعوة والجهاد، فالدعوة ونصرة الإسلام شغله الشاغل، يقومان معه ويقعدان، ولا يفارقان عمل عقله حتى في لحظات الطعام!

خامساً: المعروف عن الشهيد مروان أنه متسرّع، متعجّلٌ للشهادة، وقد كنّا جميعاً نعتقد هذا فيه، لكنه غيّر عقيدتي هذه مساء يوم السبت (١٩٧٥/٦/٢٨م) بعد استماعه خطبةَ فضيلة الشيخ محمود الحامد، المسمّاة (الخطبة الناريّة!) فقد خرج من غرفته، ووقف واضعاً رأسه على طرف باب الصالة، وقال بانزعاج شديد: (ما هذا الذي يصنعه جاركم يا عداب؟ نعوذ بالله من سَبْقِ القول: إن جبروتنا سيهزمهم؟ الجبروت لله تعالى، من أين لنا نحن القوّة، فضلاً عن الجبروت، وأين أولئك الليوث الذين يراهم من وراء الآكام؟ هذا يفتح أعين النظام علينا من لا شيء!

يا عداب: لِمَ أنتم مستعجلون؟ نحن الآن وضعنا أقدامنا على عتبة العمل، من المِمْكن نحن، ومُمكن أولادنا، ومُمكن أحفادنا يقطفون ثمرة عملنا، على مهلكم شويّ!)

قلت له: آلآن يا شيخنا الجليل؟! كلّ عمري أسمعك مستعجلاً على الشهادة، وأقول في نفسي: كارهُ الحياةِ لا يصنع حياةً، الحمد لله أن أسمعني منك هذا!

قال: دعك من هذا، نحن الآن في ورطة من هذا الكلام، وفي ورطة هذا البيت المشؤوم، فماذا ترى؟

قلت: أرسل إليه مع هشام، وليحضر هو وهشام فقط، وقل له: كلّ ما تريد أن تقول له، فهو مستمعٌ جيّدٌ، وأشهد أنّه يقبل النصيحة الصادقة.

وهذا يعني أنّ الشهيد مروان كان يتعجّل الشهادة؛ لأنه لا يرى مَن حوله أهلاً لإعادة حياةٍ إسلامية، جميعهم منشغل في شؤون حياته، وخدمةُ الدعوة بالنسبة إليه أمر ثانويّ.

فلمّا غدا الشباب يستجيبون له، ويدخلون في حركته أفواجاً؛ تجدّد لديه الأمل في صياغة الحياة الإسلامية، فصار راغباً بالحياة لذلك.

سادساً: في ليلة تَهَجّدٍ سارّة، قلت له: شيخَنا، أريد أن أكلّمك قليلاً في السياسةِ، وأنت تعرف كم أنا جاهل بها!

فضحك رحمه الله تعالى وقال: لا والله ما أنت بجاهل بها ولا بغيرها، لكن حِدّتك القاتلة، وعصبيتك المهلكة؛ تحول بينك وبين ما تريد، تفضّل!

قلت: كنت أتحاور مع أخي صفي عدي، فقلت له: يا صفيّ، نحن نعيش في سوريا بعيداً عن العالم، أم نحن ضمن هذا العالم؟

وهل حافظ الأسد وصل إلى السلطة بقدراته الذاتيّة، أم بإرادة، ومباركة دوليّة؟

فقال صفيّ: قطعاً سوريا داخل هذا العالم، وتشملها كلّ ألاعيبُ السياسة الدولية، وحافظ الأسد؛ لم يتوصل إلى السلطة بإمكاناته الذاتية، وإنما ربما بترشيحٍ من إسرائيلَ، وموافقةٍ من أمريكا، ورضاً من المجتمع الدوليّ.

فقلت لصفيّ: وهل المجتمع الدوليّ؛ سيسمح لنا بإزالة حافظ الأسد؟

قال: وهل نحن لدينا القدرة على إزالته أصلاً، حتى لو سكت المجتمع الدوليّ؟

المجتمع الدوليّ؛ مجتمعٌ براغماتيّ، غير أخلاقيّ، يهمّه من الدول الحليفة أمنُ إسرائيل وحماية مصالحه، فمن كان لديه الموافقة على هذين الأمرين، ولديه القدرة على الحكم؛ فليفعل ما يحلو له!

قال الشهيد مروان: هذا صحيح، ومعروف، لكن نحن لا يقعدنا هذا عن الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله؛ لأنّ النصر مشروطٌ بالنصر (إن تنصروا الله ينصرْكم) وليس مشروطاً بموافقة الشرق والغرب.

إنّ هذا الذي تتحدّث عنه أنتَ وصفيّ؛ إنما يُنظر إليه عندما تكون القوتان متكافئتين ونحن اليوم لا ينظر إلينا، ولا أحد يفكّر بنا، فلماذا تستبقون الأحداث قبل وقوعها؟

إنّ مثل تفكيرك وتفكير صفيّ؛ مُعْوِقٌ ومحبطٌ، ومؤدّاه أن ننام، فلا نصحو!

سابعاً: بعد تجربة الشهيد مروان الجهاديّة المريرة، وتجربة الطليعة المقاتلة الباسلة، وتجارب الفصائل المقاتلة على الأرض السورية اليوم، وأمامَ ما نشاهده من دمار سوريا والعراق؛ لا بدّ من التفكير بمنهجٍ علميّ متوازن للتغيير، يستنبط من القرآن العظيم، ومن سيرة الرسول صَلّى اللهُ عَلَيهِ وآله وَسلّمَ في كيفية بناء الشخصية المسلمة القادرة على التضحية والملتزمة بالدين؛ التزاماً يمكن معه أن يهديَ الله تعالى إلى الحقّ، ويسهّل سبيلَ النصرِ، بإذن الله تعالى.

يعتمد هذا المنهجُ في أوّل ما يعتمِد على تخريج المجتهدين في العلوم الشرعية، القادرين على «الاجتهاد الجماعيّ» الذي يفرز فكراً علمياً واحداً، ينتج علماءَ ودعاةً وخطباء، ينشرون هذا العلمَ والفكر الموحّدَين، وبعد ذلك ترسم خطة التغيير الاجتماعيّ والسياسيّ، وَفقَ المعطيات الحاضرةِ في ذلك الوقت.

وحتى يتمّ هذا؛ فلا بدّ من إشاعةِ فكر «التعايش» السلميّ بين شرائح المجتمع السوريّ كلّه، مقدمّة لحياةٍ طبيعية، تسمحُ بالدعوة الهادئة إلى دين الله الحقّ، بعيداً عن التطرّف والغلوّ والتوجّه المشيخيّ الفرديّ.

تمّت القراءة الأخيرة لهذا الكتاب في استانبول — تركيّا، عند أذان فجر يوم الاثنين الخامسَ عشرَ من شهر ربيعٍ الأنور، من شهور سنة (١٤٣٦ هـ) الموافق (٥/١/٢٠١٥م) من الفقير

الضعيف: عداب بن محمود بن إبراهيم بن مُحَمّد «الحَمْش» آل كنعان الحسيني الرضويّ نسباً، النعيميّ قبيلةً، الحمويّ.

هذا وصلى الله على سيدنا مُحَمّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المجاهدين الصادقين، وسلّم تسليماً كثيراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين